

جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية

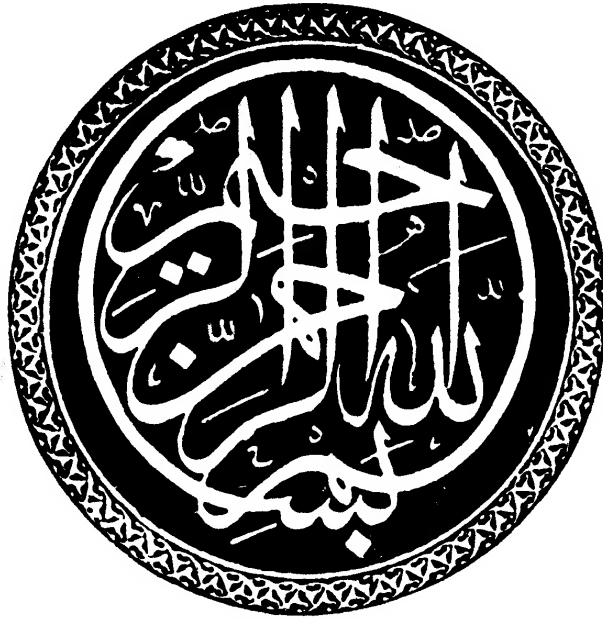
الحالة الاجتماعية في العراق وفارس في
القرن الرابع الهجري وأثرها في أدب
اليتيم للثعالبي

رسالة
مقدمة إلى كلية اللغة العربية (جامعة الأزهر)
لتحقيق درجة العالمية (الدكتوراه) في الأدب والنقد

بإعداد
محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن

إشراف
الأستاذ الدكتور محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن

١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م



نسخ و طبع و تجلید
الجریسی
ت ۹۰۵۰ من ۶ لک ۲۹

:: المقدمة ::

الحمد لله على ما أفاض من سوابغ نعمه ، وأغدق من بحور فضله
وكرمه ، أحمد - تعالى - حمد الشاكرين ، وأثنى عليه ثناء العارفين ،
وأسأله - جل شأنه - السداد والتوفيق ، والهداية لأقوم طريق " رَسْنَا
لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ
الْوَهَّابُ ... " .

وأصلى وأسلم علي واسطة عقد الأنبياء ، وأشرف المرسلين والأصفياء
سيدنا محمد خير من أظلمته الخضراء ، وأكرم من أظلمته الفبراء ، وعلى
آله وصحبه الراشدين ، الى يوم البعث والدين .

" وممد " فلقد أتاحت لي دراستي الجامعية في كلية اللغة
العربية ، أن أتعرف الى كتب التراث الأدبي والنقدى خاصة تلك التي
ألفت في عصر النهضة الإسلامية ، تحت ظلال الدولة العباسية .

ولقد لمست أنه تراث فكري ضخم^{٢٢} ، جامع لكثير من المختارات
الشعرية والنثرية حافل بشتى الموضوعات الأدبية والنقدية ، زاخر
بمختلف الاتجاهات الموضوعية والفنية .

ولقد كان من بين هذه الموسوعات الأدبية موسوعة شدت أعصابي
وأثارت إعجابي وهي كتاب " يتيمة الدهر في محاسن أهل المصـر " .
لابى منصور الثعالبي المتوفى سنة ٤٢٩ هـ ، وهو كتاب أدبي ضخم استطاع
الثعالبي أن يجمع فيه نتاج أدباء القرن الرابع الهجري شمراً ونشراً ، وأن
يترجم لكثير من الشعراء والكتاب في الدولة الإسلامية المترامية الأطراف
- آنذاك - وأن يسلط الضوء على نتاجهم الأدبي بالدراسة الواعية ، والنقد
المنهجي ، والتحليل السليم ، فكان كتابه موسوعة أدبية ، نقدية ، حضارية
نادرة ، ولقد راغى أن هذا السفر الخالد - على نفاسته ، وعظم قيمته -
يكاد يكون مجهولاً لدى معظم الناشئين ، والمتأدبين ، وأنه أصبح غير معروف

أو مسموع به إلا عند قلة من الباحثين الذين اهتموا بالدراسات الأدبية
والنقدية ، والتاريخية . . .

ومما زاد في دهشتي - كذلك - أنني وجدت كثيرا من كتب
التراث الأدبي والنقدى - التي تقل عنه قيمة ومنزلة - أكثر منه شهرة ، وأبعد
صيتا وأعظم انتشارا .

ومن هنا اتجهت الى أن أجعل من أدب " اليتيمة " موضوعا
لرسالة " الدكتوراه " إذا ما أتيت لي تلك الدراسة المنهجية الواسعة ،
حتى يتبوأ الكتاب - بعد دراسته - مكانة لا تفتقر بين كتب التراث . .

ومن هنا جمعت موضوع رسالتي " أدب اليتيمة واتجاهاته " لأتعرف
من خلال دراستي لذلك الأدب إلى التيارات الفكرية ، والفنية لأدب القرن
الرابع الهجرى فى الدولة الإسلامية .

ولكننى بعد أن تقدمت فى البحث ، وقطعت شوطا بعيدا فيه
تبين أن هذا موضوع واسع لا يمكن استكناحه فى رسالة واحدة . .

ذلك أن دراسة الأدب العربى فى قرن كامل كالقرن الرابع الهجرى
وفى رقعة من الأرض واسعة ، هى الدولة الإسلامية بحدودها من خراسان
وما وراء النهر شرقا ، إلى بلاد المغرب والأندلس غربا يحتاج إلى عدة
رسائل ، حتى يمكن الإحاطة به ، والوصول إلى غاية مؤملة فيه .

ولما كان الأدب العربى ظلا لأحوال المجتمع السائدة فيه ، وصورة
صادقة لحياة الأفراد والجماعات . . رأيت أن أعدل عنوان البحث وأجمله
قاصرا على دراسة " الحالة الاجتماعية فى المراق وفارس فى القرن الرابع
الهجرى وأثرها فى أدب اليتيمة " .

وقد تمت الموافقة - بحمد الله وتوفيقه - على هذا التعديل لأن
أدب اليتيمة عن هذين الإقليمين يعد ظلا للحياة الاجتماعية السائدة فيهما

آنذاك .. إذ فيه نعيم المترفين ، وشقاء المحرومين ، كما أن فيه صَوْرًا من
مجون المابشين ، وزهد المابدين ، وهو كما ترى موضوع ذو شقين :-

الشق الأول : هو الحالة الاجتماعية في إقليمى العراق وفارس في القرن
الرابع الهجرى .

والشق الثانى : هو أثر هذه الحياة في أدب اليتيمة ..

ولما كانت دراسة الحالة الاجتماعية لاية بيئة من البيئات يمكن
أن تمكس بصورة واضحة مدى نهضة هذه البيئة وتقدمها ، أو خمودها -
وركودها - عدت الى تسجيل الظواهر الاجتماعية في هذين الإقليمين -
تسجيلًا شاملاً يحيط بكل عناصرها في دقة وأمانة حتى أتمكن من إعطاء
صورة حقيقية واضحة عن مركز وحضارة هذين الإقليمين في القرن الرابع ..
ولقد حاولت في هذه الدراسة أن أستعين بكتب التاريخ التقليدية أمثال
" مروج الذهب " للمسعودي و " الكامل في التاريخ " لابن الأثير
و " الفخرى في الآداب السلطانية " لابن طباطبا ، وغيرها من مراجع
التاريخ المعروفة ، ولكننى وجدت بها شحيرة في ذكر الوقائع والظواهر
التي تمكس الحالة الاجتماعية السائدة - آنذاك - لأنها كانت تركز على
الجوانب السياسية والمسكرية ، وتهتم بسير الملوك والحكام ، وما جرى
لهم من أحداث ، وما وقع بينهم من حروب ، ولما كانت تشير الى أخبار
الوعمة أو تهتم بأحوالهم الاجتماعية ، والاقتصادية ، والحضارية

على أن ذلك لم يثننى عن المضى في البحث ، ومواصلة الدراسة ، فقد
آليت أن أتجه الى مصادر المعرفة المختلفة التى يمكن أن تعيننى على
تحقيق تلك الفاية فاستمعت بكتب الحضارة ، والاجتماع ، والاقتصاد ، والجغرافية
والأدب والنقد وغيرها من العلوم الانسانية

وان نظرة واحدة الى المراجع المسجلة في ذيل هذا البحث
لكفيلة بأن تعطى صورة صادقة للجهد الذى بذلته في هذا السبيل

ومن أهم المراجع التي أفادتني في هذا الأمر ، وأنارت لي طريق
البحث وساعدتني على المضي في الدراسة ، المؤلفات الآتية :-

١ - كتاب " الامتاع والموانسة " لأبي حيان التوحيدي وهو كتاب ضخم
يقع في ثلاثة أجزاء ، يتعمق فيه مؤلفه لكثير من الشؤون الاجتماعية
التي كانت سائدة في العراق وفارس في ذلك العصر ، فيصف
مجالس الأمراء والوزراء ، ويذكر محاسنهم ، مساوئهم ، ويتحدث عن
العلماء والأدباء ، ويحلل شخصياتهم ، وما يدور في مجالسهم من
جدال ، ومناظرة ، وخصوصة ، وما كانوا يلاقونه أحيانا من حرارة
الميش ، وقسوة الحياة

٢ - كتاب " الديارات " لأبي الحسن علي بن محمد المصروف بالشابشتي
وهو - وإن كان يتحدث عن ديارات النصارى ، ويبين مواقعهم -
ويصف جمال منظرها ، وطيب هوائها ، وعذوبة مائها ، وحسن
شرايها ، وما يجري فيها من لهو ومجون - كتاب مفيد ذو جوانب
ثقافية متعددة ، فهو كتاب بلدان ، وتاريخ ، وتراجم ، وأدب ،
وحضارة ، كما أن فيه تصويرا للجانب المأبث من حياة المجتمع في
تلك المصور

٣ - كتاب " أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم " للقدس " وهو كتاب
نافع في دراسة الحالة الاجتماعية حيث يتحدث فيه صاحبه عن
معظم البلاد التي زارها ، وطاف بها ، ويصف عادات أهلها
وتقاليدهم ، ويتمرض - أحيانا - لذكر أخلاقهم وعقائدهم ودياناتهم .

ولعل أوجه القصور في هذه الكتب - جميعا - أن المادة العلمية
فيها ليست مرتبة ولا منظمة ، كما أنها لا تقتصر على دراسة الحالة الاجتماعية
وحدها وإنما تتحدث عن مختلف العلوم والفنون - كما هو الشأن في معظم
كتب التراث - . . ومن ثم كانت معلوماتها الاجتماعية والحضارية تحتاج إلى

كثير من الإحاطة والشمول ..

وأما المراجع الحديثة التي أفادتني كذلك ففى تلك الدراسة
فأهمها :-

١ - كتاب " الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى " للمستشرق
الألماني " آدم ستر " الذى تعرض فيه لدراسة كثير من ظواهر
الحياة الاجتماعية فى ذلك العصر . . .

٢ - كتاب " ظهر الاسلام " للأستاذ أحمد أمين وهو يشبه كتاب
" الحضارة الاسلامية " السالف الذكر من حيث غايته بالنهضة
الاسلامية وتصوير الحياة الاجتماعية تصويرا شاملا ودقيقا . .

هذا فيما يتعلق بالشرط الأول من الرسالة وهو الحالة الاجتماعية
فى القرن الرابع الهجرى . .

أما ما يتعلق بالشرط الثانى من الموضوع وهو أثر الحالة الاجتماعية
فى أدب " اليتيمة " فقد كان كتاب " اليتيمة " هو المصدر الوحيد
لكل الشواهد الأدبية عنه شعرا ، ونثرا فقد شفى وكفى ، وبالف غاؤفسى كما
يقول الثعالبي . . .

وما أظن أن باحثا آخر قد سبقنى الى دراسة هذا الموضوع بمثل
هذا الاتساع والشمول ، وكل ما أُلّف فى هذا السبيل يتعلق ببحوث
جزئية تتناول جانباً من جوانبه ، أو تمالج زاوية من زواياه . . وأذكر منها
على سبيل المثال :-

١ - رسالة " ماجستير " للباحث مصطفى محمد الحلوقدمها لكلية دار
العلوم وموضوعها " أبو منصور الثعالبي وآثاره الأدبية " وهى تهتم
بجمع تراث الثعالبي شعراً ونثراً وإلقاء الضوء عليه . . .

٢ - رسالة "ماجستير" أخرى للباحث على محمد موسى قدمها لكلية اللغة العربية وموضوعها "ثقافة الثعالبي وأثرها في نقده للمتنبي" وهي كما ترى بعيدة عن موضوع دراستي التي تهتم بالتيارات الأدبية في إقليم العراق وفارس على ضوء الحياة الاجتماعية . . .

٣ - وأخيرا هناك كتاب "الأدب في ظل بني بويه" لمحمود غزاوي الزهيري الذي ترمض لدراسة الأدب في عهد بني بويه على ضوء الحالة الطبقية والسياسية والاجتماعية في أقاليم الدولة البويهية بصورة عامة ولم يركز اهتمامه على الحالة الاجتماعية - وحدها - وبيان أثرها في الأدب كما هو الحال في معالجتى لهذا الموضوع ولذا كانت دراسته لهذه الناحية تحتاج الى كثير من الاستقصاء والشمول . . .

وليس في هذا استهانة بجهود هؤلاء الباحثين أو تقليل من شأنهم فلهم فضل سبق على كل حال ، ولا أنكر أن بحوثهم كانت علامات مضيئة على الطريق ساعدتني على المضى في البحث والوصول الى النتائج التي رجوتها فيه . . .

ولا أريد في هذا المقام أن أتحدث عن المناصب التي واجهتني والتي قد يحلو لبعض الباحثين أن يضاغوا الحديث عنها في مقدمات رسائلهم فالله وحده يعلم مدى الجهد الذي بذلته ، والمعاناة التي قاسيتها في هذا السبيل .

ولا يفوتني - هنا - من باب المرفان بالجميل ، أن أنوّه بالجهد الجبار الذي بذله فضيلة الأستاذ الدكتور : "عبد السلام سرحان" المشرف على الرسالة فلقد أنار لي الطريق ، ومَهَّد لي السبيل ، وذلّل لي الصعاب ، وأمدني بزيادة من علمه الواسع ، وفضله السابغ ، وفتح لي صدره وبيته ،

وأرشدني بالتوجيه الصائب ، والفكر الثاقب ، والرأى السديد ، فجزاء الله
عني وعن طلابه خير الجزاء . . .

* * *

والموضوع يتكون من أربعة أبواب ، ينقسم كل منها الى أربعة ^{فصول} فصول
فكل فصول هذا البحث تصل الى عشرين فصلا :

أما الباب الأول فممنوانه " المجتمعان المراقى والفارسى فى القرن
الرابع الهجرى " وقد تحدثت فى الفصل الأول منه عن الأجناس البشرية
فى ذلك المجتمع الذى كان يتكون من العرب ، والفرس ، والترك ، والرقيق ،
وسدى ما وصلت اليه الحياة على أيديهم من فوضى واضطراب وتناقض نفسى
صورها المختلفة . . .

وفى الفصل الثانى تحدثت عن التفاوت الطبقي بين الحكام والمحكومين
وأثر ذلك فى ضعف المجتمع ، وتفسخه ، وانحلاله . . .

أما الفصل الثالث فقد أفردته للطوائف الدينية التى كانت تميز
فى المراقى وفارس . آنذاك - وهى الشيعة ، وأهل السنة ، واليهود
والنصارى والصائبة ، وتكلمت عن العلاقات التى تربط بينها ، ودور كل منها
فى الناحية العملية ، وأثرها فى الحياة الاجتماعية . . .

وخصصت الفصل الرابع للحديث عن أعياد المسلمين ، والفرس ،
وأهل الذمة ومواسمهم ، ومواكب الخلفاء الدينية والرسية ، وأثر ذلك كله فى
الحياة الاجتماعية . . .

وتحدثت فى الفصل الخامس عن الفناء والموسيقى فى المجتمع ،
وذكرت نبذة تاريخية عن أطوارهما عند العرب ، وبينت عوامل ازدهارهما فى

العصر المباسى ، وأثرنا فى الحياة الاجتماعية فى القرن الرابع ٠٠٠

وأفردت الباب الثانى " لائى منصور الثمالى وكتابه اليتيمة " وقسمت بتقسيمه الى خمسة فصول على غرار ما فعلت فى الباب الأول وقد تحدثت فى الفصل الأول عن نشأة الثمالى وحرافته وأخلاقه ومكانته العلمية والأدبية وآراء النقاد فيه ٠٠٠

وفى الفصل الثانى تحدثت عن مصادر إلهامه ، وشيوخه ، وثقافته وآثاره ومؤلفاته ٠٠

أما الفصل الثالث فقد تحدثت فيه عن " اليتيمة " وقمت بالتعريف بها والدافع إلى تأليفها ومنهج الثمالى فيها ، وخصائص المنهج ٠٠

وفى الفصل الرابع تحدثت عن مدى تمثيل اليتيمة لأدب القسرن الرابع الهجرى ، وتأثيرها بالمؤلفات السابقة ، وأثرها فى اللاحقة ٠

وأفردت الفصل الخامس لليتيمة فى ميزان النقد ، فذكرت آراء النقاد فيها قديما وحديثا ، وقمت بعرض هذه الآراء ومناقشتها ، والرد عليها ٠٠

أما الباب الثالث فعنوانه " آثار الأجناس البشرية ، والطوائف الدينية فى أدب اليتيمة " وقسمته كذلك الى خمسة فصول على نحو ما فعلت فى البابين الأول والثانى وقد تحدثت فى الفصل الأول منه عن " الروح الفارسية وأثرها فى أدب اليتيمة " وسلطت الضوء على تأثير المجتمع فى ذلك الحين بالمعادات الفارسية القديمة التى عادت الى الظهور من جديد بعد سيطرة بنى بويه على إقليمى فارس والمراق ، وبينت بأسهاب أثر ذلك كله فى أدب اليتيمة ٠٠

وتحدثت فى الفصل الثانى عن " أثر الحياة العربية فى أدب اليتيمة " فشرحت موقف العرب فى فارس والمراق من المعادات الفارسية وثورتهم عليها ، وتشبههم بالتقاليد العربية الأصيلة ، وذكرت مدى ذلك فى أدب اليتيمة ٠٠٠

وفي الفصل الثالث تحدثت عن " الرقيق وآثاره في أدب اليتيمة " وتناولت قضية الغزل بالمذكر بالدراسة والتحليل وخرجت منها بنتائج جديدة .

أما الفصل الرابع فقد أفردته للحديث عن " التشيع " وآثاره في أدب اليتيم . فتناولت هذه الظاهرة بالدراسة والتحليل ، وتحدثت عن أقطاب أدباء الشيعة في فارس والعراق وبينت الخصائص الموضوعية واللفظية لأدب الشيعة في القرن الرابع .

وأفردت الفصل الخامس للحديث عن " آثار أهل الذمة في أدب اليتيمة " فتكلمت عن النصارى وأعيادهم وأديرتهم وما كان فيها من خمر معتقة وحوار حسان ، وقلمان ذوى صباحة وملاحه ، وصدى ذلك في أدب اليتيمة .

وبالباب الرابع والآخر عنوانه " التفاوت الطبقي وآثاره في أدب اليتيمة " وقسمته الى خمسة فصول كما فعلت في الأبواب الثلاثة الماضية ، وقد تحدثت في الفصل الأول عن " موقف الحكام من الأدب " ، وذكرت أن الحكام في العراق وفارس قاموا بدور كبير في تشجيع الشعراء والكتاب بالمال والصلات وتنافسوا في ذلك تنافسا عجيبا مما كان له أكبر الأثر في رقي الأدب ، وازدهاره في تلك الحقبة . .

وفي الفصل الثاني تحدثت عن " ترف الحكام وآثاره في أدب اليتيمة " وقد تجلّى ذلك الأثر في وصف ألوان الطعام والفاكهة ومظاهر الحضارة كما تجلّى في التألق في الأسلوب ، والزخرفة اللفظية ، وكثرة الحسنات البديعية . .

أما الفصل الثالث فقد تحدثت فيه عن " أثر الغناء والموسيقى في الأدب " فذكرت أن الغناء والموسيقى كان لهما أثر كبير في وصف الشعراء للمفنيين والمفنيات وفي وصف مجالس الطرب وأدوات الموسيقى ، وفي نمو مقطوعات الشعر الغنائي ، كما كان لهما أثر في موسيقى الشعر الداخلية والخارجية على حد سواء . . .

وأما الفصل الرابع فقد تحدث فيه عن المجون وآثاره في " اليثيمة " فتكلمت عن المجون وأسباب انتشاره في المجتمع وآثاره في أدب (اليثيمة) وتحدثت بالتفصيل عن أكبر شاعرين من شعراء المجون في ذلك العصر وهما ابن حجاج ، وابن سكرة الهاشمي .

وفي الفصل الخامس والأخير تحدثت عن " مظاهر الفقر والحرمان في أدب اليثيمة " فذكرت أن انتشار الفقر في المجتمع كان سببا مباشرا في ظهور لونين من الأدب في ذلك العصر أحدهما أدب الكدية والاستجداء " أو " الأدب الساساني " والآخر أدب الثورة والحرمان .. وقد تكلمت عن هذين اللونين بالتفصيل في موضعهما من الرسالة ..

وبعد ذلك وضعت خاتمة للبحث أتبعتها بذكر المصادر والمراجع وخرجت من هذه الدراسة الواسعة بنتائج هامة مسجلة في ثنايا البحث كما أشرت إليها في الخاتمة ..

" وبعد " فهذا بحث أتقدم به الى كلية اللغة العربية المريضة لنيل درجة " الدكتوراه " في الأدب والنقد ، فان كنت قد أصبت وأهتديت الى وجه الحقيقة فيه فله تعالى الفضل والمن - وان كنت قد قصصرت أو جانبني الصواب ، فالكمال المطلق لله وحده ، وحسبي أنني مجتهد .. والمجتهد اذا أخطأ فله أجر ، واذا أصاب فله أجران ..

" وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه أنيب " .

حمدان هدا الرحمن أحمد

:: الباب الأول ::

المجتمعان المراتى والفارس فى القرن الرابع الهجرى

- ١ - الفصل الأول :
" سكان فارس والمراق "
- ٢ - الفصل الثانى :
" طبقات المجتمع "
- ٣ - الفصل الثالث :
" الطوائف الدينية "
- ٤ - الفصل الرابع :
" الأعياد والمواسم "
- ٥ - الفصل الخامس :
" الفناء والموسيقى "

* * *

:: الفصل الأول ::

” حكان فارس والمراق ”

كان المجتمع الإسلامي في العراق وفارس يتكون في ذلك العصر من عناصر مختلفة وألوان متعددة من البشر ، وكان منها العرب والفرس والسترك والروم والزنج وغيرهم .

وكان لكل منها عاداته وتقاليده وتراثه وتاريخه ، وخصائصه ومميزاته وعلاقاته الاجتماعية ودوره في الدولة الإسلامية .

وعلى الرغم من أن الجميع كانوا يمتصون - إسلاميا - بحبل الله ، ويرتبطون بهيكل الدين الإسلامي ويخضعون لسلطان الخليفة ، كان الصراع بينهم على أشده حول النفوذ والجاه والسمى إلى السلطة ، ومحاولة السيطرة على الطوائف الأخرى .

وسأحاول في هذا الفصل أن أسلط الضوء على هذه العناصر ، حسب أهميتها السياسية ، وتأثيرها في الحياة الاجتماعية .

وسأبدأ بالعنصر العربي لأنه الذي حمل لواء الدين ، ودعا إليه ، وفتح البلدان وأزال الممالك من أجل نشره وإعلاء شأنه .

وهو الذي أقام هذه الدولة الواسعة ، وأرسى بنيانها ، ورفع أعمدتها وجعلها مرهوبة الجانب ، مخشية البأس ، نافذة الكلمة ، قوية الشكيلة .

وأخيرا : لأن الخلفاء منذ وفاة الرسول عليه السلام وحتى ذلك الحين كانوا جميعا من العرب .

أولا : العنصر العربي

عاش العرب قبل الإسلام زمنا طويلا ، محصورين في شبه الجزيرة ... قبائل متفرقة ، متناحرة ، لا تردعهم أحكام سماوية ، ولا تزجرهم قوانين دينية ، ولا تربطهم جامعة خلقية ، فغلبت عليهم الوثنية ، وسيطر عليهم الجهل ، وألجأهم الفقر إلى المعارك الدائم ، والحروب المستمرة .

وكان شعراؤهم ينشدون أهازيجهم على ألحان العصبية ، فيشعلون
نيران المداوة ، ويلهبون جذوة الفحنا ، والبغضا .

وكانت لهم الى جانب ذلك صفات حميدة ، أفادوها من حياتهم
الفطرية الطليقة كالشجاعة والجود والمروءة ونجدة المستغيث .

ولقد كان ظهور الإسلام حدثا تاريخيا هاما في حياة هؤلاء العرب
فبدل رجسهم بطهر ، وفسادهم بصالح ، وأقام بهم ولهم دولة عربية إسلامية
قوية . . وتحول العرب بفضل الإسلام الى خلفاء وأمرأ وقادة ورادة على
درجة كبيرة من الكفاة والمقدرة . . وأنتج لهم في حقبة قصيرة ، أن يحتلوا
على ممالك كسرى وقيصر ، وبلاد المغرب والأندلس . . وعاش الجميع تحت
راية الإسلام أخوة متحابين ، وصحة بنور الحق مهتدين ، على اختلاف
قوميّاتهم وطبقاتهم الاجتماعية .

وعلى الرغم من تعدد النعرات البقية ، في النولة الاسلامية ، استأثر
العرب وحدهم بحكم البلاد ، وإدارة شؤونها ، وكان منهم الخلفاء والوزراء
والقادة والسادة ، وظلوا كذلك طوآل العصرين الراضدى والأموى . . وكان
بنو أمية على وجه الخصوص يتمصبون لبنى جلدتهم ، ويفضلونهم على غيرهم
وينظرون الى الموالى من فرس وترك ، وريم نظرة ملوها التعالى والكبرياء
ثم لا يشركونهم في تدبير الأمور حتى ولو كانوا مسلمين .

فلما دالت دولتهم ، وحلت محلها الدولة المباسية التى قامت على
أكتاف الفرس ، وتحت ظلال سيوفهم . تراجع المعتصر العربى الى الوراء ، وفقد
الكثير من امتيازاته السابقة ، وأقصى أبنائه عن بعض مناصب الدولة والجيش
وحل الفرس محلهم خاصة بعد أن اتخذ بنو المباس بغداد حاضرة للخلافة
وجعلوها عاصمة للدولة الاسلامية كلها .

وكان أبو جعفر المنصور ومن جاء بعده من خلفاء بنى المباس يثقون
فى بعض الفرس ، ومن ثم ضعف نفوذ العرب وتضعف سلطانهم ولكنهم على

الرغم من ذلك كله كانوا متماسكين فلم يلتزموا جانب الصمت أمام خلفاء بني
المعباس كما أنهم ظلوا يحقدون على المنصر الفارسي الجديد .

وفي مستهل القرن الثالث الهجري أحس المنصر المبري أنه يفقد
مكانته تدريجيا حيث ظهر المنصر التركي لأول مرة في عهد المعتصم ، وسأ
لبث أن زاد نفوذه ، وعظمت سطوته وأصبح هضرا فعلا في المجتمع فشارك
المرب واشتد سخطهم على المعتصم وكان على رأس الثائرين القائد المبرسي
عجيف بن عتبة (١) الذي أبعد المعتصم مع عدد من قواد العرب عن
الجيش ، وأحل الأتراك محلهم فاشتدت نفقة العرب على الدولة وتسررت
بعض قبائلهم في أطراف الجزيرة العربية (٢) وفي عهد المعتضد تمرد
الأعراب في شمال العراق (٣) .

وفي القرن الرابع هاجرت عدة قبائل عربية الى العراق وكانت تشكل
خطرا كبيرا على الحكم المركزي (٤) .

وقد ظل العرب في العراق وفارس محافظين على عاداتهم وتقاليدهم
على الرغم من اختلاطهم بالفرس وغيرهم ، كاعتزازهم بالبدابة ، واحتقارهم لأهل
الحضر ، حتى إن قزاة المقتلي صاحب الموصل في الدولة العفيلية قال
مسرة :

" ما في رقتي غير خمسة أو ستة من البادية وأما الحاضرة فلا يحبها
الله بهم " (٥) .

-
- (١) تاريخ الأمم والملوك للطبري (٧ : ٢٢٥) .
 - (٢) المصدر السابق (٧ : ٣٢٤) .
 - (٣) تاريخ مختصر الدول لابن العبري ص ٢٦١ .
 - (٤) الأوراق للصولي ص ٢١٥ .
 - (٥) ظهير الاسلام (١ : ٥٨) .

وأهم الدويلات العربية التي تجلت فيها المصيبة العربية ، دولتها
بنى حمدان في الموصل ، وحلب ، فقد عظم نفوذهما ، وحاولتا الاستيلاء
على بغداد في القرن الرابع الهجري ، وطرد النفوذ التركي والفارسي ،
وجرت في ذلك سلسلة حروب طويلة .

فالخليفة المتقي بالله احتسب بناصر الدولة بن حمدان وقلده امرأ
الأمراء وخلع عليه ، وعلى أخيه سيف الدولة ودخل ناصر الدولة ببغداد في
احتفال عظيم ، ولكن ثورة الأتراك وعلى رأسهم " توزون " تغلبت على ابن
حمدان وولى الخليفة امرأ الأمراء لتوزون .

واستمر العداء بين العرب - وعلى رأسهم ابن حمدان - والترك
وعلى رأسهم " توزون " .

فلما استولى البويهيون - وهم من الفرس - على بغداد لم ينقطع
الخلاى والقتال بين الحمدانيين وبينهم .

ولما رأى ناصر الدولة الحمداني أن ممز الدولة البويهى استولى
على بغداد وسلب جميع حقوق الخليفة جهز جيشاً لقتاله وتقدم الحمدانيون
إلى بغداد واحتلوا جانبها الشرقى ولكنهم انهزموا في النهاية وعاد ناصر
الدولة إلى مقره ، وكذلك اشتبك الحمدانيون في قتال مع البويهيين أيام
ضد الدولة فهزم الحمدانيون أيضاً (١) .

وقد قام العنصر العربي في العراق وفارس بدور كبير في تلوين
الحياة الاجتماعية وكانوا نوعين :

النوع الأول :

البدو الذين نزحوا إلى هذه البلاد من الجزيرة العربية ، وهؤلاء

(١) ظهر الاسلام (١ : ٥٩) .

كانوا يحملون يوح البداة ، وتمصبون لقبائلهم ويتقلون من مكان إلى آخر حسب أهوائهم . ويحافظون على عاداتهم وتقاليدهم .

ومن أشهرهم قبائل شيان والمنفك في جنوب العراق وقبائل بني هذيل وفزارة وغيرهم من البدو الرحل (١) .

وكان أثر هؤلاء في الحياة الاجتماعية سيئا جدا . حيث كانوا يفسدون الرب والفزع في قلوب السكان عن طريق الاغارات على المدن وتخريبها وإلحاق أمدح الخسائر بها (٢) .

أما النوع الثاني :

فهم العرب المتحضرون الذين كانوا يسكنون المدن وهؤلاء كانوا يشكلون شق الدولة الحمدانية التي كانت في الموصل . وكان لهم الفضل في بقاء المنصر العربي في المجتمع المباسي السدي كاد يسطيع بالصيغة الفارسية الخالصة .

وعلى الرغم من ضعف نفوذ المنصر العربي في القرن الرابع ظل محافظا على التقاليد العربية الأصيلة وكان أفرادها سدا حائلا أمام تفقسي النساء في المجتمع كما ظلت المرأة العربية محافظة على شرفها وعتها ومكانتها السابقة ولم تتحدروا إلى مستوى الجوارى الأجنيات .

كما أن علماء الإسلام من العرب وقوا موقفا محاديا للفساد وكان عبيا أن تندفع بعض المتصوفات العربيات - في حماس وقوة - للدعوة إلى التمسك بمبادئ الدين الحنيف (٣) .

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير (٧ : ٩٩) .

(٢) الرحلة لابن جبير ص ٢١١ .

(٣) المقتظم لابن الجوزي ص ٣١٥ .

وفضلا عن ذلك وقف المنصر العربى فى وجه الزندقة والإلحاد ،
والشعبوية التى كانت تشكل خطرا داهما على العرب وعلى الإسلام .

وكان لطبقة الأشراف دور كبير فى المجتمع المراقى والفارسى ،
وهؤلاء كانوا من المباسيين والظاهرية ، وإليهم يرجع الفضل فى بقائه
المصيبة العربية فى المجتمع المباسى خلال القرن الرابع الهجرى وذلك
على الرغم من طغيان المنصرين الفارسى والتركى .

ولعل الشاعر العربى الكبير الشريف الرضى نقيب الأشراف العلويين
فى القرن الرابع هو خير صورة لذلك ، فقد كان مثالا طيبا للعربى الشهم
الفيور على دينه وعرويته ، وعاداته الأصيلة المتوارثة ولم يتحدر فى شمعـه
أو فى سلوكه تحدر شعراء المراق الآخرين أمثال : ابن حجلج وابن سكرة
وابن لنكك وغيرهم

ثانيا : المنصر الفارسى

قامت الدولة المباسية أول ما قامت على أكتاف الفرس ، وانتصرت
على الأمويين بحد سيوفهم ، فكافأهم المباسيون على هذا المون واتخذوا
منهم الوزراء والأعوان والقادة وفتحوا أمامهم الطريق الى أعلى المناصب ،
فأنطلقت أيديهم فى تدبير هذا الملك المريض وتصريف شؤونه وشعروا لأول
مرة - منذ استولى العرب على بلادهم - بكيانهم ، وأحموا بوجودهم
وصاروا قوة يخشى بأسها ، وأخذوا يتطاولون أحيانا على العرب - ولكن
قوة الخلفاء الأوائل فى صدر الدولة المباسية كانت لهم بالمحصاة - فإذا
ما أحس الخليفة بخطرهم سارع الى القضاء عليهم والفتك بهم مهما كانت
مكائنتهم فى نفسه ، أو منزلتهم فى قلبه .

صنع ذلك السفاح بأبى سلمة الخلال وهو الذى أوصله الى الخلافة

بسيوف قومه ٠٠ وصنع ذلك المنصور ٠٠ بأبي مسلم الخراساني ٠٠ وهو الذي وطد له الملك وثبت له أركانه وحدث مثل ذلك من الرشيد بالبرامكة ومن المأمون بالفضل من سهل حفاظا على هنية الخلافة وجلال المنصب ٠

وعلى الرغم من ذلك ظلوا يحلمون بإعادة مجدهم القديم ، وهزمهم التليد ، ولم ينسوا أبدا أن العرب هزمهم في ميدان القتال ، واستولوا على بلادهم ، وأزالوا ملك أجدادهم ٠٠ فأخذوا يتحينون الفرص للاستيلاء على الحكم وإسقاط لدولة العرب ، والسيطرة على الخلافة ٠٠ فلما أوجس المقتصد منهم خيفة ، واعتمد على المنصر التركي في الجيش والدولة - أخذ النفوذ الفارسي يتراجع ، وحل الأتراك محلهم في المناصب العليا ، وسيطروا على جهاز الدولة طَوَّالَّ القرن الثالث و صدر القرن الرابع ٠٠ ولكن الفرس لم يهدأ لهم بال ، ولم يستقر لهم حال ، وأخذ الصراع يشتد بينهم وبين المنصرين العربى والتركى ولعبت المصيبة الفارسية برؤوسهم فأخذوا يدبرون المؤامرات ويدسون الدسائس ، ويحصنون أنفسهم بالمال والسلاح ، ويربون الى اقتطاع البلاد والاستيلاء عليها ٠٠ خاصة بلادهم الفارسية البعيدة ٠٠ فاذا ما سنحت لهم الفرصة للاستيلاء على بغداد نفسها فليقموا ٠٠

وأخيرا تحقق لهم هذا الحلم بقيام الدولة البويهية (٣٢٠ : ٤٤٧ هـ)

التي سيطرت على فارس ثم على العراق ٠

ففى سنة ٣٣٤ هـ سار ممز الدولة بن بويه من الأهواز إلى بغداد فى خلافة المستكفى فاستولى عليها فلقبه المستكفى ممز الدولة ٠٠ ولقب أخاه ركن الدولة ، ولقب أخاه الثانى عاد الدولة ، وأمر أن تضرب ألقابهم على الدنانير والدراهم (١) ٠

(١) ظهر الاسلام (١ : ٥١) ٠

وما إن استتب الأمر لمعز الدولة ببغداد وقوى شأنه حتى ضيق الخناق على الخليفة المستكفي ، وحجر عليه وقدر له كل يوم خمسة آلاف درهم لنفقته (١) .

وأرجس ممز الدولة خيفة من المستكفي فدخل عليه ، وقوف والناس وقوف على مراتبهم وقيل الأرضيين يديه ، ثم قبل يده ، وقوف بين يديه يحدثه ثم جلس على كرسى فتقدم اثنان من الديلم ومدّا أيديهما إلى المستكفي وعلا صوتهما بالفارسية ، فظن أنهما يريدان تقبيل يده فدها إليهم فجذباه بها ، وطرحاه على الأرض ووضعاه عامته في حقه وجراه فنهض معمر الدولة واضطرب الناس وارتفعت الأصوات ، وافتتنت دار السلطان ، وضربت الأبواق وساق الديلميان المستكفي ماشيا إلى دار معز الدولة ، حيث خلع وسلت عيناه ، وأقيم مكانه المطيع خليفة (٢) .

ولما مات معز الدولة سنة ٣٥٦ هـ أقيم ابنه بختيار الملقب عز الدولة مكانه فكان مع المطيع كأبيه وزاد عنه أن صادر أموال المطيع وشد عليه حتى باع قماشه وأخذ منه أربعمئة ألف درهم ٠٠ وأخيرا خلع المطيع نفسه وولى ابنه الطائع (٣٦٣ : ٣٨١ هـ) ثم خلع في عهد بهاء الدولة ونهبت داره وتنازل للبويعيين عن كل شيء (٣) .

ثم اشتدت شوكة البويعيين ، وعظم نفوذهم حتى تمكنوا من إقلمسة إمارة وراثية لهم في حاضرة الخلافة المباسية وأصبحت الأمور بأيديهم حتى صاروا يمينون كتابا للخليفة يشرف على ضياعه وأملكه .
* * *

أما أثر الفرس في الحياة الاجتماعية فقد كان واسعا وعميقا وقد تجسلى

-
- (١) تجارب الامم لابن مسكويه (٦ : ٨٦) .
(٢) تجارب الامم (٦ : ٨٦) والقوى في الآداب السلطانية ص ٢٥٨ .
(٣) ظهير الاسلام (١ : ٥٣) .

في عدة أمور منها : بناء القصور ، وإبتكار الأزياء وتمدد ألوان الطعام وإدخال جميع وسائل البذخ والترف في المجتمع الاساسي .

وعلى الرغم من سيطرة الأتراك على جهاز الدولة في القرن الثالث ومصدر القرن الرابع وتراجع النفوذ الفارسي آنذاك . كانت آثارهم على الحياة الاجتماعية واضحة ومستمرة . فمعظم الخلفاء كانوا يعيشون في بنخ وترف على الطريقة الفارسية خاصة في بناء القصور وزخرفتها وتأثيثها بأفخر الأثاث . كما تجلى التأثير الفارسي في إحياء مجالس الغناء والطرب واللهو . وفي تنوع أدوات الطعام التي كانت في النالب - مصنوعة من الذهب والفضة والبلور . وفي ملابس الرجال كالقلانس والاقبية والسراويل والجوارب وغيرها من الألبسة الفارسية التي انتقلت إلى العراق في القرن الثاني منذ عهد المنصور (١) .

وكان التأثير الفارسي ظاهرا أيضا في ملابس النساء وتحليهن بألوان الحلى والمجوهرات والاحزمة والنقش على الأردية والمصائب (٢) ، وكان للجسوارى الفارسيات - كذلك - تأثير كبير في المجتمع المباسي فنشرن أنواعا من الحركات والأغنيات وصنوا من ألوان الزينة التي لم تكن معروفة من قبل .

وكان للمنصر الفارسي أثر كبير - أيضا - في اهتمام خلفاء بني المباس ورجال دولتهم بالاحتفال بعيدى " النيروز " والمهرجان " وهما من الأعياد الفارسية القديمة (٣) .

وكان لبني بويه - وهم فرس - تأثير كبير في المجتمع الاساسي خاصة فيما يتعلق بالاحتفالات ببعض الذكريات ، ذلك أنهم كانوا من الشيعة الزيدية ، فحرصوا

-
- (١) إحياء علوم الدين (٢ : ١٦) للفتاوى .
(٢) المقد الفريد لابن عبدربه (٨ : ٢٣٥) .
(٣) صبح الأعشى (٢ : ٤٢) .

على إظهار تشيعهم في بعض المناسبات كقتل الحسين بن علي رضي الله عنهما في المأثر من المحرم ، فكانوا يَعدُّون ذلك اليوم يوم خزن عام تمطل فيهم الأسواق بينما كانوا يقيمون الأفراح في عيد " غدير خم " الذي يوافق الثامن عشر من ذي الحجة (١) ، وبسبب تلك الاحتفالات كانت بعض الفتن والاضطرابات تحدث في المجتمع خاصة تلك التي مصدرها الخلاف بين الشيعة وأهل السنة هذا وقد جنى كل من العرب والفرس ثمرات عديدة من جراء اختلاطهم وأمتزاجهم ببعض ، فأخذ العرب عن الفرس النظم الادارية والسياسية ، وبعض المعلوم والفنون ، وتأثروا ببعض عاداتهم وتقاليدهم . .

أما الفرس فقد أقبلوا على تعلم العربية ، ونهغوا فيها ، وتفوقوا أحيانا على العرب في قرض الشعر وفنون القول .

وكان لبنى بويه أعظم الفضل في نشر العلوم ، وازدهار الآداب فجمعوا انملاء والأدباء وأغدقوا عليهم الأموال والصَّالَات ، كما عرف غير واحد من بنى بويه بحبه للأدب وقرضه للشعر كعضد الدولة وهو الدولة وتاج الدولة وغيرهم . كما اشتهر وزراءهم بحب الأدب وقرض الشعر كابن العميد والصاحب والمهلبى وعبد العزيز بن يوسف وغيرهم . .

ثالثاً: المنصر التركماني

ظهر الأتراك لأول مرة في المجتمع المباسي في أوائل القرن الثالث الهجري . . ذلك أن المعتصم الذي تولى الخلافة المباسية سنة ١٨ هـ استقدم سنة ٢٢٠ هـ قوماً من بخارى وسمرقند وفرغانة وأشروسنة وغيرها من البلاد التي نسميها تركستان وما وراء النهر (٢) .

(١) المنتظم لابن الجوزي (٦ : ٧) .

(٢) ظهير الاسلام (١ : ٤) .

وقد أمعن الممتص في شراء غلمانهم وبذل فيهم الأموال الطائلة وألبسهم أنواع الديباج ، ومناطق الذهب حتى بلغت عدتهم ثمانية آلاف مملوك ، وقبيل ثمانية عشر ألفا (١) .

ومنذ ذلك الحين أخذ نفوذهم يزداد ، وأخذت قوتهم في النفاذ حتى سيطروا على أجهزة الدولة ، وبرز منهم قواد عظاما ً ٠٠ اشتهروا بالشجاعة وقسوة الشكيمة أمثال : الأقيشين وأشناس ونيقا ً ووَصِيْفٍ وإيتاخ ً وسواهم (٢) .

وهناك أسباب دفعت الممتص الى استخدام الترك والاهمال عليهم منها : عدم ثقته في الفرس ، وتخوفه منهم منذ بداية عهده .

فقد حدث أن تمردوا ضده في البداية وشقيبوا عليه لأنهم كانوا يريدون مبايعة العباس بن المأمون خليفة بدلا ً منه ٠٠ لولا أن بعث الممتص في طلبه وأخذ البيعة عنه فمكتوا .

ولذلك لم يكف الأمر يستتب له حتى فكر في الاهمال على عنصر جديد - يستعين به على الفرس ، فهداه تفكيره الى الترك ، والاستكثار منهم ، حيث كمن جيشا ً قويا ً كسر به شوكة الفرس ، وأضعف نفوذهم .

وهناك عامل آخر جعل الممتص يثق في الترك ويعتمد عليهم - هو أن أمه كانت تركية من بلاد السَّغْدِ ، وتسمى مارْدَة (٣) ، فضلا ً عن ذلك كان فسي طباع كثير من طباع الترك من الخشونة والشجاعة ، والاعداد بالقوة البدنية فقد كان يجعل زُند الرجل بين أصبعيه فيكسره (٤) . وقد وصف الجاحظ الترك بأنهم بدو المعجم (٥) .

-
- (١) النجوم الزاهرة (٢ : ٢٣٢) .
(٢) البلدان لليعقوبي ص ٢٣ .
(٣) (٤ : ١) .
(٤) رسائل الجاحظ. ص ٦٢ .
(٥)

ولم يكن المنصر التركي على وفاق مع العناصر الأخرى في المجتمع بل كان النزاع قائما بينه وبين الفرس والمرب مما أدى إلى حدوث بعض الاضطرابات في الدولة ، وأظهر أهالي بغداد استيائهم من الترك لأنهم كانوا كما وصفهم الطبري " عجا جفاة يركبون الدواب فيتركونهم في طرق بغداد وشوارعها فيصدون الرجل والمرأة ويظأون الصبي فشكا الناس ذلك إلى المعتصم وتأنت بهم العامة ^(١) ، فاضطر المعتصم إلى إنشاء " سامراء " أو " سرمن رأى " ، واتخذها حاضرة لخلافته ، وجعل الأتراك يقيمون فيها ، وحرم عليهم الاختلاط بالناس واشترى لهم جوارى من بنى جنسهم ، وزوجهم بهن حفاظا على دمائهم التركية وأجرى لهم رواتب خاصة ^(٢) .

وقد مكن المعتصم لهم في الأرض فأصبحوا قوة يخشى بأسها ، وبسببهم كان انتصار المعتصم على الروم في وقعة "مورية" الشهيرة سنة ٢٢٣ هـ فكانت القيادة العليا لهم وعلى رأسهم القائد التركي أشناس ^(٣) ، ولكنهم لم يلبثوا أن طغوا وبعثوا وعاثوا في الأرض الفساد وثاروا على الدولة حتى اضطر الخليفة المتوكل إلى الرحيل بهم من حاضرة خلافته سامراء إلى دمشق ^(٤) .

وقد فكر المتوكل في حيلة للقضاء عليهم ، والتك بهم ، والخلص من شرورهم ولكنهم قطنوا إلى تدبيره ، وشعروا بما يحاك لهم ، فهجموا عليه - بقيادة ابنه المنتصر - وقتلوه وقتلوا معه وزيره الفتح بن خاقان .

ولقد شهد البحري مقتل المتوكل وكان نديمه وجليسه فشق عليه ذلك وأدركه الحزن ، وتملكه الحزن والفزع ، ووصف قتله في قصيدته الرائعة المشهورة التي يقول فيها . .

(١) تاريخ الامم والملوك (٧ : ٢٣٢)

(٢) البلدان لليعقوبي ص ٢٣

(٣) ظهير الاسلام (١ : ٥)

(٤) تاريخ الامم والملوك للطبري (٧ : ٣٨١)

وَلَمْ أَتَنَزَّحْشَ الْقَصْرِ إِذْ رَجَعَ شَرِبُهُ
وَإِذْ ذَهَبَتْ أَطْلَافُهُ وَجَسَّادُهُ
وَإِذْ صَبَّحَ فِيهِ بِالرَّحِيلِ فَمَتَّكَتْ
عَلَى عَجَلٍ أَسْتَأْذَنُهُ وَتَأْتِيَرُهُ

الى أن يقول :

ولو كان سيفي ساحة الفتح في يدي
دَرَى الفاتك المعجلان كيف أَسَاوَرُهُ
حرام على الراح بحدك أو أرى
كَمًا بدم يجرى على الأرض مائسره (١)

ولقد كان قتل المتوكل بأيدي الأتراك أول حادث احداً على الخلفاء
المباسبين منذ قامت دولتهم وكان هذا الحادث الأتم نقطة تحول في حياة
الخلفاء الذين أصبحوا ألعوبة في يد الأتراك يخلعونهم ويقتلونهم ويسبونهم
سوء المذاب عندما يريدون ..

وهذا الحادث البشع صار للأتراك الحكم المطلق فعماتوا في الأرض
فسادا . واستبد بهم التزق والطيش فكثرت شهورهم وآثامهم ، وكان لذلك المنصر
تأثير بالغ في أحوال الدولة الداخلية .. فصادرة أموال الناس ازدادت فسي
عهدهم ، ومن صور ذلك في عهد المتوكل مصادرة أموال الوزير "محمد بن عبد الملك
الزيات" وغيره من كبار رجال الدولة ، ومنذ ذلك الحين صارت المصادرات مصدرا
يحول عليه وقت الحاجة (٢) .

وكان جند الأتراك يحاولون جمع المال عن طريق آخر غير المصادرات ، وهو
مطالبتهم الخلفاء بزيادة أرزاقهم وقد أدت تلك الحالة الى حدوث كثير من
الاضطرابات في الدولة (٣) .

-
- (١) ظهير الاسلام (١ : ١٢) .
(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير (٧ : ٧) .
(٣) الأوراق للصولي ص ١٢٠ .

وكثيرا ما كان الأتراك يثيرون النزاع الطائفي بين الشيعة وأهل السنة فقد تمصّبوا لأهل السنة بينما كان الديالسة يتمصّبون للشيعة مما أدى إلى حدوث مصادمات بين الطرفين (١) .

وقد كان للجواري التركيات تأثير بالغ في الحياة الاجتماعية بما عسرف هنهن من جمال وظرف ونظافة فامتلات بهن قصور الخلفاء ، والأمراء حتى صرن أمهات لبعض الخلفاء في ذلك العصر كالمعتصم والمتوكل والمكتفي والمقتدر . . . وكان لهؤلاء الجواري التركيات الفضل في نشر فن التجميل ، وابتكار الأزياء في المجتمع فضلا عن اهتمامهن بالتأنق في الملابس والطعام والشراب والاهتساء بالنظام واللياقة (٢) .

وقد نبغ بعض الأتراك في بعض العلوم والآداب وإن كانوا دون الفرس في ذلك لأنهم كانوا يتدوّا ليست لهم حضارة الفُرس ولا عراقهم . ومن أدبائهم وعلمائهم الفتح بن خاقان وزير المتوكل . . . وكان كما - وصفه ابن النديم - في نهاية الذكاء والفطنة وحسن الأدب (٣) . ومنهم اسماعيل بن حماد الجوهري صاحب كتاب الصحاح الذي يعد من أهم كتب اللغة وأصولها ، والجوهري أول من فكر في اختراع الطائرة ورعى لذلك بالجنون، ومن فلاسفتهم الممدودي - أبو نصر الفارابي الفيلسوف الاسلاى الكبير وهو من فاراب احدى مدن الترك وكان نبوغه فيهم مفخرة كبيرة لهم . .

والى جانب هذه العناصر البشرية السابقة - من العرب والفرس والترك - وجد عنصران آخران كان لهما بعض الاثر في الحياة الاجتماعية وهما : الروم والزنج ولما كان معظم هذين العنصرين من الرقيق . فسوف أتحدث ههما ضمن حديثى عن العنصر الأخير وهو عنصر الرقيق .

(١) تاريخ بغداد (١ : ١٩) .

(٢) الموشى ص ١٦٢ .

(٣) ظهير الاسلام (١ : ٤٦) .

رابعاً : عصر الرقيق

من العناصر التي كان لها تأثير كبير في الحياة الاجتماعية عصر الرقيق فقد نشطت تجارته ، وراجت رواجاً عظيماً في هذا العصر . وكان بعض الرقيق يقد إلى العراق وفارس عن طريق الحروب ، فمنذ الخلع الاسلعي لمصر والشام والحروب قائمة بين العرب والروم . وفي عهد المحتصم حدثت وقعة " عَوْرِيَّة " وفيها تم أسر عدد كبير من الروم واسترقاقهم .

يقول ابن الأثير : أقبل الناس بالأسرى والسبي من كل وجه فأمر المحتصم أن يحزل منهم أهل الشرف وقتل من سواهم وأمر ببيع المغنم في عدة مواضع ، وكان لا ينادى على شيء أكثر من ثلاثة أصوات ثم يوجب بيعه طلباً للسرعة .

وكان الرقيق ينادى عليهم خمسة خمسة - أو عشرة عشرة - طلباً للسرعة^(١) وأخذت الحروب تتوالى بين المسلمين والروم ففي سنة ٣٥٣ هـ تقدم المسلمون إلى " ربطة " وتحوها عنوة وسبوا الحر والصغار وغنموا ما فيها وكان شيئاً كثيراً عظيمها^(٢) .

وفي سنة ٣٤٣ هـ غزا سيف الدولة بلاد الروم فقتل وأسروسي وغنم وقبض على صهر الدمشق " وابن ابنته وكثير من بطارقه^(٣) ، ومن ثم كثر الرقيق الروم من جوار وغلمان ، وانتشر في الدولة الاسلامية انتشاراً عظيماً ، خاصة في مدن العراق وفارس ، واكتظت بهم قصور الخلفاء والوزراء وكبار رجال الدولة .

وقد وصف ابن بطلان الجوارى الوميات فقال " الروميات بيض شمس سباط الشعور ، زرق الميون ، عبيد طاعة ، وموافقة ، وخدمة ، ومناصرة ، ووفاء ،

-
- (١) الكامل في التاريخ (٦ : ١٨) .
(٢) المصدر السابق (٨ : ٢٠٠) .
(٣) المرجع السابق (٨ : ١٨٣) .

وأمانة ، ومحافظة ، يصلح للخرن ، لضبطهن وقلة سماتهن لا يخلو أن يكون
بأفهن صنائع دقيقة (١) . وكما كثر الرقيق الأبيض من ترك ، وروم ، وفارس ،
كثرت كذلك الرقيق الأسود من الزنج ، وكانوا يجلبون إلى العراق عن طريق مصر
وشمال إفريقيا اللتين كانتا مركزين هامين لتجارة الرقيق الأسود في ذلك العصر .

وقد عرف العرب الزنج منذ الجاهلية فأعطى سليم كانت له زوجة زنجية
هي دنائير بنت كعوب الزنجي ، وقد تزوج الفرزدق أم مكية الزنجية ، وتسرك
من عنده من النساء من أجلها .

وفي القرن الرابع كثر الرقيق الأسود كثرة هائلة ، وكان لهم تأثير كبير
في المجتمع حتى إن بعضهم قد وصل إلى مقاعد الحكم مثل ، كافور الإخشيدي
الذي ملك مصر والشام ، وكان عبدًا أسود أتى به الإخشيدي من السودان واشتراه
بثمانية عشر دينارًا (٢) .

وقد وصف ابن بطالان الجوارى السود فقال " الزنجيات مساوئهن كثيرة .
وكلما زاد سوادهن قبحت صورهن ، وتحدثت أسنانهن ، وقل الاتفاف بهن ،
وخيفت المضرة منهن ، وكان الثالب فيهن سوء الأخلاق ، وكثرة الهرب ، وليس
في خلقهن الفهم وكان يقال : لو وقع الزنجي من السماء إلى الأرض ما وقع إلا
بالإيقاع ، وهم أنقى الناس شغورا لكثرة الرقيق ، وكثرة الرقيق لفساد الهضم ،
وفيهن جلد على الكبد ، فالزنجي - إذا شبع وصب العذاب عليه صبا لا يتألم له -
وليس فيه من متعة لصنانهن ، وخشونة أجسامهن (٣) .

وعلى الرغم من مساوئ الزنجيات اللاتي تحدث هن ابن بطالان هام
بعض الشعراء وجدًا بهن ، حتى إن ابن سكرة الهاشمي الشاعر الماجن كان

(١) ظهر الاسلام (١ : ٦٦) .

(٢) ظهر الاسلام (١ : ٧٣) .

(٣) المصدر السابق (١ : ٧٤) .

يعشق قينة سوداء تسمى "خقرة" قال فيها أكثر من عشرة آلاف بيت من الشعر (١) .

وكان هناك أنواع أخرى من الرقيق من صقالبة وترك وهنود وبلغار وأوسين وغير هؤلاء ، وأولئك ، وكان لكل نوع منها ميزة يعرفها أهل العصر فكانت الصقليبات مثلاً : أغلى الجوارى شئنا لفرط جمالهن ، وشدة ذكائهن (٢) .

كذلك اشتهر رقيق ماوراء النهر بالجمال والذكاء (٣) . وكان الرقيق يجلب إلى بغداد من ثلاثة طرق هي : الطريق الأوربي الغربي ، والطريق الآسيوي الشرقي ، وطريق إفريقية (٤) .

ولأهمية الرقيق وكثرته أنشئت له أسواق كبرى في مدن العراق يشرف عليها تجار كبار يُعترفون بالنخاسين ، وكان في بغداد شارع يعرف باسم دار الرقيق (٥) .

كما كان هناك باب في بغداد أطلق عليه باب النخاسين (٦) . وكان "بسامراء" سوق لبيع الرقيق تتخلله طرق متشعبة ، وبه عدة حجرات للبيع فيها (٧) .

وأحياناً كان الرقيق يباع في البيوت الخاصة أو بواسطة التجار (٨) .

وقد تحدث ابن بطلان في رسالته "سرى الرقيق" عن ألأهـب النخاسين

- | | |
|-----|---|
| (١) | اليتيمة (٣ : ٣) . |
| (٢) | بديع الزمان الهمذاني للفتكة ص ١٧ . |
| (٣) | صورة الأرض لابن حوقل ص ٤٠٧ . |
| (٤) | الحضارة الإسلامية في القرن الرابع لميتز (١ : ٢٨٣) . |
| (٥) | الأغاني (١ : ٩٥) . |
| (٦) | البلدان للمحقق ص ١٣ . |
| (٧) | الأغاني (١ : ٩٥) . |
| (٨) | التمدن الإسلامي (٥ : ٢٣) . |

فى تغيير الوجه والجسم فقال : إنهم كانوا يستخدمون الأصباغ والدهسون^١ والروائح فى تغيير ملامح الوجه وجعله جميلا ومن هنا كان ينصح المشتري بالحذر من الأعياب النخاسين ، كما حذر الكاتب والشعراء من التقرب لأمثالهن ومنحهن الثقة^(١) .

أما الأعمال التى كان الرقيق يقوم بها فى المجتمع فهى كثيرة ومتنوعة فمنها : الخدمة فى البيوت والقصور ، ومنها العمل فى المزارع والحقول ، ومنها الانخراط فى صفوف الجيش والجنديّة .

أما الخصيان من الرقيق فكانوا يقومون بحراسة النساء وخدمتهن ، ومنهم من كان يقوم بحراسة القصور ويطلق عليهم لفظ " القراشون " وكانوا يتخذون من بينهم رئيسا عليهم^(٢) .

وكان بعض الجوارى يشتغلن بالفنّاء ، ويعرفن بأجادة الأحسان . وقد لملت أسماء لجوارى اشتهرن برخامة الصوت وبراعة التوقيع ، وجودة العزف ، مثل : قنوة البصرية ودّارة ، وطلّوة ، وروّعة ، ونهاية ، وقلم ، وسندس ، وغيرهن - وأخذ الناس يفاضلون بينهن ، فهذه أحسنهن إذا تدلّت ، وتلك أجملهن إذا تثنت ، والأخرى أملح إذا رجّعت ، وهكذا^(٣) .

وقد علا شأن بعض الجوارى بحد أن تزج بهن الخلفاء ، وقمن بدور خطير فى الحياة السياسية والاجتماعية " كالتخيّرّان " والسيدة أم المقتدر ، وقبيحة زوج المتوكل وغيرهن .

وكانت الجوارى اللواتى يعمشن فى قصور الخلفاء ، والأمراء ، أحسن حالا من غيرهن ، إذ كن يلبسن الحرير المزركش ، والثياب الفاخرة والسراويل الموشاة^(٤) .

(١) شرى الرقيق وتقليب المبيد ص ٣٧٩ .

(٢) رسوم دار الخلافة ص ٩ لهلال بن المحسن بن ابراهيم الصابى ت ٤٤٨هـ .

(٣) ظهير الاسلام (١ : ١٢٩) .

(٤) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٤ : ٣٢) .

أما أثر الرقيق في الحياة الاجتماعية فقد كان خطيرا وسيئا للغاية
ذلك أن التوسع في اقتناء الجوارى أدى إلى فساد الأخلاق العامة ، وساعد
على الانحلال ، وشيوع المجون ، وضعف الثقة بين الأزواج ، حيث عرفت بعض
الجوارى بالخلاعة والتبجح وعدم الاكتراث بالقيم والمبادئ الإسلامية ، كما أن
بعضهن اتخذن في بغداد بيوتا للتسرية ، والترفيه ، يأوى إليها ذوو الخلاعة
والمجانة وأصحاب العفن والأثمن .

يقول أبو حيان التوحيدي * وقد أحصينا - ونحن جماعة - في الكسرخ
أربعمائة وستين جارية من الجانبين ، ومائة وعشرين حرة وخمسا وتسعين من
الصبيان البدور الذين يجمعون بين الحذق والحسن والظرف والعشرة ، وهذا
سوى من كنا لا نظفر به ولا نصا إليه لعزته وحرصه ورقبائه (١) ، مما كان له أبلغ
الأثر في انتشار الفساد وتفسخ الأخلاق ، وكما اهتم القويهاقيان ، اهتموا
كذلك بالعلماء ، وأفردوا لهم المجالس الطوال ، وأخذوا يفتنون في اختيار
الأسماء الملائمة لهم مثل فائق ، ونسيم ، ورائق ، ووصيف ، وشري ، وغيرها (٢) ،
وكان من آفة ذلك العصر حب الفلمان ، والميل إليهم ، والتفزل فيهم ، وإظهار
محاسنهم في الشعر بأقبح الألفاظ وأوقع الكلمات ، وأصح العبارات .

وإذا كان أبوتواسروصبيه من الجانبين في صدر العصر العباسي قد
طرقوا هذا الباب في خوف وتستر ، فإن شعرا هذا العصر قد خاضوا فيه بلا
تحشم ولا خجل ولا حياء ، مما كان له أسوأ الأثر في الحياة الاجتماعية ، والنزول
بها إلى درك جدٍ حقيق .

(١) الامتاع والموانسة (٢ : ١٨٣) * الصواب : ستين وأربعمائة وعشرين ومائة
(٢) ظهر الاسلام (١ : ٣٢) * د / سرحان .

:: الفصل الثاني ::

• تطبيقات المجتمع •

كان المجتمع المراتى الفارسى فى القرن الرابع ينقسم إلى طبقتين متباينتين نتيجة للظلم الاجتماعى وفساد الأحوال الاقتصادية ٠٠

أما الطبقة الأولى فهى طبقة الحكم وكانت تتكون من الخلفاء والأسياد والوزراء ، وهؤلاء كانوا يعيشون فى ترف وبذخ ورفاهية ، وينعمون بما لذ وطاب من ثمرات الدنيا وخضرائها ، ويحيون حياة عابثة لاهية غير مكترثة بمصير الرعية ، ومقدرات الشعب الكثير العدد الى حد بعيد ٠٠

وكانت الطبقة الثانية تتكون من معظم أفراد الشعب من صناع وتجسار وطماة وعوام وكانت - على النقيض من الطبقة الأولى - تحيا حياة بائسة تعمسة لا تكاد تجد معها القوت الضرورى الذى يحفظ الروح ويخفف آلام الحياة ، حيث أثقلت كواهلها بالضرائب ، وأتتهكتها الكوارث والحروب ٠

وكان معظم الخلفاء يتشبهون بالأكاسرة ويوهمون الشعب أنهم ظل الله فى الأرض ، ويعيشون فى قصور مشيدة ، ويحيطون أنفسهم بالخدم والحشم والمبيد ومظاهر العظمة والأبهة ٠٠

ويرى الأستاذ أحمد أمين * أن رسولا من ملك الروم زار الخليفة المقتدر فوجد عنده أحد عشر ألف عبد خصى ، ورأى شجرة من الفضة وزنها خمسمائة ألف درهم عليها طيور مصنوعة من الفضة تصفر من تلقاء نفسها بطريقة خاصة ، وشاهد ثمانية وثلاثين ألف ستر من الديباج المذهب ، ثم أدخل الرسول دار الخيمل ، فرأى فيها من الجانب الأيمن خمسمائة فرس عليها خمسمائة مركب من ذهب وفضة ، ومن الجانب الأيسر خمسمائة فرس عليها الديباج بالبراقع الطوال ٠٠

ثم يمضى رسول الروم الى قصور الخلافة المختلفة فيشاهد فيها من ألوان الترف ، وصنوف التعميم ، ما يذهب باللب ، ويحير العقل حتى وصل الى حضرة الخليفة المقتدر بالله وهو جالس فى التاج ، وقد ليس ملبس الحرير المطسرة

بالذهب ، وعلى يمينه تحمة عقود مثل السبح معلقة ، وعلى يساره مثلها من أنخر
الجمواهر ، وأعظمها قيمة (١) .

هذه صورة كاملة لأحد قصور الخلفاء - آنذاك - وهى - وان كان فيها
كثير من المبالغة والتوهيل - بل والخيال - تكاد تعطى صورة عن حياة الخلفاء
المترفة فى ذلك العصر (٢) .

ومن القصور المشهورة التى تدل على البذخ قصر " الثريا " الذى بنىاه
ال خليفة الممتد ، والذى كان تحفة فنية رائعة حتى قال فيه ابن المعتز :-

حَلَّتْ " الثَّرِيَا " خَيْرَ دَارٍ وَسَنَزِلُ
فَلَا زَالَ مَعْمُورًا وَبُورِكَ مِنْ قَصْرِ
فَلَيْسَ لَهُ فِيمَا بَيْنَ النَّاسِ مَثْوًى
وَلَا مَا بَنَاهُ الْجَنُّ فِي سَائِلِ الدَّهْرِ
جَنَّاتٍ وَأَشْجَارُ تَلَقَّتْ عُصُونَهَا

فَأَوْزَقْنَ بِالْأَثَارِ وَالْوَرَقِ وَالْخُضْمِ
ترى الطير فى أغصانها هوائياً تنقل من وكر لهن الى وكر (٣)
وعرف الخليفة الراضى كذلك بحبه للبناء ، وأسرافه فيه ويروى التنبؤى
" أن أبا بكر الصولى حكى عن أبيه حكاية تدل على بنخ الراضى وإسرافه فيه قال :

(١) ظهر الاسلام (١ : ١٠٠) .

(٢) واضح أن الخيال افتن فى صنع هذا الخبر الذى يشبه أحاديث ألف ليلة
وليلة ، والا فكيف يتلح لرسول دولة أجنبيه أن يحصى من الخصيان ١١ ألفا
أو يزن شجرة من الفضة وزنها ٥٠٠ ألف درهم ، أو يعد ٣٨ ألف ستارة ؟؟
اننا نشم من هذه الاخبار روائح الخرافات والترهات والخزجات الستى
امتلت بها كتب جمع بالباطيل والاكاذيب . د / عبد السلام سرحان
ظهر الاسلام (١ : ٧٨) .

" دخلت يوما على الراضى مع جماعة من الندماء ، وكان مشغولا بالنساء
جمالما على آجرة حبال الصنّاع فطلب منا الجلوس ، فجلس كل واحد منا على آجرة ،
واتفق أن جلست على آجرتين ملتزمتين ، فلما قضا أمر بأن توزن آجرة كل واحد
ويدفع اليه وزنها دراهم ، أو دنانير (١) .

ومن مظاهر الترف والبنخ عند الطبقة الحاكمة حرص الخلفاء على اقتناء
الجواهر الثمينة ، بأنواعها المختلفة . . . وقد عرف الخليفة المعتذر بالله أنه كان
يملك كمية كبيرة منها كالدرة الثمينة التى كان وزنها يزيد على ثلاثة مثاقيل ، -
وكالمسبحة التى أحداها لزيدان القهرمان (٢) .

وهناك مظهر آخر من مظاهر الثراء والبنخ - آنذاك - لدى الخلفاء
وهو الملابس الثمالية ، فقد أخذوا عن الفرس أنواعا مختلفة منها وتفننوا فى
حياكتها وتطريزها وتزيينها بالذهب والجواهر . . . وكان للملابس أصول وقواعد
من حيث أنواعها وألوانها ، وأوقات لبسها .

ومن الألبسة التى أخذوها عن الفرس القلائص ، فوضعوا المعامم فوقها
وزينوها بجوهرات غالية (٣) .

وكان الخلفاء - وحدهم - دون سائر أفراد المجتمع يلبسون الخفاف الحمر
فى القرن الرابع الهجرى (٤) .

أما فى الموكب والاحتفالات فقد كان للخلفاء زى خاص يشتمل على العمامة
السوداء أو الرصافية ويرده الرسول عليه السلام (٥) .

-
- (١) نشوار المحاضرة للتنوخى (١ : ٢٤٥) ، وواضح أن هذا أيضا حديث
خرافسة . د. / سرحان .
(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ١٥٤ .
(٣) الحضارة الاسلامية لسيد أمير على ص ٣٨٧ .
(٤) أخبار الثغراف لابن الجوزى ص ٤٨ .
(٥) رسوم دار الخلافة للصايب ص ٩٠ .

وكانت المرأة في قصور الخلفاء تتفنن في اختيار ألوان ثيابها وتفصيلها
فوضعت فيها الزنابير وخيوط الإبريسم^(١) كما كانت تتفنن في ألبة الرأس
ووضع الجواهر الثمالية ، والأحجار الكريمة على المصائب السود ، وعلى
البرانس^(٢) .

أما لباس الأقدام فكان يشتمل على النعال والخفاف والجوارب ، وقد
اتخذت السيدة زبيدة النعال المرصعة بالجواهر ، ولبست السيدة أم المقتدر
النعال المصنوعة من ثياب دبيقية^(٣) .

أما أدوات الزينة فقد اهتمت بها نساء القصور اهتماما كبيرا وكانت عبارة
عن فلائد وأكاليل ، وتيجان توضع فوق الرؤوس ، ومناطق من الذهب المرصع
بالجواهر ، وخلخل تلبس في الأرجل ، الى غير ذلك من أدوات الزينة^(٤) .

وإذا ما تركنا حياة الخلفاء بما فيها من ترف وبنخ ونعيم ، وانتقلنا
الى حياة الأتراء والوزراء ، وجدناهم يمشون عيشة فارسية خالصة ويفرقون أنفسهم
في الكماليات التي تدل على الترف القاتل ، والاسراف المفرط والهنخ المشين ،
فلقد كانت قصورهم لا تقل روعة ولا فخامة عن قصور الخلفاء خاصة في عهد
بني بويه .

فمزم الدولة البويهية مثلا : كان يقيم في قصر فخيم يمتد أسامه نسي
الأرض تسعة وثلاثين ذراعا^(٥) وقد ألحق بهذا القصر اسطبلات وميدان واسع

-
- (١) الأغاني (٧ : ٣٠٢) .
(٢) الحضارة الاسلامية (سيد أمير علي) ص ٣٩٨ .
(٣) نشوار المحاضرة للتونخي (١ : ١٤٢) .
(٤) مقامات الهمذاني ص ٦٧ .
(٥) تاريخ الخانات للسيوطي ص ١٦ .

يطل على دجلة ، ويصل ما بين القصر والبستان ، وقد بنى فى محلة الشماسية^(١)
وقد أنفق عليه ثلاثة عشر ألف ألف درهم^(٢) .

أما عند الدولة فقد بنى بشيراز قصرا منيفا يفوق قصر معز الدولة
حيث كان مكوناً من ستين وثلاثمائة حجرة ليجلس كل يوم فى واحدة الى تمام
الحول^(٣) .

وقد شاهد المقدسى الرحالة المشهور فى القرن الرابع هذه السداره
ووصفها بقوله " وبنى - يعنى عند الدولة - بشيراز داراً لم أرى شرق الأرض
ولا غربها مثلها ، ما دخلها على الافتتن بها ، ولا عارف الا استدل بها على
نعمه الجنة وطيبها ، أجرى فيها الأنهار ، ونصب عليها القباب وأحاطها
بالبحاتين والأشجار ، وحفر فيها الحياض ، وجمع فيها المرافق والعسده
وسد مت رئيس الفراشين يقول " فيها ثلاثمائة وستون حجرة^(٤) كان مجلسه كمل
يوم فى واحدة الى تمام الحول ، وهى سفلى وعلو ، وطففت فيها فرأيت الأنهار
تطرد فى البيوت والأزقة وأبنته بناها على ما سمع من أخبار الجنة " (٤) .

وعرف فخر الدولة البويهى بحبه لجمع الأموال والجواهر ، وكان ذلك
يتم عن طريق مصادراته لأموال وزرائه وأصحابهم حتى بلغت تركته بعد وفاته
أربعة وثمانين مائتى دينار وخمسة وسبعين وثلاثمائة ألف ألف دينار
(٢٨٤٥٨٧٥) .

فضلا عن مقادير هائلة من الذهب والفضة والجواهر والحلى بأنواعها

-
- (١) نوار المحاضرة للتونسى (١ : ٧٠) .
 - (٢) البداية والنهاية لعماد الدين الدميقى (١١ : ٢٧٣) .
 - (٣) الفن ومذاهبه فى الشعر لشوقي ضيف ص ١٩٨ .
 - (٤) أسلوب خطأ والصواب : ستون وثلاثمائة حجرة : د / سرجان .
 - (٤) أحسن التقاسيم للمقدسى - ص ١٤٩

المختلفة (١) .

ولقد بلغ من ترف الوزير أبي محمد المهلبى أنه كان إذا أراد أكل شئ يلمقه كالارز واللين وقف عن جانبيه الأيمن غلام معه نحو ثلاثين ملعقة من الزجاج المجرود فيأخذ منه ملعقة يأكل بها من ذلك اللون لقصة ثم يأخذ أخرى فيعمل بها ما فعل بالاولى حتى ينال الكفاية لئلا يعيد الملعة إلى فيه دفعة ثانية (٢) .

أما ابن طاهر وزير الدولة البويهى فقد كان له راتب من الثلج يقدر بألف رطل كل يوم (٣) .

وهناك لون آخر من هذا هو الترف عند الأمراء وهو كثرة النفقات فى حفلات الزواج والختان والأعياد ، فلقد روى : أن أمير الأمراء محمد بن رائق الخَزَرى أنفق فى حفل زواجه خمسة عشر ألف دينار كما عرف بـجَمُّ التركى - الذى تقلد امرة الأمراء فى عهد الخليفة الراضى - بعيله الى الاسراف وكثرة الانفاق فى حفلات الأعياد حتى ان احتفاله بـمعيد المَهْرَجَان كان أعظم وأفخم من حفلات الخليفة الراضى (٤) .

* * *

تلك كانت حالة الخلفاء والأمراء والوزراء فى المجتمع . ترف جاوز الحد وإسراف لا نظير له ، وحياة فارقة لاهية ، وانعزال كامل عن الرعية التى كانت تترج تحت نير الظلم والاستبداد والحكم المطلق .

-
- (١) الكامل فى التاريخ لابن الأثير (٧ : ١٨٥) .
(٢) معجم الأئمة (٥ : ١٥٣) .
(٣) ظهير الاسلام (١ : ١٠٤) .
(٤) مروج الذهب للمسعودى (٤ : ٢٦٢) .

وكان بنو بويه حكام العراق وفارس في ذلك العصر ، يظلمون الرعية ولا يهتمون بمصالح المجتمع ، وقد غلبت عليهم الأنانية والأثرة ، وسيطر عليهم الطمع ، وحب المال ، وبدلاً من أن يتفردوا للإصلاح الداخلي في البلاد ، ورفع مستوى الحياة الاجتماعية ، انغمسوا في الحروب الخارجية والداخلية مع جيرانهم الحمدانيين ، والسامانيين ، والزياريين ، فضلاً عن حروبهم الداخلية من أجل النفوذ ، والتسلط ، فصرفتهم هذه الحروب عن مصالح الرعية وحملتهم على الانقياد لرغبات الجند فبالقوا في مداراتهم تارة ، وإرضائهم بالمال تارة أخرى ، حتى نفذ المال ، وخربت البلاد ، فاضطروا آخر الأمر إلى استخراج الأموال من غسـير وجوهها ، وإلى مصادرة أموال العامة أو الاقتراض من الخاصة أو الاحتياـل على من يتهم بيسار كائناً من كان (١) .

وكان ممز الدولة أمير العراق لا يأبه بحقوق الرعية ، فلما شنب عليه الديلم شغباً عفيفاً وطالبوه بالأموال اضطروا إلى ظلم الناس ، واستخراج الأموال من غير وجوهها ، وأقطع قواده وخواصه ، وأتراكه ضياع السلطان وغيرها ، وكان يسامح الوزراء والاقطاعيين ويقبل منهم الرشوة ، واتسع الخرق حتى صار الرسم جارياً بأن يخرّب الجند اقطاعاتهم ، ويمتاضوا عنها بما يختسرون وبذلك يتوصلون إلى الحصول على الفضل ، والفوز بالربح ، حتى فسدت المشارب وأهملت المصالح فمن مظلوم لا يتنصف ، ومسلم ضيعته إلى المقطع ليأمن شره فتوقفت العمارة ، وانحلت الدواوين ، وامحى أثر الكتابة والمعمالة (٢) ، وكان عز الدولة يختار بين ممز الدولة يحب أن يقضى وقته في الصيد ، والأكل والشرب والسماع ، واللهو ، واللعب ، بالنرد وتحريش الكلاب والديكة فإذا توقفت أسوره قبض على وزيره واستبدل به سواء (٣) .

(١) تجارب الأمم (١ : ٢٨) .

(٢) المصدر السابق (٦ : ٩٦) .

(٣) المصدر السابق (٦ : ٢٢٢) .

وهذا الظلم من جانب "بختيار" جعل أبا اسحاق الصابي يصفه
في بعض رسائله بقوله "فما زال بختيار يسيء الاختيار، ويتنكب الصواب،
ويتجنب الإصلاح، ويبعد الأموال، ويعرض الدولة للزوال، ويهين الأولياء،
أشد الإهتراج، ويحملهم على أعج المنهاج، ويخرب الأوطان، ويقتل الأقران
ويقتل الكفاة، ويستكفي الفتوة، إلى أن بلغ من فاسد سيرته، وضال
طريقته أن استكتب محمد بن بقية المحيط بكل خلة دنية (١) .

وقد عرف الحكام من بني بويه كذلك بالفدر بالوزراء والعمال مستي
استطاعوا إلى ذلك سبيلا ٠٠٠ حتى صارت المصادرات هدهم سنة متبعة،
وطريقة معروفة، وكانوا لا يرون للميت حرمة ولا نعمة سبها بالغ في خدمتهم
وقت حياته ٠٠

فعمز الدولة مثلا استولى على أموال الوزير المهلبى بعد وفاته وقبض
على أهله وحاشيته وأصحابه وحبسهم فاستعظم الناس ذلك واستقبحوه،
وفعل مثل ذلك فخر الدولة بأهل الصاحب بن عباد بعد وفاته فقد أقام
حراسة على ماله وداره ونقل جميع ما فيها إلى قصره ٠ قال ابن الأثير بعد
أن روى هذه الحوادث "فَقَبَّحَ اللَّهُ خِدْمَةَ الْمُلُوكِ" هذا فعلهم مع من
نصح لهم فكيف مع غيرهم؟ (٢) .

وكانت الطبقة الماملة وأغلبها من صفار الصداق والتجار والفلاحين
ترزح تحت نير الظلم والاستبداد، وتعيش في فقر مدقع، ويؤس شديد حيث
أثقلت كواهلها الضرائب، وأنهكتها الحروب، ونقص عليها حياتها أهل الميت
والفساد من لصوص وقطاع طرق وغيارين وشطار مما أدى إلى تعطيل الأعمال
وخراب البلاد، ونضوب الموارد ٠

(١) ظهير الاسلام (٢ : ٢٩٧) .

(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير (٧ : ١٦٩) .

فكثرت الشكوى من الحكام ، واشتد اليأس من عدلهم وصالح حالهم
يقول أبو بكر الخوارزمي في وصف سيرة حاكم مستبد " فما زال يفتح علينا أبواب
المظالم ، ويحتلب فينا ضرع الدنانير والدراهم ، ويمير في بلادنا سيرة
لا يسيورها السَّوَرُ مع الفأر ولا يستجيرها المسلمون مع الكفار حتى انتقر الأغنياء
وانكشف الفقراء ، و حتى نشف الزرع والضرع ، وهلك الحرث والنسل " .

ثم يقول " والله !! ما الذئب في الشئم بالقياس إليه ، إلا من المصلحين
ولا السوس في الخز في الصيف عتده الا من المحسنين (١) .

وصف بديع الزمان أحد القضاة فيقول " يا للرجال . وأين الرجال ؟ ..
ولى القضاة مَنْ لا يملك من آلائه غير السَّهال ، ولا يعرف من أدواته غير
الاختزال ، وما رأيك في سوس لا يقع الا في صوف الأيتام وجرايد لا يسقط
الا على الزرع الحرام ، ولص لا يَنْقُبُ إلا خزائن الأوقاف وكُرْدِيَّة لا يغير الا
على الضماف ، وذئب لا يفترس عباد الله إلا بين الركوع والسجود (٢) .

* * *

ونتيجة لهذا الظالم الواقع على الرعية من جانب الحكام ساءت الحالة
الإقتصادية ، وكثرت الفتن وعت القوضى ، وانتشرت اللصوصية وفي بغداد
ظهر لص خطير يدعى " ابن حمدي " وقد أعصى السلطان أمره فكان
يغير على منازل المدينة بموافقة ابن " شيرازد " كاتب القائد التركي المسمى
" تولون " فكان أمر الحكومة في يديه ، ومضى على الناس في أيام ابن حمدي
وقت تحارسوا فيه باليوقات في الليل ، وامتنع عليهم النوم خوفا من كدمات
ابن حمدي وأصحابه ، وخلت منازل بغداد من أهلها ، وصار الناس
يطلبون من يسكن الدار بأجرة يتقاضاها ليحفظها ، وأغلقت عدة حمامات

(١) رسائل الخوارزمي ص ٦٦ .

(٢) رسائل الهمداني ص ١٦١ .

وتمطلت أسواق ومساجد (١) .

وإذا ما انتقلنا إلى الأدباء والعلماء في إقليم العراق وفارس وجدنا
أنهم - آنذاك - فيقان :

فريق أسعده الحظ فاستطاع أن يتصل بالخلفاء ، والأمراء والوزراء
ويمدحهم أو يخدم في بلاطهم ومن هؤلاء :
" ابن العميد ، والصاحب ، والمهلبى ، والصابى ، والخوارزمى ،
والهمداني ، والمتنبى ، والشمالي ، وغيرهم ، هؤلاء عاشوا في بحبوحة
من الميش ، وسعة من الرزق ، ونعموا بالحياة الهانئة في ظل الحكم
وأصبحوا سيفاً معلطاً في يد السلطان يمدحونه ويثنيون في وصفه ، وقلموا
يدافعون عن الطبقة الكادحة .

وفريق آخر من الأدباء لم يوفق في اصطناع أمير ، أو مداينة وزير ،
أو التقرب إلى حاكم . . فعاث عيشة تمعة ، وذاق مرارة الميش ، وتجسرع
ألم الحرمان ، وكان هؤلاء كثيرين ، وكان منهم الأديب والعالم ، والفيلسوف
فهذا أبو حيان التوحيدى صاحب الأفكار المميقة ، والآراء الصائبة ، والفلسفة
الواسعة ، والأدب الجم والملم الفزير ، يذكر أنه اضطر إلى التكسفف
الفاضح عند الخاصة والعامة . . وإلى بيع الدين والعروء ، وإلى تعاطى
الرياء بالسدعة والنفاق وإلى ما لا يحسن بالحر أن يرسه بالقلم ، ويطرح
في قلب صاحبه الألم (٢) .

وهذا أبو سليمان المنطقى الفيلسوف العالم كان في حاجة ماسة
إلى رثيف ، وقد عجز بحوله وقوته عن توفير أجر مسكنه ، وعن تدبير وجبتى
غذائه وعشائه . .

(١) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجرى (١ : ١٣) لآدم ميتز .

(٢) المرجع السابق (١ : ٤٤٨) .

وهذا أبو علي القالي صاحب "الآمال" المشهور ضاقت به الحال قبل
أن يرحل إلى الأندلس حتى اضطر إلى بيع كتبه ، وهي أعز ما يملك .

وهذا أبو المباس المعروف بابن الخباز الموصلي كان من كبار
النحويين والأدباء . وقال في مقدمة كتابه " الفريدة في شرح القصيدة " : " من
علم حقيقة حالي عذرتني إذا قصرت فإن عندي من الهموم ما يزع الجنان
من حفظه ، ويكف اللسان عن لفظه .

وغير هؤلاء كثيرون عددهم صاحب " ظهر الاسلام " رحمه الله (١) ،
ولقد كان للتفاوت الطبقي وسوء الأوضاع الاقتصادية واختفاء العدالة الاجتماعية
أثره في ظهور بعض المفاصد والخرافات في المجتمع ، فقد انتشر الدجل
والسموذة ، والتعلق بالأسباب الموهومة في الحصول على الثنى ، والاعتقاد
في الطوابع التي تسعد الناس ، والانصراف إلى الكيمياء التي تقلب النحاس
والقصدير ذهباً ، والاتجاه إلى قيور الأولياء ، والاعتقاد في السحر والبحث
عن الكنوز المخبوء وغير ذلك (٢) .

وكان للتفاوت الطبقي - كذلك - أثره الواضح في فساد الأخلاق
والجري وراء المال بالوسائل المشروعة ، وغير المشروعة ، فاتخذت طائفة من
الماجنين بيوتاً للدعارة تعرض فيها وسائل اللذة ، كما تعرض السلع
في الأسواق .

يقول أبو حيان : وقد أحصينا ونحن جماعة في الكرخ ستين وأربعمائة
جارية من الجانبين وعشرين ومائة حرة وخمسا وتسعين من الصبيان البسودور
الذين يجمعون بين الحذق والحسن والظرف والعشرة . وهذا سوى من كنا
لا نظفر به ولا نصل إليه لمعزته وحرسه ورقبائه (٣)

(١) انثار ظهر الاسلام (١ : ١١٧) وما بعدها ط . بيروت .

(٢) المصدر السابق (١ : ١٢٢) .

(٣) في الأصل : أربعمائة وستين و " مائة وعشرين " والصواب ما أثبتناه د / سرحان
الانتاج والمؤانسة (٢ : ١٨٣) .

وكان للتفاوت الطبقي - أثره في ظهور طائفة من الناس أرقت مآ وجهها واتخذت من التمول والتكدى وسيلة للارتزاق وهم الذين أطلق عليهم في ذلك العصر " بنوسامان " وكان منهم الشعراء ، والكتاب ، والخطباء ، والأشراف . . .

وكانوا يطوفون في البلاد ، ويحتالون على الناس من أجل الحصول على القوت وابتزاز الأموال .

وكان للتفاوت الطبقي والظلم الاجتماعي - كذلك - أثره في ظهور طائفة من أفراد المجتمع انعزلت عن الدنيا ، وعاشت على هامش الحياة ، وأشاعت فيها نفمة حزينة قاتمة ، لأنهم يمشوا من مباهج الحياة ، وكأن شعاعهم " صم عن الدنيا تغطره بالآخرة " (١) .

وأخيرا كان للتفاوت الطبقي أثره الواضح في انتشار الخلاعة والمجون ، والانكباب على اللذات ، والتهالك على الشهوات عند أصحاب الثروة والجاه في المجتمع ، حيث كان هؤلاء مهتدين في كل لحظة بالمزول أو المصادرة أو زوال النعمة مما جعلهم فريسة سهلة للقلق النفسى ، والخوف من المستقبل ، فانكبوا على اللذات وانغمسوا في الشهوات ، وكأنهم كانوا مع زوال النعمة ، وحلول النقمة على ميعاد . . .

ولقد نتج عن هذه الظاهرة - ظاهرة الخلاعة والمجون - ظهور شاعرين من شعراء " اليتيمة " يمثلانها أصدق تمثيل وهما ابن حجاج وابن سكرة الهاشمى .

" وما يؤسف له أن الملأ في ذلك العصر قد انطووا على أنفسهم وتركوا الظالمين يستبدون من غير أن يقفوا في سبيلهم . . . والأدباء الذين ارتفع صوتهم لم يرقح الا يمدح الظالم لا يردعه ، ويتحريضه لا يقصمه ولم يكن لديهم

(١) الاعجاز والايجاز للشعالبي ص ١٢٩ .

شعور بالمسئولية .. بل كانوا يمدحون إذا أُعطوا ويهجون إذا حُرِّبوا وقسَّ
أن يمدحوا أميرًا بالعدل أو يهجونه بالظلم ..

والصوفية الذين كانوا مظنة الجهر بالحق ، انطوا على أنفسهم
كذلك ، وغسلوا أيديهم من هذا العالم ، وعاشوا في عزلة كاملة ..

والوعاظ الذين كانوا يحظون الناس .. كانوا يحظونهم بالصبر على
الظلم ، ولا يحظون الحاكم بالارتداع عن الظلم ^(١) . وعلى الرغم من أن يذبح
الحكام واسرافهم ترك كل هذه الآثار السلبية الخطيرة .. كان له بعض
النتائج الحضارية الايجابية التي نذكر منها على سبيل المثال مايلي :-

أولا : بناء القصور المشيدة والمساجد الفخمة - وإن كان قد كلف
الدولة أموالا طائلة - إلا أن ذلك يُعَدُّ مظهرًا من مظاهر تقدم
ال عمران والهندسة .. فالقصور التي بناها الرشيد والمعتضد
والتوكل وقصور الوزراء والأمراء تُعَدُّ دليلا ماديا على مدى تقدم
فن العمارة في ذلك العصر ..

ثانيا : كان لبذخ الخلفاء والأمراء وسيلهم الى حب الظهور والفخفة أثره
في تقدم صناعة الخبز والوشى والمجاد ، والأواني الزجاجية
والخزفية والنقش على الذهب والفضة ، وغير ذلك من أنواع الملابس
وأدوات الترفيه ..

وأخيرا : كان لذلك الترف - أيضا - أثره في رقي الأدب وتقدم
فنى الغناء والموسيقى ، ذلك أن أنظار الأدباء والمغنيين كانت موجهة الى قصور

(١) ظهر الاسلام (١ : ٢٦١) وما بعدها .

الخلفاء والأمراء ليعرضوا عليهم تتأجهم الأدبي والفنى طمعا فى
المال والنوال ، وحرصا على الخلع والهدايا - وكان الحكام - بدورهم -
يشجعون الأدب والفناء ، ويغدقون على الأدباء والمفكرين ، الأموال الطائلة
ويقدمون لهم الهدايا والصلوات مما كان له أكبر الأثر فى رقى الآداب والفنون
فى المجتمع المراقى الفارسى فى ذلك العصر ..

:: الفصل الثالث ::

" الطوائف الدينية "

كان المجتمع المباسى فى تلك الايام يتكون من : المسلمين ، وأهل
الذمة ، والصائفة ، وكان المسلمون بدورهم يتكونون من الشيعة وأهل
السنة ٠٠٠ وأهل الذمة كانوا يتكونون من اليهود والنصارى ٠٠٠ أما الصائفة
فكانوا ينقسمون الى : صائفة العراق ، وصائفة حوران ٠٠٠

ولست - الآن - بصدد دراسة هذه الطوائف من حيث صحة
الدين وسلامة العقيدة فذلك مرجعه علم " الملل والنحل " ولكنى أريد أن
أتحدث عن كل طائفة منها من حيث كيانها السياسى ، ووضعها الاجتماعى
وعلاقتها بالآخرين ٠٠ ومدى تأثيرها فى الحياة الاجتماعية ٠٠

وسأبدأ بالحديث عن الشيعة وأهل السنة لأنهم كانوا مسلمين يمثلون
معظم السكان ، ولأن الخلفاء والأمراء والوزراء ، وقادة الجيوش كانوا منهم ٠
ولأن تأثيرهم فى الحياة الاجتماعية كان أعظم وأخطر من تأثير الآخرين ٠٠
ثم أتى بالحديث عن أهل الذمة من حيث هم أكبر الطوائف الدينية
فى المجتمع المباسى بعد المسلمين ٠٠ ولأن تأثيرهم فى المجتمع كان عظيما
ثم أختتم الكلام عن هذه الطوائف بالصلفة لأن عددهم كان قليلا ، ولأن
أثرهم فى الحياة الاجتماعية كان جد ضعيف ٠٠

أولا : الشيعة وأهل السنة

الشيعة - فى الأصل - هم أولياء الرجل وأنصاره يقال : شيعته ،
كما يقال والاه ، وكل قوم اجتمعوا على أمر فمهم شيعة ٠٠ ثم غلب هذا الاسم
على من يتولى عليا وأهل بيته - رضوان الله عليهم - حتى صار ذلك اللفظ
علما عليهم وخصوصا بهم ، فإذا قيل فلان من الشيعة عُرف أنه منهم ٠٠ فهم
الذين قالوا بإمامته وخلافته ، واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده ٠

ولا أريد - هنا - أن أتعرض لدراسة التاريخ السياسى لحزب الشيعة
فذلك مكانه علم السير والتاريخ ، ولا أريد كذلك أن أتعرض لدراسة الناحية

المقدنية والمذهبية لفرق الشيعة فذلك مرجعه علم العقائد والكلام - ولكنى أريد الحديث عن التشيع بوصفه إحدى الذواهر الاجتماعية في القرن الرابع . ولأنه كان ذا أثر عميق في حياة المجتمعين العراقي والفارسي ٠٠ " وكانت الكوفة وبها قبر الإمام على - كرم الله وجهه - أكبر مركز للشيعة في القرن الرابع وكان يقال : من أراد الشهادة فليدخل دار البطيخ بالكوفة وليقل رحم الله عثمان بن عفان " (١) .

وكانت بغداد هي العاصمة بمعنى الكلمة ، وآية ذلك أن جميع الحركات الروحية في الدولة الإسلامية كانت أمواجهها تتلاطم على شواطئها وكان بها أنصار لجميع المذاهب ، ولكن أكبر الأحزاب بها في القرن الرابع كان حزبى الحنبلية والشيعة ، وكان أنصار الشيعة يحكون بنوع خاص حول سوق " الكرخ " وكان باب الشعير - غربي شاطئ دجلة - من أكبر مراكز أهل السنة ، وفي فارس كان الشيعة كثيرين على السواحل التي تتصل اتصالاً وثيقاً بالعراق (٢) .

أما في المشرق فقد كانت الغلبة فيه لأهل السنة إلا أهل " قم " فإنهم كانوا شيعة غالبية ، وكان غلوهم موضع كثير من النوادر ٠٠ ومن ظريف ما يحكى أنه ولي عليهم وال سنى شتمهم فبلغه عنهم أنهم - ليغضهم الصحابة رضوان الله عليهم - لا يوجد فيهم من اسمه أبوبكر ولا عمر ، فجمعهم يوماً وقال لرؤسائهم : بلغنى أنكم تبغضون صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنكم ليغضكم إياهم لا تسمون أولادكم بأسمائهم ، وأنا أقسم بالله العظيم ، لئن لم تجيئوني برجل منكم اسمه أبوبكر أو عمر ويثبت عندي أنه اسمه لأفعلن بكم ولا ضمنت ، فاستمهلوه ثلاثة أيام ، ونشئوا مدينتهم ، واجتهدوا فلم يجدوا إلا رجلاً صلوكتاً حافياً عارياً أحول ، ومن أقبح خلق الله منظراً واسمه أبوبكر

(١) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجرى لآدم مزر (١ : ١٠٢) .

(٢) بديع الزمان للشكعة ص ١٩ .

لأن أباءه كان غريباً استوطن هذه البلاد فسماه بذلك ، فجاءوا به فشتهم وقال : جئتموني بأقبح خلق الله تتنادون به على ، وأمر بصفعهم ... فقال له بعض طرفائهم : أيها الأمير : اصنع ما شئت فان هواء " قم " لا يجرى فيه من اسمه أبو بكر أحسن صورة من هذا ، فغلبه الضحك وغفا عنهم (١) .

وكان في " قم " فرقة من غلاة الشيعة هم الخوارجية ، ومذهبهم أن المال كله للبيت ، فلما حكم بينهم أحد القضاة بأن للبيت النصف هددوه بالقتل ، وهم قوم من شرار الوافض يذهبون الى هذه المقالة من أجل فاطمة رضي الله تعالى عنها (٢) .

وكان الصراع المذهبي على أشده بين الشيعة وأهل السنة ، ويذكر المؤرخون أن الشيعة البهناديين كانوا يجتمعون في مسجد " براتا " سنة ٣١٣ هـ فعمل الخليفة أن قوما منهم يجتمعون فيه لسب الصحابة فأمرهم بكبحه في يوم جمعة فوجد به ثلاثون إنساناً يصلون فقبض عليهم ، وقتلوا فوجدت معهم خواتم من طين أبيض عليها اسم الإمام ، كما كان يفعل دعاة الفاطميين مع من ينتسب اليهم ، فاستصدر الخليفة فتوى بهدم المسجد حتى سوى بالأرض ، وغفا رسمه ووصل بالمقبرة التي تليه (٣) .

وكما كان الخلفاء يشتدون على الشيعة كانوا يفعلون الشيء نفسه مع الحنابلة ، ففي سنة ٣٢٣ هـ نودي في جانبى بغداد بالأجتماع من الحنابلة نفسان في موضع واحد ، وذلك لتطرفهم ، وظلهم واحداثهم الفتن ، وقد وقع الخليفة الراضى على كتاب بين فيه أخطاء الحنابلة وتوعدهم بالعقاب ، واتهمهم بالطعن على خيار الأمة ، ونسبة شيعة أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الكفر وارصادهم بالكراه في الطرقات والمحال ، وانكار زيارة قبور الأئمة صلوات الله عليهم ، والتشنيع على زوارها بالابتداع ، وفي آخر الكتاب

(١) مجمع البلدان لياقوت الرومى ص ١٧٦ .

(٢) طبقات الشافعية للسبكي . (٢ : ١٩٤)

(٣) الحضارة الاسلامية لمينز (١ : ١٦٦) .

يقسم أمير المؤمنين بالله : لكن لم ينصرف الحنابلة عن مذهوم مذهبهم ليوسمهم ضربا وتشريدا ، وليستعملن السيف في رقابهم ، والنار في محالهم ومنازلهم (١) .

وقد ذال الصراع قائما بين الشيعة وأهل السنة ، واشتعلت نار الفتنة بين الفريقين ٠٠ ففي سنة ٣٤٩ هـ قامت ببغداد فتنة عظيمة ، وتمحلت الجمعة بمساجد أهل السنة (٢) .

وكان بنو بويه يميلون إلى الشيعة ويعتقدون مذهبهم ، ويتمصون لهم ٠٠ وفي سنة ٣٥١ هـ كتب معز الدولة على المساجد لمن الصحابة فحاء الناس أثناء الليل ، وفي العام التالي أمر الناس أن يحتفلوا بيوم عاشورا ، وهو أكبر عيد للشيعة (٣) .

وقد حاول أهل السنة من جانبهم أن يظهروا فضل يوم عاشورا ، فأقاموا فيه الزينات والأفراح ، وزعوا أن الاكتحال فيه مانع من الريد في تلك السنة وذكروا الناس بما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم من الحض على فعل الخير فيه (٤) ، وذلك على خلاف الشيعة الذين كانوا يعدونه يوم حداد عام على مقتل سيد الشهداء الحسين بن علي رضي الله عنهما ٠٠

واستمر النزاع قائما بين الفريقين حتى بلغ من تعصبهم أنهم كانوا يلقون النار بمعضهم على بعض ٠٠ وفي سنة ٣٦١ هـ قامت بالكرخ فتنة عظيمة فأرسل الوزير (المهلبى) حاجبه لقتال العامة ، وكان شديد المصيبة لأهل السنة ، فاضطر إلى اشمال النار في أماكن كثيرة ليقتضى على الفتنة فاحترق الكرخ حريقا عظيما ٠٠ وكان عدة من احترقوا فيه سبعة عشر ألف إنسان وثلاثمائة دكان ، وثلاثة وثلاثين مسجدا ، ومن الأموال مالا يحصى (٥) .

(١) الحضارة الإسلامية لمتر (١ : ١١٢) .

(٢) المصدر السابق (١ : ١١٨) .

(٣) كتاب الوزراء للصايف ص ٣٢١ .

(٤) الحضارة الإسلامية لمتر (١ : ١٢٠) .

(٥) المصدر السابق (١ : ١٣) .

وكان لذلك كله أسوأ الأثر في الحياة الاجتماعية ، فاضطرب الأمن
واهتز النظام ، وم الرب والفرع بنوع البلاد ، وكثرت الأحقاد والضغائن
بين أفراد المجتمع ، وساءت الأحوال الاقتصادية والسياسية ، وكان لذلك
الصراع بعض النتائج الإيجابية ، فقد انتمش الأدب شعرا ونثرا بفضل كبار
أدباء الشيعة ، الذين تعمقوا لمذهبهم ودافعوا عنه في تتاجهم الأدبي
أمثال : أبي بكر الخوارزمي ، والصاحب بن عباد ، والشريف الرضي وغيرهم .

ومن جهة أخرى كان هناك بعض أدباء السنة يتصدون لهؤلاء ويردون
عليهم أمثال : بديع الزمان الهمداني وغيره . . . مما كان له أكبر الأثر في شرا
الحياة الفكرية والأدبية آنذاك .

* * *

ثانيا : أهل النعمة

أما أهل النعمة فقد كانوا من طائفتي اليهود والنصارى . . . وهؤلاء كانوا
يتمتعون بكثير من ضروب التسامح الديني في ظل الإسلام ، وكانوا يقيمون
شعائرهم في أمن وهدوء واطمئنان ولم تتدخل الحكومة الإسلامية في شعائرهم
وبلغ من تسامح بعض الخلفاء أنهم كانوا يحضرون مواعيدهم وأعيادهم (١) .

ولم يكن في التشريع الإسلامي ما يخلق دونهم أي باب من أبواب
العمل والكسب ، وكانت قدمهم راسخة في الصناعات التي تدر الأرباح الوفيرة
— كما هو شأنهم اليوم — فكانوا صيارفة وتجارا وأصحاب ضياع . . . بل إنهم
نابوا أنفسهم بحيث كان معظم نوابغ الصيارفة والصناع يهودا ، على حين
كان أكثر الأطباء والكتبة نصارى (٢) ، ولم يتدخل خلفاء بني العباس

(١) معجم البلدان لياقوت الرومي (٤ : ١٧٦) .

(٢) الحضارة الإسلامية لمتز (١ : ٦٨) .

بصورة عامة في شؤونهم الدينية أو في حياتهم الخاصة إلا في بعض الظروف ، حيث وضعت القيود على الألبسة ، وأبنية البيع والكثائن ٠٠ إلا أن هذه القيود لم تطبق تطبيقاً تاماً ، ومن ثم قويت الروابط الاجتماعية بين المسلمين وأهل الذمة ، واشتركوا جميعاً في تحريك الحياة العملية والأدبية ، وأصبح أهل الذمة يمارسون جميع الأعمال في الدولة الإسلامية ٠٠ فكان منهم الطبيب والمهندس والتاجر والصراف والبراز (١) .

ولم يتفصلوا عن بعض الأفي ممارسة الطقوس الدينية ، ومناطق السكن فأقام النصارى في بغداد كنيسة عرفت باسم " دار الروم " وسكنوا مدينته " تكريت " بين " الموصل " و " بغداد " كما سكن جماعة منهم مدينة " الرها " (٢) ، أما اليهود فوجدوا في بغداد بكثرة ٠٠ وكانت لهم في عهد الخليفة المعتضد مراكز مهمة ، تلك مزدهرة حتى القرن السادس الهجري حيث زارها الرحالة " بنيامين " فوجد في بغداد وحدها عشر مدارس وثمانية وعشرين معبداً منها واحد مزين بالذهب والفضة (٣) ، أما عدد أهل الذمة في العراق فقد بلغ أكثر من مئتين ألفاً في القرن الرابع (٤) .

ويؤكد آدم صتر أن عدد النصارى وحدهم ببغداد كان ما بين أربعين وخمسين ألفاً (٥) .

أما في فارس فقد كثر عدد المجوس والصائفة (٦) .

وكان لكل من اليهود والنصارى رئيس ديني يعين بم عهد من الخليفة وكان رئيس النصارى يلقب " بالجماعا ثليسي " أما رئيس اليهود فكان يلقب " بالملك "

-
- | | |
|-----|---------------------------------------|
| (١) | الخراج لأبي يوسف ص ١٢٣ . |
| (٢) | أحسن التقاسيم للقدس ص ٢٢١ . |
| (٣) | الرحلة ٠٠ ص ١٣٥ . |
| (٤) | المسالك والممالك لابن خردادبة ص ١٢٠ . |
| (٥) | الحضارة الإسلامية (١ : ٦٥) . |
| (٦) | الرحلة ٠٠ ص ١٣٧ . |

وتكون رياسته بالوراثة ، ويستمد سلطانه ، من كتاب عهد يوجه اليه من الخليفة وتجرى لكل منهما مراسم خاصة عند توليتهما (١) .

أما عن العلاقات الاجتماعية بين المسلمين وأهل الذمة فكانت حسنة فسي معظم الأوقات ، غير أنه في بعض الظروف كان التوتر في العلاقات يعود بينهما ، وذلك حين كان بعض الخلفاء يتشدد في معاملتهم ، أو حين يسند الى أحد أفراد أهل الذمة ، منصب كبير في الدولة .

وقد ظهرت الحالة الأولى في عهد الرشيد والمتوكل والمقتدر ، فقد أمر الرشيد بهدم الكنائس في الثغور ، وأوصى بأخذ أهل الذمة في بغداد بأن تخالف هيتهم الاجتماعية هيئة المسلمين في لباسهم وركوبهم (٢) . ونفى عهد المتوكل أمر أهل الذمة بوضع صور شياطين مصنوعة من الخشب على أبواب منازلهم ، وتسوية قبورهم بالأرض ، كما حتم عليهم لبس زي خاص بهم (٣) .

أما المقتدر فقد أمر ألا يستعان بأحد منهم في وظائف الدولة وأنزهم ليس التسلي ، والرقاع من خلف ومن قدام (٤) .

وأما الحالة الثانية : وهي اسناد بعض المناصب الكبرى إلى أحد أفراد أهل الذمة - فقد حدث حين اتخذ الوزير ابن الفرات ، رئيس ديوان الجيش من النصارى فاحتج عليه على بن عيسى بقوله : " أما اتقيت الله في تقليدك ديوان جيش المسلمين رجلا نصرانيا ؟ وجعلت أنصار الدين ، وحماة البيضة يقبلون يده ، ويمثلون أمره ؟ " فزعم ابن الفرات أنه ليس أول من اتخذ رجلا نصرانيا لمثل هذا المنصب (٥) .

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير (٥ : ١٢٧) .

(٢) المصدر السابق (١ : ٤١) .

(٣) البيان والتبيين للجاحظ (١ : ٤١) .

(٤) الحضارة الإسلامية لمتز (١ : ٦٥) .

(٥) ظهير الاسلام لأحمد أمين (١ : ٨٣) ط النهضة بمصر .

والى جانب ذلك كانت بعض الممارك المحدودة بين الطرفين تحدث
فى بعض المناسبات ففى سنة ٣٨١ هـ هاج المسلمون لأنهم وجدوا رأس خنزير
فى أحد المساجد فظنوا أن النصارى رموه ، وفى سنة ٣٩٢ هـ قُتل أحد المسلمين
فظن العامة أن النصارى هم الذين قتلوه فثاروا عليهم ، ونهبوا بيعة لهم ، وأحرقوها
وكان الأمر عظيما (١) .

وفى عدا تلك الحوادث المحدودة كان الوثام يسود بين الطرفين
حتى إن الخلفاء المباسيين كانوا يستعينون أحيانا بالنصارى فى وظائف
الدولة ، فاتخذ الخليفة الطائع لله العباسى كاتباً نصرانياً (٢) .

واتخذ عضد الدولة البويهى نصرين هارون وزيراً له ، وقد أذن له
فى عارة البيع والأديرة ، وإطلاق سلطته فى إعطاء الأموال لفقراء النصارى (٣) .

" وقد جدد الإسلام العلاقات الاجتماعية بين المسلمين وأهل الذمة
فسمح بزواج المسلم من الذمّية . دون أن تُجبر على ترك دينها والدخول
فى الإسلام ، أما زواج المسلمة من الذمى فكان مستحيلاً " (٤) [لأنه محرم]
ولم يكن النصراني يرث اليهودى ولا العكس ، كما لم يكن النصراني أو اليهودى
يرث المسلم ، ولا المسلم يرث غير المسلم يهودياً كان أو نصرانياً (٥) .

وقد فرضت الجزية على أهل الذمة وأغنى منها النعماء والصبيان
والشيخوخاء المأجزون والرهبان ، وكان المسلمون يراعون الفرق بأهل الذمة
فى جباية الجزية (٦) .

(١) الحضارة الاسلامية لمتز (١ : ٩٢) .

(٢) المصدر السابق (١ : ٥٩) .

(٣) الكامل لابن الاثير (٨ : ٢٥٥) وظهر الاسلام (: ١ : ٨٤)

(٤) الحضارة الاسلامية (١ : ٥٩) .

(٥) الخراج لابي يوسف ص ١١٢ .

(٦) نفس المصدر السابق .

وكان لأهل الذمة خلال القرن الرابع ملابس خاصة يتميزون بها عن المسلمين فاليهود ارتدوا البراطيل الطويلة^(٨) على حين اتخذ النصارى البرانس أول الأمر ثم لبسوا القلانس الطويلة^(٩).

* * *

والحديث عن النصارى يدفعنا الى الحديث عن الديارات التي احتلت مكانة بارزة في الحياة الاجتماعية في ذلك العصر . فكان الشعراء والمجان يلجأون إليها ، ويقضون بها أوقاتا سعيدة لطرافة ما فيها وجمال موقعتها ، وحسن منظرها ، وكثرة خماطلها ، وكثافة أشجارها وروعة زهورها ورياحينها ، ولما كانت تشتهر به من الخمر الممتقة . .

وكان بعض الخلفاء يقدون الى هذه الديارات ويقضون بها أوقاتا طيبة ، فقد نزل المأمون مرة بدير الموصل الأعلى ، وهو في طريقه إلى دمشق ووافق نزوله عيد الشعانين عند النصارى ، حيث كانت تقام الاحتفالات المعظيمة فجلس المأمون في موضع حسن ، وزين الدير بأحسن زينة ، ورأى الخليفة القسامة ، والشلمان يحملون الصليبان ويتوجهون نحو المذبح كما شاهد الجوارى . . وقد لبس الدير في أغانقهن صلبان الذهب ، فسر بهذه المنادار سرورا عظيما ، وقضى فيها وقتا طيبا ، ثم قال لأحد جلسائه : وهو اليزيدى - رأيت أحسن مما نحن فيه ؟ قال نعم يا أمير المؤمنين ، أن تشكر من خولك هذا فيزيدك منه ، ويحفظه عليك قال : بارك الله عليك ، فلقـد ذكرت في موضع الذكرى ، ثم أمر بثلاثين ألف درهم فتصدق بها للوقت^(١٠).

وكانت الديارات تستهوى الناس على اختلاف طبقاتهم ، خاصة الشعراء الذين قالوا فيها شعرا كثيرا يعد من أرق ما تُثرين الشعر المربى ، فمن الديارات ذوات الشأن في ذلك الوقت دير " الشياطين " الذي كان غربي دجلة ، وقصد

(٨) البراطيل : جمع برطيل وهو القلنسوة : غطاء الرأس .

(٩) الحضارة الاسلامية (١ : ٨٤) .

(١٠) الديارات ص ١٧٧ وما بعدها .

وصفه الشابشتى بأنه كان " حسن المنظر جميل الموقع ، رقيق الهواء " ، وأن قلاله كانت عامرة ، كثيرة الأشجار وأرضه كثيرة الرياحين ، وكان له سور يحيط به ، والناس يطرقونه للشرب فيه ، وهو من مطاح أهل البطالة ، ومواطن نوى الخلافة (١) .

ولمباداة المحدث قصة غريبة في هذا الدير ، فقد هام حبا بفلام نصراني بالدير ، وحين به ، وعندما فطن رهبان الدير لأمره فرمن الدير بحد أن أقام به مدة طويلة (٢) .

ومن الديارات الشهيرة في ذلك العصر " دَيْرَزَكِي " على شاطئ نهر " الْبَلِيح " وكان يمتاز بجمال موقعه ، ونزاهة موضعه ، وكثرة الغزلان والأرانب حوله ، مما يشجع على الصيد ، ويغري بالقتص ، وكان الملوك إذا مروا به نزله ، وأقاموا فيه ، ولعل ديرا من أديار النصارى لم يشتهر كما اشتهر ذلك الدير لكثرة الأشعار التي قيلت فيه (٣) ، ولقد كان لهذه الديارات في بلاد المسلمين أسوأ الأثر في الحياة الاجتماعية وكان وجودها يمثل خطرا على الاخلاق العامة ، ويشكل تحديا لمشاعر المؤمنين ، بما كان يوجد فيها من خمر ممتعة وجوار حسان (٤) وظلمة ملاح . . فأصبحت أمكنة للفسق ، وملاجئ للمنحرفين ، وسراجع لأهل الخلافة والمجون ، وأندية لأهل الاختلال ، والاحلال .

وكان لها على جانب ذلك كله بعض الآثار الطيبة على الأدب لكثرة الأشعار الرقيقة التي قالها الشعراء في وصف جمالها ، وحسن منظرها .

* * *

-
- (١) الديارات ص ١٨٤ .
(٢) المرجع نفسه ص ١٨٥ .
(٣) نفسه ص ١١٨ وما بعدها .
(٤)

ثالثا : الصابئة

اختلف المؤرخون في عقيدتهم الدينية ، فذهب السعدي : إلى أن أصل عبادتهم هي عادة النجوم ، ثم تحولت إلى عبادة الأصنام ، فينوا لكل صنم بيتا أو هيكلًا منفردا ، وسموا تلك الهياكل بأسماء الكواكب ^(١) ، وجماء في لسان العرب : أن الصابئين قوم يزعمون أنهم على دين نوح عليه السلام وهم كاذبون ، ويشبه دينهم دين النصارى ^(٢) ، وفي المصباح المنير أنهم على دين صابى بن شيث بن آدم عليه السلام وكانوا يعبدون الكواكب في الباطن ، وينسبون إلى النصرانية في الظاهر ^(٣) .

وذكر الامام الرازي في مختار الصحاح * أن الصابئين جنس من أهل الكتاب ^(٤) .

أما ابن العبري فيقول عن دينهم * انه دعوة الكلدانيين ، وأقوالهم قريبة من أقوال الحكماء ^(٥) .

وقد ورد ذكرهم في القرآن الكريم في قوله تعالى : " إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ ، وَالنَّصَارَى مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَعَمِلُوا صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ، وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ " ^(١) .

وفي القرن الرابع الهجري كانت هناك قرطتان من الصابئة هما : صابئة حرّان ، وصابئة المرقاء ، وكانت صابئة حرّان تعبد الكواكب يجرّون بذلك مجرى عبدة الاوثان ، أما صابئة المرقاء فهم فرقة موحدة نشأت في فلسطين قبل ظهور النصرانية وهم من اتباع يوحنا المعمدان المشهور في

-
- (١) مروج الذهب (٢ : ١٣٥) .
 - (٢) ابن منظور (١ : ١٠٢) .
 - (٣) المصباح المنير ص ٥٠٩ .
 - (٤) مختار الصحاح ص ٣٥٤ .
 - (٥) مختصر تاريخ الدول ص ١٥٣ .
 - (٦) سورة المائدة آية ٦٨ .

المراجع المربية والإسلامية باسم يحيى بن زكريا^(١)، ويطلق عليهم المرب اسم
المفتسلة لأنهم يستكون على ضفاف الأنهار لتسهيل التعميد في الماء^(٢)
الجاري (١).

ويذكر ابن النديم أن تسمية أهل حرّان بالصابئة ترجع إلى زمن المأمون
عندما كان ذاهباً لفزو الروم سنة ٢١٥ هـ فمر على ديار مضر فقابله الناس
يدعون له وفيهم جماعة من الحرانيين^(*) الصابئة ، وكان ليسهم إذ ذاك ليس
الأقبية ، وشعورهم طويلة ، فأكثر المأمون زبهم ، وقال لهم : من أنتم ؟ فقالوا :
نحن الحرانية^(**) فقال : أنصاري أنتم ؟ قالوا : لا ، قال : فيهود أنتم ؟
قالوا : لا ، فقال : أمجوس أنتم ؟ قالوا : لا ، فقال : ألكم كتاب أم نبي ؟
فترددوا في القول ، فقال لهم : فأنتم إذن : الزنادقة ٠٠ عبدة الأوثان
فأنتم دسائلكم حلال لانه لكم ولا عهد ، فاختاروا الآن أحد أمرين إما أن
تدخلوا في الإسلام ، أو تختاروا لكم ديناً آخر من الأديان التي ذكرها
الله في كتابه ، وإلا قتلناكم عن آخركم ، وأعطى لهم مهلة قصيرة لتحديد
موقفهم ، فاقترح عليهم شيخ من أهل حرّان أن يقولوا للمأمون أنهم صابئة
فهذا اسم ذكره الله في كتابه ، وهكذا أطلق عليهم اسم الصابئة^{(٢) (*)}.

وقد كتب للصائبين في منتصف القرن الرابع الهجري كتاب عن أمير
المؤمنين المطيع أمر فيه بصيانتهم ، وحراستهم ، والذبّ عن حريمهم ، ورفع الظلم
عنهم ، والتخلية بينهم وبين موارثهم وترك مداخلتهم ، ومشاركتهم فيها لأن
أمير المؤمنين يرى في موارث الصائبين وغيرهم من المخالفين رأى رسول
الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول " لا يتوارث أهل ملتين " (٣).

- (١) رسوم دار الخلافة للصائب ص ٧ .
(*) كذا وهو خطأ ، والصواب الحرانيون ، كما ذكر صاحب القاموس . دكتور
سرحان .
(**) كذا : والصواب الحرانية راجع القاموس . د / سرحان .
(٢) القهرست ص ٤٥٩ لابن النديم .
(*) وفي هذا التخريج شيء في النفس . د / سرحان .
(٣) الوزراء للصائب ص ٢٢٠ .

وكانت الملاقات الاجتماعية بينهم وبين المسلمين حسنة ، فقد عاملهم المسلمون كأهل الذمة ، وأعطوهم الأمان كأهل الكتاب ولم يحدث بينهما نزاع ولا قتال ، وذلك راجع الى قلة عددهم وميلهم للسلم ، وبجارية المسلمين .
ولم يحدث أن تعرض لهم حكام المسلمين بأذى ، أو بيتوا لهم سوءاً أو دبّروا لهم غدراً إلا في بعض الحالات الشاذة . .

ففي عهد الخليفة القاهر سنة ٣٢٠ هـ استفتى الخليفة أبا سميـد الإصطخري في أمرهم فأفتاه بقتلهم ، لأنه تبين له أنهم يخالفون اليهود ، والنصارى ، ويمعدون الكواكب ، فمزم الخليفة على تنفيذ ذلك فيهم حتى اقتدوا منه بأموال كثيرة جمموها فكف (*) عنهم (١) ، وفيما عدا ذلك كانت الملاقات بينهم وبين المسلمين جد طيبة . .

ولقد كان للصايغة عيدان يحتفلون بهما ، ويقومون شعائرهم الدينية فيهما :-

أحدهما : عيد الميلاد ، ويقع في الثالث والعشرين من ديسمبر " كانون الأول " وأما الثاني : فيقع في السابع والعشرين من يوليـه " تموز " ويسمى عيـد البيوتات " (**) وكان لهم إلى جانب ذلك أعياد أخرى كثيرة تقام في جميع أشهر السنة لكل منها رسوم وتقاليد خاصة (٢) .

أما صلواتهم فهي ثلاث مرات في اليوم قبل طلوع الشمس ، وفي منتصف النهار ، ومع الغروب ، وهم يتوضأون قبل الصلاة كالمسلمين ، ويصوبون ثلاثين يوماً أيضاً ، ولكنها تختلف عن طريقتة المسلمين ، في كونها غير متتالية ، بل

-
- (١) الحضارة الإسلامية لمتز (١ : ٦٨) .
(٢) وفي النفس أشياء من هذه الروايات . د / سرحان .
(٣) البيوتات : جمع بؤة : شجر نباته كالزعرور بضم الراء . في القاموس . وهو شجر مصروف . د / سرحان .
(٤) الفهرست ص ٤٦١ .

مقطعة إلى ثلاثة مراحل ، في كل مرحلة عشرة أيام (١) .

أما تأثيرهم في المجتمع فلم يكن فعالاً ، ولم يكن لهم نشاط ملحوظ كاليهود ، والنصارى ، وذلك راجع إلى قلة عددهم من ناحية وإلى سريسة تعاملهم من ناحية أخرى . .

وكانوا كثيراً ما يحاولون التستر بالاسلام خوفاً من القتل ، كصائبة " حران " أما صائبة المراق فكانوا حريصين على مجارة المسلمين في عاداتهم وتقاليدهم والرغبة في مودتهم ومسالمتهم . .

واحتل بعض أدباء الصائبة مكانة مرموقة في المجتمع كآبى إسحاق الصابى ، الذى كان - كما يقول الثعالبي - يعاشر المسلمين أحسن عشرة ويخدم الأكابر أرفع خدمة ، ويساعدهم على صيام شهر رمضان ويحفظ القرآن الكريم حفظاً يدور على طرف لسانه وسن قلمه (٢) .

كما نىخ منهم بعض الأطباء أمثال : ثابت بن سنان وابن قرة . وهذا فضلاً عن نبوغهم فى النقش على الذهب والفضة ومعض الصناعات التقليدية .

* * *

(١) مختصر تاريخ الدول لابن الجبى ص ١٥٣ .

(٢) اليتية (٢ : ٢١٩) .

٠ :: الفصل الرابع :: ٠

٠ الأعياد والمناسم والمواكب ٠

اهتم العباسيون في القرن الرابع بالاحتفالات الدينية في الأعياد والمواسم ، وأولّوها عناية بالغة ، وأنفقوا عليها أموالا طائلة ، ولم يقتصروا على ذلك على الأعياد الإسلامية ، بل تجاوزوها إلى أعياد أخرى غير إسلامية ، انتقلت إليهم من الفرس ، أو من أهل الذمة .

ومن الأعياد الإسلامية عيد الفطر والأضحى ، وعيد رأس السنة الهجرية وعيد المولد النبوي الشريف ، وعيد " غدير خم " ^(١) عند الشيعة وعيد الفار هـ أهل السنة ^(٢) .

ومن الأعياد الفارسية التي احتفل بها المسلمون أعياد : النيروز "المهرجان" والسدق ^(٣) .

أما أعياد النصارى فكانت كثيرة ، ومتعددة ، وكان لكل دير تقريبا عيد يخرج فيه الناس إليه للهو ، والمبث ، والمجون . . .
أما أعيادهم العامة فكان أهمها أعياد " الميلاد " والفصح والشمانيين . . .

وكانت مظاهر الاحتفال بالأعياد الإسلامية تتجلى بصورة خاصة في عيدي الفطر والأضحى في جميع البلاد الإسلامية . . . خاصة في مدينة " طرسوس " التي كان غداة المسلمين يتوافدون إليها من جميع أنحاء الدولة الإسلامية الواسعة وترد إليهم تبرعات الذين يتمذرو عليهم الخروج للغزو ^(٤) .
ولما ضاعت من المسلمين حلت محلها " صقلية " التي كانت مشهورة كذلك بحسن عيديها ^(٥) .

-
- (١) غدير خم : موضع على ثلاثة أميال من الجحفة بين الحرمين ، أو هو غضة هناك . د / سرحان .
(٢) المهر في خبر من غير (٣ : ٤٣) .
(٣) الكامل في التاريخ لابن الأثير (٨ : ٢٢٢) .
(٤) الحضارة الإسلامية لمت (٢ : ٢٩٢) .

وكان المباسيون يحتفلون بمعيد الفطر في كثير من الأنتهى والمظلة فكانت
الأنوار تسطع في بغداد وغيرها من المدن المراقية والفارسية في ليالى العيد ،
وتتجاوب أصوات المسلمين بالتكبير ، والتهليل ، والتمجيد وتردح الأنهار
بالزوارق المزينة بأبهى الزينات ، وتتلاها الأنوار البراقة في قصور الخلافة (١)
ويستمر الاحتفال بالعيد ثلاثة أيام كاملة (٢) .

وكان شهر رمضان هو الشهر الذى يتجلى فيه منتهى الكم عند المسلمين
ويحكى عن الوزير الصاحب بن عباد أن داره كانت لا تخلو من ألف
نفس يفترون فيها في كل ليلة من ليالى رمضان ، وأن صدقاته ، وقرباته نفس
هذا الشهر كانت تبلغ مقدار ما ينفق منها في جميع شهور السنة (٣) .

وقد جرت المأدة في بغداد وغيرها من المدن المراقية والفارسية
أن تشعل مصابيح المساجد طوآل ليالى شهر رمضان ، وتخرج الإنعامات
من دار الخلافة إلى الخاصة والعامة طيلة الأيام الأربعة من أواخر هذا
الشهر المبارك ، ويتمياً المسلمون لاستقبال اليوم الأول من أيام العيد فيخرجون
إلى المساجد لأداء الصلاة .

وكان من عادة الخليفة أن يخرج من قصره مبكراً في أول أيام العيد ،
ويسير مع كبار رجال دولته في موكب فخم مهيب ، وهم يلبسون الأقبية السود ،
والنماس يفتون على جانبي الطريق ، وهم في أبهى منظر ، وأجمل زينة ، ينتظرون
موكب الخليفة ويستقبلونه بالتهليل والتكبير ، والدعاء له بالنصر ويحيونه قائلين :
" السلام على أمير المؤمنين ونور الاسلام ، فيرد الخليفة عليهم بلمن بردته ،
والتلويح بها ، وبعد الانتهاء من الصلاة ، وإلقاء خطبة العيد ، يمود الخليفة

(١) تاريخ الاسلام السياسى (٣ : ٤٥) د . حسن ابراهيم حسن .

(٢) صبح الأهمى (٢ : ٤٦٦) .

(٣) اليتيمية (٣ : ١٧٤) .

بموكب إلى القصر لاستمراض الجند وهم ينتظرونه على ظهور الخيل بملابسهم الجميلة ، وإلى جانبه القواد والقضاة (١) .

وبعد ذلك يجلس الخليفة على سرير مرتفع ويقف حوله الفلماني والخدم متقلدين السيوف ، وتمد في مواجهة الخليفة ستارة من الديباج فإذا دخل الناس رفعت ، وإذا أراد صرفهم أرخيت (٢) .

وهناك مواكب أخرى في عيد الفطر كانت لا تقل روعة ولا بهاء عن موكب بعض الخلفاء ، وهي مواكب الأمراء والوزراء والقواد. وقد وصف هلال ابن الحسن الصابي موكب القائد " نازوك " في يوم العيد فقال :

" إنه كان يسير وبين يديه أكثر من خمسمائة فارس يحملون الشموع الموكبية سوى أصحاب النفط ، وعدد هم كثير ، وبلغ من شدة الزحلم أن الرجل كان لا يستطيع اجتياز الموكب ، وكان القواد والأمراء يلبسون في ذلك اليوم قبا أسود ويتطرقون بالمناطق ، ويتقلدون السيوف ، أما القضاة فكانوا يلبسون الطيلسان والمعائم السود المصقولة (٣) .

وكانت مظاهرة الإسلام تتجلى في الاحتفال بعيد الأضحي ، وتبدو في أبهى صورها حيث كان المسلمون يذهبون في صبيحة أول يوم فيه إلى المساجد لأداء الصلاة ، كما كانوا يحرصون - مع اختلاف طبقاتهم - على نحو الأضاحي ، وتوزيع لحومها على الفقراء والمحتاجين ، بل إن بعض الخلفاء كانوا يشتركون بأنفسهم في نبح الأضاحي ، فالخليفة المقتدر - حين يوسع بالخلافة سنة ٢٩٥ هـ - وزع في يوم الترويه - الثامن من ذي الحجة - ويوم عرفة - التاسع من ذي الحجة - لحوم ثلاثين ألف رأس من البقر والغنم وألقى رأس من الأبل (٤) (٥) .

(١) المنتظم لابن الجوزي (١ : ٢٥) .

(٢) رسوم دار الخلافة للصابي ص ٩١ .

(٣) المرجع السابق ص ١٠ .

(٤) المنتظم لابن الجوزي (٦ : ٢٧٦) .

(٥) والمبالغة واضحة في إسناد التوزيع . د / سرحان .

وكانت الحكومة الإسلامية تشرف على تنظيم مكب حجاج بيت الله الحرام كل علم تسمين أميراً تختاره من الأشراف الطالبيين يقوم برعاية شؤون الحجاج منذ خروجهم من بغداد حتى يصلوا مكة وتنتهي مهمته عند عودتهم إلى بغداد (١) .

وكان اختيار أمير الحج يتم في دار الخلافة في احتفال عظيم ، يحضره الخليفة والأشراف والقضاة والفقهاء ويخلع في حضورهم عليه (٢) ، وكان حجاج شمالي وشرقي الدولة الإسلامية الواسعة يتجمعون في بغداد حيث تهـي لهم الحكومة المركزية كل وسائل الراحة - التي تهون عليهم مشقة السفر - ووعرة الطريق ، إلى الأماكن المقدسة ، كما كانت تزدهم بالباء والطعام الذي كان يقتصر على الأقراص السمجونة باللبن ، والسكر والفواكه (٣) .

وكان مكب الحجاج عند خروجه من بغداد يتقدمه حامل العلم وجند السفر والقواد والدعاة والحجاب (٤) .

وعند وصول المكب المبارك إلى بيت الله الحرام يقوم أمير الحجاج بإلقاء خطبة نيابة عن الخليفة (٥) ، وتملق القناديل التي أحضرت من بغداد على الكعبة وهي مصنوعة من الذهب والفضة ، وتنصب الأعلام التي نقش عليها اسم الخليفة . كما فعل أمير الحج أحمد بن الحسين الوسوى نقيب الأشراف الطالبيين سنة ٣٦٠ هـ (٦) .

وبعد الانتهاء من مراسم الحج يعود المكب إلى بغداد حيث يقام احتفال عظيم يحضره الخليفة أحياناً ، ويقوم فيه بتقديم الهدايا والخُـلـع

(١) مروج الذهب (٤ : ٣٢٠) .

(٢) مقامة في قواعد بغداد للكازروني ص ٧٤ .

(٣) المنتظم لابن الجوزي (٢ : ٢٧٦) .

(٤) مقامة في قواعد بغداد ص ٨٤ .

(٥) الكامل في التاريخ لابن الأثير (٦ : ٧٤) .

(٦) المنتظم لابن الجوزي (٢ : ٨٤) .

لأفراد الحاشية وغيرهم من كبار رجال الدولة (١) .

* * *

وكان يوم الجمعة يُعَدُّ عيدًا صغيرًا للمسلمين يحتفلون به كل أسبوع حيث يتوافدون فيه إلى المساجد لأداء الصلاة ، وكان خطباء المساجد يرتدون الزي الرسمي عند القاء خطبة الجمعة وهو القباء الأسود ، وكان هذا زيا رسميا للفقهاء والقضاة حتى سنة ٤٠٠ هـ ثم أصبح بعد ذلك مقصورا على الخطباء والمؤرخين ، واهتم المباسيون كذلك بعيد رأس السنة الهجرية ولما كان هذا العيد متنقلا دائما ليس له موضع ثابت لم يصر عيدا من الأعياد الشعبية بل ظل عيدا في قصر الخلافة ، لا يحيط به ما كان يحيط بغيره من الفخامة ، وكان الناس يتهادون فيه (٢) .

وكان المباسيون يحتفلون - كذلك - بالبولد النبوي الشريف منذ بداية القرن الرابع ، أما الاحتفال بمولد أمير المؤمنين على كرم وجهه ومولد ولديه الحسن والحسين رضي الله عنهما فكان قاصرا على الشيعة فسي فارس والمراق .

وكان عيد الغدير المعروف بغدير (خَمَّ) من الأعياد الهامة لدى الشيعة ، وهو يوافق اليوم الثامن عشر من ذي الحجة (٣) . وسبب احتفال الشيعة به ما يرويه المؤرخون من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بغدير خَمَّ وهو في طريق عودته من مكة إلى المدينة وأخذ بيد على كرم وجهه وقال له : " أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ؟ إلا أنه لا نبي بعدي " ثم التفت إلى أصحابه وقال " من كنت مولاه فعلي مولاه " اللهم والي من والاه وعاد من عاداه " (٤) .

(١) المنتظم لابن الجوزي (٧ : ٧٥) .

(٢) الحضارة الإسلامية لمتز (٢ : ٢٩٠) .

(٣) صبيح الأضنى (٢ : ٤١٧) .

(٤) المنتظم لابن الجوزي (٨ : ١٦) .

وكان معز الدولة البويهى أول من احتفل بهذا العيد سنة ٣٥٢ هـ
فضربت الدبابد^(١) والبوقات ، وأسرع الناس إلى زيارة قبور الأئمة والأولياء
فى الكوفة وبغداد^(٢) واستمر الاحتفال به طيلة العهد البويهى .

أما أهل السنة فكانوا يحتفلون بإحياء ذكرى يوم الفار مضاهاة لميبد
غدير^(٣) " خم " عند الشيعة ، وقيل إنه كان يوافق الثالث والعشرين من ذى الحجة
وهو اليوم الذى دخل فيه الرسول عليه السلام غار " ثور " هو وصديقه أبو بكر
أثناء الهجرة إلى المدينة ، وكان أهل السنة يبالغون فى الاحتفال بهذا
اليوم ، حيث يقيمون الزينات ، ويوقدون النيران ، وينصبون الأعلام ، ويظهرون
الفرح والسرور ، وقد ظل الاحتفال به حتى نهاية القرن الخامس الهجرى .

أما أعياد الفرس فكان أهمها " النيروز " والمهرجاني " والصنذ " .

ويعدُّ النيروز من أهم أعياد الفرس القديمة ، وهو أول أيام السنة
عندهم ، ويقع عند الاحدال الربيعى ، وكانت الاحتفالات تقام بهذا العيد
مدة ستة أيام كاملة^(٤) .

وقد احتفل به الناس على اختلاف طبقاتهم منذ أوائل العصر المباسى
وكانوا يتبادلون فيه الهدايا ، ويقومون الأفرار كما كان الفرس يفعلون من قبل^(٥)
وفضلا عن ذلك اقتدى بعض الخلفاء بالفرس فى جباية الضرائب أيام النيروز^(٥) .

وكان الخليفة المتوكل من أكثر الخلفاء اهتماما بتوزيع الهدايا فى
هذا العيد ، ويروى أنه منح الشاعر الخليل مائة دينار ومن كل بيت من

(١) الدبابد : جع دبداب . وهو الطبل . د / سرحان .

(٢) المنتظم لابن الجوزى (٨ : ١٦) .

(٣) نهاية الأرب للنويرى (٦ : ٧٧٢) .

(٤) المرجع السابق (٤ : ١٧٨) وصبح الأعشى (٢ : ٤١٨) .

(٥) صبح الأعشى (٢ : ٤١٩) .

(٥) مروج الذهب (٤ : ٧٢) .

الشعر في هذه المناسبة (١) .

وكان يعض الخلفاء يتقبلون الهدايا في هذا اليوم من الرعية ، فالخليفة المأمون أهدى إليه سَقَطٌ من الذهب فيه قطعة عود هندي (٢) .

وكان يعض الأمراء - أيضا - يتقبلون الهدايا في هذا اليوم أسوة بالخلفاء ، كما فعل ضد الدولة البويهية - إذ قبل من أبي اسحاق الصابسي رسالة هندسية من استخراج مصحوة بأبيات رقيقة من الشعر (٣) .

وكان من مظاهر الاحتفال بيوم النيروز - كذلك - أن يرش الماء على المارة ، وقد أكثروا من ذلك مرة فأصاب الجند والشرطة منهم ماء كثير فنودي في الأرباع ، والأسواق ببغداد سنة ٢٨٤ هـ بالنهي عن رش الماء (٤) .

ويذكر البيهقي * أن عادة رش الماء قد استمرت حتى نهاية القرن الرابع الهجري (٥) .

أما عيد * الشهرجان * فكان يقع في السادس والعشرين من أكتوبر - أي - في وسط الخريف ، وبمدة الاحتفال به ستة أيام ، وكان أفراد طبقات المجتمع يشتركون في الاحتفال به ، وهو شبيه بالنيروز من حيث تقديم الهدايا والمنع وسلايس الشتاء إلى اقواد ، ورجال دار الخلافة (٦) .

وكان الخلفاء يجلسون في هذا اليوم للمامة ، ولا يحتجبون - من أحد صغيرا كان ، أو كبيرا ، شريفا كان أو وضيعا (٧) .

(١) مروج الذهب (٤ : ٧٢) .

(٢) نهاية الأرب (١ : ١٧٧) .

(٣) البتية (٢ : ٢٥٥) .

(٤) تاريخ الأمم والملوك للطبري (٨ : ١٨١) .

(٥) الآثار الباقية للبيروني ص ٢١٥ .

(٦) البتية (٢ : ٢٥٦) .

(٧) التاج للجلحظ ص ٥٩ .

ومن الأعياد الفارسية التي انتقلت للمسلمين منهم عيد "السَّدَق" وكان يعرف بمعيد الـوَقُود ، وقد جرت المادة في القرن الرابع ، بالتخيـسـر ليلة الوقود لدفع المضرة ، وصار من مراسم الملوك في تلك الليلة إيقاد النيران وتأجيجها ، وإرسال الجحوش فيها وتطير الطيور في ليلها والمرب والتلهي حولها .

وكانت أشهر ليلة وقود في القرن الرابع علم ٣٢٣ هـ ٩٠٠ ففى هذا العلم أمر القائد الفارسى " مرداوىج " أمير بلاد الجبل في غرب إيران قبل ليلة الوقود بمدة طويلة أن تجمع الأخطاب من الجبال والتولى البعيدة وأن تنقل من واد قرب أصفهان ، وأمر بجمع النفط والنفاطين والزرايسق (٩) ومن يحسن مصالحتها ، واللعب بها ، وتقوم بإعداد الشموع العظام ، ولم يبق جبل عال ، ولا تل ظاهر إلا وضعت عليه الأخطاب والشوك ، وصيدت له النيران والحدأ وعمل بمجلسه الخاص تماثيل من الشمع ، وأساطين عظم لم يـمـثـلـها ليكون الوقود في ساعة واحدة على الجبال ورموس اليفاعات (١٠) ، والصحراء ثم جعل له سباط عظيم في الصحراء التي يرمز إليها من دارة وجمع فيه من الحيوانات والبقر والغنم آلاف كثيرة ، وزين بها لم تجر المادة بمثله فلما فرغ من ذلك وحضر الوقت الذي ينبغي أن يجلس فيه مع الناس للطعام والشراب ، خرج من منزله ثم طاف على كل ذلك ، فاستحققه ، واستصغر شأنه لأجل سمة الصحراء ، واغتاظ ودخل إلى خيمته ، واضطجع محولا وجهه إلى خلاف الباب لئلا يكلمه أحد (١١) .

* * *

أما أعياد النصارى ، فكانت كثيرة ومتعددة على مدار السنة ، وكانوا يحتفلون بها في الأديرة التي كانت تنتشر في العراق ، وغيرها من بلاد المسلمين .

- (٩) جمع : زرق - بوزن سكر - طائر صياد . د / سرحان .
(١٠) جمع يفاع بوزن سحاب وهو التل ، والياقعات : الجبال الضم د / سرحان .
(١١) الحضارة الاسلامية لاسم متر (٢ : ٢٨٢) .

وكانت الأديرة ببساتينها الفسيحة ، وقاعات شرابها الباردة وخورها
المحقة ، مقصدا لأهل البطالات ، وطلاب اللذة . وكثيرا ما كان ذكر
الأديرة يُقرنُ بذكر الخمر والشراب . .

ومن أهم الأعياد النصرانية في ذلك الحين . . عيد الميلاد ، وكانوا
يكثرون فيه من إيقاد الشموع والنيران (١) .

وعيد الشَّعَّانين ، وكان في مصر يسمى عيد الزيتون ، وهو يقع في يوم
الأحد الذي يسبق عيد الفصح من كل عام ، وكان النصارى يتقلدون فيهِ
الصلبان ، ويتوشحون بالمناديل المنقوشة ، ويحملون بأيديهم الخوص والزيتون ،
وكان الدير الأعلى بالموصل يحتفل بهذا العيد احتفالا كبيرا (٢) .

ومن أعيادهم المشهورة " عيد الفصح " وعندهم أن عيسى عليه السلام
قام فيه بعد الصلب بثلاثة أيام ، وكان يحتفل به في دير " سَمَّالُو " شرقي
بغداد ، ولا يبقى أحد من أهل الطرب واللهو الا حضره ، للقصف والمجون
وهناك يدور الشراب في جو مغمم بالفرح والسرور وفيه يقول محمد بن عبد الملك
الهاشمي :

وَلَرَّبَّ يَوْمٍ فِي سَمَّالُو تَمَّ إِلَى * فِيهِ السُّرُورُ وَغِيَّتْ أَحْزَانُهُ
وَأُخِ شُوبٌ حَدِيثُهُ بِحَلَاوِي * يَلْتَذُّ رَجْعُ حَدِيثِهِ نِذْبَانُهُ
جَمَلُ الرَّحِيقِ مِنَ الْمَدَامِ شَرَابُهُ
وَالْمَحْسَنَاتُ مِنَ الْأَوَانِ شَأْنُهُ
فَأَمَرْتُ سَاقِيَنَا وَقُلْتُ لَهُ اسْقِنَا
قَدْ حَانَ وَقْتُ شَرَابِنَا وَأَوَانُهُ
فَتَلَاعَتِ بِمَقُولِنَا نَفْسَانُهُ * وَتَوَقَّعَتْ بِخُدُودِنَا نِيرَانُهُ

(١) الكامل في التاريخ (٨ : ٢٢٢) .
(٢) الحضارة الإسلامية لآدم متر (٢ : ٢٢٨) .

حتى حَسِبْتُ لَنَا الهِطَاطَ سَفِينَةً
والدَّيْرُ تَرْقُصُ حَوْلَنَا حَيْطَانُهُ (١)

وكان عيد * دَيْرَ الثَّعَالِبِ * يقع في آخر سبت من يونيو وكان هذا الدير يقع في الجانب الشرقي من بغداد بالموضع المعروف بباب الحديد وكان أهل بغداد يقصدونه ويتروضون فيه ، ولا يتخلف عن عيده أحد من النصاري أو غيرهم لأنه أعر موضع ببغداد لما فيه من البساتين ، والنخيل والرياض ، ولموقعه الفريد وسط البلد (٢) .

وإلى جانب ذلك كانت هناك احتفالات تقام في دار الخلافة تجرى على نطاق محدود لمنح الخُلُوع والألقاب للأُمراء والوزراء والقواد والولاة عند توليتهم ، وهي تُعَدُّ مظهرًا من مظاهر تكريم الخلفاء لكبار رجال الدولة (٣) .

كما كانت هناك احتفالات محدودة ذوات طابع أسرية كحفلات الختان ، وكان الرجل يكرم أن يختن ابنه منفردا . .

ولذلك يحكى عن الخليفة المقتدر أنه ختن خمسة من أولاده ، وختن معهم جماعة من الأيتام ، ونثر في هذا الختان خمسة آلاف دينار عينا - أى ذهباً - ومائة ألف درهم ورقاً - أى فضة - وفرضت فيه دراهم وكُسًا ويقال إن النفقة في هذا الاحتفال بلغت ستمائة ألف دينار (٤) .

وعلاوة على ذلك كانت هناك احتفالات أخرى تجرى على نطاق ضيق كحفلات ختم القرآن الكريم التي كان الأحداث يشتركون فيها بأحسن الأزياء ، ويجهون طرق المدينة ينشدون الأناشيد وتقام المآدب ، وتوزع الخلع على القارئین (٥) .

-
- (١) الديارات ص ١٤ للشابشتي .
(٢) المصدر السابق ص ٢٤ (٣) المنتظم لابن الجوزي (٧ : ١٥) .
(٤) الحضارة الإسلامية لمتز (٢ : ٢٩٣)
(٥) تليمن ابلين لابن الجوزي ص ٣٨٢ .

ولقد كان لهذه الاحتفالات آثار اجتماعية ضارة تذكر منها على سبيل المثال ما يأتي :-

أولاً : كان لأعياد النصارى بصفة خاصة آثار سيئة على الأخلاق العامة حيث كانت الاحتفالات تقلم بهذه الأعياد على مدار السنة في الأديرة التي كانت تمتاز بمواقمها الفريدة ، وبساتينها الفسيحة ، وخبورها الممتعة ، وجواربها الحسان ، وغلمانها الملاح ، وكانت ملاجئ لأهل المجون والخلاعة ، وطلاب اللذة والموت ، والصهوة المحرومة ، حيث كانوا يتوافدون عليها من مختلف الجهات ، يلعبون ويمشون ، ويرتكبون الفواحش مظهر منها وما بطن مما كان له أسوأ الأثر على الأخلاق العامة في المجتمع الاسلامي .

ثانياً : كما كان للأموال الباهظة التي تنفق في هذه الحفلات في شتى المناسبات آثار اقتصادية سيئة مما أدى إلى انتشار الفقر بين الطبقات الدنيا التي كانت وحدها تتحمل عبء هذه المصروفات بما يفرض عليها من ضرائب وإتاوات فسدت الأحوال وتمطلت المصالح ، وعم الفساد .

وإلى جانب هذه الآثار الاجتماعية الضارة كان لهذه الاحتفالات جوانب حضارية نافعة ، ذلك أن التقاء المسلمين في مثل هذه الاحتفالات في شتى المناسبات ، كان من شأنه أن يولد بينهم التعارف والتألف ويؤدي إلى وحدتهم ، واندماجهم ، خاصة أن المجتمع الإسلامي في ذلك الحين كان يتكون من جنسيات مختلفة ، ويتألف من عناصر بشرية متباينة ، وأديان متنوعة .

كما كان للصدقات التي يوزعها الأغنياء على فقراء المسلمين في شهر رمضان ، ونصب الموائد المانة طوال هذا الشهر الكريم ، وكثرة لحومهم

الأصاحي التي كانت توزع على المساكين في عيد الأضحى كان لذلك كله أثره الواضح في تخفيف حدة الفقر بين الطبقات الكادحة ، وإحلال روح الجماعة لديهم ، والتغلب على الأحقاد التي تتولد في القلوب نتيجة للظلم الاجتماعي وسوء التوزيع وفقدان العدالة الاجتماعية •

وبالإضافة إلى ذلك كان تنظيم مسيرة الحج إلى بيت الله الحرام والإشراف التام على موكب الحج من طرف الحكومة المركزية في بغداد مؤدياً إلى تأمين طريق الحج وانتشار الأمن بينهم ، كما كان له أثره البالغ في تذكير حرمات الله ، والمحافظة على فرائضه ، وأداء واجباته ، وإقامة شعائر الاسلام الحنيف كما أدى هذا العمل العظيم إلى الحفاظ على هيبة المسلمين بين الأمم ورضع راية الاسلام عالية خفاقة بين الشعوب •

الفصل الخامس ::

الفنّاء والموسيقى

١ - الفناء وأطواره عند العرب :

أ - في العصر الجاهلي :

عرف العرب الفناء منذ الجاهلية ، والدارس للشعر الجاهلي يجده مرتبطا منذ نشأته بالفناء والموسيقى ، وفي شعر امرئ القيس ، ما يدل على أنه كان يفتنى أشعاره في جمع من النسوة . فكن يمجبن بانشاده ويشتقن الى سماعه حيث يقول :

يُرْعَنَ إِلَى صَوْتِي إِذَا مَا سَمِعْتَهُ
كما تَرْعَوِي عِطُّ إِلَى صَوْتِ أَعْيَسِ (١)

وفي أواخر العصر الجاهلي ظهر شاعر جاهلي مشهور هو الأعشى كان يفتنى أشعاره على آلة موسيقية ممروفة باسم الصنج ، ولذلك أطلق عليه لقب " صَنَاجَةُ العرب " .

وكثر في الشعر الجاهلي ذكر الفناء والمغنين ، والموسيقى ، وآلاتها مثل قول الأعشى في مملته :

وَمَسْتَجِيبٍ تَخَالَ الصَّنَجَ يُسَمِّمُهُ
إِذَا تَرَاوَجَ فِيهِ الْقَيْنَةُ الْفُضْلُ (٢)

وكقول طرفه في مملته :

نداباي بيض كالنجوم وقيننة
تروح علينا بين برد ومجسد

(١) ديوان امرئ القيس ص ١٠٦ .

(٢) مستجيب : عود يستجيب الى الضج وهو دوائر رقاق من نحاس ، يصفق باحدهما على الأخرى .
والفضل : التي تلبس ثوبا واحدا رقيقا .

رحيبٌ قِطَابُ الجيبِ منها رفيقة
بجسم الندامى بضعة المتجرد

إذا نحن قلنا: أَسَمِّينَا انبرت لنا
على رسلها مطروقة لم تسدد
إذا رَجَمَتْ في صوتها خلت صوتها
تجاوبَ أظفار على زنج ردى (١)

ثم أخذ الثناء يرقى ويتمدد في أواخر العصر الجاهلي - روى
الطبري أن هند بنت هبة بن ربيعة زوج أبي سفيان * وجماعة من نساء
قريش كنَّ يضربن على الدفوف في غزوة أحد ، وكانت هند تغنى في أثناء
هذا المعزف مقطوعات شعرية غنائية منها قولها :

إِنْ تُقِيلُوا نَعَائِي * وَتَقْشِرُوا النَّصَارِي
أَوْ تُدْبِرُوا تَفَارِي * فَرَأَى غَيْرَ وَامِي (٢)

وفي الأغاني * أن أبا سفيان لما نصح لقريش أن ترجع في غزوة بسدر
بحد أن رجعت القافلة سالمة إلى مكة قال أبو جهل : والله لا نرجع حتى نرى
بدراً فنقيم عليه ثلاثا ، وننحر الجزر ، ونظمم الطملم ، ونسقى الخمسور ،
وتعزف علينا القيان ، ونسمع بنا المرب (٣) .

وذكر ابن رشيقي * أن القبيلة من المرب كانت إذا نبغ فيها شاعر
أنت القبائل فهنتأتها ، وصنعت الأطممة ، واجتمعت النساء يلعبن بالمزاهر (٤) .

* المجسد : ثوب مصبوغ بالزعفران .

بضعة المتجرد : ناعمة الجزء المتحرى من جسدها .

مطروقة : كأن عينيها طرفت .

زنج : ولد الناقصة .

ردى : هالك . (١) شرح المعلقات السبع ص ٧٥ للروزني

(٢) الطبري (مجلد أول - ١٤٠٠) .

(٣) الأغاني (٨ : ٣٢٧) ط دار الكتب

(٤) العمدة (٣ : ٣٧) .

وفى أخبار امرئ القيس . أنه لما طرده أبوه كان يسير مع جماعة من صماليك العرب وشذاذهم ، فإذا صادف غديرا أو روضة أو موضع صيد أقلم فذبح لمن معه فى كل يوم ، وخرج إلى الصيد فيصيد ثم يعود فيأكل ويأكلون معه ، ويشرب الخمر ويستقيم وتنفيه قياته (١) .

كل هذه النصوص والشواهد تؤكد لنا بوضوح أن العرب فى الجاهلية قد عرفوا الفناء وأحبوه ، واستمتعوا به ، كما عرفوا الموسيقى ، وآلاتها ، وكانوا يستخدمونها فى الفناء وينشدون عليها الأشعار مما يدل على ارتباط الشعر الجاهلى بالفناء والموسيقى منذ نشأته .

ب - الفناء فى العصر الأموى :

وإذا ما انتقلنا إلى العصر الإسلامى وجدنا موجة الفناء تتراجع إلى الوراء ، وتأخذ فى التلاشى والانحسار ، ألم تحاليم الاسلام وحصافة أحكامه ، ومشغولية المسلمين بالفزو ، والجهاد فى سبيل الله ، وانصرافهم عن الشعر والفناء . إلى قراقرم القرآن الكريم ، وتدبر آياته ، والمكوف على السنة النبوية ، ودراسة أحكامها .

فلما وصل بنو أمية إلى الخلافة وحولوها إلى ملك وراثى عضوض ظهرت الأحزاب السياسية ، وعادت النمرة الجاهلية ، وأقبل العرب على سماع الشعر وروايته ، خاصة الشعر الجاهلى ، أو ما يحاكيه فى ألفاظه ومعانيه ، كما أقبلوا بشغف على الفناء والموسيقى خاصة فى الحجاز الذى عرف بكثرة المغنيات والمغنين ، وكان أكثرهم من الموالى من فرس وروم وغيرهما ، واشتهر منهم فى مكة : طويحوسائب وابن سريج وابن مسجع ، وابن مخزوم وغيرهم . كما ظهر معبد ومالك بالمدينة .

(١) الأغاني : دار الكتب (٩ : ٨٧) .

أما المغنيات فكان كثيرات بالمدينة واشتهرت منهن جميلة وسلامة
وعزة ، وحَبَابَةُ ، وَثَلْبَةُ وَلَذَّةُ المِيشِ وسَمِيدَةُ والزرقاءُ وعُقَيْلَةُ وَخَلِيدَةُ وغيرهن^(١)
وازدهر الفناء في الحصر الأموي وتنوع ألوانه فمُعرفُ الفناء العادي
كما عرف الفناء المصحوب بجوقة تضرب على الآلات الموسيقية بينما يفسون
المغنون . . .

وقد روى أبو الفرج " أن الناس اجتمعوا عند جميلة ، فضربت ستارا ،
وأجلست الجوارى كلهن فضربت وضربن على خمسين وترا فترلزت الدار ، ثم
غنت على عودها ، وهن يضربن على ضربها^(٢) .

واشتهر بعض خلفاء بني أمية بحبهم للفناء ، وميلهم للطرب . . أمثال :
يزيد بن عبد الملك الذي قال عنه أبو حمزة الشاري في خطبته : إنه كان " يشرب
الخمر ، ويلبس الحلة قومت بألف دينار ، وحَبَابَةُ عن يمينه ، وسَلَامَةُ عن يساره
تنتهانه حتى إذا أخذ الشراب منه كل مأخذ ، قَدَّ ثوبه ، ثم التفت إلى
إحدهما وقال : ألا أظير؟^(٣) .

وإذا كنت أشك في صحة كلام أبي حمزة الشاري عن الخليفة اليزيد بن
عبد الملك - نظرا للخصومة السياسية التي كانت قائمة بين جماعة الخوارج
وبين بني أمية ، ورغبة كل منهما في النيل من خصمه ، والغف من شأنه -
والتشهير به أمام المسلمين - فمن الثابت تاريخيا أن ابنه الوليد بن يزيد بن
عبد الملك كان شاعرا خليما يحب الفناء ، ويؤلف فيه ، ويضرب بالمود ويوقع
بالطبل ، ويمشي بالدف على مذهب أهل الحجاز^(٤) .

(١) الفن ومذاهبه في الشعر ص ٥٣ د شوقي ضيف .

(٢) أغاني ط دار الكتب (٨ : ٣١٨) .

(٣) البيان والتبيين للجاحظ (٢ : ١٢٣) .

(٤) أغاني دار الكتب (٩ : ٢٧٤) .

ج - الغناء في العصر المباسي :

أما في العصر المباسي فقد ارتقى فن الغناء ، وازدهرت الموسيقى وتقدمت الفنون والآداب ، " ومن يقرأ كتاب الأغاني الذي ألف في القرن الرابع الهجري يخيّل إليه أنه لم يكن في العصر المباسي إلا الغناء والموسيقى ، ولعل ما يدل على قيمة الغناء في ذلك العصر أن الجارية إذا كانت مفضية قومت تقويما ممتازا^(١) .

ومن أشهر المغنين الذين علا شأنهم وبعد صيتهم ، وطار ذكرهم في ذلك العصر إبراهيم الموصلي وإسحاق ومُخارق وعريب وغيرهم^(٢) .

ويرجع السبب في رقي الغناء في ذلك العصر إلى عدة عوامل نذكر منها ما يلي :-

أولاً : اختلاط المباسيين ، والعرب الفاتحين بالفرس والروم وغيرهم من الموالى بعد حركة الفتوحات الكبرى ، وتأثرهم بهم ، وكان كثير من هؤلاء مثقفين ثقافة ، واسعة في الغناء والموسيقى فغنوا بالميدان والمزامير ، والممازف ، وسمح العرب تلحينهم فأعجبوا بهم ولحنوا عليهم الأشعار^(٣) .

ثانياً : انتشار الجوارى في المجتمع المباسي بعد الفتوحات ، وكان أغلبهن من الروميات والفارسيات المثقفات بثقافة أجنبية راقية ، وقد اهتم النخاسون بتعليمهن الأدب والشعر والغناء والموسيقى ليضمن في الأسواق بأسعار عالية^(٤) .

-
- (١) الفن ومذاهبه في الشعر ص ٦١ د شوقي ضيف .
(٢) نهاية الأدب للنويري (٥ : ٩٦) .
(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٣٠٠ .
(٤) مروج الذهب (٤ : ١٦) .

وكانت الجارية الحاذقة منهن تروى أربعة آلاف صوت (١) ، وقد قامت الجوارى يدور كبير فى ترقية الفنون وعلى رأسهن الجارية عريب التى اشتهرت بنظم الشعر كما نبغت فى الفناء والضرب على الآلات الموسيقية كالمزود (٢) .

ويصفها صاحب الأغاني بقوله : " كانت عريب مثنوية محسنة ، وشاعرة سالحة ، وكانت واقرة الحظ والمذهب فى الكلام ، ونهاية فى الحسن والجمال ، والظرف ، وحسن الصوت ، وجودة الطرب ، واتقان الصنعة والمعرفة بالنغم ، والأوتار ، والرواية ، والشعر (٣) . (٤) "

ومن الجوارى اللاتي اشتهرن بالضرب على الآلات الموسيقية بجانب الفناء شاجية جارية عبدالله بن طاهر التى اعترف بفنها الخليفة الممتد .

ومنهن عبيدة الطنبورية التى اشتهرت بالضرب على الآلات الموسيقية خاصة الطنبور ، وكانت إلى جانب ذلك تميل إلى دراسة الأدب والشعر (٤) .

ثالثاً : كان لطبقة المثنئين تأثير كبير فى رقى الفناء والموسيقى فى المجتمع وعلى رأس هذه الطبقة : إبراهيم الموصلى الفارسى الأصل السدى اشتهر بالفناء وبلغ من إجادته له أنه استطاع أن يحدد الخطأ من ثلاثين صوتاً لثلاثين جارية يضررن ويثنين جميعاً على طريقة واحدة ، وينغم واحد على الأوتار ، وكان يقوم بتدريس الفناء ، ويجرى امتحاناً للمتقدمين منهم بأمر الخليفة (٥) .

(١) البيان والتبيين (١ : ٩٢) .

(٢) مروج الذهب (٤ : ١٦) .

(٣) هذا هو المشهور فى القاموس : أن عريب اسم رجل واسم فرس .
دكتور / سرجان .

(٤) (٣) الأغاني (١٩ : ٢٣٤) .

(٥) الأغاني (١ : ٢٨١) .

ومن المغنين من جميع بين صناعة الفناء وتأليف الكتب كما فمـلـ
جحظة المغنى الذى ألف سبعة كتب فى الفناء والمنادمة والطعام
وأخبار الخلفاء (١) .

رابعا : اهتمم الخلفاء بالفناء ، والموسيقى ، وتشجيع المغنين بالنـمـح
والهدايا وقد بلغ من تقدير بعض الخلفاء للمغنيين أنهم كانوا
يدعونهم لحضور مجالسهم ، كما فعل الخليفة الواثق الذى سمح
للمغنى إسحاق بحضور مجلسه ، وكان للواثق العلم بالألحان
والأصوات حتى إن مجموع أصواته بلغت حوالى المائة (٢) .

" ولعل مما يدل على مبلغ ما وصلت إليه هذه الصناعة من قيمة فى هذه
المصور أننا نجد طائفة من الخلفاء تترك فيها أصواتا مثل الواثق والمنتصر
والمعز ، وابن المعز ، وقد فتح أبو الفرج فى كتابه فصلا يدرس فيه ما تركه
أولاد الخلفاء من صنعة الفناء وصنيع إبراهيم بن المهدي وأخته عُلَيَّة مشهور
فى هذا الباب " (٣) .

" ولعل ذلك الرقى فى فن الفناء يفسر لنا انفعال الناس ازا
هذا الفن الذى أحكمه أصحابه ، فهم يروون أن بعض من كانوا يحضرون
مجالس المغنين ، كانوا ينطحون الممد من حسن ما يسمعون بل كانوا
يروون بأنفسهم فى الفرات من شدة الطرب لا يدرون ، وقد يمزقون أثوابهم
ويعلقون نعالهم فى آذانهم لا يسمعون ما يصنمون " (٤) .

-
- (١) الديارات ص ١٢ .
(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ١٣٦ .
(٣) الفن ومذاهبه فى الشعر ص ٦١ .
(٤) وواضح أن هذا الكلام مبالغ فيه جدا . د / سرجان .
الفن ومذاهبه فى الشعر ص ٦٢ .

وقد ظل المغنون والمغنيات موضع رعاية وتشجيع كثير من خلفاء بني العبّاس، ولم ينصرف عنهم سوى الخليفة المهتدى الذي حرم الفناء^(١) وكذلك القاهر الذي قبض على المغنيين وأمر ببيع المغنيات من الجوارى .

وعلى الرغم من تحركات الحنابلة وهجماتهم المتكررة على منازل المغنيين والمغنيات ، لم يتأثر فن الفناء بذلك ، وظل الاهتمام به وعقد مجالس الطرب سائدا في العراق وفارس طيلة القرن الرابع الهجرى .

٢ - مجالس الطرب والفناء :

كانت مجالس الطرب تمقد في قصور الخلفاء ، وكبار رجال الدولة ، وكان المغنون والمغنيات والندماء يحضرونها ، وكانت هذه المجالس تقام في شتى المناسبات كالاحتفال بتولية خليفة جديد ، فيغنى المغنون في هذه المناسبة بأغانٍ تتضمن تمجيد الخليفة وتهنئته بالمنصب الجديد كما كانت هذه المجالس تقام في الأعياد والمواسم كالنيروز والمهرجان .

ويذكر المسمودى * أن الخليفة الرافى أمر في ليلة " المهرجَان " بإحضار الجلساء في مجلسه ، بقصر التاج المظلل على دجلة ، ونفع في ذلك اليوم جميع الندماء والمغنيين والملهين بكثير من الدراهم والدنانير والخلع وأنواع الطيب^(٢) .

وكانت مجالس الفناء تقام أيضا في حفلات الزواج والختان ، كما فعل الخليفة المتوكل عند الاحتفال بختان ابنه أبى عبدالله الممتر إذ حضر المغنون والموسيقيون أمثال : عمرو بن بانة وابن المكي ، وأحمد بن أبى الملا ، وسليمان الطيال ، وصالح الدقاق ، وزيلم الزامر ، ومن المغنيات

(١) فوات الوفيات للكتبي (٢ : ٥٣٥) .

(٢) مروج الذهب (٤ : ٧٨) .

عريب وبنده جاريتها وسراب وعدد كبير غيرهن (١) .

وكانت المجالس الغنائية أحيانا تقام للتسلية والترفيه عن النفس
كما حدث من الخليفة المتتصر اذ أقام مجلسا للترفيه عن نفسه يوما ودعا
اليه المثنى بنانا فغناه :

لقد طال عهدي بالامم محمد
وما كنت أخشى أن يطول به عهدي (٢)

وفي هذه المجالس كان المثنون والموسيقيون والندماء والشعراء
يجتمعون في مجلس الخليفة عادة كما يجتمعون في مجالس كبار رجال الدولة
فيفسدني المثنون والقيان من خلف الستارة (٣) ويطرب الجميع ويهرجون
وكان الخليفة الوائى من أكثر الخلفاء المباسيين ميلا إلى إقامة الحفلات
الغنائية ، فقد روى أنه أقام مجلسين للفناء في ليلة واحدة (٤) .

وكان كبار رجال الدولة من الوزراء والأمراء والقواد يقيمون أيضا
مجالس للفناء كما كان الخلفاء يقيمون فيروى : أن أبا الحسن على بن
الفرات وزير المقتدر كثيرا ما كان يقيم حفلات غنائية يدعو إليها جماعة من
خواصه وكان يحضرها من المثنين والمثنيات عدد كبير (٥) .

وكان قاسم بن عبيد الله وزير الممتد يقيم المجالس الغنائية ويحضرها
الأدباء والشعراء ، وكثيرا ما كان يحدث في هذه المجالس أن تثار أحاديث

(١) الديارات ص ١٥٤ .

(٢) مروج الذهب للسمرودي (٤ : ٧٨) .

(٣) هذا كأنه يدل على أن هذه المجالس — لوصح الحديث عنها —
كانت متحفظة في تصرفاتها وكانت في حدود ماوراء الستارة . دكتور

سرجان .

(٤) الأغانى (١٩ : ١١٨) .

(٥) تحفة الآراء في تاريخ الوزراء للصابي ص ١٣٠ .

حول موضوع الشعر وقائله (١) .

كذلك اتخذ بعض الأمراء والأثرياء في مساكنهم أماكن واسعة ليقوموا فيها حفلات الفناء ، فالأمير بجكم التركي أقام في ليلة " المهرجان " مجلساً غنائياً فاق به مجلس الخليفة الراضى (٢) .

وكانت حفلات الفناء تقام - أيضاً - في بيوت الجوارى اللواتي كن يحترفن الفناء ، وكان عدد كبير من ذوى المكانة في المجتمع يحضرونها ، وعرفت الجارية المغنية عريب بذلك (٣) .

ولم يكن هناك فارق كبير بين مجالس الفناء ومجالس الشراب لأن المادة جرت على أن يحضر الندماء مجالس الفناء التي كان الشراب يقدم فيها أحياناً ومثل هذه المجالس كان يحضرها مختلف طبقات الشعب (٤) .

وكان مما يراعى في مجالس الفناء والشراب أن يجلس الندماء والمغنون ، والموسيقيون حسب مراتبهم ، ومراكزهم الاجتماعية ، ويذكر الجاحظ " أن الفرس هم الذين رتبوا الندماء والملهين والمغنين وجعلهم طبقات ، واقتبس المباسيون منهم هذه الطريقة (٥) .

* * *

وسهما يكن من شئ فقد قدر للفناء أن يزدهر في هذا العصر وأن يهتم به كثير من الخلفاء والحكام وأن يشغل بساكنه مختلف طبقات المجتمع مما كان له أبلغ الأثر في الحياة الاجتماعية ، وأسوأ المواقب على

(١) نشوار المحاضرة للتتوخي (١ : ٥٥) .

(٢) مروج الذهب (٢ : ٥٣) .

(٣) نهاية الأرب (٥ : ٦٦) .

(٤) البتية (٢ : ٣٠٩) .

(٥) التاج للجاحظ ص ٣٣ .

الأخلاق المأمة ، فقد كانت الجوارى المغنيات يظهرن ألبم الرجال ويغنيين
- غالبا - بشعر ماجن خليع ، وفي بعض الأحيان كانت حفلات الفناء تقلم
بين مجالس الشراب ، كما كانت تقام في الأديرة واليساتين ، خاصة في الأعياد
والمواسم كالنيروز والمهرجان* وفي عيد رأس السنة الميلادية حيث يجتمع
فيها الرجال لسماع صوت النساء مما أشاع الانحلال والمجون في المجتمع
وأدى إلى ضعفه وتفسخه ، كما كان لهذه المجالس التي كان الخلفاء يقيمونها
في قصورهم آثار سيئة على الخلفاء أنفسهم حيث كانوا ينصرفون إلى هذا
المبحث تاركين - ورائهم - أمور الدولة ، وأحوال الرعية ، يرى فيها الفساد
مما أدى إلى ضعفهم وخنوعهم ، وضياع هيبتهم ومكانتهم وسيطرة الموالى من
الفرس والأتراك عليهم *

وعلاوة على ذلك كان للأموال الطائلة التي كانوا ينفقونها في شراء
الجوارى المغنيات وعلى مجالس الفناء والطرب آثار اقتصادية مدمرة أدت
إلى انتشار الفقر والجهل في المجتمع *

وإلى جانب هذه الآثار الضارة كان لهذه الموجة من الفناء
والموسيقى آثار نافعة فقد ارتقت الأدواق ، ونمت المواهب ورق الشهور ،
وانتشر السرور والتفاؤل لدى طبقات المجتمع ، كما كان لهذه الموجة آثار
إيجابية أخرى فقد تقدمت الفنون وارتقت الآداب ، ورق الشعر ، وعذب
أسلوبه وتنوع أوزانه ، وتمددت مقطوعاته على نحو ما سنذكره في موضعه
- إن شاء الله تعالى - عند حديثنا عن أثر الفناء والموسيقى في أدب
اليتيمية *

:: الباب الثاني ::
.....

أبو منصور الثعالبي وكتابه اليتيمة *

١ - الفصل الأول :

حياة الثعالبي

٢ - الفصل الثاني :

ثقافته ومؤلفاته

٣ - الفصل الثالث :

اليتيمة

أ - التعريف بها

ب - الدافع الى تأليفها

ج - منهج الثعالبي وخصائصه فيها

٤ - الفصل الرابع :

أ - مدى تمثيلها لأدب القرن الرابع الهجري

ب - تأثيرها بالمؤلفات السابقة

ج - أثرها في الكتب اللاحقة

٥ - الفصل الخامس :

اليتيمة في ميزان النقد

* * *

:: الفصل الأول ::

حياة الثعالبي

أ - مولده ونشأته

ولد أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي نَيْسَابُورَ وهي يومئذ قلعة من قلاع العلم ، وحصن من حصون الممركة ، وقد وصفها ياقوت الرومي بقوله :

" نَيْسَابُورُ " بفتح أوله والعامية يسمونه " نساوور " وهي يومئذ مدينة عظيمة ، ذات فضائل جسيمة ، سمدن الفضلاء ، ومنبع الملأ ، لم أرَ فيما طوفت من البلاد مدينة مثلها ، وقد خرج منها من أئمة العلم من لا يحصى^(١) .

في هذه المدينة المريقة ، ذات الحضارة المجيدة ، ولد الثعالبي وكانت ولادته سنة ٣٥٠ هـ وقد أجمع على ذلك كل من أرخ له أو ذكر اسمه ، ولم يكن مولده في بيت رفيع العمد ، عظيم الجاه ، واسع الشراء ، وإنما وُلِدَ في بيت متواضع من أسرة فقيرة ، يعمل أفرادها في خياطة جلود الثمالب وعملها ، ذكر ذلك ابن خلكان حيث قال :

" الثعالبي " - بفتح الثاء المثناة ، والميم المهملة ، وبعد الألف لام مكسورة ، وي بعدها باء موحدة ، نسبة إلى خياطة جلود الثمالب وعملها ، قيل له ذلك لأنه كان قَرَّاءً " (٢) .

وقد أخذ الثعالبي يعمل فيما يعمل فيه أهله من هذه الحرفة المتواضعة ولكنه لم يلبث أن تبرع بها فتركها واشتغل مسلماً للصبيان^(٣) عل هذه الوظيفة الجديدة تدر عليه ربحاً واثراً ، وتكفل له حياة طيبة ، ولكن يبدو أن هذه المهنة كانت أسوأ من سابقتها ، فظل مُقْتَرّاً عليه قس الرزق ، وبقي يشمر ببؤس شديد ، وحرمان عظيم يتمثل في قوله :

(١) مصمّم البلدان (٨ : ٣٥٦) .

(٢) وفيات الأعيان (٢ : ٣٥٢) .

(٣) طبقات النحاة واللغويين (٢ : ١٠٨) .

ثَلَاثٌ قَدْ بُلِيَتْ بِهِنَ أَصْحَابُ
لِنَارِ الْقَلْبِ مَعَى كَالْأَنْفَاسِ
دُيُونٌ أَنْقَضَتْ ظَهْرِي وَجَنُورٌ
مِنَ الْإِيْلَامِ شَابَ لَهُ غُدَاثِي
وَفَقْدَانُ الْكَفَايِ وَأَيُّ عَيْشٍ
لَمَنْ يَنْتَبِى بِفَقْدَانِ الْكَفَايِ؟ (١)

ولم يذكر التاريخ لنا شيئا عن طفولته المبكرة ، أو نشأته الأولى
شأنه في ذلك شأن الكثيرين من علمائنا القدامى ، ولو قدر لنا أن نعرف
شيئا عن تفاصيل حياته في الصغر لأمكننا أن نلقى مزيدا من الضوء على
ميوله واتجاهاته ، ولكن المؤرخين ، ألقوا الكثير من أخبار حياته المبكرة ،
ولم يذكروا شيئا ذا بال عن نشأته ، إلا ما كان من عل أسرته في خياطة
جلود الثعالب ، وإلا ما كان من عله بمعد ذلك معلما للصبيان .

ولم يذكر التاريخ كذلك شيئا عن أسرته ، هل كانت عربية الأصل ؟
أم فارسية معربة ؟ ، فأبوه محمد بن إسماعيل لا يعرف عنه إلا اسمه ، وسكوت
المؤرخين عنه ، وتجاهلهم له يدل على أنه لم يكن له شأن يذكره ، ولم يذكر
التاريخ من سلسلة نسبه إلا آباء محمد و جدده إسماعيل . وذلك يدل على
أن أسرته لم تكن عربية ، إذ كان شأن العرب قديما الاهتمام بمعرفة
أنسابهم ، كما أنهم كانوا يترقبون - غالبا - عن الحرف المتواضعة ، والصناعات
المهينة - كخياطة جلود الثعالب ، ويتركونها للموالى والأعاجم .

وأغلب الظن أن أبا منصور - هذا - كان فارسي الأصل ، وأنه ولد لأبوين
متمربين ، وأنه كان يتكلم العربية ، ويؤلف بها لأنها كانت للشعب الاسلامي
لغة قومية ، لكونها لغة القرآن الكريم ، ولغة نبي المسلمين ، محمد عليه
أفضل الصلاة وأتم التسليم ، خاصة أن الثعالبي أحبه ، وأخلص لثعالبيه وهذا هو سرحب

الشمالي للمربية ، واقباله عليها ، وقد صرح الشمالي نفسه بسبب عشقه للمربية ، والتعلق بها في مقدمة كتابه " فقه اللغة ، وسر المربية " ، حيث قال :

" من أحب الله تعالى أحب رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم ، ومن أحب الرسول العربي أحب العرب ، ومن أحب العرب ، أحب المربية ، التي نزل بها أفضل الكتب على أفضل العرب ، والمجم ، ومن أحب المربية عني بها ، وثابر عليها ، وصرف همته إليها ، ومن هداه الله للإسلام ، وشرح صدره للإيمان ، وآتاه حسن سريرة فيه اعتقد أن محمداً صلى الله عليه وسلم خير الرسل ، والإسلام خير الملل ، والعرب خير الأمم ، والمربية خير اللغات والألسنة ، والاقبال على تفهمها من الديانة .. إذ هي أداة العلم ، وفتح التفقه في الدين ، وسبب إصلاح المعاش والمعاد " (١) .

ولذلك نجد الشمالي - وهو الذي عاش في بلاد فارسية ، يؤلف كتبه ، باللغة المربية ، التي أحبها وأخلص لها ، لأنها لغة القرآن الكريم ، ولغة النبي العربي عليه السلام .

فمصدر حبه للمربية هو الدين ، وليس التمسك للعرب والمروسة وهذا يؤكد ما ذهب إليه من أن الشمالي لم يكن عربياً ، وإنما كان فارسياً متعرباً شأنه في ذلك شأن الكثيرين من الموالى الذين كانوا يحبون المربية لأنها لغة نبي الإسلام ، ولغة القرآن الكريم ، الذي يؤمنون به ، ويخضعون لتعاليمه وأحكامه ..

وقد نشأ الشمالي محبا للعلم متطلعا إلى المعرفة ، فأقبل على القراءة ، وعكف على الدراسة ، واختلف في أوقات فراغه إلى الشيخ ، وما هي إلا سنوات حتى صار عالما من أعلام الفكر ، وشيخا من شيوخ الأدب ، وإماما

(١) مقدمة فقه الله وسر المربية للشمالي ص ٢ طبع بيروت .

من أئمة اللغة ، ومؤلفا كبيرا في كل فرع من فروع المعرفة ، فودع حياة
البؤس والتماسة وأقبلت عليه الدنيا بزخرفها ونعيمها ، واستطاع بمهله
الغزير وأدبه الرفيع ، وعلو قدمه في التأليف ، أن يسير في ست الملوك
ويتفيا ظلال السلاطين ، وينعم بخلصهم وعطاياهم . فقد اتصل بالصاحب
ابن عباد ، وزير فخر الدولة البويهى ، وأهداه كتابه " لطائف المعارف " .
كما اتصل بالأمير شمس الممالى قابوس بن وشمكير وأهداه كتابه " البهجة " .
و " التمثيل والمحاضرة " ، وأهدى " سحر البلاغة " ، و " فقه اللغة " إلى
الأمير أبى الفضل الميكالى ، وأهدى كتابه " النهاية فى الكناية " و " نشر
النظام " و " اللغات والطرائف " إلى ملون بن مأمون أمير خوارزم ، كما
أهدى كتابه " غرر ملوك القرم " إلى شقيق السلطان محمود المعروف بأبى
المظفر نصر (١) .

وفضلا عن ذلك كله كان الشمالى صديقا حميما للامير أبى الفضل
عبدالله الميكالى ، وكانت بينهما رسائل ومكاتبات فى الأخويات رواها
أبو إسحاق الحصرى فى كتابه " زهر الآداب " (٢) ، كما كان صديقا حميما
لوالد الباخريزى صاحب كتاب " التثنية " وكانت الدار تلاصق الدار ، ويجمع
بينهما الجوار ، ويدور بينهما فى الأدب حوار ، وتجرى لهما فى الممارسة
أشمارا (٣) .

" وقد نشأ الباخريزى أبو الحسن على بن الحسن صاحب " الدمية " .
فى حجر الشمالى بعد وفاة أبيه ، يأخذ من أدبه ، ويفيد من كتبه ،
ويربط سببه بسببه ، وأبو منصور يرعاه بمطقه ، ويلحظه بخارقه ، وكأنى بهذا
الصديق والى الباخريزى قد فارق الدنيا ، وترك ابنه لأبى منصور ثقة بأئنه

-
- (١) تاريخ الأدب فى ايران من الفردوس الى السعدى للمستشرق براون ص ١١٦ .
(٢) زهر الآداب (٢ : ١١) .
(٣) دمية القصر للباخريزى ص ٤٣٦ .

سيحسن كفالته ويجيد تربيته ، ٠٠ ولم ينس الباخري هذا الفضل لأبي منصور عندما كبر وصار من المؤلفين ، فكان واحدا ممن ترجعوا لحياة الشمالبي ولقد كنا نود أن تكون ترجمته لشيخه ترجمة طويلة مفصلة ييسر فيها الكثير من حياة الشمالبي ومولاته خاصة أنه تولى في حجره ، ونشأ في بيته ، ويعرف الكثير عن دقائق حياته ٠٠

ولكن على الرغم من ذلك كله لم يكن مذكور الباخري من أمره سوى حديث معروف ، وخبر مألوف ، ونبا مكشوف ولم يتكلم عن تفاصيل حياته وكتبه ، ولو قد فعل لأسدى لأستاذة وإلى عشاق الأدب والمربية خيرا كثيرا .

وربما كان أمرا عاديا أن الباخري لما سكت عن تفصيل حياة شيخه ، سكت غيره من المؤلفين فلم يذكروا من حياة الشمالبي أكثر من هذا الخبر المعروف حتى الحصري الزامن للشمالبي لم يذكر عنه أكثر مما ذكر الباخري وربما كان الحصري ممنورا في ذلك ، لأنه لا يجمعه بأبي منصور إلا أنه زائنه ، أما الباخري فتجمعه بأستاذة صلات كثيرة فقد كان له جارا وابنا وتلميذا ومع ذلك لم يذكر عنه إلا القليل (١) .

وأظن الظن أن الذي جعل الباخري وغيره لا يذكرون ٠٠ عن أبي منصور إلا هذا الخبر المعروف : هو أن الرجل كان في عصره ذا شهرة واسعة وصيت بعيد ، وأن شهرته ، ومولاته ، قد جعلت المؤرخين يتوهمون أن حديثهم عنه لا فائدة منه ، ولا قيمة له ، بعد أن عرف الناس من أمره الكثير ٠٠

وقد صرح ألباخري في حديثه عنه بما يفيد ذلك إذ يقول :
" هو جاحظ تيسابور ، وزبدة الأخقاب والدهور ، لم تر العيون مثله ، ولا أنكرت الأعيان فضله ، وكيف ينكر ، وهو المزن يحمد بكل لسان ؟ وكيف

(١) قد يسم " التمثيل والمحاضرة " للأستاذ عبدالفتاح محمد الحلو ، بتصرف .

وابن الأنبارى فى " نزهة الألباء " (١) ، وابن خلكان فى " اللغات " (٢)

ولكن هناك من المؤرخين من ذكر أن وفاته كانت سنة ٤٣٠ هـ ومن هؤلاء اليافعى فى " مرآة الجنان " (٣) وحاجى خليفة (كاتب حلى) فى " كشف الظنون " (٤) وابن الممادى " شذرات الذهب " (٥)

وأغلب الظن أن وفاته كانت سنة ٤٢٩ هـ لأن الذين ذكروا ذلك كانوا أسبق إلى عصر الثعالبى من غيرهم .

ولعل الذى أوجد هذا اللبس ، أنه أشيع أن الثعالبى قد عاش ثمانين عاما مما حدا بالفريق الثانى أن يذكر وفاته ضمن أحداث سنة ٤٣٠ هـ .

وربما كانت وفاته فى أواخر سنة ٤٢٩ هـ فكان هذا الوم — من المؤرخين ، ولو أن وفاته كانت فى أولها لما اختلط عليهم هذا الأمر .

ب - أخلاقه

كان أبو منصور الثعالبى من أعظم أدباء القرن الرابع خلفا وأكثرهم نبلا وفضلا ، وأشدهم تمسكا بعبادى الدين ، وخضوعا لتعاليمه ، وامتثالاً لأوامره ، واجتناباً لنواهيه .

وعلى الرغم من كثرة الفساد فى عصره ، وانتشار المجون والفسق ، لم يعرّف عنه أنه مشى إلى ريبة ، أو أتى فعلا يثلم دينه ، أو يشين شرفه ، ولم يسمع عنه أنه تصرّف بإقامة الشكائر الدينية .

(١) نزهة الألباء فى طبقات الأدباء ص ٣٦٥ طدار المعارف .

(٢) وفیات الاعيان (٢ : ٣٥٢) .

(٣) مرآة الجنان ، وعبرة اليقظان (٣ : ٥٣) .

(٤) كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون (٢ : ٦٥٨) .

(٥) شذرات الذهب فى أخبار من ذهب (٤ : ٢٤٧) .

والدارس لكتبه الكثيرة التي خلفها لنا: يشمر بأن الرجل كان سليم الدين ، صحيح العقيدة ، كامل المروءة ، محبا للإسلام ، متملقا بالمربية ، مشغوبا بها ..

وكان الى جانب ذلك عظيم الوفاء ، شديد التواضع لين المبركة ، حسن السمائل ، كثير المجاملة للآخرين .. ولعل هذا هو ما جعل النقاد المحدثين ^(١) يتهمونهم بضعف الشخصية لأنه يكيل المدح لمن يترجم لهم بدون حساب ..

وعندى أن ذلك لا يدل على ضعف الشخصية بقدر ما يدل على التواضع والحلم والمجاملة ..

والدارس لكتبه - على كثرتها - لا يرى فيها أثرا للزهو ولا للكبرياء - شأن غيره من أدباء ذلك العصر ونقاده أمثال : المتنبي ، والصاحب ، والحاتمي ، وغيرهم - وإنما نلمس فيها اليسارة والسهولة والتواضع الجهم .

والدارس لكتبه يلمس فيها كذلك أماته العلمية ، حيث ينسب المنقول إلى قائله ، ويلقى بالمسئولية على الراوى ، فيقول مثلاً " حدثني فلان " و " سمعت من فلان " ويذكر أحياناً أنه وجده بخط أبي بكر الخوارزمي ، ويقول " قرأت في كتاب " التحف والظرف " لابن لبيب غلام أبي الفرج البيناء " ، وغير ذلك كثير في كتبه ، خاصة كتاب " اليتيمة " ..

وعلى الرغم من كثرة الخصومات الأدبية التي بلغت أوج قوتها في هذا العصر بين الشعراء والكتاب - كذلك التي حدثت بين أبي بكر الخوارزمي ، وبيديع الزمان بسبب الصراع المذهبي ، والتنافس على المال والجاه وتلك التي كانت بين الصاحب والمتنبي ، وبين الحاتمي والمتنبي ، وبين

(١) الدكتور محمد مندور في كتابه النقد المنهجي عند العرب ص ٣٠٥ ، والدكتور طه حسين في تقديمه : لذكيرة ابن بسلم .

الصاحب وأبى حيان ، وبين ابن لنكك البصرى ، وشعراء عصره ، وبين السرى
الرفاء والخالديين إلى غير ذلك من الخصومات الأدبية التى كثرت فى هذا
العصر .

أقول : على الرغم من هذه الممارك الطاحنة بين أدباء ذلك العصر
نجد أبا منصور طراز فريدا بينهم . .

فلم يعرف عنه أنه خاصم شاعرا ، أو عاذله كاتباً ، أو تنكر لولى نعمة ،
وإنما كان معروفًا بالتسامح ، والتواضع ، والحب الشديد لأدباء عصره . .

وانك لتلمس ذلك فى مجملاته الكثيرة لهم فى كتاب " اليتيمة "
وعلى الرغم من كثرة الهجاء فى عصره ، وشدة فحشه واقذاعه ، لا نكاد نجد
شاعرا ، ولا كاتباً ، قد هجا أبا منصور أو تهكم به ، ولكننا نجد الكثيرين
يمدحونه ويثنون عليه ، كأبى الفتح البستى الذى قال عنه :

قلبي رهيبٌ بِنَيْسَابُورٍ عِنْدَ أُنْجٍ
مَا يَمْلُكُ - حِينَ تَسْتَقْرِى الْبِلَادَ - أُنْجٍ

له صحائف أخلاقٍ مَهْنَبَةٍ
من الحجى والملا وَالظَّرْفِ تَنْتَسِخُ (١)

حتى الأمراء أمثال : الأمير أبى الفضل الميكالى ، والأمير أبى نصر
سهل بن الْقَزْزِيَّان وغيرهما عرفوا له هذه المنزلة المالية ، وقدره حق قدره
فى شعرهم ونثرهم مما يدل على أن الرجل كانت له مكانة سامية ، ومنزلة رفيعة
بين أدباء عصره . . وهذا - من غير شك - يدل على كرم أخلاقه وحييده
صفاته .

* * *

(١) اليتيمة (٤ : ٢٩٩) .

ج - منزلته بين الأدباء

إذا كان الناس - عادة - يتقربون للأغنيا طمعاً في المال - والنوال ويتملقون الحكم خوفاً من البطش والتكال ، فان أبا منصور كان خلواً من كل ذلك ، فلم يشتهر بالفنى ووفور المال ، ولم يكن صاحب منصب ولا جاه ولا حسب يتناول به ٥٥

ولكنه على الرغم من ذلك دفع الناس إلى حبه وتقديره ، بعلمه الذى كان يزيه ، وأدبه الذى كان يتحلى به ، وتواضعه الذى كان غرة في جبينه وتاجاً فوق رأسه ٥٥ وما من ناقد ، أو أديب ، أو لغوى أو مؤرخ منذ عصره إلى وقتنا هذا إلا استفاد من علمه واعترف من بحره ، واعترف له بالفضل والسبق ٥٥

ولا غرابة في ذلك فقد كان الرجل يمثل ثقافة عصره - أصدق تمثيل - فكان كاتباً مبدعاً ، وشاعراً عظيماً ، ولغوياً متبحراً ، ومؤرخاً كبيراً حتى أطلق عليه أهل عصره جاحظ نيسابور ٥

وقد ذكرت فيما سبق كلمة التلميذ الباخري عنه " هو جاحظ نيسابور وزبدة الأحقاب والدهور ، لم تر الميرون مثله ، ولا أنكرت الأعيان فضله ، وكيف ينكر ، وهو المزن يحمد بكل لسان ، وكيف يستر وهو الشمس لا تخفى بكل مكان " (١) ٥

وإذا كان هذا القول من الباخري فيه شيء من المبالغة والمجاملة - لأنه صادر من تلميذ عن أستاذه الذى تربى في حجره - فان غيره من أهل عصره قد أثنوا على أبى منصور ثناءً عظيماً ٥

(١) دمية القصر وعصرة أهل المصر للباخري ص ٤٣٦ ٥

يقول أبو اسحاق الحصرى فى زهر الآداب : " وأبو منصور هذا يمشى إلى وقتنا هذا وهو فريد دهره وقريع عصره ، ونسيج وحده ، وله مصنفات فى العلم والآدب تشهد له بعلو الرتب " (١) .

وهذا القول من أبى اسحاق الذى لا يجمعه بأبى منصور الا الميئش فى عصره . يدل على مكان للرجل من مكانة عالية فى نفوس أهل زمانه .

أما ابن الأنبارى المتوفى سنة ٥٧٧ هـ فيصفه فى كتابه " نزهة الألبيا " فى طبقات الأدبا " بأنه : " كان أديبا ، فاضلا ، فصيحاً ، بليفا " (٢) .

وينقل ابن خلكان المتوفى سنة ٦٠٨ هـ رأى ابن بسام صاحب الذخيرة فى الثماليين يقول : " قال ابن بسام صاحب الذخيرة فى حقه " كان فى وقته راعى ثلمات العلم ، وجامع أشتات النثر والنظم ، رأس المؤلفين فى زمانه وألم المصنفين بحكم أقرانه ، سار ذكره سير المثل ، وضربت إليه آباط الأبل ، وطلعت دواوينه فى المشارق والمغارب طلوع الشمس فى الفياهب ، وتواليفه أشهر مواضع ، وأبهر مطالع ، وأكثر من أن يستوفىها حد أو وصف أو يوفى حقها نظم أو رصف " (٣) .

ويقول ابن كثير فى كتابه " البداية والنهاية " : كان إماماً فى اللثة والأخبار وأيام الناس ، بارعاً مفيداً له التصانيف الكثيرة فى النظم ، والنثر ، والبلاغة ، والفصاحة " (٤) .

هذه هى آراء المصنفين والنقاد القدامى فى الثماليين وهى تدل على أن الرجل كان أهلاً لكل مدح وثناء بما بذله من جهد وعرق فى سبيل تحصيل

-
- (١) زهر الآداب وشر الألباب (١ : ٤٥٣) .
 - (٢) نزهة الألبيا فى طبقات الأدبا (ص ٣٦٥) ط دار نهضة مصر .
 - (٣) وفيات الأعيان (٢ : ٣٥٢) .
 - (٤) البداية والنهاية لابن كثير (١٢ : ٤٤) ط كردستان بمصر .

المعلم ، والسمى الى المصرفة ، وبما خلفه لنا من مؤلفات تشهد له بحـلو
القدر وارتفاع المنزلة . .

أما المحدثون : فيرى الأستاذ جورجى زيدان أن أبا منصور " يُعَدُّ
خاتمة مترسلى هذا العصر ، وأهم أدبائه ، ونجم الخاتمة ، لأنه كان
أكثرهم آثارا وأوسمهم مادة ، وأغزرهم علما ، وهو الذى ترجم لهم ، وذكر
أخبارهم وأقوالهم (١) .

ويرى الدكتور زكى مبارك ، أن الثمالى فوق كل مدح ، وفضله على
المربية أعظم من أن يقدر ، ويرى أن مؤلفاته لو ضاعت لفقدت المربية جزءا
من تراثها ويتساءل قائلا : * من الذى يستطيع أن يحدد خسارة الأدب
المربى لو ضاعت يتيمة الدهر ، أو ثمار القلوب ؟ (٢)

أما الدكتور مندور فينقل ما قاله ابن خلكان عن الثمالى (٣) ، ولكنه
يتحامل على الرجل يحد ذلك فيتهمه بضعف الشخصية ، وعدم الدقة فى
القاء الأحكام ، ويقول عنه " وفى الحق أن الثمالى حتى فى كتبه " فراء "
يخيط آراء " غيره بعضها إلى بعض فهو جامع أكثر منه ناقد ، أو مؤلفا " (٤) .

وفى رأى - أن الثمالى - وإن كان جامعا لأشعار أهل عصره
وآرائهم - كما قال الدكتور مندور - ليس مجرد جامع لا رأى له ، ولا شخصية
لأن الدارس لكتبه يرى أن له شخصية متميزة واضحة ، وآراء نقدية صائبة ،
وملاحظات دقيقة كَمَاحَة تدل على التذوق الرفيع كما تدل على غزارة العلم
والمعرفة . . تلك الملاحظات التى لم يستطع الدكتور - نفسه - أن يتجاهلها
على الرغم من تحامله على الثمالى فهو يعترف مثلا : بأن الثمالى قد

(١) تاريخ آداب اللغة المربية (٢ : ٢٧٦) .

(٢) مجلة البلاغ الأسبوعية السنة الرابعة .

(٣) وفيات الاعيان (٢ : ٣٥٢) .

(٤) النقد المنهجى عند العرب ص ٣٠٧ ط دار نهضة مصر بالقاهرة .

لاحظ أن المتنبي كان يخاطب الممدوح من الملوك بمثل مخاطبة الجيب • •
وأنة يستعمل الغزل والنسيب في أوصاف الحرب والجد ويقول : " والسدى
لا أشك فيه أن له فضل ملاحظة الظاهرة تم فضل تعليلها " (١) •

ولعل هذا التراجع من جانب الدكتور مندور يدل على أن الرجل
لم يكن مجرد جامع لآراء غيره من غير وعى ولا إدراك كما قال •

والدارس للكتاب " اليتيمة " يجد للشمالي " لفتات نقدية صائبة
بصرف النظر عن نقده للمتنبي الذي كان متأثرا فيه بآراء القاضي الجرجاني ،
والصاحب ، والحائمي ، وغيرهم من نقاد عصره •

ولعل هذا هو ما حدا بالدكتور مندور أن يقول عنه : انه كان ناقلا
جامعا ، وليس مؤلفا ، ولا ناقدا •

وقد تارق الشمالي الدنيا بعد أن ترك تراثا أدبيا ونقديا ولغويا
وعلميا ضخما ، وبعد أن وصل في عالم الشهرة والصيت إلى شأو جدِّ بعميد •

* * *

(١) النقد المنهجي عند العرب ص ٣١١ •

الفصل الثاني ::
.....

ثقافته ومؤلفاته

أ - مصادر إلهامه وثقافته

نشأ الثعالبي في نيسابور ، وهي يومئذ من أعظم مدن خراسان
عمراناً ، وأكثرها حضارة ، وأعرقها ثقافة ، وقد عاش فيها الشاعر ، والكاتب ،
واللغوي ، والمحدث ، والفقير ، واشتهرت بمدارسها الراقية ، ومعاهدها
الماسرة .

في هذه البيئة الخصبة بالعلم والمعرفة شب الثعالبي وترعرع وعلى
الرغم من اشتغاله بخياطة جلود الثعالب في مطلع حياته ومستقبل أيامه ،
كان يتردد على مجالس العلماء ، ويختلف إلى شيخ الأدب واللغة ،
ويستفيد من الفقهاء والمحدثين في خراسان .

فإذا ما جاوزنا بيئته الخاصة - وهي نيسابور وما جاورها - من مدن
خراسان - إلى بيئته الإسلامية العامة ، وجدناها زاخرة بمختلف المؤلفات
في العلوم والفنون والآداب . . . ولم يحدثنا التاريخ عن بيئة .
خصبة بعلامتها مثل ما حدثنا عن البيئة الإسلامية العامة الذي نشأ فيها
ذلك الرجل العظيم .

وقد كان لدى الثعالبي اعتماد فطري لتلقي العلم ، وتقبل المعرفة ،
كما كان مشغولاً بالأدب ، محباً للعلم ، راغباً في الدراسة فاستفاد من
بيئته الخاصة والعامة فائدة عظيمة . . . وكان لهما أكبر الأثر في تكوينه
العلمي والأدبي واللغوي . . .

والتاريخ لم يذكر لنا شيئاً عن شيوخه الذين أخذ عنهم وأساتذتهم
الذين اختلف إليهم ، وتأثر بأفكارهم وآدابهم ولهذا لا نكاد نعرف شيئاً
عنهم إلا من خلال ما صرح به الثعالبي نفسه في مقدمة كتابه " فقه اللغة "
إذ يقول :

" وأنتجع من الأئمة مثل الخليل والأصمى وأبى عمرو الشيباني والكسائي والقرآء وأبى زيد وأبى هبدة وابن الأعرابي والنضر بن شعبل وأبى المباس وأبى دريد ونفطويه وابن خالويه والغازني والأزهري ومن سواهم من ظرفاء الأدباء الذين جمعوا فصاحة العرب البلغاء ، إلى إتقان العلماء ووعورة اللغة ، إلى سهولة اليلقة كالمصاحب أبى القاسم ، وحيزة ابن الحسن الأصبهاني ، وأبى فتح المرائي ، وأبى بكر الخوارزمي ، والقاضي أبى الحسن علي بن عبدالمزير الجرجاني وأبى الحسن أحمد بن فارس بن زكريا القزويني (١) .

هؤلاء هم شيخ الثعالبى الذين كان لهم أكبر الأثر فى ثقافتهم وفى تكوينه العلمى والأدبى ، ولا غرابة فى ذلك فقد كان منهم الأديب ، والناقد ، واللغوى ، فأقبل الثعالبى على آثارهم ، وأقوالهم وأخذ ينهل من حياضهم ، ويخترق من بحورهم ، ويقتطف من ثمارهم على نحو ما صرح به فى قوله " وأجتلى من أنوارهم ، وأجتنى من ثمارهم وأقتفى آثار قوم قد أقفرت منهم البقاع ، وأجمع فى التأليف ، بين أبنكار الأبواب والأوضاع ، وعيون اللغات والألفاظ " (٢) .

ولا يحقل أن يكون الثعالبى قد أخذ عن كل هؤلاء الثقاق بطريق الاختلاف إلى حلقاتهم ، والتردد على مجالسهم ، والاستماع إلى أقوالهم وآرائهم ، لأن الكثيرين منهم لم يكونوا فى عصره ، كأبى عمرو بن الملاح المتوفى سنة ١٥٧ هـ ، والخليل بن أحمد المتوفى سنة ١٧٤ هـ ، وأبى عمرو الشيباني المتوفى سنة ٢٠٦ هـ ، والأصمى المتوفى سنة ٢٤٦ هـ .

ولا أشك فى أن مؤلفات هؤلاء الأعلام وآثارهم كانت المنبع السدى استقى منه - أبو منصور - ثقافته .

(١) مقدمة فقه اللغة للثعالبى ص ١٠ ط بيروت .

(٢) المرجع السابق ص ١٠ .

أما الذين عاشوا في عصره فليس ببعيد أن يكون قد تردد على دروسهم ، وأخذ منهم مشافهة أمثال : القاضي الجرجاني المتوفى سنة ٣٦٦ هـ ، وقد تأثر به الثعالبي كثيرا خاصة في نقده للمتنبي ، وابن خالويه المتوفى في سنة ٣٧٠ هـ ، والأزهري المتوفى سنة ٣٧٠ هـ أيضا ، وأبي بكر الخوارزمي المتوفى سنة ٣٨٣ هـ ، والصاحب المتوفى سنة ٣٨٥ هـ ، وابن فارس المتوفى سنة ٣٩٠ هـ ، والجوهري المتوفى سنة ٣٩٣ هـ ، وأبي حلال العسكري المتوفى سنة ٣٩٥ هـ .

ويبدو أن أبا بكر الخوارزمي كان من أكثر أساتذته تأثيرا فيه فلقد كان يخصه بمطافه ، ويغمره بمودته ، وينشده من بنات أفكاره ما كان يضمن به على غيره .

يقول الثعالبي : " وكان أكثر ما ينشدني ، ويكتبني ما يضمن به على غيري . من تلك الغرر التي تجري مجرى السحر ، والملح التي يقطر منها الظرف " (١) .

ولقد كان بين الرجلين الكثير من وجوه الشبه في الاخلاق والصفات وطريقة التفكير .

فأبو بكر الخوارزمي كان من الشخصيات التي أدت أدوارا كبيرة في عالمي الأدب واللغة في القرن الرابع ، وكذلك كان الثعالبي فقد حفظ تراث ذلك القرن من الضياع ، إذ جمعه في كتابه " يتيمة الدهر " .

وقد اشتهر الخوارزمي بكثرة الحفظ ، والتبحر في رواية الشعر ، وكان الثعالبي كذلك معروفا بكثرة حفظه وجمعه للأشعار ، ولعل " كتاب اليتيمة " هو أكبر شاهد على ذلك .

(١) اليتيمة (١ : ١٥) .

وسر البلاغة عند الحَوَارِثِيِّ يرجع إلى الصدق فلن يكون للشاعر
أو الكاتب وصول إلى سحر البلاغة ، وسر البيان إلا إذا صدق ، وفسى
الصدق وحده سر المبقرة والنبوغ (١) .

وكذلك كان تلميذه الثمالي الذي يرى أن لكل شئ حلية وحلية
الأدب الصدق (٢) .

وإن قد عرفنا مصا در الهامة ، ومنابع ثقافته ، وهى استمداده
الطبرى ، وجبه للملم والمعرفة ، وتأثره بالبيئة العلمية الخاصة فى خراسان
والبيئة العلمية العامة فى الدولة الاسلامية الواسعة ، وعرفنا كذلك شيوخه
الذين أثروا فيه وكان لهم أثير الأثر فى تكوينه علميا وأدبيا .

أقول : بعد أن عرفنا ذلك كله ، لابد أن نتعرف على نوع ثقافته ،
وهل هى ثقافة أدبية خالصة ؟ أم هى ثقافة علمية شاملة ؟ وهل كانت
ثقافة عربية فقط ؟ أم كانت ثقافة عربية وفارسية ؟؟ ؟

والدارس لكتب الثمالي ، ومؤلفاته يستطيع أن يجيب بكل وضوح ويسر
على هذه التساؤلات الحائرة .

فلقد كان الرجل أدبيا ، وناقدا ، ومؤرخا ، وعالما من علماء اللغة
والدين ، كما كان حافظا للقرآن الكريم متأثرا به فى مؤلفاته وأقواله
ويتضح ذلك فى كتبه " الفرائد والقلائد " ، و " الإعجاز والإيجاز " وخاص
الخاص وغيرها .

والقارىء لكتابه " التنثيل والمحاضرة " يعرف مدى اطلاعه
على الأحاديث النبوية ، وحفظها ، وكثرة روايتها والاستشهاد بها . كما أن

(١) النشر الفنى فى القرن الرابع الهجرى (٢ : ٢٦٧) .

(٢) ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب للثمالي ص ٦٥٩ .

اطلاعه على كتب اللغة ومجالسته للفحول ممن عاشوا عصره قد أتاحا له ثقافة
لنوعية هائلة مكنته من تأليف كتاب في " فقه اللغة " يَمْدُّ رائدًا في هذا
الفن ، وقدوة لكثير من المؤلفين الذين تمججوا على منواله مثل ابن سيده في كتابه
" المخصص " الذي سار فيه على طريقة الثعالبي .

وإذا كان الأستاذ أحمد أمين يرى أن فكرة الكتابين ظهرت للرجليين
في وقت واحد (١) فاني أرجح أن يكون ابن سيده قد حاكى الثعالبي فسي
تأليفه - كما قلت - خاصة أن أهل الأندلس وغيرهم من بلاد المغرب
كانوا يقلدون المشاركة في كل شيء ، حتى لقد غاب عليهم ابن بسلم
صاحب الذخيرة هذه الظاهرة عندما قال :

" انه لو نعتى بتلك الاتفاق غراب ، أو طن بأقصى الشام والمراق ،
ذباب ، لجثوا على ذلك صنما ، وتلوا ذلك كتابا محكما " (٢) .

والقارىء لكتاب " التمثيل والمحاضرة " يدرك أن الثعالبي كان مثقفا
ثقافة دينية عالية حتى إنه لا يكتفى بالاستشهاد بالقرآن الكريم ، والأحاديث
النبيه الشريفة ، وإنما يستدل كذلك بآيات ومواضع من التوراه ، والإنجيل .

ولم تكن ثقافة الثعالبي عربية خالصة ، وإنما كان ملما - بالإضافة
إلى تبحره في العربية - باللغة الفارسية قراخ وكتابة ، وفهما ، ونحس -
نلمس ذلك بوضوح في كتابه " غرر ملوك الفرس " حيث يورد كلمات
فارسية كثيرة ، ويقوم بشرحها ، وتحليلها .

(١) ظهر الاسلام (١ : ٢٧٢) ط بيروت .

(٢) تاريخ النقد الأثني د . محمد زغلول سلام (٢ : ٦١) ط دار
المعارف بمصر .

وهكذا كان الثمالي إماماً فني كل فن ، وأستاذاً في كل
علم ، حتى ليكن القول : بأنه كان يمثل عصره ، وثقافته
عصره ، أصدق تمثيل ، وقد أطلق عليه رجال عصره جاحظ
نيسابور . .

ولم يكتفِ الكتب الكثيرة التي خلفها لنا ، والتي سلم بعضها من غوائل
الدهر خير شاهد على ما نقول .

ب - آثاره ومؤلفاته

لقد قدر للشمالي أن يمشى طويلا ، وكان عمره المديد حافلا بجلائل الأعمال في خدمة الأدب ، واللغة والدين ، وناقى الشمالي الحياة الدنيا - مرضيا عنه - بعد أن ترك تراثا ضخما في مختلف الملم ، والفنون ، والآداب .

ولقد استطعت بعد جهد ومشقة أن أجمع أسماء مؤلفاته وكتبه المطبوع منها والمخطوط ، والموجود ، والمفقود ، من بطون الكتب وأسماها المراجع ، خاصة كتب التراجم والتاريخ .

ولقد استمعت في ذلك بجهود الأخوة الذين قاموا بتحقيق كتب الشمالي ، أو بدراسة آثاره ، أمثال : الأستاذ عبدالفتاح الحلو الذي جمع الكثير من مؤلفاته ، في رسالته الباعية " أبو منصور الشمالي وآثاره الأدبية " والأستاذ على موسى الذي أشار إلى معظم هذه المؤلفات في رسالة التخصص التي كتبها عن ثقافة الشمالي وأثرها في نقده للمتنبي ، وأمثال الأستاذين إبراهيم الأبياري ، وحسن كامل الصيرفي في تقديمهما لكتاب الشمالي المشهور " لطائف المعارف " وغير هؤلاء . أمثال : الأستاذ جوزي زيدان في كتابه " تاريخ آداب اللغة العربية " .

وبعد ذلك كله أستطيع أن أقول : إنني جمعت معظم مؤلفات الشمالي التي وردت أسماؤها في مختلف المراجع ، منذ عصر الشمالي - حتى الآن - وهي كثيرة ، ومتنوعة ، وعالية .

وما يؤلم الباحثين ، ويحز في نفوس الدارسين ، أن معظم هذه المؤلفات الثمينة قد ضاع كما ضاع غيرها من كتب التراث .

ولكن مما يثلج الصدر ، ويسبج النفس أن معظم كتبه الضخمة قد سلمت

من غوائل الدهر ، وعوادى الزمن ، أمثال : لطائف المعارف " و " ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب " و " فقه اللغة " ، و " يتيمة الدهر " .

ولو قدر لهذه الكتب الضخمة النافعة أن تضيع كما ضاع غيرها من كتب الثمالي لخسرت المصرية جزءا كبيرا من تراثها ويكفى أن أشير إلى أن كتابه " يتيمة الدهر " وحده قد حفظ أدب القرن الرابع كله من الضياع .

أما معذام كتبه الباقية فقد كانت صغيرة الحجم ، كما أن بعضها قد ذكر بأسماء مختلفة ، وسأسجل هنا أسماء كتبه الجديدة التى أحصيتها من المراجع المختلفة حسب الترتيب الأبجدي ٠٠ على أن أخص كتابه " اليتيمة " - بدراسة مستقلة بعد ذلك - إن شاء الله تعالى - لأنها وحدها : هى التى تهمنى فى هذه الدراسة . وهذه الكتب هى :-

- ١ - " أبو الطيب المتنبى ٠٠ ماله وما عليه " وهو الباب الخامس من كتابه (يتيمة الدهر) نشره الأستاذ محمد على عطيه وطبعه بمفرده فى مصر .
- ٢ - " أجناس التنجيس " مخطوط بدار الكتب المصرية رقم (٤٨٠) بلاغة
- ٣ - " أجناس المحاسن " .
- ٤ - " الأحاسن فى بدائع البلفاء " .
- ٥ - " أحاسن كلام النبی صلى الله عليه وسلم والصحابه والتابعين ، وملوك الجاهلية والاسلام " وهو مختصر " إعجاز الإيجاز " للثمالي اختصره الملامه الإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازى المتوفى سنة ٦٠٦ هـ ، وطبع فى رومة .
- ٦ - " أحسن ما سمعت " وله اسمان آخران هما : " اللآلى " والدرر " ، و " أحاسن المحاسن " الذى تقدم ذكره برقم (٣) وقد طبع بمطبعة الجمهور .

- ٧ - أخبار أبي قَراس " وهو الباب الثالث من كتاب " اليتيم " طبع نسي
ليدن .
- ٨ - " الأدب مما للناس فيه أرب " .
- ٩ - " الأصول في الفصول " .
- ١٠ - " الإعجاز والإيجاز " طبع بالمطبعة الممومية بمصر سنة ١٨٩٧م وفي
الآستانة ، ومنه نسخة خطية في دار الكتب المصرية برقم (٥٥٤ أدب)
- ١١ - " الأعداد " ويصرف به " برد الأعداد في الأعداد " وقد طبع
في الآستانة سنة ١٣٠١ هـ ومنه نسخة خطية بدار الكتب برقم
(٤٩٢ أدب) .
- ١٢ - " أفراد المعاني " .
- ١٣ - " الاقتباس " وقد طبع حديثا في بغداد وشاهدت منه نسخة بالجزائر
- ١٤ - " الأمثال والتشبيهات " ويسمى " الفرائد والقلائد " ويسمى أيضا
" بالحدق النفيس " وقد طبع في مصر بمنوان " الأمثال " .
- ١٥ - " أنس الشمراء " ويسمى " أنس المسافر " .
- ١٦ - " الأنيس في غزل التجنيس " .
- ١٧ - " الأنوار البهية في تعريف مقابلات مضمار البهية " .
- ١٨ - " بهجة المشتاق " .
- ١٩ - " التجنيس " وهو كتاب " أبناس التجنيس " الذي سبق ذكره برقم (٢)
- ٢٠ - " التحسين والتقييح " .
- ٢١ - " تحفة الأرواح " ، وموائد السرور والأفراح " .

- ٢٢ - " تحفة الوزراء " مخطوط بدار الكتب المصرية رقم (٥ نحو) .
- ٢٣ - " ترجمة الكتّاب في أدب الصاحب " .
- ٢٤ - " التفاحه " .
- ٢٥ - " تفضل المقتدرين ، وتنصل المعتذرين " .
- ٢٦ - " التمثيل والمحاضرة ، في الحكم والمناظرة " وقد حققه الأستاذ
عبد الفتاح محمد الحلو وطبع بدار الكتب سنة ١٩٦١ .
- ٢٧ - " التوفيق للتلفيق " .
- ٢٨ - " ثمار القلوب في المضاف والمنسوب " وهو كتاب قيم حققه الأستاذ
محمد أبو الفضل وطبع بدار نهضة مصر للطبع والنشر سنة ١٩٦٥ .
- ٢٩ - " جوامع الكلم " .
- ٣٠ - " الجواهر الحسان في تفسير القرآن " ذكره الأستاذ جورجى زيدان
- ٣١ - " جواهر الحكم " .
- ٣٢ - " حجة العقل " .
- ٣٣ - " حشو اللّوْزِيْنَجْ " أشار إليه النمايلى في " ثمار القلوب "
- ٣٤ - " حل العقد " .
- ٣٥ - " خاص الخاص " طبع بمطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٢٦ هـ .
- ٣٦ - " خصائص الفصل " .
- ٣٧ - " الخوارزميات " .
- ٣٨ - " الخلوة وشاهيات " .
- ٣٩ - " درر الحكم " مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (٥١١٣ أدب) .

- ٤٠ - "ديوان أشعاره" جمعه عبدالفتاح محمد الحلو في رسالته الجامعية
"أبو منصور الثعالبي وآثاره الأدبية" .
- ٤١ - "سجع المنشور" .
- ٤٢ - "سحر البلاغة ، وسر البراعة" مخطوط بدار الكتب المصرية برقم
(٥ نحو) .
- ٤٣ - "سحر البيان" .
- ٤٤ - "سر الأدب في مجارى كلام العرب" طبع مع فقه اللغة للثعالبي
بالقاهرة سنة ١٩٣٣ م .
- ٤٥ - "سر البيان" وامله "سحر البيان المتقدم ذكره برقم (٤٣) .
- ٤٦ - "سر الوزارة" وامله "تحفة الوزراء" السابق ذكره برقم (٦٢) .
- ٤٧ - "السياسة" .
- ٤٨ - "سيرة الملوك" .
- ٤٩ - "الشجر والصور في الحكم والمواعظ" مخطوط بدار الكتب برقم
(٤٤٠ أدب) .
- ٥٠ - "الشكوى والمنتاب" وما وقع للخلان والأصحاب" مخطوط بدار الكتب
برقم (١٦٧٣ أدب) .
- ٥١ - "الشمس" وامله كتاب "شمس الأدب في استكمال العرب" ومنه
نسخة خطية في برلين ، وأخرى في لندن .
- ٥٢ - "الشوق" .
- ٥٣ - "صينة الشعر والنثر" .

- ٥٤ - " طبقات الملوك " .
- ٥٥ - " الدارف من شعر البسنى " .
- ٥٦ - " الظرائف واللطائف " مخطوط بدار الكتب المصرية (برقم ٦٤ ش) .
- ٥٧ - " عنوان المعارف " .
- ٥٨ - " عيون المعارف " ، ولعله الكتاب السابق نفسه .
- ٥٩ - " عيون النوادر " .
- ٦٠ - " غرر أخبار ملوك القرس " وهو موجود بدار الكتب المصرية .
- ٦١ - " غرر البلاغة " ومنه نسخة في برلين بعنوان " غرر البلاغة " وطُرف البراعة " .
- ٦٢ - " غرر الضاحك " .
- ٦٣ - " الغلمان " ومنه نسخة خطية في برلين .
- ٦٤ - " الفرائد والقلائد " وهو مطبوع على هامش " النثر والنظم " للشمالي بعنوان " الفوائد والقلائد " طبع المطبعة الأدبية بمصر سنة ١٣١٢هـ ويقال : إنه هو " المقصد النفيس " ونزهة الجليس " . و " الأمثال والتشبيهات " وقد طبع في مصر بعنوان " الأمثال " .
- ٦٥ - " الفصول الفارسية " .
- ٦٦ - " الفصول في الفضول " .
- ٦٧ - " نفع اللثة " ، وسر العربية " وهو مطبوع ومشهور .
- ٦٨ - " الكشف والبيان " ذكره البغدادي في هداية المارنيين .
- ٦٩ - " الكناية والتمريض " مخطوط بدار الكتب برقم (٤٢٩ أدب) ومنه نسخة مطبوعة .

- ٧٠ - "كنز الكتاب" مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (٢٨٠٧ أدب) ،
ووجد باسم "المتحل على النسخة المطبوعة بالمطبعة التجارية
بالاسكندرية سنة ١٩٠١ .
- ٧١ - "لباب الأحاسن" .
- ٧٢ - "لطائف الذرأء" ولعله "الطرائف واللطائف" الذى تقدم ذكره
برقم (٥٦) .
- ٧٣ - "لطائف المعارف" وهو كتاب عظيم حققه الأستاذان : إبراهيم
البيارى ، وحسن كامل الصيرفى .
- ٧٤ - "اللفظ واللطائف" .
- ٧٥ - "اللطف الطيب" .
- ٧٦ - "اللمع الضئيلة" .
- ٧٧ - "ماجرى بين المتنبي وسيف الدولة" وقد طبع فى ليزن سنة ١٨٧٤م
- ٧٨ - "المبهيج" مخطوط بدار الكتب المصرية رقم (٥٠٦ أدب) وطبع
بمصر سنة ١٣٦٦ هـ .
- ٧٩ - "المتشابه لفظا وخطا" ومنه نسخة خطية فى دار الكتب المصرية .
- ٨٠ - "مدح الشئ" ونية " .
- ٨١ - "المديح" .
- ٨٢ - "مرآة المروءات" وهو مخطوط بدار الكتب برقم (٥٠٦ أدب) .
- ٨٣ - "المشوق" .
- ٨٤ - "المضاف والمنسوب" ولعله هو "شار التلويح فى المضاف والمنسوب"
المتقدم ذكره برقم "٢٨" .

- ٨٥ - " مفتاح الفصاحة " .
- ٨٦ - " المقصور والمدود " .
- ٨٧ - " مكارم الأخلاق " وقد طبع في بيروت سنة ١٩٠٠ .
- ٨٨ - " ملح البراعة " .
- ٨٩ - " الملح والطرف " .
- ٩٠ - " الملوكى " ذكره الثمالين في مقدمة كتابه " تحفة الوزراء " .
- ٩١ - " منادى الملوك " .
- ٩٢ - " المنتحل " وهو " كنز الكتاب " الذى تقدم ذكره - برقم ٧٠ - وقد صححه الأستاذ أحمد أبو طلى أمين مكتبة المجلس البلدى بالإسكندرية وطبع سنة ١٣١٩ هـ وهو موجود بدار الكتب المصرية .
- ٩٣ - " من غاب عنه المطرب " وهو كتيب مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (٤٩٦ أدب) وقد طبع في بيروت بالمطبعة الأدبية سنة ١٣٠٩ هـ .
- تصحیح الأستاذ محمد سليم اللبابدى .
- ٩٤ - " من غاب عنه المؤرخ " ويبدو أن هذا هو الكتاب السابق نفسه .
- ٩٥ - " المهذب في اختيار ديوان المتنبي " ومنه نسخة مصورة بدار الكتب المصرية - وهو - فيما يبدو - كتاب " أبو الريح المتنبى ، ماله وما عليه الذى مر ذكره برقم (١) .
- ٩٦ - " مؤمن الوحيد في الحاضرات " وقد طبعت منه مختصرات سنة ١٨٣٩ م بعنوان " مؤمن الوحيد ونزهة المستفيد " .
- ٩٧ - " نثر النام وحل المقدم " وقد طبع في دمشق سنة ١٣٠٠ هـ وفي مصر سنة ١٣١٧ هـ .
- ٩٨ - " نسيم الأندلس " .

- ١٩ - " السحر " .
- ١٠٠ - " النهاية فى الكناية " .
- ١٠١ - " النهاية والتعريف " وهو الكتاب السابق نفسه .
- ١٠٢ - " النوادر واليوادر " .
- ١٠٣ - " السورد " .
- ١٠٤ - " يتيمة الدهر فى محاسن أهل مصر " وقد طبع فى دمشق سنة ١٣٠٣ هـ ، وطبع فى مصر سنة ١٩٣٤ بتحقيق الاستاذ محمد اسماعيل الصاوى ، وأعيد طبعة - بمصر أيضا - بتحقيق المرحوم الشيخ محمد محى الدين عبد الحميد وهو من أجل كتب الثمالى وأكثرها فائدة .
- ١٠٥ - " يتيمة اليتيمة " وقد ذكر فى فهرس دار الكتب المصرية بحسنان " تنمة اليتيمة " ومنه نسخة مطبوعة فى طهران بتحقيق الاستاذ عباس اقبال .
- ١٠٦ - " اليواقيت فى بعض المواقيت " وقد جمعه الشيخ أحمد عبدالرازق المقدسى مع كتاب الثمالى " الذرائف واللطائف " المتقدم ذكره برقم (٥٦) وطبعهما فى كتاب واحد قال فى مقدمته " أما بعد " ، فهذا الكتاب كان فى نسختين متناسقتى الجمع ، متناسختى الوضع ، سمى الشيخ أبو منصور الثمالى - رحمه الله تعالى - أحدهما " الظرائف واللطائف " والآخر كتاب " اليواقيت فى بعض المواقيت " ، وأفرد لكل منهما صدرا ، أورد فيه لمن عمله باسمه ذكر ، فجمعت بينهما فى قرن وعطفت عنانيهما الى سنن ، اختصارا للدريق الى فوائدهما وضمنا لشمول فرائدهما " (١) .

تحليل وتحليل :

هذه هي كتب الثعالب ومولفاته ، التي أشارت إليها مراجع المؤرخين ،
والمصنفين ، والأدباء ، الذين عاشوا بعده حتى عصرنا هذا .

ومن المؤكد أن معنم هذه الآثار القيمة قد ضاع ، وأصبح أشعرا
بمعد عين .

ومن المؤكد - كذلك - أن بعض هذه الكتب التي نشرت مستقلة هي
في حقيقة الأمر أجزاء من كتبه الكبيرة .

وقد ذكرت من قبل أن له كتابا برقم (١) بعنوان " أبو الطيب المتنبي
ماله وما عليه ، وآخر برقم (١٥) بعنوان " المذهب في اختيار ديوان
المتنبي " وثالث برقم (٧) بعنوان " أخبار أبي فراس " والحقيقة أن هذه
الكتب الثلاثة أجزاء من كتابه المشهور " يتيمة الدهر في محاسن أهل
المصر " .

كما أن بعض كتبه قد ذكر مكررا بأسماء مختلفة لمسى واحد فشلا
يطلق على كتاب الأمثال المتقدم برقم (١٤) هذه الأسماء : -

- ١ - " الأمثال والتشبيهات " .
- ٢ - " الفرائد والقلائد " .
- ٣ - " المقصد النفيس " . (١)

كما أنه يوجد أكثر من اسم لكتاب " أجناس التنجيس " المتقدم برقم (٢)
- وكذلك - لكتاب " أحاسن المحاسن " المتقدم برقم (٣) وكتاب " المتحل "

(١) انظر رقم ١٤ .

المتقدم برقم (٩٢) وغيرها *

وقد حَمَلَ الأستاذان إبراهيم الأبياري وحسن كامل الصيرفي محققا كتاب " لطائف المعارف " للشمالي تبعة هذا الخلط " على تلميذه الباخري صاحب " الدمية " - وأنا ممهما في ذلك - فلقد جره تقصيره الأول نسي عرض ما يتصل بحياة أستاذه إلى تقصير ثان وهو أنه لم يذكر كتب شيخه ، ولو أنه فعل لكفانا مؤنة التقصي والتحري - وما كان عسيرا عليه أن يفعل ، ولو فعل لقدم لنا ، ولاستأذه خيرا كثيرا ، ولأراح الباحثين بعده ، والمهتمين بتراث الشمالي من هذا المناه (١) .

وقد أشار الأستاذ على محمد موسى في رسالته " ثقافة الشمالي وأثرها في نقده للمتنبي " إلى أن هناك خطأ وقع فيه الأستاذ "جورجي زيدان" حين نسب كتاب " الجواهر الحسان في تفسير القرآن " لأبي منصور الشمالي وهو وهم مرجعه أن لمالم آخر هو الشيخ عبدالرحمن الشمالي كتابا في تفسير القرآن بهذا الاسم وهو غير أبي منصور الذي نحن بصدد دراسته ، وهناك خلط آخر وقع فيه البغدادي صاحب كتاب "هداية المارفين" حين ذكر أن للشمالي كتابا بعنوان " الكشف والذانون " على حين ذكر حاجي خليفة صاحب كشف الذانون " أن هذا الكتاب لأبي منصور عبدالملك بن أحمد بن إبراهيم الشمالي - وهو غير أبي منصور عبدالملك بن محمد بن اسماعيل الشمالي الذي نتحدث عنه .

وهناك خلط ثالث وقع فيه حاجي خليفة صاحب " كشف الذانون " حين نسب كتاب " اليواقيت في بعض المواقيت " لنجم الدين عمر النسفي ، وقد وجدت هذا الكتاب منسوبا للشمالي ، وقد جمعه المقدسي وطبعه مع كتاب آخر للشمالي بعنوان " اللطائف والظرائف " كما مر ذكره .

(١) أنظر تقديم " لطائف المعارف " للمحققين .

وهناك أمر آخر جدير بالتسجيل - في هذا المقام - وهو ما أشار إليه الأستاذ على محمد موسى (١) ، كما أشار إليه الأستاذ أحمد أبو على أمين مكتبة المجلس البلدي بالاسكندرية . . وهو أن ابن خلكان وابن شاعر الكتبي قد نسبوا كتاب " المنتحل " الذي ورد ذكره ضمن كتب الشمالي برقم (١٢) إلى الأمير أبي الفضل الميكالي وقد أثبت الأستاذ أحمد أبو على صحة نسبة هذا الكتاب لأبي منصور الشمالي وقدم الدليل على ذلك وهو أن الأمير الميكالي كان مددوحاً للشمالي ، الذي مدحه بقصائد سيارة ، نال عليها جوائز السنية وقد كانت انصلة بينهما قوية مكتبة ، فلا بأس أن يؤلف الشمالي مثل هذا الكتاب وينسبه إلى الأمير الميكالي ، وقد يجوز أن يكون الأمير هو الذي انتحل هذا الكتاب لنفسه ، وسكت عن ذلك الشمالي تقرباً وتأديباً مع الأمير (٢) .

وربما كانت تسمية الكتاب " بالمنتحل " مقصودة من جانب الشمالي ولم يلحظها الأمير الميكالي ويدل على ذلك قوله في مقدمته : " إنه أردعه فيما ينخرط في سلك الرسائل والمخاطبات ، ويتدرج في أشياء الإخوانيات (٣) والسلطانيات والله أعلم بالصواب وإليه المآب " .

وكان غرض الشمالي بقوله " والله أعلم بالصواب " التنبيه على ماسيق فيه المؤرخون من الخلل في نسبة هذا الكتاب إلى الأمير الميكالي .

-
- (١) صاحب رسالة " ثقافة الشمالي وأثرها في نقده للمتنبي " .
(٢) هذا استنتاج واه لا يرتقى إلى درجة الدليل الذي يؤكد هذا الأمر فهو احتمال لا أكثر ولا أقل بل هو إلى الزعم أقرب . د / سرحان .
(٣) هذه النسبة خالاً وقع فيه القدماء من مؤلفي المصور المتأخرة ووقع فيه الكتاتيون ، واستمرأه رجال المصور الحديثة ونقل الجميع عن أن النسب لا يجوز للجمع إلا إذا كان علماً . كالجوائز ، والمدائن ، وأن اللبس بين النسب إلى المفرد والجمع منتفقر في هذا الباب . د / سرحان .

ويبدو أن بعض ذوي الجاه والسلطان كانوا ينتحلون كتب غيرهم
وينسبونها إلى أنفسهم على سبيل السطو والاختصاب خاصة إذا كانوا من
طبقة الأمراء أو الوزراء وذوي البأس.

ويبدو كذلك أن بعض جهال الوراقين كانوا ينجسون بعض الكتب إلى
مشهورى الملوك والمصنفين لينفق سوقها وترجع تجارتها ، وهو بحث قد
يوقع الباحثين فى اللبس والارتباك .

* * *

.....

1

- ;

أ - التبريف بها :

تُعدُّ " اليتيمة " من أجمل كتب الشمالى ، وأعلىها قدرا ، وأعلىها منزلة ، وأكثرها شهرة ، وذيوها . .

ولعل أول ما يسترعى النظر ، ويلفت الفكر ، ويثير الانتباه إلى هذا الكتاب هو عنوانه " يتيمة الدهر " والشمالى نفسه لم يذكر سببا لهذه التسمية ويبدو أن الناس قد بما يقول الأستاذ الصاوى محقق الكتاب - لم يكونوا يعرفون أصل هذه التسمية ، ولا يدركون سرها حتى شرع لهم ابن قلاقس الشاعر السكندرى المشهور تحليلها معقولا لهذه التسمية ضمنه بيتين مشهورين هما :

أبياتُ أشعارِ اليتيمة * أبكارُ أنكارِ قديمة
ماتوا وعاشتْ بعدهم * فلذاك سُمِّيَتِ اليتيمة^(١)

فابن قلاقس يرى : أن أشعار " اليتيمة " كالأطفال لمن نذمها وقد مات أولئك الناطلة ون تاركين بنات أفكارهم يتامى . . فلذاك أطلق الشمالى على كتابه اسم " اليتيمة " .

ويبدو - كذلك - أن جمهور الأدباء الذين تاهروا بعد ابن قلاقس قد ارتضوا هذا التحليل وقبلوه ، وادلمأت نفوسهم إليه . . دون مراجعة ولا نقاش لأننا لم نجد فى كتب التراجم ، من حاول تفسير هذه التسمية ، أو تحليلها ، ومما لهم كان يكتفى بنقل بيتى ابن قلاقس . .

ونحن إذا رجعنا إلى المعاني اللغوية نجد أن كلمة " اليتيمة " تطلق على الرملة المنفردة ، وعلى الشئ المفرد وعلى كل شئ يحز نظيره ، وعلى السدة الثمينة التى ليس لها نظير^(٢) .

(١) اليتيمة : تقديم الأستاذ الصاوى ص (ج) .

(٢) راجع الصحاح والقاموس واللسان وغيرها .

ومن اليقين الواضح أن الشمالي يقصد بهذا التسمية ، أن كتابه فريد في بابه ، ليس له نظير في كتب التراجم ، أو الطبقات ، فهو كالدرة اليتيمة التي تميزت عن غيرها بكثير من الصفات ..

وأياً ما كان سبب التسمية فقد اشتهر الكتاب بهذا الاسم ، وأصبح علماً بين كتب التراث .

وربما كان من حقنا - بعد ذلك كله - أن نتساءل عن نوع هذا الكتاب ، أهو من كتب التراجم والطبقات ؟ أم من كتب الأدب والنقد ؟ أم هو من كتب التاريخ والحضارة ؟ (١) .

والدارس لكتاب " اليتيمة " يجده شبيهاً بكتب التراجم والطبقات من حيث تقسيمه الشعراء حسب أقاليمهم ومدنهم ، وعلى مقدار منزلتهم الأدبية ، ومكانتهم الفنية ، فهو يماثل كتاب " طبقات الشعراء " لابن سالم الدمشقي وإن كان يخالفه في التقيد بمصر واحد .. كما أنه يضاهي إلى حد كبير كتاب " طبقات الشعراء المحدثين " لابن الممتر كما أشار إلى ذلك غير واحد من الباحثين ..

وهو كتاب أدب من غير شك لأن المؤلف - رحمه الله - جمع فيه مختارات شعرية ونثرية لأدباء القرن الرابع ، ولا يستطيع دارس للشعر والنثر في ذلك العصر أن يستغنى عنه .. ويكفي أن نعلم جميعاً أن الأدباء والمؤلفين منذ عصر الشمالي وحتى اليوم ، قد تأثروا واقتبسوا منه ، واستفادوا به أعظم فائدة ..

والكتاب كذلك يعتمد من كتب النقد الهامة ، فالشمالي فيه لم يكن مجرد برنامج للشعر والنثر لأدباء عصره ، ولم يكن قراءة في كتبه كما كان قراء في صناعته ، كما وصفه بعض المحدثين (١) وإنما كانت له آراء نقدية صائبة

(١) الدكتور : محمد مندور في كتابه النقد المنهجي عند العرب ص ٣٠٣ .

تشهد له بالذوق ، والفوق ، نلمسها من خلال ترجمته للشعراء ، خاصة أولئك الذين أوتوا حظاً من الشهرة كأبي الطيب المتنبي الذي اهتم به المؤلف اهتماماً خاصاً ، ودرس شعره دراسة وافية ، وربط بين أدبه ومراحل عصره المختلفة . . . مما يدل على إعجابيه وتقديره له . وقد فعل مثل ذلك مع أبي فراس الحمداني ، وابن الجعفي ، وابن الحميد ، والصاحب ، والغوارزي ، وبيدع الزمان ، والصابي وغيرهم من كبار الشعراء ، والكتاب ، فكان يتمقب معانيهم ويرجمها إلى أصلها ، ويبدى إعجابه بالبدع منها ، ويعيب ما يستحق الذم (١) والقدح . . . والمواد على ذلك أكثر من أن تحصى . . .

وفضلاً عن جميع ما ذكرنا يحد هذا الكتاب من كتب الحضارة والتاريخ ، والدارس لتاريخ العالم الإسلامي في تلك الحقبة لا يستطيع الاستغناء عنه كما فعل المستشرق " آدم متر " في كتابه عن : " الحضارة الإسلامية في القرن الرابع " وكما فعل الأستاذ أحمد أمين في كتابه المشهور " زاهر الإسلام " وكذلك الدكتور حسن إبراهيم حسن في كتابه " تاريخ الإسلام السياسي " وغيرهم . . . لأن كتب التاريخ التقليدية لا تكفي للحكم على هذه المرحلة ، ولا تستطيع أن تعطي صورة صادقة متكاملة عن هذا العصر ، فهي تهتم بأخبار الخلفاء ، والأمراء ، والوزراء ، والقادة السياسيين ، والعسكريين ، مسرودة سرداً مرتباً على سبيل الزمان . . . " بمكس اليتيمة " التي تهتم - علاوة على ذلك كله - بالحالة الاجتماعية للدولة الإسلامية الواسعة ، وتعطي صورة صادقة لكل جوانب الحياة في تلك الحقبة .

ب - الدافع إلى تأليفها

يحد الثعالب من الأدباء الذين يميلون للحديث الطريف ، ويمشقون الأدب المصري ، ويتمصبون له ، وينفرون من القديم ، ويمرضون عنه ، لأن

(١) الذام - بألف متوسطة - كالذام - بهزة متوسطة وهو الذم والمجيب .
د / سرحان

النفوس في أيامه قد سئمت ، والأذواق في زمانه قد مئمت وملت .

ولعل الثعالب في ذلك ، كان متأثرا بأستاذه أبي الحسن بن فارس الذي يرى في إحدى رسائله : أن لكل عصر نتاجا أدبيا خاصا ، يلائم روحه ، ويوائم حالته ، ويتطابق مع صور الحياة عند أهله ، وأنه لمن المبث أن تقتصر الآداب على زمان معلوم ، وأن توقف على أناس دون آخرين .

وهو يرى أن الأدب القديم أصبح رثا باليا ، قد أخلقت جديته الأيأم والليالي ، فصبغ السمع ، ولقظه القلب ، وسئمت النفس (١) .

وسواء أكان الثعالب يقلدا لابن فارس في هذا الرأي ، أو مبتدعا له ، فإنه كان يفضل الأدب المصري ، ويرى أنه وصل إلى أبعد غايات الجودة ، وبلغ أقصى نهايات الحسن والذرف ، وأنه لحالوته وجماله يكاد يخرج من باب الإعجاب إلى باب الإحجاز ، ومن حدّ الشعر إلى باب السحر .

ولقد نذر الثعالب فيما حوله من الكتب ، فوجد أن المؤلفين قد اهتموا بالمتقدمين من الشعراء ، وذكر طبقاتهم ، ودرجاتهم وتدوين كلماتهم والانتخاب من قصائدهم ، ومقطوعاتهم ، كما نذر إلى أشعار أهل عصره وإلى محاسنهم النثرية ، فوجدتها - على حالوتها ، وجودتها ، وقرب عهدتها - غير محصورة في كتاب يضم نشرها ، وينظم شذرها ، ولا مجموعة في مصنف يقيّد شواردها ، ويخلد فوائدها .

(١) اليتيمة (٣ : ٣٦٥) بتصرف .

وينقص ، ويحو ويثبت ، ويضيف إليها ما حصل عليه من أنواء الرواء ، وربما انتقحها ولم يتمها ، وانتصفها ولم يستتمها إلى أن أدرك أيلم تعلم الدراسة والحكمة ، وشارف أوان الثبات والمُسَكَّة (*) .

وأخيرا ابتسم له الحذا. فاختلص فرصة من غفوة الدهر ، وانتبهز رقدة من عين الزمن ، وأخذ في تحريرها مرة أخرى - على النمط السدى بين أيدينا اليوم - بعد أن غير ترتيبها ، وأعاد رصفها ، وأحكم نسجها ، قبل أن تصل إلى أيدي القراء والمتسخرين ، وصار مثله فيها ، كمثله من يتأنق في بناء داره ٠٠٠ التي هي عشه ، وفيها هيشة ، فلا يزال يتقدس أركانها ، ويميد بنيانها ، ويبدعها حسنا ، تخجل منها البدور ، وتتفاصر عنها القصور ، فان مات فيها مغفورا له انتقل من جنة الدنيا إلى جنة السأوى (١) .

وهكذا أتم النسخة الثانية من " اليتيمة " بعد أن أحكم نسجها ، وأتقن صنمها ، وجعلها قرة للعين ، وشفعة للقلب ، ولذة للروح وكان ذلك في المدة من سنة ٤٠٢ هـ إلى سنة ٤٠٧ هـ ، كما قرر ذلك الأستاذ عباس إقبال ناشر كتاب تنمة اليتيمة ٠٠٠

وقد أهدى هذه النسخة الأخيرة إلى أبي المباس مأمون بن مأمون خوارزم شاه سنة ٤٠٧ هـ وفيهم من نسخة أخرى أنه أهداه إياها سنة ٤٠٢ هـ في شهر المحرم لأن الأمير المذكور توفي سنة ٤٠٧ هـ .

(*) المسكة : يضم فسكون : العقل الوافر .

(١) مقدمة اليتيمة ص ٥ .

وبذلك يكون الدافع إلى التأليف هو الحرص على جمع تراث
المصريين (٩) في كتاب واحد يحفظه من الضياع ، وأما الهدف فهو
إهداءها إلى الأمير المذكور لينال خلعها وهداياها .

ب - منهجه وخصائصه فيها

تحدث الثعالبي في يتيمة عن شعراء وكتاب العالم الإسلامي في
عصره وأواخر العصر الذي قبله ، على اختلاف ألوانهم وأوطانهم ، من خراسان
وما وراء النهر شرقا ، حتى بلاد المغرب والأندلس غربا .

وقد ذكر فيها الدول الثلاث : دولة بني حمدان في الشام والموصل ،
ودولة بني بويه في فارس والعراق ، ودولة بني سامان في خراسان وما وراء
النهر .

كذلك قسمها إلى أربعة أقسام رئيسة . . . وتحدث في القسم الأول
منها عن شعراء وكتاب الدولة الحمدانية في الشام والموصل ، وألحق بهم
بعض شعراء من مصر والمغرب والأندلس ، ويمد هذا القسم ، من أهم أقسام
" اليتيمة " ، وأضخمها حجما ، فقد اشتمل على حوالي ستمائة صفحة من
الحجم المتوسط شملت عشرة أبواب :

(٩) هذه عبارة الثعالبي في مقدمة اليتيمة ص ٤ ، ٥ حيث قال " كانت
أشعار المسلمين أرق من أشعار الجاهليين ، وأشعار المحدثين
ألطف من أشعار المتقدمين ، وأشعار المولدين أبعد من أشعار
المحدثين ، وكانت أشعار المصريين أجمع لنوادر المحاسن " .
أما رجال العصر الحديث فيقولون : " أشعار المعاصرين " ولم تترد
هذه الكلمة في كتب اللغة . د / سرحان .

وقد تحدث في الباب الأول منها : عن شعراء الشام ، وتمصّب لهم بفضلهم على شعراء سائر البلدان ، وذكر أسباب تفوقهم وأقلم الأدلّة على فضلهم ، وهو قريب من عرب الحجاز ، ومعدّم عن الأعاجم ، وسلامة ألسنتهم من الفساد المارّض ، ولأنّهم جاوروا ملوكاً أفاضوا من آل حمدان كانوا يفهمون الشعر ، ويتذوقونه ويشجعون الشعراء على الإجابة والانتقان بخلاف أهل المراق الذين فسدت ألسنتهم لجاورتهم الأعاجم ، واختلاطهم بهم . . .

* * *

وأغلب الظن أن تمصّب الثعالب لأهل الشام راجع إلى حبه الشديد لسيف الدولة . ذلك الأمير المرمي الشجاع الذي حوى الثغور الإسلامية وتصدى وحده لهجمات الروم ، وأخضعهم ، وحوى الدولة الإسلامية كلها ، من خطر داهم كان يهدد أركانها ، ويزلزل بنيانها ، قرابة نصف قرن من الزمان . .

وقد أفرد الباب الثاني للحديث عن سيف الدولة ، وأكثر من الثناء عليه ، مما يدل على إعجابه به ، وتقديره لبطولته . .

أما الباب الثالث : فقد جمّله لأبي فراس الحمداني ، وقد غنى به نهاية خاصة فجمع معظم أعلامه ، وقسمها أقساماً بحسب مناحيها ومناحيها . .

وفي الباب الرابع تحدث عن بني حمدان ، واستعرض أعلامهم ، كما ذكر معهم طائفة من شعراء الشام معذبهم من الصغورين ، وجل تراجمهم في هذا الباب قصيرة ، لا تحقق الغرض ولا تفي بالمطلوب ، ولا تشبع نهم الباحثين .

وقد خصص الباب الخامس لأبي الطيب المتنبي ، وتوسع في دراسته وأكثر من الحديث عنه ، واهتم به اهتماما بالغا وتعرض لشعره بالنقد والتحليل ، والدراسة المنهجية الواسعة .

وفي الباب السادس تحدث عن ثلاثة من كبار شعراء سيف الدولة وهم : الناهي ، والناشي ، والزاهي .

وفي الباب السابع تحدث حديثا خاصا عن أبي الفرج البهثاء ، وغرر شعره ، ودرر نثره .

وفي الباب الثامن تحدث عن ثلاثة من شعراء سيف الدولة وهم الخليفة الشامي ، والوآوا ، الدمشقي ، وأبو طالب الرقي .

وفي الباب التاسع ذكر طائفة ضخمة من شعراء الشام ومصر ، والمغرب والأندلس ، عددهم ستة وتسعون ومائتان ، وقد ترجم فيه لحوالي خمسة وستين منهم .

ويؤخذ عليه في هذا الباب الخلط ، وعدم الدقة والتحديد ، فقد ذكر هذا الممدد الهائل من شعراء العالم الاسلامي في الشام ومصر والمغرب والأندلس حتى ليصعب على القارئ أن يميز شعراء كل اقليم على حدة ، اللهم إلا بعض المشهورين منهم كتيم بن المعز في مصر ، وابن درّاج القسطلي ، وابن شهيد ، وابن عديده في الأندلس .

أما الباب المباشر والأخير من هذا القسم ، فقد تعرض فيه لدراسة

شعراء الموصل ، وحى الشق الثانى للدولة الحمدانية ، وقد تحدث فيه بصورة مفصلة عن السرى الرفاء ودرم شعره دراسة واقية ، وتعرض لخصائصه الأدبية وسرقاته الشعرية ، واهتم به اهتماما كبيرا ثم ذكر بعده الخالدين أبى بكر محمدا ، وأبى عثمان سميدا ، وأتبعهما بأبى بكر بن الخباز ، وعبيد الله البلدى ، وذلك ينتهى القسم الأول من " البيتية " .

القسم الثانى :

أما القسم الثانى من أقسام البيتية فقد تحدث فيه عن بنى بويه وعن أشعار ملوكهم ، ووزرائهم ، وكتابهم ، وقد قسمه إلى عشرة أبواب كذلك على نحو ما فعل فى القسم الأول . .

وقد جمل الباب الأول لملوك بنى بويه ، خاصة الشعراء منهم ، كمضد الدولة ، وعز الدولة ، وتاج الدولة ، وأبى المباس خسر بن فيروز ابن ركن الدولة . .

وأفرد الباب الثانى للوزير المهلبى وذكر أخباره ، وفصوله وأشعاره

وجمل الباب الثالث : لأبى اسحاق الصابى ، ومحاسن كلامه . .

وفى الباب الرابع تحدث عن ثلاثة من كتاب بنى بويه لهم مقامات الوزراء . . وهم : أبى القاسم عبدالعزيز بن يوسف ، وأبو أحمد عبدالرحمن بن الفضل الشيرازى ، وأبو القاسم على بن القاسم القاشانى .

أما الباب الخامس : فقد خصه لشعراء مدينة البصرة بالمعراق

ومحاسن كلامهم .

والباب السادس جعله لشعراء العراق سوى بغداد .

ويجعل الباب السابع للكثيرين من شعراء مدينة بغداد .

وأفرد الباب الثامن للشعراء المقلين ٥٥ من أهل بغداد .

وزعم في الباب التاسع للحديث عن شعراء العراق .

وأفرد الباب العاشر للشاعر العربي الملقب الشريف الرضي ، واهتم به اهتماما خاصا ، وعاش معه في دراسة مستكنة تتنازع الكثير من الخصائص الفنية والعرفية .

ويلاحظ على الثمالي أن منهجه في هذا القسم مضطرب وغير دقيق ، فقد جعل للبغداديين بابين ، أحدهما للكثيرين ، والآخر للمقلين . وكان يكفي باب واحد لكل شعراء بغداد .

كذلك جعل لشعراء العراق - سوى بغداد - بابين همسا : السادس والتاسع ٥٥ من غير تحليل لذلك . وكان يكفي جميعهم في باب واحد بما في ذلك شعراء البصرة وبغداد حتى لا يقع الدارس في هذا الخلط .

القسم الثالث :

~~~~~

يواصل المؤلف في هذا القسم حديثه عن شعراء ، وكتاب الدولة البويهية وقد جعله كذلك في عشرة أبواب - شأن القسمين السابقين : وقد خص الباب الأول بابي الفضل بن المميد وتوسع في الحديث

عنه .

وأفرد الباب الثاني لابنه أبي الفتح بن العميد . وذكر أخباره  
وجمل الباب الثالث للصاحب بن عباد وأسهب في ذكر أخباره  
ومجالسه وأشعاره ، ورسائله ومداخل الشعراء له . . .

وفي الباب الخامس تحدث عن شعراء مدينة أصبهان .

وفي الباب السادس تحدث عن شعراء فارس وذكر عشرة من  
الشعراء أشهرهم أبو دلف الخزرجي . .

أما الباب السابع فقد جمعه لسبعة عشر شاعرا معظمهم عفا  
منصورا . .

وفي الباب الثامن تحدث عن شعراء فارس والاهواز . .

وخصص الباب التاسع لشعراء جرجان وطبرستان . .

أما الباب العاشر من هذا القسم فقد أفرد له لشمس الممالي  
قابوس بن وشمكير . .

وبذلك ينتهي القسم الثالث من اليتيمة . .



#### القسم الرابع :

أما القسم الرابع والآخر فقد تحدث فيه عن شعراء وكتاب الدولة السامانية في خراسان وما وراء النهر وعاصمتها "بُخَارَى" وقد جمعه عشرة أبواب كذلك :

وتحدث في الباب الأول عن عشرين شاعرا من خراسان ومعظمهم غير مشهور . .

وفي الباب الثاني تحدث عن شعراء العاصمة "بُخَارَى" وعددهم منهم أربعة وعشرين شاعرا .

أما الباب الثالث فقد جمعه للمأمون والواثق وهما من أولاد - الخلفاء العباسيين - نسبة إلى المأمون والواثق بالله . .

وفي الباب الرابع تحدث عن أبي بكر الخوارزمي ، وتوسع في الحديث عن أخباره وآثاره .

كذلك أفرد الباب الخامس لأخبار بديع الزمان الهمذاني ، ودراسته دراسة مفصلة شاملة . .

وجعل الباب السادس عن أبي النعمان البستي وشاعريته من الشعراء المنمورين . .

وخص الباب السابع لشعراء خراسان ، ما عدا "نيسابور" .

وأفرد الباب الثامن للأثير أبي الفضل عبدالله بن أحمد الميكالسي وبالغ في مدحه ، وأفرط في الثناء عليه ، وأكثر من الحديث عن أشعاره وأخباره .

وجعل الباب التاسع للشعراء الطائرين على نيسابور من بلاد شتى  
ونذكر منهم ستة عشر شاعرا \*

أما الباب الحاشى والأخير فقد خصصه لشعراء نيسابور \*

وذلك ينتهى القسم الأخير من كتابه الكبير " يتيمة الدهر "  
ويلاحظ أن منهجه فى هذا القسم مستقيم فى جملته ، فقد قسمه على أساس  
الأقاليم ، بل على أساس المدن أحيانا ، وإيمانا منه بأثر البيئة فى التشايع  
الأدبى ، ولذلك كان هو : أول من طبق نظرية " الإقليمية فى الأدب " ..  
تطبيقا عليها .. وإن كان الصواب قد جازمه فى بعض الأحيان عندما وضع  
شعراء الشام ومصر والمغرب والأندلس فى باب واحد مع اختلاف البيئات  
وتباعد الأقاليم ..

وقد أشرت الى ذلك الخلط فى حينه \*

\*\*\*

## :: الفصل الرابع ::

### "التيمة"

- أ - مدى تشابه أدب القرن الرابع الهجري
- ب - تأثرها بالمؤلفات السابقة
- ج - أثرها في الكتب اللاحقة

## أ - مدى تمثيلها لأدب القرن الرابع

الهجرى  
~~~~~

يمد كتاب " اليتيمة " من أعظم كتب الثمالي ، وأجلها قدرا ، وأكبرها حجما ، وهو الذى أتاح لصاحبه هذه الشهرة الواسعة فى عالم الأدب ، وجعله حديث الأدباء على مر المصور .

وقد استطاع أبو منصور ، بما رزقه الله من ذاكرة قوية ، وما وهبه من قدرة عجيبة على الحفظ والاستقصاء - أن يجمع نتاج الشعراء ، والكتاب فى القرن الرابع فى مؤلف واحد ، وقد أدى بعمله هذا فائدة جلى للأدب العربى ولتاريخ الأدب وللحضارة العربية والإسلامية ، ولولاه لفضاح البتز الأكبر من هذا التراث الثمين .

فقد استطاع أن يسجل فى " يتيمة " معالم النهضة الأدبية فى عصره ، تسجيلا يحتفل بالظواهر الأدبية أكثر مما يهتم بإيراد الأحداث التاريخية ، أو السير الشخصية فهو فى الغالب لا يهتم بالتأنيب التاريخى لحياة من يترجم لهم ، ويمرر بهم ، قدر اهتمامه بنتائجهم الأدبية . وإن كان فى روف خاصة يتمرض لحياة بعض الأفراد بالتفصيل كما فعل مع أبى فراس الحمدانى ، وأبى الطيب المتنبى ، والصاحب بن عباد ، وابن العميد ، وأبى اسحاق الصابى ، والشريف الرضى ، وأبى بكر الخوارزمى ، وسديح الزمان الهمداني وغيرهم ولكنه فى الغالب لم يكن يلتزم بهذه الخطة .

وقبل أن أسترسل فى الحديث عن اليتيمة - من حيث أنها من أعظم كتب التراث - ينبغى أن أطرح السؤال التالى :

هل مثلت اليتيمة أدب القرن الرابع الهجرى ؟ ؟

وهل يستدعي الدارس لكتاب اليتيمة وحده أن يحصل على صورة صادقة لأدب القرن الرابع الهجرى ؟؟ *

وللإجابة على هذا التساؤل ينبغي أن أشير إلى أن الثمالي قد ترجم في كتابه خمسة وثلاثين وأربعمائة شاعر ، وكتاب من أنحاء العالم الإسلامي ، المختلفة - آنذاك - وجميع معاني تناسلهم ، ونبات أفكارهم في كتابه الذي لولاه لما وصل إلينا من ذلك التراث الضخم إلا القليل الذي لا يمكن أن يرسم صورة صادقة عن التيارات الأدبية والحيوات الفكرية في ذلك العصر الذهبي من عصورنا التاريخية . *

ويبقى أن أشير إلى أن دواوين الشعراء التي وصلت إلينا من ذلك العصر - محدودة جدا - ومعظم الشعراء الذين ذكرهم الثمالي في يتيمة لم تصلنا دواوينهم ، ولولا " اليتيمة " لما عرفنا شيئا عنهم ، ولما سمعنا حتى عن أسمائهم . *

وبناء على ذلك أستطيع أن أقول : إن أدب اليتيمة يمثل أدب القرن الرابع الهجرى ، وإنه يمد صورة صادقة للحياة الأدبية والاجتماعية في ذلك العصر ، ولا يستطيع باحث أو أديب ، أو مؤرخ لهذه الحقبة من تاريخنا الأدبي أن يستغنى عن كتاب " اليتيمة " . *

ولكن : قبل أن أطمئن إلى هذه النتيجة ينبغي أن أتوقف قليلا عند بعض الظواهر التي لاحظتها أثناء دراستي " لليتيمة " حتى يكون حكمي على الأشياء حكما دقيقا ، أو قريبا من ذلك . *

ومن أهم الأمور التي لاحظتها أن هناك شعراء عاشوا في عصر الثمالي أو قبله بقليل ولم يرد ذكرهم في اليتيمة . *

ومنهم أبو حيان التوحيدى ، الكاتب الكبير ، والمفكر العظيم والفيلسوف المدقق ، صاحب التأليف المشهورة ، والآراء الصائبة ..

ومنهم الصَّوِّيرُ شاعر الطبيعة العظيم ، وصديقه وتلميذه أبو الفتح كشاجم ، ومهيار الديلمي ، الشاعر الفارسى المشهور ، وأبو التلاء المسمى الشاعر الفيلسوف ..

فما السرفى ذلك الإهمال أو النسيان ؟ وما أسبابه ودوافعه ؟

هناك احتمال قائم : وهو أن تكون ترجمة هؤلاء الأعلام قد سقطت من نسخة الكتاب الخطية ، ولم يعثر عليها وقت الطبع وكثيراً ما يحدث هذا فى كتب التراث ، فالثمالى نفسه قد سقطت ترجمته من "معجم الأدباء" وضاعت فيها ضاع .. فلا يستبعد أن تكون ترجمة هؤلاء الأدباء قد ضاعت من كتاب اليتيمة ، خاصة أن الثمالى قد ترجم لمن هم دونهم من الأدباء شهرة ونبوغاً (١) .

وهناك احتمال آخر قد يكون أقرب إلى الواقع والمنطق .. وهو أن الثمالى قد تمعد تجاهل أبى حيان التوحيدى لأسباب سياسية ، واجتماعية لاتخفى على الباحث المدقق .. ومن أهمها : أن أباحيان - على علمه وفضله - كان هجاءً سليط اللسان ، كما كان ناقدًا لاذعًا ، ساخطًا على حكام عصره ، وكتابه ، وقد صوّب سهام نقده لأشهر وزيرين ، وكما تبين فى عصر الثمالى وهما : أبو الفضل ابن المميد ، والصاحب بن عباد حيث ألف فيهما كتابه المشهور "مثالب الوزيرين" وهجاهما فيه هجاءً مقدًا قبيحًا جعل منهما صورة هزلية مضحكة ، وذلك لأسباب شخصية بحثة حيث كانا ينفران منه لفقره وقبح منظره ، ويكرهانه لجرائته وسلاطة لسانه ، ويحقدان عليه لنبوغته وتفوقه ..

وأغلب الظن أن ذلك كان السبب في تجاهل الشمالي له ، وعدم ذكره في كتابه حرصا على رضا الوزيرين ، ومجاملة لهما ، وطعنا في نوالهما ، وربما خوفا من بطشهما ونقشتهما عليه .

وربما كان فقر أبي حيان وهوان شأنه قد حالا دون اهتمام المؤلفين
بـه . . .

أما بالنسبة للصنوبري ، وصديقه كشاجم فقد كان عصرهما سابقا على عصر الشمالي ، وهو لم يسجل إلا أبناء عصره . .

وأما مهيار الديلمي فأغلب الظن أنه لم يكن مشهورا وقت تأليف اليتيمة . وكذلك الحال بالنسبة لأبي العلا ، وإن كان الشمالي قد ذكره في صفحة واحدة من كتابه " يتيمة اليتيمة " أو " تنمة اليتيمة " مما يسدل على عدم شهرته ، ويحد صيته ، وقت تأليف " اليتيمة " .

وهناك في اليتيمة ظاهرة أخرى جديرة بالتسجيل وهي
اختفاء روح التشيع فيها . .

فعلى الرغم من انتشار التشيع الفكري والأدبي في عصر الشمالي ، وتمدد رجاله ، وكثرة أشياعه وأتباعه ، نلاحظ أن أثره ، أو طابعه كان ضعيفا في " أدب اليتيمة " فلم نشاهد إلا مقطوعات صغيرة متفرقة - لبعض كتاب الشيعة - لا تمثل هذه الظاهرة ، ولا تتميز عنها التمييز الصادق . فالمعروف أن معظم الدويلات الإسلامية في ذلك العصر كانت تمثني مذهب الشيعة . .

فالدولة الفاطمية في مصر وشمال إفريقية كانت رائدة لهذا المذهب وداعية من دعائه . .

والدولة البُيُوتِيَّة في فارس والعراق كان أمراؤها شهعة زيدية ٠٠

والدولة الحمدانية في الشام والموصل كان أمراؤها يتشيمون ٠٠٠
وأكثر من ذلك كان عديد من شعراء ذلك العصر وكتابيه من غلاة الشيعة ،
ونذكر منهم على سبيل المثال :

أبا فراس الحمداني ، والشريف الرضي ، وتميم بن المزمع ، والصاحب
ابن عباد ، وأبا بكر الخوارزمي وغيرهم ٠٠

وعلى الرغم من ذلك كله لا نريد صدّي كائنا لتشميمهم في أدب البيتية
حيث كان ينبغي أن تكون حافلة بأشعارهم في هذا المجال { } ٠

فما السر في ذلك ؟ وما أسبايه ؟ ؟

أغلب الذين أن أبا منصور قد تمعد ترك هذه الأشعار وتجاهلها ،
وأقلل ذكرها في كتابه لأسباب تتصل بالمقيدة المذهبية ، والروح السياسية ٠

وأوضح الأسباب والعلل في ذلك أنه كان سنيا ، لا يتشيع فأثر أن
يصون كتابه عن هذه الألوان المذهبية التي تثير العدل ، وتبعث المداواة
والهفوا بين المسلمين وتصرف أدباء غير الشيعة عن كتابه ، وقد كان جدُّ -
حريص على رضا الناس وتجاهلتهم ، كما يلهم من سيرته وكتبه ٠٠٠

وهناك سبب سياسي آخر يعمد عن الدائرة الفكرية ، والمذهبية
وهو أن الثمالي كان يمشي في نيسابور التي كانت خاضعة في ذلك الوقت
لبنى سامان - حاكم خراسان وما وراء النهر - وكانوا غير شيعيين ٠

ولهذا نؤكد أن تجاهله للشعر الشيعي كان متعمدا منه لكيلا
يثير سخط السامانيين عليه ، ونقتطع منه ٠٠

وسهما يكن من شئ ، فقد سجل الشمالي بعض المقطوعات الشعرية
لأدباء الشيعة الذين ترجم لهم وهي كافية في التدليل على مذهبهم ،
وتصوير الصراع القائم بين الشيعة وأهل السنة ٠٠ آنذاك .

وهي على قلتها كفيّة بأن تعطى صورة واضحة لهذا التيار ، وإن
كانت لا تمثل الحركة أصدق تمثيل ٠٠

وسمّت هذه التحفظات أستطيع أن أقرر بكل ثقة ، واطمئنان أن
أدب البيتية يمثل أدب القرن الرابع الهجري تمثيلاً صادقاً ، على تمسّد
صوره ، واختلاف رسومه ٠٠

ب - تأثير البيتية بالمؤلفات السابقة

لم يكن الشمالي في البيتية مبتكراً لهذه الطريقة في التأليف ، وهي
الطريقة التي تسمى بأدباء عصر من العصور ، وتدوين آثارهم ، فقد غسنى
المصنفون قبله ، بوضع الكتب التي تؤرخ لشعراء كل عصر ، وذكر طبقاتهم ،
والانتخاب من مقطوعاتهم مثل كتاب " التاجي " لأبي إسحاق الصابسي ،
وكتاب " حاطب ليل " لأبي الحسن علي بن أحمد ، وكتاب " التحف والطرف "
لابن ليبب غلام أبي الفرج البخاري ، وكتاب " أخبار الشعراء " لأبي هفان ،
وكتاب " أشعار الندماء " للشمشاطي ، وكتاب " حماسة الشعراء " المحدثين ،
للخالد بن ، وكتاب " الاستباج " للحسن بن عبد الرحيم الزلالي ٠٠ وغير هذه
من الكتب التي ورد ذكرها في البيتية ، والتي تتمدّد مصادر هامة لها (١) . أما
كتب النقد الهامة التي ورد ذكرها في البيتية والتي تأثر بها أبو منصور في آرائه
النقدية فأهمها : كتاب " الموازنة " بين الطائيين للآمدي وكتاب " الوساطة "

البيتية : تقديم الأستاذ الماوي ص (ك) .

بين المتنبي ، وخصومه ، للبرجاني ، وقد تأثر الثعالبي بهذا الأخير في آرائه النقدية . خاصة في نقده للمتنبي ، فقد عقد في اليتيمة فصلا درس فيه أبا الطيب ، وديوانه ، وكانت هذه الدراسة صدى للمذهب المعتدل ، الذي كان القاضي البرجاني من زعمائه ، ومثليه ، فقد وازن الثعالبي بين مزايا الديوان ونقائصه كما فعل القاضي البرجاني من قبل .

يقول الثعالبي : " فأنا مورد في هذا الباب ذكر محاسنه ومقابحه ، وما يرتضى ، وما يستبعد من مذاهبه في الشعر - وطرائقه والتنبيه إلى عيوبه وعيوبه (١) .

فهو بذلك ينهج منهج القاضي البرجاني الذي يرى للمتنبي محاسنه وعيوبه ، وينقل عن صاحب " الوساطة " رأيه في أن أبا الياقوب عندما قال :

أَقْلُ أَيْلٍ أَقْطَعُ أَحْمِلَ عَلَى سَلِّ أَيْدٍ
زِدْ هَشَّ بَشَّ تَفْضِلْ أَدْنِ سَرَّ صِلِ (٢)

قد نسج على منوال ديك الجن عندما قال :

أُحِلَّ وَأَمَرَّ ، وَصَرَّ ، وَانْفَعَّ وَلَرَّ وَأَحَّ
سَيَّنَ وَرَشَّ وَابَّرَ وَانْتَدَبَ لِلْمَعَالِي

فلما جاء إلى سرقات المتنبي رأى أن يورد منها ما لم يورده البرجاني في كتابه وقد رأى الثعالبي أن القاضي في هذا الباب - شفى وكفى وبالح فأوفى (٣) .

(١) اليتيمة (١ : ٩١) .

(٢) راجع التبيين (٣ : ٨٥) ، ولما سمع أن الناس تحاول عد ألفاظ هذا البيت ذكره ثانيا برواية : " زدهش بَشَّ هَبْ اغرأدْنِ سَرَّ صِلِ " وذلك كما في التبيين (٣ : ٨٩) . د / سرحان .

(٣) اليتيمة : (١ : ١١٠) .

أما الأبواب الأخرى التي عدها لبيان محايب شعر المتنبي فإنه كان أحيانا ينقل عن القاضي رأييه في هذا المصيب ، ويذكر اسمه صراحة ، وأحيانا أخرى كان ينقل ولا يذكر الاسم ^(١) فهذا دليل على أن الثعالبي قد تأثر بالقاضي البصري. ويكتابه " الوساطة " في الآراء النقدية ، وليس في المنهج والطريقة .

أما في فكرة الكتاب ، وهي تدوين آثار أدباء القرن الرابع الهجري ، فقد كان متأثرا بكتاب " البارح " لهارون بن علي النجم ، فقد ذكر ياقوت أنه كان لهارون . وهذا كتاب اسمه " أخبار الشعراء " الولدين وقد أورد فيه ما اختاره من شعرهم وسماه " البارح " وقال في مقدمته " علت كتابي هذا في " أخبار الشعراء " الولدين " وذكرت فيه ما اخترته من أشعارهم ، وتحريت في ذلك الاختيار ، أقصى ما بلغت معرفتي ، وانتهى إلي طي ، ثم ذكر أنه اختصره من كتاب مطول ألفه قبله ، وقد ذكر في هذا الكتاب نفعا ومائة وستين شاعرا ، وافتتحه بذكر بشار بن برد ، وختمه بذكر محمد بن هدا الملك بن صالح ^(٢) .

وقد ذكر حاجي خليفة في " كشف الثانون " أن " اليتيمة " ذيل لكتاب " البارح " في أخبار الشعراء " لهارون بن علي النجم ^(٣) كما ذكر ابن خلكان أن كتاب " البارح " هذا هو الأصل الذي نسخ عليه كل من جاء بعده ، ومنهم الثعالبي في يتيمة ^(٤) على أن لعبدالله بن المعتز الذي عاش في عصر هارون المقتدر كتاب في " طبقات الشعراء المحدثين " قلد فيه كتاب

(١) القاضي البصري ص ٨٧ د / أحمد بدوي . نوابغ الفكر العربي .

(٢) مجمع الأدباء (٦ : ١٩) .

(٣) كشف الثانون (٢ : ٢٥٨) .

(٤) وفيات الأعيان (٢ : ١٩٤) .

" البار " ونسج على منواله ، وذكر في مقدمته أنه تابع فيه ابن المنجم .

ولما كان هارون المنجم ، وابن المعتز العباسي قد أرخا لشعرا
عصرهما - وهو القرن الثالث الهجري - فقد تابع الثعالبي هذه السلسلة
بتأليفه كتاب " البيتة " وأرخ فيه لشعرا ، وكتاب عصره ، وهو القرن الرابع
الهجري اقتداء بما فعله ابن المنجم ، وابن المعتز .

وقد أشار الثعالبي إلى هذا التقليد في مقدمة " البيتة " وإن كان
لم يذكر ابن المنجم ، وابن المعتز صراحة وإنما اكتفى بقوله " وقد سبق
مؤلفوا الكتب إلى ترتيب المتقدمين من الشعراء والمتأخرين ، وذكر طبقاتهم
والانتخاب من قصائدهم ومقطوعاتهم ، فكم من كتاب فاخر علوه ، وقد باهر
نظمه ، وبقيت محاسن أهل العصر غير محصورة في كتاب يضم نشرها ، ولا
مجموعة في مصنف يقيد شواردها (١) .

فهو يذكر صراحة أنه مقلد لغيره من مؤلفي التراجم والطبقات ،
- وإن كان لم يذكر واحدا بحينه - ولعله كان يقصد كل الكتب التي سبقت
في هذا الفن مثل " طبقات الشعراء " لابن سالم ، و " الشعر والشعراء " لابن
قتيبة ، و " البار " لابن المنجم ، و " طبقات الشعراء المحدثين " لابن
المعتز .

ولا أستبعد أن يكون الثعالبي متأثرا - كذلك - بكتاب " الأغاني " لأبي
الفرج الأصفهاني ، فكثيرا ما كان يختار مقطوعاته الجيدة من الشعراء
الرقيق ، ويسجلها في " البيتة " ويذكر أنها مما يتغنى به ، مما يدل على أنه
متأثر في هذه الناحية بكتاب الأغاني .

ج - أثر اليتيمة في الكتب اللاحقة

لم يكد الشمالي يفرغ من كتابه " اليتيمة " ويخرجه على النحو الذي يروقه ويرضيه ، حتى طار ذكره ، وشاع خبره ، وعظمت شهرته ، فأقبل عليه القراء يقتنونه ، والناسخون ينقلونه ، والوراقون يتداولونه ، وحرص عليه الأدياء حرصا شديدا وتنافسوا على شرائه والاستفادة منه .

ولعل هذا هو الذي : شجع الشمالي على أن يضم له ذبلا ويسمي " تتمة اليتيمة " وان كان حاجي خليفة يذكر ان اسمه " يتيمة اليتيمة " .

وقد ذكر فيه الشعراء الذين نسبهم في " اليتيمة " أو الذين لم يضاف لهم بشئ من أشعارهم ، وأخبارهم حين تأليف " اليتيمة " أو الذين عنام شأنهم ، ونهبوا بعد ذلك .

وتعد " اليتيمة " ناقصة بدون هذه " التتمة " كما ذكر ذلك الشمالي نفسه لأن " التتمة " تحتوى أسماء كثير من الشعراء الذين أغفلتهم " اليتيمة " أو ناسروهم بعد انتشارها فضلا على أنها تعين على اكمال تراجم عدد من الشعراء - الفضلاء الذين ذكروا في " اليتيمة " .

وقد ذكر الأستاذ عباس إقبال ناشر " تتمة اليتيمة " أنها ألقت في أيام السلطان محمود النزنوى في المدة التي بين سنتي ٤٦٤ و ٤٦٩ هـ ، وقد أخرجها أبو منصور على غرار " اليتيمة " وقسمها أيضا الى أربعة أقسام :

القسم الأول :

في محاسن أهل الشام والجزيرة .

القسم الثاني :

في أشعار أهل العراق ومحاسنهم *

القسم الثالث :

في محاسن أشعار أهل الري وهمذان ، وأصفهان وسائر بلاد
الجزيل ، وما يجاورها من بخرجان وطبرستان *

القسم الرابع :

في محاسن أهل خراسان ، وما يتصل بها من سائر البلدان *

ثم كَتَبَ على " اليثيمة " كذلك أبو الحسن الباخري المتوفى سنة
٤٦٧ هـ بكتابه " دمية القصر ومصرة أهل المصر " ووضع عليه أبو الحسن علي
ابن زيد البَيْهَقِيُّ المتوفى سنة ٥٦٨ هـ كتابه " وشاح الدمية " *

ثم ذيل عليه أبو المصالي سعد بن علي بن القاسم الأنصاري الخطير
المتوفى سنة ٥٦٨ هـ بكتابه " زينة الدهر في لطائف شعراء المصر " ووضع
أيضا أبو عبدالله محمد بن محمد بن حامد العماد الكاتب الأصفهاني المتوفى
سنة ٥٩٧ هـ كتابه " خريدة القصر ، وخريدة أهل المصر " ذيل به علي
" زينة الدهر " ، وترجم فيه الشعراء من سنة ٥٠٠ هـ إلى سنة ٥٧٢ هـ *

ثم صنع بعده كتاب " السيل على الذيل " وجعله ذيلًا للخريدة ..
كما وضع معه في القرن نفسه السمتاني المتوفى سنة ٥٦٢ هـ كتاب
" الأنساب " *

وفي القرن السابع الهجرى ألفت من السلسلة نفسها الكتب
الآتية :

- ١ - "معجم الشعراء" ، ومعجم الأدباء " لياقوت الحموى المتوفى
سنة ٦٢٦ هـ .
- ٢ - "عود الجمان" في شعراء هذا الزمان " لأبى البركات مبارك بن
أبى بكر الشعار الموصلى المتوفى سنة ٦٥٤ هـ .
- ٣ - "المُتَرَبِّى فِي حَلَى الْمُتَرَبِّى" لأبى سعيد المنرى المتوفى سنة
٦٤٠ هـ .
- ٤ - "أنباء الرواة على أنباء النحاة" للقطبى المتوفى سنة ٦٤٦ هـ . وله
أيضا في هذا الباب كتاب "المحمدون من الشعراء" .
- ٥ - "الفصوص اليانعة في شعراء المائة السابعة" لأبى الحسن
على بن موسى .
- ٦ - "وفيات الأعيان" لابن خلكان المتوفى سنة ٦٠٨ هـ .

أما في القرن الثامن فقد ألفت الكتب الآتية في هذا الفن :

- ١ - "فوات الوفيات" لابن شاکر الكتبي المتوفى سنة ٧٤٦ هـ .
- ٢ - "الوافى بالوفيات" للصفدى المتوفى سنة ٧٦٤ هـ .
- ٣ - "تلخيص معجم الآداب" في معجم الألقاب لابن القوطى المتوفى
سنة ٧٣٠ هـ .

- ٤ - " طبقات الشافعية " للأُسُوى المتوفى سنة ٧٧٢ هـ .
٥ - " طبقات الحنابلة " لابن رجب الحنبلي المتوفى سنة ٧٩٥ هـ .

وفى القرن التاسع ألف السبكي كتابه المشهور " طبقات الشافعية "

وفى القرن العاشر ألف الكتب الآتية :-

- ١ - " المنهج الأحمدى فى تراجم أصحاب أحمد " للمليى المتوفى
سنة ٩٢٨ هـ .
٢ - " معاهد التنصيص على شواهد التلخيص " لمحمد الرحيم بن أحمد
المباسبى ت سنة ٩٦٣ هـ .

وقد ذلت هذه السلسلة متصلة الحلقات فألف منها فى القرن
الحادى عشر ما يلى :-

- ١ - " ربحانة الألباء ، وزهرة الحياة الدنيا " لشهاب الدين أحمد بن
محمد الخفاجى المتوفى سنة ١٠٦٩ هـ .
٢ - " شذرات الذهب " للحماد الحنبلى المتوفى سنة ١٠٨٩ هـ .

٣ - " خزانة الأدب " للبندادى المتوفى سنة ١٠٩٣ هـ .

وفى القرن الثانى عشر الهجرى ألفت من هذه المجموعة الكتب
الآتية :

١ - نفحة الريحانة ، ورشحه طلاء الحانة " لمحمد أمين بن فضل الله
المحبى المتوفى سنة ١١١١ هـ وقد جمعه نبلا على " ریحانة
الألها " للخفاجى .

٢ - أمل الآمل " للحاملى المتوفى سنة ١١٠٤ هـ .

٣ - الدرجات الزئيمة ، فى أخبار الشيعة " للشيرازى .

٤ - سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر " للمرادى .

وفى القرن الثالث عشر : ألف الكتونى كتابه " التاج المكلل " .

أما فى القرن الرابع عشر - وهو القرن الذى نحن فيه ، والذى
أوشك على الانتهاء - فأدم الكتب التى ألفت فى هذا المجال كتاب " الأعلام "
لخير الدين الزركلى ، وإن كان لم يقتصر فيه على أعلام عصره بل تحدث

فيه عن الأعلام في مختلف المصور ، ولا ينفرد في القرن الرابع عشر كتاب
ألف في تراجم الأدباء على غرار السلسلة السابقة ، وغاية ما ألف في هذا
السيريل «جامع اقتصر على شمرا» قطر واجد قلما تتمداه إلى تظر آخره

* * *

:: الفصل الخامس ::
=====

" اليتيمة في ميزان النقد "

أجمع النقاد القدامى الذين تحدثوا عن الثعالب ، أو تعرضوا لذكر
كتبه ، كالبخريزي في " الدمية " والخضري في " زهر الآداب " وابن الأنباري
في " نزهة الألباء " ، وابن خلكان في " الوفيات " ، وحاجي خليفة في
" كشف المنون " ، وأبى الفدا في " البداية والنهاية " وغيرهم من المؤلفين
والمصنفين السابقين .

أوصموا على أن كتاب " اليتيمة " أكبر كتب الثعالب ، وأجلها قدرا ،
وأعلاها نفعا ، وأشادوا بها أشادة بالغة ، فهي التي أتاحت لصاحبها هذه
الشهرة الواسعة ، وجعلت حديثه سر الأدباء على مر المصور .

ولا شك أن هذا الإطار من جانب المؤلفين القدامى لكتاب
" اليتيمة " يدل على أهمية هذا الكتاب ، وقيمه الأدبية ، والتاريخية .

وإن كنت أعتقد أن تقديم هذا نقد شخصي كدوي يقوم على أساس
الذوق الخاص ، والنزعة الجزئية الضيقة ، التي تشتمل على شيء من المبالغة
والتحويل ، وتلك كانت عادة المصنفين القدامى في تقريبهم لأصحاب الكتب ،
والمصنفات .

أما نقادنا المحدثون الذين تعرضوا لكتاب " اليتيمة " بالدراسة والنقد
فقد كانوا أكثر موضوعية من السابقين ، فأظهروا آراءهم بكل وضوح ، تارة بمدحه
والثناء عليه ، وتارة أخرى بدمية والقدح فيه .

ومن أشهرهم : الدكتور زكي مبارك في كتابه " النشر الفتي في القرن
الرابع الهجري " .

والدكتور : محمد مندور في كتابه " النقد المنهجي عند العرب " .

والدكتور : طه حسين فى تقديمه لكتاب " الذخيرة لابن بسام "
والأستاذ أحمد أمين فى كتابه " ظهير الاسلام " .
والأستاذين : محمد إسماعيل الصاوى ، ومحمد محى الدين عبد الحميد
فى تقديم كل منهما لكتاب " اليتيمة " .

وسأحاول فى هذا المجال أن أقوم بمعرض آرائهم ، وتوضيحها ، نسـم
مناقشتها والرد عليها - إذا احتاجت إلى رد أو مناقشة .

أولاً : رأى الدكتور : زكى مبارك :

يرى الدكتور زكى مبارك أن " اليتيمة " كتاب عظيم أودعه الثمالي
أخبار من طائفتى عصره من الشعراء - ولكنه بعد هذا الإطار لليتيمة يعيب
على الثمالي فيها أمرين :

أولهما :

أن الثمالي فى " اليتيمة " مفتون بالإسراف فى إطاره من يتحدث عنهم
من الشعراء ، والكتاب ، وله فى ذلك تعابير تكاد تكون واحدة يدور
حولها هنا ، وهناك ^(١) ، ثم استشهد على ذلك ببعض الأمثلة
من " اليتيمة " .

وثانيهما :

اغفال الثمالي فى يتيمة لتواريخ الوفيات ويذكر أن هذا الميب من
أقتل عيوب " اليتيمة " .

(١) النشر الفنى فى القرن الرابع الهجرى (٢ : ١٩٠) ط دار الكتب .

ولاشك أن الدكتور زكي مبارك قد ظلم الثعالبي في هذا الحكم
المصائبينا .

ولاشك أن الذي دفعه إلى ذلك هو النظرة السريعة الخاطفة
لكتاب " اليتيمة " .

ولو أنه أضمن النظار في دراستها ، وأعمل فكره فيها . . لما عاب
على الثعالبي شيئا من ذلك .

وأغلب الظن أن سبب إطراء الثعالبي لشعراء وكتاب عصره يمسود
إلى أسباب شخصية تتعلق بتكوينه ، وأخلاقه فلقد كان كما عرفنا من سيرته ،
شديد التواضع عظيم الحياء ، كثير المجاملة لغيره من الشعراء والكتاب .

وعلى الرغم من ذلك كان حريصا على إيضاح خصائص من يترجم لهم
في أدبهم ، والإلماح إلى وقائع حياتهم التي كان لها تأثير في هذا الأدب ،
أو تفسير ظاهرة من ظواهره ، أو كشف عن جانب من جوانبه .

نجد هذا واضحا في ترجمته لأبي فراس الحمداني مثلا . . عندما عقد
موازنة بين أبي فراس ، وابن المعتز ، وأوضح الخصائص التي أثرت في
شعر كل منهما ، من الإمارة ، وعراقة الأصل وحسن المنبت ، واستقامة اللسان .

كما نجد في ترجمته لابن لنكك البصري (١) حين قدم موازنة بين
شعره ، وشعر أبي الحسن بن فارس في الملاحاة ، وقلة مجاوزة كل منهما البيتين
والثلاثة ، وحين شبه ابن لنكك في قلة شعره ، وقصر نفسه بمنصور الفقيه الذي
كان إذا رمى بزوجه قتل ، وكذلك كان ابن لنكك . . إذا قال البيست ،

(١) النشر الفني في القرن الرابع الهجري (٢ : ١٩٠) ط دار الكتب .

(٢) اليتيمة : (٢ : ٣٢٠) .

والبيتين ، والثلاثة أغرب فيما جلب ، وأبدع فيما صنع (١) .

وكان النحالي إلى جانب ذلك كله يلقى بأحكامه على شعر من يترجم لهم ، من خلال تقريره لهم ويحدد معالمه ، ويظهر خصائصه ، ويميزاته .

فشعر ابن لنكك البصرى خفيف الروح .

وشعر ابن نهانة السمدى مع قرب لفذاء - بعيد المرام .

وشعر ابن حجاج لا يستتر من العقل بسجف (٢) بهجون ، وسخف ولكنه مع ذلك من سحره الشعر .

وأبو الفتح البستي صاحب الطريقة البديعة فى التجنيس السرى يسميها المتشابه .

فأنت تراه يحدد الخصائص العامة لشعر من يترجم لهم ويبين معالمه وحدوده على الرغم من ثنائه عليهم .

وهو لا يفلح ذلك من قبيل المصادفة والاحباط . كما اتهمه الدكتور زكى - وأنا يفعله عن فهم دقيق ، ووعى عميق ، لشعر وحياة المترجم له .

" ولم يكن النحالي مقلدا فى طريقته هذه فى الحديث عن الشعراء وإنما كان " مبتدعا ، ولو تأملنا عمل ابن الدمعتر فى كتابه " طبقات الشعراء " وعمل ابن قتيبة فى " الشعراء والشعراء " وهما أبرز من كتب فى هذا الفن قبل النحالي لأدركنا البون الشاسع بين الطريقتين .

(١) البيتية (٢ : ٣٢١) .

(٢) السجف : الستر .

فابن المعتر وابن قتيبة يعمدان إلى أخبار الشعراء فيمردانها ، وإلى أقوال النقاد فيمحصانها ، دون أن يجملا ذلك معرضا لبيان قدرتهما ففى الكتابة كالثمالى " (١) .

وأما الحيب الثانى :

الذى أشار إليه الدكتور زكى مبارك فى نقده " للتيمة " وهو اغفال تاريخ الوفيات ، فالحق أن الثمالى كان معذورا فى ذلك ، فلقد جهد أن يترجم لكبار شعراء عصره ، وعمل مخلصا على تقصى الأخبار ، التى تخدم النصوص التى أوردها ، وصرف النظر عن تسجيل ما يحيط بحياتهم الشخصية من أحداث ، لأن هذا جهد المؤلف ، لا جهد الأديب .

هذا فضلا عن أن أبا منصور لم يلتق بكل من ترجم لهم وإنما سمع أخبارهم . من قادم نحوه من بلادهم ، أو من صديق طاف البلاد ، وانتقى الأخبار ، أو مما سار لهؤلاء الشعراء على ألسنة الناس ، ولا يحقل أن يجرى أبو منصور وراء هؤلاء الشعراء فى شتى بلاد الدولة الأسلمية الواسعة ، ليتعرف إلى أخبار الوفيات ، غير أن هذا النقص فى الكتاب يمدد عيبا خاصة فى عصرنا الحديث ولو أن الثمالى أتمه لائقا على التاريخ الأدبى أوفر الظلال .

ثانيا : رأى الدكتور : محمد مندور :

يرى الدكتور مندور - عندما تعرض لدراسة " التيمة " فى كتابه " النقد المنهجى عند العرب " - أن الثمالى كان مجرد جامع لآراء غيره . وذكر أنه كان قراء فى كتبه يخطط آراء غيره ، ويجمعها من غير فهم ، ولا إدراك ، كما

(١) أبو منصور الثمالى وآثاره الأدبية ص ١٢٤ عهد الفتح الحلو .

كان قراءه في حرفته يخطط بجلود الثعالب ويضم أجزاءها بعضها إلى بعض (١) .

ويزم - كذلك - أنه لم يكن له رأى مستقل في حكمه على الشعراء والكتاب وإنما كان يعتمد على آراء الآخرين حيث يجمعها ويلفها ، ويضم أجزاءها إلى بعض ، حتى يجعل منها كتابا . . . فهو جامع أكثر منه مؤلفا أو ناقدا .

والحق أن الدكتور مندورا كان متسرفا في حكمه هذا على الثعالب ، طالما له في هذا الحكم الذي أطلقه على عوامته دون تبعه أو دليل .

ولا شك أن الذي حمله على ذلك هو نظريته الجزئية . . . " للتيمة " عندما تمرض لدراستها حيث لم يدرس منها في كتابه إلا جزءا صغيرا . . . هو موقف الثعالب من المتنبي ، في دراسته له ، وقد كان الثعالب قمارا في نقده للمتنبي متأثرا بآراء غيره من الناقدين كالصاحب ، والحائى ، والجرجاني . . .

ولعل هذا هو : ماخذًا بالدكتور مندور إلى أن يسارع بالحكم على كتب الثعالب كلها من خلال دراسته لهذا الجزء الصغير من " التيمة " فحكم على الكل من خلال دراسته للجزء . . . وهو حكم مبتور ، لا يجد مجالًا للوقوف في ميدان النقد التزيه . . .

والدارس الواعى لكتاب " التيمة " يجد أن الثعالب كان ناقدا من طراز فريد ، فقد كان يسجل أبحار الأدباء دون اكتفاء - في الأكثر - بنقلها من غير تعليق عليها ، أو وقوف لديها - ولكنه - غالبا - كان يحمل رأيه فيها . . . ويسجل نقده عليها ، أو وجهته فيها ، أو تعليقه عليها .

ومن ذلك مثلا نقده لأبى بكر الخوارزمي عندما كتب قصيدة للصاحب - وقد اخلت صحته - وكان من ضمنها هذا البيت :

(١) النقد المنهجي عند العرب ص ٣٠٣ .

تَمَوَّا لِي نَفْسَ الْجَبْرِ سَاعَةَ أَخْبَرُوا
بِمَا يَشْتَكِي مِنْ سُقْمٍ وَيَسَارِسَةٍ

فمعلق الثمالي على هذا البيت بقوله " إن لفظة النسي فيها ما فيها
من الطَّيَرَةِ ٠٠ إذ هي مما يقع في الرثية لافى العيادة " (١) .

ثم يقول بعد ذلك : ومن سقطات الْخَوَارِزْمِيِّ المنكرة قوله في المدح :

وَصِهْبٌ كَأَنَّمَا أَذْنَبَ النَّاسُ
سُؤْلُ الْإِيَّاهُمْ فَهُمْ مَغْمُومُونَ ذَلَالًا
وَأَرِيفٌ كَأَنَّ فِي كُلِّ فِتْمِيلٍ
مِنْ أَفَاعِيلِهِ عَرَائِسٌ تُجَلَّى

ثم يعلق على ذلك بقوله " إن الكبرياء ، والمحتشمين لا يوصفون بالظرف
إذ هو من أوصاف الأحداث ، والقيان ، والشبان ، ولم يرض بالفرطة في هذه
اللفظة حتى شبه أفاعيله بعرائس تُجَلَّى ، فلو مدح مخنثا لما زاد على ذلك " (٢) .

ولم يكن الثمالي ممن يكتفى بالبحث عن الميوب ، وتمقيها وإبرازها
للقارئ كما فعل مع الْخَوَارِزْمِيِّ ، ولكنه كان - أيضا - يمعجج بالشعر الجيد ،
صطرب له ، ويثنى عليه ، ويعلن رأيه فيه ٠٠

ومثال ذلك أنه عندما انتصر سيف الدولة على المبرقع أحد زعماء
القرامطة ، ورجع برأسه على ربح إلى حلب مدحه أبو فراس بقصيدة يهنئه فيها

(١) الهيتية (٤ : ٢٠٨) ٠

(٢) المصدر السابق (٤ : ٢٠٨) ٠

بهذا النصر المبين ، وكان من أبياتها قوله :

وَأَبْزَأُ مِنَ الْفَرَسِ عَلَى أَسَامِهِ * لَهُ جَسَدٌ مِنْ أَكْثَبِ الرِّيحِ ضَامِرٌ (١)

فأعجب الثماليين بهذا البيت إعجابا شديدا وعلق عليه بقوله :

" هذا من أحسن ما قيل في الرأس المطلوب على الدرع "

وهذا التخليق من جانب الثماليين على بيت أبي فراس يدل على

رقى ذوقه ، ونضج وعيه ، وحسن مصرفته بالشعر ، وجودة فهمه له . .

* * *

وكثيرا ما كان يتحقب آراء النقاد ، ويرد عليهم ، ويناقشهم ، فيما

يذهبون إليه ، ولا يأخذ كلامهم قضية مسلمة ، أو حجة لا تقبل المناقشة ،

وكان في ذلك ذا رأى صائب مستقل .

ومثال ذلك أنه عندما عرض قول المتنبي في المدح :

قَدْ شَرَفَ اللَّهُ أَرْضًا أَنْتَ سَاكِنُهَا
وَشَرَفَ النَّاسَ إِذْ سَوَّاكَ إِنْسَانًا

ذكر أديبنا الكبير رأى ابن جني عندما شرح هذا البيت فقال :

" قال ابن جني : لا يمتدحني قوله " سَوَّاكَ إِنْسَانًا " ولو قال :

" أَنشَاكَ " ونحو ذلك لكان أليق بالحال " .

ثم عقب على كلام ابن جني بقوله : " قلت أنا : ولو قال المتنبي

(١) نفسه (١ : ١٩) .

غير ما قال ، لم يكن نصيحاً شريفاً * لأن في القرآن " ثم سَوَّكَ رَجُلًا " (١) ،
وليس أشرف ولا أفصح مما ينطق به كلام الله عز ذكره (٢) .

* * *

أفبعد هذه الدقة في فهم آراء الآخرين ، وبعد هذا الذوق فسي
إدراك مواطن الجمال ، يتهمه الدكتور مندور بأنه جاحل لأشعار غيره وآرائهم
من غير فهم ولا تحصيل ؟ !! *

والدارس المدقق " لليتيمة " يرى قوة في شخصية الثمالي ، ويلمس
سعة في اطلاعه ، ويحسن لديه حسن فهم للشعر والنثر ويتضح هذا في أسور
منها :

١ - عندما كان شعر من يترجم لهم يتفق مع شعر قديم نراه يشير الى ذلك
الاتفاق ، ويورد الشعر القديم *

والأمثلة على ذلك كثيرة خاصة في المواضع التي تمرض فيها
لسرقات المتنبي ، والصاحب ، والسري الرفاء ، وابن حجاج وغيرهم *

٢ - ولما كان المؤلف شاعراً ، وكاتباً فإنه كان يحاول دائماً أن يقيس ما يورده
من ممان وتراكيب ، وألفاظ على ما يمر به في أثناء مدالعاته الكثيرة ،
وفاءً لبينها **

٣ - وعندما كان يحس ضرورة لتفسير كلمة مبهمه أو توضيح معنى غامض ،
كان لا يتردد في إيراد هذا التفسير ، أو التوضيح ، وكان بملمه
هذا يقدم لقراءه فائدة عظيمة لا يجدونها في غير كتابه *

(١) الآية ٣٧ من سورة الكهف *

(٢) اليتيمة : (١ : ١٨٧) *

ومثال ذلك أنه عندما تعرض للقصيدة الساسانية التي قالها أبو
دلف الخزرجي في الكدية - وهي قصيدة طويلة جدا وجل ألفاظها غامض
ولا يفهمها إلا طائفة الصماليك .. لأنها لغة سرية خاصة - تولى الثعالبي
شرحها ، وتوضيحها ، لأن كلماتها النامضة ، وعباراتها الخفية كانت تحول
دون فهمها ..

ومن هنا أطلق الثعالبي عليها " منكااة بنى ساسان " ولولا شرحه
لكلماتها ، وتوضيحه لعباراتها لما عرفنا عنها شيئا . في المصور التالية لمصره .

٤ - وللثعالبي لفتات بلاغية أشار إليها حين كان يلحها في أشعار
من يترجم لهم ، وهذه اللفتات تنم عن ذوق بلاغي رفيع ، وقدرة
فائقة على فقه أسلوب البيان ، وإدراك خفايا الكلام .

٥ - وقد زودنا الثعالبي بمجموعة قيمة من آرائه النقدية التي نجددها
مبثوثة في ثنايا تراجم الشعراء ، خاصة عند دراسته لشعر المتنبي ،
وأبي فراس ، والصاحب والكوازي والهمذاني ، وغيرهم من كبار
الأدباء ..

ولا شك أن هذه الدقة من جانب الثعالبي في إبراء أحكامه على
الأدباء لا يفطن إليها إلا أديب كواقعة يضمن الذمار في تراجم " اليتيمة "
ويدقق في دراستها ، أما أولئك الذين ينظرون إليها نظرة عابرة ، أو
يدرسون بعض أجزائها فانهم لا يلحظون فيها إلا الطنطنة الفارقة ، والالطراء
الكاذب ، والمبالغات المفقودة .

ولذلك يسارعون إلى اتهام صاحبها بالضعف ، وعدم القدرة على
الفهم ، والمجاز عن الدراسة والتمييز ، وقدima قيل " رمثى بدائنها ،
وانسلت " .

ثالثاً : رأى الدكتور : طه حسين :

قام الدكتور طه حسين أثناء تقديمه لكتاب " الذخيرة " بمقصد موازنة بين ابن بسام صاحب " الذخيرة " والشعالي مؤلف " اليتيمة " واعترف صراحة بأن صاحب " الذخيرة " قد تأثر بالشعالي في المنهج والطريقة ، والأسلوب ، ولكنه يمد ذلك تحامل على الشعالي كثيراً وفضل عليه ابن بسام وسأقيم هنا بمرض رأى الدكتور طه بكل دقة وأمانة ثم أحاول من جانبي مناقشته ، والرد عليه . . .

يقول الدكتور عن ابن بسام : " وهو حريص كل الحرص على أن يميز سيرة الشعالي في تأليف كتابه ، فهو يقسم كتابه أربعة أقسام . . كما قسم الشعالي كتابه أربعة أقسام . .

وهو يقسمه بأخبار الأقاليم . . كما قسم الشعالي كتابه بأخبار الأقاليم (١) ، وهو يصطنع ما اصطنعه الشعالي من السجع والتأنق في تقديم الكتاب والشعرا ، والتحريف بهم والثناء عليهم ، والنقد لهم (٢) .

ولكنه - يمد أن يحترف بفضل الشعالي على ابن بسام - سرعان ما يأخذ في التحامل على صاحب " اليتيمة " والنيل منه ، والظمن فيـه فيقول : " ولكنه - أى : ابن بسام - يمد هذا كله يخالف الشعالي فسى أمر ذى خطر ، فهو أبعد منه نظراً ، وأنفذ منه بصيرة ، وأعق منه تفكيراً

(١) كلمة " اخبار " معناها الأسماء والاستدلال بالشئ على الشئ ، واستعمالها في غير هذا المعنى خطأ شائع - كما هنا - وإذا جاز وقوه في أسلوب صغار الكتاب ، فذلك غير شائع في أساليب الكبار . د / سرحان .

(٢) تقديم كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة للدكتور طه حسين ط لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٦٣ .

وهو على تكلفة في اللفظ . لا يخدع بالرواء الذاهر عما وراء من جودة الصنع ، أو رداءته ، ومن صواب التفكير ، أو خطئه ، ولعله يكون أفقه من الشمالي بالحياة الأدبية في إقليم من الأقاليم ، وما ينتج فيه من أدب . فهو قد لاحظ مجاورة المسلمين في الأندلس لأعدائهم من الفرنجة وتأثير هذا الجوار فيما كان للمسلمين من شعر ونثر (١) .

وقد نسي الدكتور طه أن الشمالي - من قبل - قد ربط بين طبيعة كل إقليم وما ينتج فيه من أدب .

والدليل على ذلك تفضيله لشعراء الشام على شعراء العراق لأسباب تتعلق بالموقع الجغرافي لكل من " الأقليمين " وذلك لقرب أهل الشام من خطط العرب ، وسلامة ألسنتهم من الفساد الحارض لألسنة أهل العراق . . . لمجاورة الفرس ، والنبط ، وداخلتهم إياهم ، فهو قد فطن إلى ما كان من اختلاط أهل العراق بالجم ، وأثر ذلك في نتاجهم الأدبي .

وما كان ابن بسام الا مقلدا له في تلك الناحية . .

ثم يواصل الدكتور هجومه على الشمالي فيقول : " وابن بسام لا يكتفى برواية مقتطفات من الآثار الأدبية للملوك ، والوزراء ، والأمراء - كما فعل الشمالي - ولكنه يعرض تاريخهم عرضا دقيقا مفصلا ، ويرد آثارهم الأدبية إلى مصادرها ، وقد عمد في ذلك إلى مذهب مستقيم حقا . . . ما هم به السهولة وإيثار المافية ، والإعتماد على غيره ، ولكنه في حقيقة الأمر دقيق - كل الدقة . .

(١) تقديم الذخيرة لطه حسين ص (ب) .

رأى أنه ليس مؤرخاً ، وأنه لا يحسن البحث التاريخي فلم يتكلف
مألاً يحسن ، ولم يحاول ما لا يجيد ، وإنما اعتمد على مؤلف معروف بالصدق
والدقة وحسن الاستقصاء وحسن العرض أيضاً . . . وهو أبو حيان التوحيدي ،
فأخذ من كتابه بالنص ، وبالتلخيص ، ما احتاج إليه من التاريخ السياسي
وأنبأنا بذلك في تواضع وصراحة خليقين بالاعتناء (١) .

* * *

ولا شك أن هذا الكلام فيه كثير من المحاباة والتمصّب لابن
بسام ، وكثير من النهن والتحامل على الشمالي . . . ولا يصح أن نعتد
نوطاً من الموازنة بين على الربطين لأن البون جد شاسع ، والفرق جسيم
بعميد .

فالشمالي قد ترجم لشمراء الدولة الإسلامية كلهم بما في ذلك
شمراء الأندلس .

وابن بسام قد ترجم لشمراء الأندلس فقط ، وأضاف في القسم الرابع
بعض التراجم للمشرقيين . . . اقتداءً بما فعله الشمالي في ذكر شمراء
الأندلس . . .

وعلى الرغم من ذلك نجد أن ابن بسام لم يمتن بالكتابة التاريخية
وإنما نقل ما جاء في كتاب أبي حيان .

ولم يفعل ذلك في طول الكتاب وعرضه ، وإنما فعله مع الأمراء
والحكام ثم ترك بقية التراجم دون ذكر أية إشارة تاريخية اليهم .

على أن هذا الصنيع من ابن بسام جملة يحتفل بالأمراء والحكام

(١) انظر تقديم الذخيرة لطف حسين ص (ج) .

أكثر مما فعل الثعالبي ، وجعل نصيب الآخرين من كتابه ضحلا وقليلًا بينما امتلأ كتاب الثعالبي بأدب أمثال هؤلاء مما جعله يرسم صورة أدبية واضحة لمصره . .

* * *

رابعاً : رأى الأستاذ أحمد أمين في " ظهر الاسلام " :

أما الأستاذ أحمد أمين فيميب على الثعالبي احتفاله بالبديع اللفظي أكثر من عنايته بالتحليل النفسي (١) .

وليت شعري كيف يدالب الأستاذ أحمد أمين الثعالبي في القرن الرابع الهجري بأن يتيح منهج التحليل النفسي ، في دراسته للشخصيات الأدبية مع أن هذا المنهج لم يستعمل إلا في العصر الحديث على يد طائفة من الأدباء والفلاسفة الذين يخضعون الشخصيات الأدبية والتاريخية أثناء دراستها لمنهج التحليل النفسي كالأستاذ العقاد في عقباته المشهورة وإن كان بعض أدباء العصر ونقادهم يعميرون عليه هذا الاتجاه . .

خامساً : رأى الأستاذ محمد اسماعيل الصاوي :

يرى الأستاذ الصاوي في تقديمه لكتاب " اليتيمة " أن الثعالبي في مختاراته الشعرية والنثرية قد أفرط كثيراً في الفحش ، والـجـسـون ، واستباح لنفسه في هذه الناحية ما يثير عليه حملات علماء الأخلاق لأنه أورد أبياتا غاية في الإفحاش لفظا ومعنى . .

وأنا - وإن كنت أعتقد أن الثعالبي قد أفرط حقيقة في هذه

(١) ظهر الاسلام (٢ : ١٢٢) .

الناحية - كما يقول الأستاذ الصاوي - أرى أنه كان ناقلا أميناً لأحداث عصره ، ومستعلا صادقاً لكل ظواهره الاجتماعية ولو أنه أغفل المجهزون في مختاراته - كما فعل مزامنه - أبو اسحاق الحصري في " زهر الآداب " - لكان كتابه ناقصاً مبتوراً .. ولما استطعنا أن نحكم على العصر من خلال " البيتية " حكماً ، صادقاً ، دقيقاً ، أميناً ..

سادساً : رأى الأستاذ : محمد محيي الدين عبد الحميد :

أما أستاذنا المرحوم الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد فيعيب على الشالبي في " البيتية " أمرين :

أحدهما : المصيبة لشعراء الشام ، وتفضيلهم على شعراء سائر البلدان ..

وثانيهما : المصيبة للشعراء من الملوك والحكام ، والثناء عليهم أوفر الثناء ..

أما بالنسبة للأمر الأول :

وهو المصيبة لشعراء الشام - فأرى أن أبا منصور كان محققاً في ثنائهم عليهم ، وتمحيصه لهم ، لأنهم حافظوا على طريقة العرب في أقران الشعر ، والتزموا بعمود الشعر العربي المعروف عند النقاد ، كالدخالة في الألفاظ ، والفخامة في التراكيب ، والبدأة في التعبير ، والقوة في المعاني ، والمق في الأفكار ، والبهج بقدر الإمكان عن الفحش والمجون ، وركاكة الأساليب ، وضعف التراكيب .. كما راج - عندهم شعر الحماسة ، وتمجيد البطولة ، ووصف الممارك ، والاشادة بمواقف سيف الدولة البطولية ضد الروم ، والدفاع عن الإسلام ..

هذا فضلاً عن المحافظة على الأوزان العروضية

المتوارثة ..

وأما بالنسبة للأمر الثاني :

وهو تمصّب الثمالى للملوك والحكام والاشادة بالشعراء منهم -
فأنا مع شيخنا محبى الدين فى ذلك ، لأن الثمالى قد أراق ماء
وعنه فى الثناء عليهم وسدحهم حتى إنه اشترط على نفسه نفسى
مقدمة " اليقينة " أن يورد فى مختاراته لب اللب ، وحبّة القلب ،
ونادر المين ، ونكة الكلمة ، واسطة العقد .

فان وقع خلال ما يكتب البيت والبيتان مما ليس من أبيات القصائد
ووسائط القلائد ، فذلك راجع عنده لسببين :

- ١ - إما لأن الكلام محقود به والمعنى لا يتم بدونه .
- ٢ - وأما لأنه شعر ملك ، أو وزير ، أو رئيس خطير واستشهد به هذا
البيت :

وَحَيْرُ الشَّعْرِ أَكْرَمُهُ رَجَالًا
وَشَرُّ الشَّعْرِ مَا قَالَ التَّيْبِدُ

ولا شك أن هذه نظارة قاصرة من جانب الثمالى فى فهم الشعر .
ذلك أن الشعر لا يحلى قدره أن يكون قائله ملكا أو وزيرا أو رئيسا
خطيرا - كما قال - ولا يشينه ، أن يصدر عن وضيع أو حقير . .

فليس هذا فى الحقيقة مقياسا جيدا لجودة الشعر أو رداؤه ،
وإنما المقياس السليم هو المعايير النقدية السليمة التى تعتمد على النظارة
المجردة فى فهم الشعر ، والحكم عليه . .

ولو كان الشعر يرقى بريقى قائله ، ويهبط بهبوطه لكان شعر ابن
المعتمر ، وسيف الدولة - وأبى فراس وعند الدولة ، وتميم بن الصخر وأضرابهم

من الأمراء والحكام في المنزلة العليا من الشعر .. ولأسقطنا من تراثنا
الأدبي أشعار الحليفة ، وجريز ، وشار ، وأبي المتاهية والمثنى وغيرهم ..
لوضاعة أصولهم ، وهوان أمورهم .. وهذا ما لم يقل به أحد في القديم ،
أو في الحديث ..

وهذه النظرة من جانب أبي منصور تدل على ضعفه ، وحرصه على
إرضاء الملوك ، والرؤساء في عصره ، ولو على حساب المقاييس النقدية السليمة
ليقال عطاياهم ، وينعم بصلاتهم ، ويأمن بكرهم ، فأكثر من الثناء عليهم ،
والإشادة بذكورهم ، وإعلاء شأنهم ، وأفراد لهم في " يتيمة " أبوابا
مطلولة . (١)

والكتاب بعد هذا كله يمتد من أفضل المصادر لدراسة الشعر والنثر
في القرن الرابع الهجري ، في أوسع رقعة من الأرض تشغل العالم الإسلامي
كله آنذاك ..

فقد حشد فيه مؤلفه عددا ضخما من الشعراء ، والكتاب يربو على
أربعمائة أديب في شتى أنحاء الدولة الإسلامية الواسعة الانتشار ..

وهو عن طريق ترجمته لهؤلاء الأدباء يضح أيدينا على حركة أدبية
شاملة ، ازدهرت في ذلك العصر ، وقد تعاون فيها الخلفاء ، والأمراء ،
والوزراء ، وأعيان البلاد ، فلم تشغلهم مناصبهم السياسية ، ولا مسئولياتهم
الادارية ، عند تشجيع الأدب وتعاظم فنون القول .

(٢) لعل هذه النذرة من الثمالي ترجع الى المقياس الخلقى ، والرقصى
الاجتماعى حيث لا إسفاف ، ولا سفة ، ولا بداء ، ولا تنزل من العليا
في أشعار الملوك والرؤساء ، وعلى هذا الأساس ، يكون مقياس الثمالي
خير مقياس ، لأن الشعر فن جميل ، يجب أن يربأ به الشعراء
عالمين بجميل . د / سرحان .

كما أن هذه التراجم تهيء مادة غزيرة لتأريخ الأدب في ذلك الوقت ، فقد انفرد هذا الكتاب بكثير من التراجم لشخصيات لازالت مجهولة حتى اليوم .

والكتاب بحد ذاته يقدم معلومات متنوعة عن البعثات والبلدان الإسلامية ، ومن عاش فيها من علماء ، وحكام وأدباء .. وما كانت تمنح به امتدياتهم ، ومحافلهم ، من نشاط ، وحركة ..

وعلاوة على ذلك ، يمدُّ الكتاب مصدرا ، هاما لدراسة الحالة ، الاجتماعية للدولة الإسلامية في القرن الرابع الهجري .. ولا يقاربه في ذلك أثر أدبي آخر ، كما يمدُّ مرجعا هاما لدارسي الأدب وعشاق المصير ، على مر المصور ..

:: الباب الثالث ::
~~~~~

آثار الأجناس البشرية والدوافع الدينية  
في أدب " اليتيمة "

١ - الفصل الأول :

الروح الفارسية في أدب اليتيمة •

٢ - الفصل الثاني :

أثر الحياة المربية في أدب اليتيمة •

٣ - الفصل الثالث :

الرفيق وآثاره فيها •

٤ - الفصل الرابع :

صدى التشيع في اليتيمة •

٥ - الفصل الخامس :

آثار أهل الذمة في اليتيمة •

\*\*\*

٢٢ الفصل الأول ٢٢

الروح الفارسية في أدب اليتيمة

منذ أن اُعيد بنو المباس على الموالي ، من فرس ، وترك ، فُرس  
إدارة شؤون البلاد ، وتدير أمورهم ، وتصريف أحوالهم ، وحين اتخذوا منهم  
الوزراء ، والجند ، والعمال ، وأَقَصَّوا الحرب أبناءُ أُرُوتهم وعصبتهم عــــن  
وظائف الحكم .. بدأ المجد العربي الشان يتهاوى وأخذت تلك الأعصدة  
الراسخة تنهدم ، وشرع ذلك الحقد الثمين في تساقط درره وتناثر جواهره .

ولم يكد القرن الثالث يشارف نهايته ، حتى صارت هذه الدولة  
الموحدة المظمية - التي تربعت من قبل على قعر المجد - واستقرت فوق  
قم المزة والفخار - دويلات سياسية صغيرة مستقلة استقلالاً ذوياً خالصاً ،  
ولا تربطها بالحكومة المركزية في بغداد إلا أوهن الأمشاج والصلات وأوهى  
الروابط والملاقات .

ومن بين تلك الدويلات التي تمزقت إليها الدولة المباسية الكبيرة  
دولة بني بويه التي استولت على بغداد سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة هجرية .

وقد كان بنو بويه من الفرس فتمصبوا لبني جنسهم تمصبا شديدا  
وشجموهم على إحياء عاداتهم ، وتقاليدهم القديمة والاحتفال بأعيادهم الفارسية  
ومواسمهم الدينية البائدة .. وأصبح للبويهيين النفوذ الأعلى ، وعلى المباسيين  
الطاعة والخضوع ، فطغى الروح الفارسية على كل شيء ، وضعت النمرة العربية  
في نفوس العرب ، وهجر شعراؤهم الفخر بالماثر العربية من أحساب وأنساب ،  
وتحول الأدب العربي في تلك الحقبة إلى انحلال ، وضعف وتسيب ، وظهرت  
المدائح التي فيها كثير من الملق ، والمبالغة ، واقتصر شعراء الفرس بقوميتهم  
وتحاملوا كثيرا على العرب .

ولما كان بنو المباس يدينون بقيام دولتهم للنفوذ الفارسي .. كان  
طبعيا أن تسيطر الآراء الفارسية على الخلفاء أنفسهم ، فأصبحوا يتشبهون



بالأكاسرة ، ويديرون أمور الدولة بالطريقة التي كانت تدار بها امبراطورية آل ساسان من قبل . .

فاستبد الخلفاء بالرعية كملوك الفرس ، واتخذوا السيوف أداة لإرهاب المجتمع ، وأحاطوا أنفسهم بهالة من الإجلال والتقديس . .

وظهرت الأزياء الفارسية في بلاطهم ، وأصبحوا يعيشون في أبراج عاجية بعيدا عن الرعية ، وإذا دخل عليهم داخل وجب أن ينحني أمامهم ، ويظهر علامات التقدير والاكبار . .

وكان الوضع الرسمي ألا ينال هذا الشرف العظيم إلا البارزون من كبار رجال الدولة . .

ويقول بعض الكاتبيين في هذا الصدد :

" ولا شك أن هذه الأفكار التي نشأت في بيئات غير عربية إنما كانت بقية باقية من عبادة الملوك ، تلك العبادة التي كانت مشهورة عند قدماء الفرس ، والتي لا يبعد أن تكون قد انتقلت إليهم من طريق الديانة البابلية القديمة فكان من أثر ذلك أن عد الخلفاء المباسيون أنفسهم ظل الله في الأرض كما جعلوا إرادتهم كأنها متممة لإرادة الله " (١) .

أما ملوك الفرس من بني بويه فقد تلقوا بأضخم الألقاب التي تشعر بالنلو والجرأة في التسميات (٢) وأحاطوا أنفسهم كالخلفاء بمظاهر العبادة ، والإجلال ، والتقديس ، وسار على نهجهم كبار رجال الدولة في فارس والعراق

(٣) واضح أن هناك مبالغة ماهرة في تصوير الوضع الى درجة غير مقبولة .  
د / سرحان .

(١) الأدب في ظل بني بويه ص ٣٨ .

(٢) الحضارة الإسلامية لادم متز ( ١ : ٤٢ ) .

فعمشقوا الرتب ، وأحبوا الألقاب ، وتنافسوا عليها تنافسا شديدا - جمل  
أبا بكر الخرازى يتندر عليهم ، ويسخر من الخلفاء ، ويهيجوهم من أجل  
ذلك حيث يقول :

مَالِي رَأَيْتُ بَنَى الْمَبَاسِ قَدْ فَتَحُوا  
مِنَ الْكُفَى وَمِنَ الْأَلْقَابِ أَبْوَابَا  
وَلَقَبُوا رَجُلًا لَوْ هَاشَ أَوْلَهُمْ  
مَا كَانَ يَرْضَى بِهِ الْحَشَى <sup>(١)</sup> بَوَابَا  
قَلَّ الدَّرَاهِمُ فِي كَفَى خَلِيفَتَنَا  
هَذَا فَانْفَقَ فِي الْأَقْوَامِ أَلْقَابَا <sup>(٢)</sup>

وظهرت الروح الفارسية علوة على ذلك فى اتخاذ أعياد الفرس  
القديمة كالنيروز ، والمهرجان أعيادا رسمية للحكومة والشعب مما ٥٥ كسا  
ظهرت بصورة خاصة فى إحياء ليلة الوقود التى كانت تعرف عند الفرس  
باسم " السَدَقْ " فقد أصبح من رسوم ملوكهم فى تلك الليلة أن يوقدوا  
النيران فوق قمم الجبال ، ويرسلوا الوحوش فيها ، ويرسلوا الطيور فى لهبها  
ويشربوا حولها .

وتتجلى الروح الفارسية كذلك فى هذا الترف المبالغ فيه وفسى  
هذا الملو فى الزينة وحب الظهور ، فامتلك الحكام القصور الجميلة ، والمنازل  
الفخمة ، كما امتلكوا فاخر الأساس والرياش ، والموائد المطعمة برفائق الذهب  
والفضة ، والأرائك المنظفة بأبهى الأعطية ، وأجمل البسط ، وقد فرشوا  
السجاد جيد ذوات الألوان الزاهية ، وأكلوا فى أوان من الفضة ، وشربوا فى  
كؤوس من الذهب . . . كما كانوا مغالين فى رعاية آداب السلوك ، فكانا

(١) الحشى : يفتح الحاء وضمها : البستان .

(٢) اليتيمة : ( ٤ : ٢١٦ ) .

تقابل نظيران احتضن الواحد منهما صاحبه وقبله ، أما إذا قابل أحدهم من هو أعلى منه مرتبة وقدرا فعليه أن ينحنى له إنحناء كبيرة كلها خشوع واحترام ، فإذا قابل من هو دونه قدم له وجنته ليقبلها ، فإذا تقابل مع فرد من عامة الناس حتى له رأسه قليلا في دعة وهدوء<sup>(١)</sup> .

ولقد كان لهذا التيار الجارف من الماديات ، والتقاليد الفارسية أثره الواضح في أدب تلك الحقبة فقد تأثر به الشعراء ، والكتاب ، وظهير صداة ، واضحا في أشعارهم ، ورسائلهم ، وعبروا عنه أصدق تعبير .

والدارس لأدب " البتيمة " التي ألنت في ذلك العصر ، يلمس أثر الروح الفارسية فيها بكل الوضوح ، وخاصة في أبوابها التي تتحدث عن أدباء فارس والمراق .

يلمسه في هذا الملق المبالغ فيه في شعر المديح والثناء . . . . .  
ويلمسه في هذا الغلو الفاحش في تمجيد الملوك ، وتقديس الحكام . . . . .  
وفي الاكثار من شعر التهنئة وبالأعياد الفارسية ، كالنيروز ، والمهرجانات ، والسدق .

ويلمسه - كذلك - في هذه الكثرة الهائلة من الألفاظ الفارسية التي انتشرت في شعر البتيمة .

ويلمسه أخيرا في هذه الأمثال الفارسية المعربة ، والتي تعبّر عن أفكار القوم وتصور نفسياتهم وأخلاقهم ، أصدق تصوير .

\* \* \*

---

(١) الأدب في دلال بني بويه ص ٣٠٦ .

وكانى بالحضارة الفارسية القديمة قد بحثت فى ذلك المهسد  
من جديد ، وطفنت على كل شىء فى المجتمع ، فتأثر بها الشعراء ، وترجموها  
فى أشعارهم وآدابهم ، ونسوا الحياة العربية فى الجزيرة ، وما فيها من  
خشونة ، ووعورة ، وهجروا شعر الحماسة الذى يمجّد البطولة والشهامة ويشيد  
بالشجاعة والبروج ، ويحث على الاستبسال فى القتال ، وتجدد المستفيث ،  
واستمرؤوا هذا التردى ، حتى تحول الأدب العربى إلى أدب ماجن خليج  
يقوم على المبالغات ، والنفاق ، وتصوير الحياة الفارسية ، فى ظل الحياة  
الجديدة التى أقبل عليها الشعراء ، ورضوا بها ، واطمأنوا إليها ، واندمجوا  
فيها ، وفضلوها على الحياة العربية القديمة . . وأعلنوا ذلك صراحة  
فى أشعارهم . .

فهذا أبو القاسم الزعفرانى أحد شعراء صاحب يملن بصراحة  
تأثره بالروح الفارسية ، ويرحب بالحياة الجديدة الوارفة الدلال ، ويرفض  
فى إصرار حياة الأعراب فى جنزيرتهم القاسية ، ولادهم الوعة ، ويفضل عليها  
حياة اللهو والمبهث فى حى الكرخ ببغداد ، حيث الحياة الناعمة والمعيشة  
الرغدة فيقول :

لا أَتَّبِعُ الْأَعْرَابَ إِنَّهُمْ قَوَّضُوا  
مَنْ مَّجْهَلٍ حَتَّى أَحْطَّ بِمَجْهَلٍ  
وَصِرُّ أَرْجَاءَ السَّرِيرِ بِمَسْتَمْسَى  
أَخْلَى بِقَلْبِي مِنْ صَرِيرِ الْحَمَلِ  
فَالْكَرْخَ دَارُ اللَّهِوْ أَعْدَبَ مَقَرَّعًا  
مَنْ مَرَّجَ يَخْتَمُّ دَارَةَ جُلْجُلِ  
لَا تَرَّ دَرَّ الْمَيْسِ فِي مُتَرَبِّجٍ  
بِمَخْتَمٍ بَيْنَ الدَّخُولِ قَحَّوَسَلٍ (١)

(١) البيتمة : ( ٣ : ٣١٤ ) .

لقد كان الشعراء في هذا العصر يبالغون في شعر المديح ،  
ويسرفون في تمجيد الملوك ، وتقديس الحكام ، ويسبحون عليهم ألوانا من  
الألقاب ، والصفات التي تجعل منهم أشخاصا فوق مستوى البشر .

وكان الملوك يدورهم يقبلون منهم هذه الثموت في رضا واغتراب  
ويشجعونهم عليها لأنها كانت ترضى نزعة الضور عندهم ، وتشبع فيهم رغبة  
التسلط والجبروت .

فابن الحجاج الشاعر الخليل - عندما يمدح بختيار معز الدولة  
البويهى - يتشكك في أن يكون ممدوحه من سلالة البشر ، ويضم أنه يفوق  
يوسف عليه السلام في الحسن والجمال ، ويدعى أن زليخا امرأة المزيز ، لو  
أبصرته لفضلته على يوسف ، فنجم السها ، لا يقاس بالقمر ، وذلك حيث  
يقول :

فَدَيْتُ وَجْهَ الْأَمِيرِ مِنْ قَسْرِ  
يَجْلُو الْقَذَى نَوْرَهُ عَنِ الْبَصْرِ  
فَدَيْتُ مَنْ وَجْهَهُ يُشَكُّنِي  
فِي أَنَّهُ مِنْ سُلَالَةِ الْبَشَرِ  
إِنَّ زَلِيخَا لَوْ أَبْصَرَتْكَ كَمَا  
مَلَّتْ إِلَى الْحُشْرِ لَذَّةَ النَّاحِرِ  
وَلَمْ تَقِمْ يَوْسُفًا إِلَيْكَ كَمَا  
نَجَّمَ السَّهَاءَ لَا يَقَاسُ بِالْقَمَرِ (١)

وإذا كان ابن حجاج قد تشكك في نسبة ممدوحه إلى البشر ،  
وإدعى أن منزلته تفوق منزلة الأنبياء . فان هناك شاعرا آخر من شعراء

(١) اليتيمة ( ٣ : ٤٠ ) .

فارس هو إسماعيل الشاش قد جعل ممدوحه فخر الدولة البويهى فى منزلة  
الاله وجعل غيره من الملوك كالأصنام التى كان أهل الجاهلية يعبدونها  
لتقربهم إلى الله زلفى ، وإنه ليتقرب من هؤلاء الأصنام ليقربوه إلى سيده  
وسمبده فخر الدولة زلفى وفى ذلك يقول :

أَوَى إِلَى طَلِّ شَاهِنشَاهٍ مِنْ زَيْنِ  
كما أوى الصيد مذعوراً إلى الحرم  
زرت الملوك لتدنى إلى كما  
بينى إلى الله زلفى عابد الصنم  
أعطى فأخيا موت الأجود نائله  
فأخصب من فمكه والإسم للديم (١)

\*\*\*

أما أبو القاسم الزهراني أحد شعراء صاحب نقد ادبى لممدوحه  
الرهوية ، وخصه بالسجود ، وأحله من قلبه مكانا لا يشاركه فيه أحد وذلك  
حيث يقول :

يَا سَامِعَ الزُّورِ فَيَسِّرْ لِي نَيْصَمَ  
منها الضنى فى هواك والسقم  
أنت الذى دنت بالسجود له  
حتى لقد قيل به صمم  
ولى فؤاد غدت ما لكه  
بلا شريك فليس ينفسهم (٢)

(١) البيت ( ٣ : ٣٥٥ )

(٢) نفسه ( ٣ : ٣١٨ )

وسهما يكن من شئ\* فقد كانت هذه المبالغات المصقوفة في شعر  
المدحج صدى للروح الفارسية التي سادت المجتمع العراقي الفارسي آنذاك

\*\*\*

إن هذه المبالغات هي التي أفسدت الشعر العربي ألفساده  
ومعانيه وجعلته متكلفا هزيلا ..

ولعل الأبيات الآتية للصابي في مدح ضد الدولة البويهية خير  
دليل على ذلك .. وفيها يقول :

صَلِّ يَا ذَا الْمَلَا لِرَبِّكَ وَأُنْحَرْ  
كُلُّ ضِدٍّ وَشَائِسٍ لَكَ أَكْبَرُ  
أَنْتَ أَكْبَرُ مِنْ أَنْ تَكُونَ أَصَا  
حَيْكَ قُرُوصًا مِنَ الْجَمَالِ تَمْفَرُ  
بِلِ قُرُوصًا مِنَ الْمُلُوكِ كَدَوَى السُّوْ  
كَدِي تَبْجَانُهَا أَمَامَكَ تَنْقَرُ  
كَلِمَا خَرَّ سَاجِدًا لَكَ رَأً  
مِنْهُمْ قَالَ سَتُفَكَّ : اللَّهُ أَكْبَرُ (١)

إنه لشعر ركيك تبدو عليه سمات التكلف والصنعة ، وبرود العاطفة  
وضعف الخيال ، وهو دون شعر الصابي في غير هذا الفن ..

ولعل ذلك راجع إلى حرص الصابي على راضاه\* مدحجه بشيئ  
المهل فضاقت عليه اللغة بما رحبت ، ولم يجد أمامه إلا ألفاظ القرآن الكريم  
بغير طيبها ، وينظمها مديحا لمولاه ليرضى عنه نزع الغرور والتسلط ،

(١) البيهقي ( ٢ : ٢٥٤ ) .

والحب للجبروت .. والطفيان .. نجاء شعره ركيكا سقيما .

ولقد كان هذا الشعر - على الرغم مما فيه من برود وببالفة -  
يسعد عهده الدولة ، ويرضى كبرياءه وغروره ، فلقد كان كما عرفنا من سيرته  
جبارا طاغية ، يرى نفسه فوق مستوى البشر ، وقد وصف نفسه في بعض  
قصائده بأنه فاق البشر ، وأنه ملك الأملاك ، وأنه أيضا غلاب القدر ،  
والصيان بالله تعالى .

قال الثعالبي : " واخترت من قصيدته التي فيها البيت الذي لم  
يفلح بعده أبدا قوله :

لَيْسَ شَرُّ الْكَأْسِ إِلَّا فِي الْمَطَرِ  
وَفَنَاءٌ مِنْ جَوَارِي السَّحَرِ  
غَانِيَاتٍ سَالِبَاتٍ لِلنَّهْسِ  
نَاضِجَاتٍ فِي تَضَاعُفِ الْوَتَرِ  
مُجَرِّزَاتِ الْكَأْسِ مِنْ مَطْلَعِهَا  
سَاقِيَاتِ الرَّاحِ مِنْ فَاقِ الْبَشَرِ  
عَهْدَ الدَّوْلَةِ وَابْنَ رُكْنِهَا  
مَلِكِ الْأُمَلَاكِ غَالِبَ الْقَدَرِ (١)

\*\*\*

على أن صاحب بن عباد وزير بني بويه كان من أكثر زعماء  
عصره تكلفا ، وحبا للمبالغة ، والنلوة ، وطريقته في الكتابة ، تدل على ذلك .  
وكانت مدرسته الشعرية ، من أكثر المدارس الأدبية ميلا إلى  
النملو .

(١) اليتيمة ( ٢ : ١٩٧ ) .



وكان الشعراء في بلاطه يتحينون الفرص لدخوله ، ونعته بأرفع الصفات ، وتحويله إلى شخصية أسطورية .

وكان يتقبل ذلك منهم راضيا سعيدا ، شأنه في ذلك شأن ملوك عصره ورؤسائه .

فهذا أبو سعيد الرستمي أحد شعراء بلاطه ينتهز فرصة بناء سيده دار جديدة بأصبهان فيسبغ عليه من صفات المديح ما يرفع به فوق البشر فيقول :

وَلَوْ أَصْبَحْتُ دَارًا لَكَ الْأَرْضُ كُلُّهَا  
لضَاقَتْ بِمَنْ يَتَنَابُ دَارَكَ أَهْلًا  
ولو كنت تبنيهما على قدر همة  
تَمَّتْ بِكَ وَاسْتَمَرَّتْ إِلَيْكَ الْمِرَاسِلَا  
هَدَّتْ عَلَى الدُّنْيَا جِدَارًا فَحَزَنَتْهَا  
جَمِيمًا وَلَمْ تَتْرُكْ لَغَيْرِكَ طَائِلًا

ثم يقسم - بعد ذلك بأربعة أبيات - فيقول :

وَوَاللَّهِ مَا أَرْضَى لَكَ الدَّهْرَ خَالِدِيَا  
وَلَا الْبَدْرَ مُتَابَا وَلَا النَّجْمَ نَائِلَا  
وَلَا الْفَلَكَ الدَّوَارَ دَارَا وَلَا السُّورَى  
عَبْدًا وَلَا زَهَرَ النُّجُومِ قِبَائِلَا (١)

وأما أبو الحسن صاحب البريد وهو من مدرسة صاحب أيضا فيتمنى أن يتطوع الشعراء بأعينهم للصاحب ليتخذها مكان البسط على أرض داره

الجديدة فيقول :

لَمَّا بَنَى النَّاسُ فِي دُنْيَاكَ دُورَهُمْ  
بَنَيْتَ فِي دَارِكَ الْفَرَّاءِ دُنْيَانَا  
فَلَوْ رَضِيتَ مَكَانَ الْبُسْطِ أَعْيُنُنَا  
لَمْ تَبْقَ عَيْنٌ لَنَا إِلَّا قُرْشَانَا  
وَهَذِهِ وَزَرَاءُ الْمَلِكِ قَاطِبَةً  
بَيَادِقُ لَمْ تَزَلْ مَا بَيْنَنَا شَاهَا  
فَأَنْتِ أَرْقَمُهَا مَجْدًا وَأَسَمُّهَا  
جَدًّا ، وَأَجْوَدُهَا كَفًّا ، وَأَكْفَاهَا  
وَأَنْتِ أَدَبُهَا بِلْ أَنْتِ أَكْبَهَا  
وَأَنْتِ سَيِّدُهَا بِلْ أَنْ مَوْلَاهَا (١)

\*\*\*

على أن صدى الروح الفارسية لم يلهو فقط في هذا النسلو  
المعقوت في شعر المديح ، وإنما تجلى كذلك في أمر آخر أكثر دلالة من  
سابقه . . .

وهو التهنئة بالأعياد الفارسية القديمة التي عادت في هذا العصر  
إلى الوجود من جديد ، واحتفل بها الناس على اختلاف طبقاتهم وأديانهم .  
وكان " النيروز " من أهم الأعياد الفارسية ، وهو أول أيام السنة  
عند الفرس ، ويقع عند الاعتدال الربيعي .  
وكان الخلفاء ، والأمراء ، والوزراء يحتفلون بهذا العيد حيث

(١) البتية ( ٣ : ١٨٤ ) .

يطلقون التهاني ، ويتقبلون الهدايا ، كما كان ملوك الفرس القدماء يفعلون .

وكان الشعراء يتسابقون في هذا اليوم لتهنئة الملوك ، والحكام ، ويتناصبون في تقديم الهدايا لهم كل حسب طاقته ، وإمكاناته المادية حتى يفوزوا برضاهم ، وخلصهم .

وكان أبو اسحاق الصابي من أكثر أدباء مصر حرصا على ذلك ، وقد أورد له الثعالب طائفة ضخمة من شعر التهاني بهذه المناسبة .

وكان يحرص في كل مرة على إهداء ممدوحه ما يقدر عليه حسب المادات الفارسية السائدة آنذاك .

فقد كتب مرة إلى عضد الدولة يهنئه بيوم " النهرز " ويقدم إليه رسالة هندسية من استخراج . . . وأخذ يتلفه ، ويبالغ في مديحه شأن غيره من شعراء العراق وفارس ، آنذاك . . . وذلك حيث يقول :

أَيَا مَالِكِ الْأَرْضِ الَّذِي لِيَحْمِيَنِي  
وَمِنْ مَلِكِ الْمَشْرِقِ يَلْقَاهُ  
رَأَيْتُ نَوَى الْأَمَالِ أَهْدَوْا لَكَ الَّذِي  
تَرَوُّقُ الْمَيُّونَ النَّاطِرَاتِ حَاسِنُهُ  
وَحَوْلَكَ خِرَانٌ يَحُوزُونَهُ وَمَا  
لَهُ مِنْكَ إِلَّا لَحْظٌ طَرَفٌ يَمَانِيهِ  
وَلَكِنِّي أَهْدِيْتُ عِلْمًا مُهْدِيَةً  
يَرُوقُ الْمُقُولَ الْبَاحِثَاتِ بِوَاطِنِهِ (١)

وعندما سجنه عند الدولة لأسباب شخصية ، وسياسية لم تمنحه محتته  
أن يهنئ جلاده بيوم " النيروز " وأن يقدم إليه في هذه المناسبة درهمين ،  
وكتاب " المسالك والممالك " - - - - - عليه يصنع عنه ويطلق سراحه - - - - - وكتب إليه  
يقول :

أَهْدِي إِلَيْكَ بِحَسَبِ حَا  
لِي فِي الْخَصَاصَةِ دُرَّهَمَيْنِ  
وَبِحَسَبِ قَدْرِكَ دُشْتَرَيْنِ  
مِنْ هَـمَا جَمِيعُ الْخَافِقِينَ  
فَإِذَا فَتَحْتَهُمَا رَأَيْتَ  
سَتَ بَيَانِ ذَاكَ يَلْحَظُ عَيْنِ (١)

وكان عندما يمجز عن اهدائه شيئا محسوسا يكتفى بتقديم أبيات  
من الشعر كقوله :

تَحْتَرِ دِينَارِي عَلَى وَدُرَّهَمِي  
فَلَا طَلَقْتُ مَوْلَانَا بَيْتَيْنِ مِنْ شِمَرِي  
وَكَمْ بَيْتِ شِمَرٍ زَادَ بِالشُّكْرِ قَدْرُهُ  
عَلَى بَيْتِ مَالٍ مِنْ لَدَجِينَ وَمِنْ تَبَرِ (٢)

وليت شمرى كيف كان عند الدولة - - - - - وقد كان ملكا غنيا خطيرا -  
يقبل الدرهم ، والدرهمين ، من شاعر فقير سجين مثل الهبابي ؟ ، ولكنهما  
الحادات الفارسية التي سيطرت على عقول القوم ، وملك عليهم أمرهم ،  
فأصبحوا لا يستطيعون من قيدها فكাকা . . .

(١) البيتة ( ٢ : ٢٣٦ ) .  
(٢) نفسه ( ٢ : ٢٥٧ ) .

وكثيرا ما كان يُجْعَلُ وصفُ الربيع ، والتهنئة بالنيروز وسيلة  
للمديح ، ومقدمة للمديح .

ومن ذلك قول عبدالصمد بن بابك :

لقد تَشَرَّ النَّيْرُوزُ وَشَيَّا عَلَى الرَّيَّا  
بَيْنَ النَّوْرِ لَمْ تَخْفَرْ بِهِ كَفَ رَاقِمِ  
كَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ سَقَى الزَّمَنَ تَشْرِيقَهُ  
فَجَادَ بِرَشَائِي مِنَ الْوَيْلِ سَاجِمِ (١)

وذلك خلافا لما كان عليه الشعر العربي في الماضي ، حيث كان  
الشعراء ، يبدأون قصائد المديح ، بالوقوف على الديار ، ووصف الآثار ، وكاء  
الأحبة ، ووصف الراحلة .. غير أن شعرا هنا كانوا متأثرين بالبيئة  
الجديدة ، التي اصطفت بالصبغة الفارسية ، فلم يسمحوا إلا أن يعبروا  
عن هذه البيئة أصدق تعبير ..

\* \* \*

أما عيد " المهرجان " فلم يكن أقل قيمة من سابقه ، وكان يقف فنى  
فصل الخريف ، وكان الملوك يحتفلون به " كالنيروز " حيث يجلسون لتلقى  
التهاني ، وتقبل الهدايا ، كما كانوا يفعلون يوم " النيروز " وكان أبو اسحاق  
الصائى - كذلك - سباقا إلى تهنئة الحكام وجماعتهم بهذه المناسبة ..  
وكان حريصا على تقديم الهدايا لهم كما كان يفعل في " النيروز " .

فقد أهدى عند الدولة مرة " اصطرابا " وكتب إليه معه هذه

الأييات :

(١) المصدر السابق ( ٣ : ٣٤٦ ) .

أَهْدَى إِلَيْكَ بَنُو الْأَسَالِ وَأَحْتَفَلُوا  
 فِي مَهْرَجَانٍ جَدِيدٍ أَنْتَ مُبْلِيهِ  
 لَكِنَّ عَيْدَكَ إِبْرَاهِيمَ حِينَ رَأَى  
 مُلُوكَ قَدْرَكَ عَنْ شَيْءٍ يَدَانِيهِ  
 لَمْ يَرْضَ بِالْأَرْضِ مَهْدَاةً إِلَيْكَ فَقَدْ  
 أَهْدَى لَكَ الْفَلَكَ الْأَهْلَى بِمَا فِيهِ (١)

وكان الشعراء يحتفلون " بالمهرجان " ويستقبلونه كما يستقبلون  
 الريح ، لأنه يأتي بعد انتهاء الصيف ، بحره اللامع ، وعجايبه المـ  
 وكانوا يتخذون من وصفه مقدمة للمديح ، كما كانوا يفعلون في " النيروز "  
 يقول أبو بكر بن شاذبنة في مدح عبدالله بن إسماعيل الميكالي  
 وتهنئته بالمهرجان :

أَنْتُمْ بِيَوْمِ الْمَهْرَجَانِ قِيَانَهُ  
 وَبِغَضِّ الْمَصِيفِ وَحُسْرِ وَعَجَابِهِ  
 وَأَتَى الْخَرِيفُ وَوَقْتُهِ الْحُمُودُ  
 إِنْ كَانَ هَذَا الْيَوْمُ عَيْدًا لِلْأُورَى  
 فَبَقَاءُ عُزْرِكَ كُلِّ يَوْمٍ عَيْدٌ (٢)

وهما يكن من شيء فقد كانت الماهرة التهنئة " بالنيروز " و  
 " المهرجان " وتقديم الهدايا فيهما - أثرا من آثار الفرس في الحياة  
 العربية تلك الحياة التي اصطبلت بالروح الفارسية صبغة خالصة ..

(١) المصدر السابق ( ٢ : ٢٥٥ )  
 (٢) المصدر السابق ( ٣ : ٣٨٤ )

وقد ظهر صدى ذلك كله في نتاج الشعراء \* ورسائل الكتاب  
في تلك الحقبة \*

وكانت ليلة " الوقود " التي كانت تعرف باسم " السّدق " - وهي  
من أحب الأعياد الفارسية إلى قلوبهم ، وأثارها عندهم - قد فتنتهم نيرانها  
المتأججة ، وسهرهم شررها المتطاير ، فأقربوا حولها الملامى وأكثروا من  
الصخب والضجيج ، وتمايقوا في وصف الطبيعة من حولها ، وكان وصفها  
يقترن غالبا بالمديح والاطراء ..

فهذا ابن نهارة السمدى يمدح عند الدولة ، ويصف نارا  
" السّدق " التي أشعل عند الدولة أوارها ، وأجج شعلتها ، وأعلى لهيبها  
فيقول :

لَمَعَرَى لَقَدْ أَذْنَى الْهَمَامُ بِأَرْضِهِ  
مُسَهَّرَةٌ يَتَابَعُهَا الْفَجْرُ صَالِحًا  
تَهْبُ النَّجْمُ الزُّهْرُ عِنْدَ طُلُوعِهَا  
وَتَحْسُدُ أَيَّامُ الشُّهُورِ اللَّيَالِيَا  
هِيَ اللَّيْلَةُ الْفَرَاةُ فِي كُلِّ شَتْوَةٍ  
تُفَادِرُ جِيدَ الدَّهْرِ أَتْلَغَ حَالِيَا (١)

على أن السّالقي كان من أكثر شعراء المراق إيجابا بهذه النار  
واحتفالا بها ، فأكثر من وصفها ، والحديث فيها \*

وكان مفتونا بمنظر دجلة ، وقد انعكس ضوء النار على صفحاته  
فحول لونه من فضة إلى ذهب ، وذلك حيث يقول :

(١) المصدر السابق ( ٢ : ٣٦٢ ) \*

وَلَمْ تَرَبَحْراً جَرَى بِالمَقَارِ  
وَلَا ذَهَباً صَيَغَ مِنْهُ جَبَّيْلٌ  
إِلَى أَنْ جَرَتْ دِجْلَةُ فِي الشَّلْحِ  
وَطَنَّبَ بِالنُّورِ أَعْلَى الْقُلَلِ  
سَحَابَ الدُّخَانِ وَبَرَقَ الشَّرَابِ  
وَرَعْدَ المَلَاهِي ۚ وَغَيْثُ الْجَدَلِ  
وَمَا زَالَ يَمْلُؤُ عَجَاجَ الدُّخَانِ  
نَ حَتَّى تَكُونَ مِنْهُ زَحَلٌ  
فَكُنَّا نَسِرَى النُّوجَ مِنْ فَيْصِيهِ  
فَذَهَبَهُ النُّورُ حَتَّى اشْتَمَلُ (١)

وكثيرا ما كان منظار النيران على رؤوس الجبال ۚ وقم التلال يستولى  
على شموه ۚ ويسيطر على قلبه ۚ ۚ حتى حجب إليه عذاب النار ۚ وحتى  
أقسم أن يجعل أنفسي أعضائه وقودا لها اذا خبت فيقول :

مَا زِلْتُ أَشْتَاقُ نَارًا أُوقِدْتُ لَهَا  
حَتَّى دَانَتْ عَذَابَ النَّارِ قَدْ عَذَبَا  
قَدْ كَلَلْتُ عَنْبَرًا بِالمِسْكِ مُسْتَرْجَا  
وَوُثِّقَتْ جُلُنَارًا وَاكْتَسَتْ ذَهَبَا  
فَالنُّورُ يَلْمُبُ فِي أَطْرَافِهَا فَرَحَا  
وَالخَمْرُ يُرْعِدُ فِي أَكْتَافِهَا رَهَبَا  
وَلَارَ عَنْهَا شَرَابٌ لَوْ جَمَرَى مَعَهُ  
بِرُقٍ دَنَا أَوْ تَلَقَّى كَوَكَبَا نَكَبَا  
لَوْ كَانَ وَقْتُ نَشَارِ خِلَتِهِ دُرَرَا  
أَوْ كَانَ وَقْتُ أَنْتِصَارِ خِلَتِهِ شُهَبَا

(١) المصدر نفسه ( ٢ : ٣٨٧ ) ۚ



وَاللَّيْلُ مُرِيَانٌ فِيهِ مِنْ مَالِيهِ  
نَشْوَانٌ قَدْ شَقَّ أَثْوَابَ الدَّجَى طَرِبَا  
أَقْسَمْتُ بِالطَّرْفِ لَوْ أَشْرَقَتْ حِينَ خَبَتْ  
جَمَلْتُ أَنْفُسَ أَغْضَائِي لَهَا حَطَبًا<sup>(١)</sup>

ولا شك أن الاعجاب بالنار ، والاحتفال بها ، وتقديسها ، إنما  
هو بقية من عبادة النار التي كانت معروفة قديما عند العرب .

ولقد ظل هذا المعنى مترسبا في نفسية المجتمع الفارسي إلى ما  
بعد إسلامه بقرون .

فلما استولى الفرس على مقاليد الأمور في بئداد ، وسيطروا على  
الخلفاء ، وأحيوا عاداتهم وتقاليدهم الفارسية من جديد طغت هذه  
الذات مرة على السطح وظهرت إلى عالم الوجود مرة ثانية - ولكن ليس نفس  
صورة عبادة وتقديس هذه المرة - فقد كان القوم مسلمين - ولكن في صورة  
اعجاب واجلال وتعظيم - وفيه صدى ذلك واضحا في أدب اليتيمة ، وما  
الأدب إلا صورة صادقة للحياة الاجتماعية في عاداتها ، وتقاليدها وسائر  
أصورها .

\*\*\*

وهناك جانب آخر في أدب اليتيمة ، يدل دلالة واضحة على تأثر  
الحياة العربية بالروح الفارسية . آنذاك . . . وهو تلك الألفاظ الفارسية  
التي انتشرت في قصائد الشعراء ، ورسائل الكتاب . . .

والمتصفح لكتاب " اليتيمة " - خاصة في الأبواب التي تتحدث

(١) المصدر السابق ( ٢ : ٣٨٢ ) .

عن الأدب في فارس والمراق - تصادفه طائفة ضخمة من الكلمات الفارسية التي اندست بين الألفاظ العربية من غير إشارة إلى أصلها الفارسي ، أو حتى التلميح بذلك .

والثعالب بدورة لم يعمد إلى شرح هذه الكلمات الأعجبية أو توضيحها - كما كانت عادته دائما عندما كانت تطالعه كلمة غامضة ، أو لفظ غريب ، فانه كان يقوم بشرحها ، وتوضيحها كما فعل في قصيدة أبي دُكف - الخزرجي الساسانية حيث شرح جُلَّ كلماتها ، وفسر معظم ألفاظها ، على الرغم من أنها كانت ألفاظا عربية . .

أما هنا فانه تجاهل الكلمات الفارسية ، وتركها من غير شرح ، أو توضيح ، مما يدل على شيوعها وانتشارها ومعرفة الخاصة والعامة بها ، وأنها لمسهرتها لاحتاج إلى تعريف بها أو إبانة لها . .

ومثال ذلك قول ابن الحجاج الشاعر الماجن في وصف غلام

أعجمي :

غَلَامٌ أَعْجَمِيٌّ فِيهِ ظَلْمٌ  
وَحِدْقٌ بِالتَّلْطِيفِ وَالتَّائِي  
سَقَانِي دُوَّوْ سَا وَارْدَدَتْ مِنْهَا  
عَلَى سُكْرِي وَصَبَحَنِي بِهَفَّتِ (١)

فالكلمات : " دو " بمعنى : اثنين ، و " سا " : بمعنى : ثلاثة ، وهفت : بمعنى : المطر ، وهي جميعا ألفاظ فارسية .

ومعظم أبيات هذه القصيدة مطعم بالكلمات الفارسية . . ولكنني

(١) المصدر السابق ( ٣ : ٨١ ) .

أخرج من ذكرها ، أو الاستشهاد بها لأنها غاية في الفحش والجون .  
وأحيانا كان الشاعر يحمده الى أبيات عربية فيترجمها الى الفارسية  
ويصوغها في قالب شعري كما فعل الشاعر الفارسي " المروفي " عندما  
قرأ أبيات أبي الحسن البديهي (١) الآتية في التشبيب :

وَلَمْ أَرِ لِي يَوْمَ الرَّجْسِ سَاعِدًا  
عَلَى الْوَجْدِ حَتَّى أَقْبَلَ الدَّمْعُ مَسْعِدًا  
وَكَانَ دَمًا فَابْتَيْتُ مِنْهُ أَخْمَرًا رَّارًا  
يَتَارِ التَّمَايِيحُ حِينَ فَاضَ هَمْدًا

فترجمها الى الفارسية في البيت الآتي :

خُونِ سَيِّدِ بَارِ بِرْدُورِ خَانِ زَرْدِمِ  
آرِي سَيِّدِ بَاشِدِ خُونِ دِلِ مَسْعِدِ (١)

\*\*\*

وكانت لعبة الشطرنج من الألعاب المروثة عند الفرس منذ  
القدم ، وكان جل ألقاظها ، وسمياتها - وما زال - فارسية ، ولقد أخذها  
الحرب عنهم ، منذ قيام الدولة المباسية ، وأصبحت هذه اللعبة منتشرة  
في بلاط الخلافة والحكم ، فأقبلوا عليها يروحون بها عن أنفسهم ،  
ويروضون بها عقولهم ، ويتعلمون منها فنون الحرب ، وأساليب القتال .

وكان ملوك بني بويه من أشد حكام زمانهم حبا لها وتعلقا بها ،  
وكان بعض الشعراء يلعبونها معهم ، ويحجبون بها ، ويصفونها فـسـى

(\*) هكذا ورد اسمه في البيتة من غير قياس ، والا لقليل البدهي .

د / سرحان

(١) المصدر السابق : ( ٣ : ٣١٠ ) .

أشعارهم ٠٠ متأثرين في ذلك بالروح الفارسية التي لحن لها أتركبها في المجتمع المراتي ، والمجتمع الفارسي آنذاك ٠٠

فهذا أبو القاسم الزهراني أحد شعراء فارس كان يحب هذه اللعبة ، وكثيرا ما كان يلعبها مع الحكام أمثال : عضد الدولة ، ويصفها في شعره كقوله :

فَأَقَمْنَا صُدُورَ فُرسَانَ حَرْبٍ  
خَلَقَ رَجَالَهُ لَهَا لَا تَسِيرُ  
وَإِذَا اسْتَقْدَمَتِ الْخَيْمَةُ  
سَلَّ وَطَابَ الطَّرَاهُ وَالتَّصْمِيمُ  
فَالْتَقَى الْمَعَكَرَانِ فِي حُجُومَةِ النَّقْصِ  
سُحُورُ أَسْوَدَ عَلَى أَسْوَدٍ تَحْمُومُ  
كُلُّ فِيلٍ نَجَتْ مِنَ الصَّلَامِ أَذُنًا  
وَأَوْرَى تَابَاهُ وَالْخُرْطُومُ  
وَطَمِعَتْ إِذَا عَلَنَهُ الْعَمَّالِيُّ  
غَابَ فِيهَا وَعَادَ وَهُوَ سَلِيمُ  
فَاخْتَلَطْنَا وَجَالَ فِي الْحَرْبِ " فِرَزَا  
نِي " وَقَالَ : الْكَيْمُ مِنْ لَا يَخِيمُ  
ثُمَّ نَادَى شَاهِي بِرَحْمَتِهِ كُتْرَا  
لَيْسَ بَعْدَ الْقُوفِ إِلَّا الْهَجُومُ  
فَأَحْاطَا بِشَاهِنَا فِي مَضِيْقٍ  
صَاقَ دُرَّتَا بِمِثْلِهِ الْمَكْظُومُ  
ثُمَّ أَرْجَحْتُهُ بِفِيلِي قَسَوَلِي  
مُسْتَكِينَا كَمَا يُولِي اللَّائِمُ

وَكَشَفْتُ الْمَرَاءَ عَنْ وَجْهِ رُحَى  
تَمَرَأُ الْحَمَلُ وَهُوَ مُلِيمُ  
تَخَفَّتْ مِنَ الْحَيَاءِ وَطَطَّتْ  
وَرَدَّ خَدَّ كَأَنَّهُ مَلْطُومُ  
ثُمَّ قَالَتْ : خُذِ الْفُؤَادَ سَلِيمًا  
إِنَّ جَبَسَ التَّرْمُونِ عَارٌ وَلُومُ (١)

إنها لمعركة حربية حامية الوطيس ، دارت رحاها على رقصة  
الشطرنج الضيقة بين اللاعبين الماهرين ، كل يحرك جنوده ضد عدوه ، ويرسم  
الخطط للنيل منه ، والإيقاع بقواده ، والانتصار عليه ..

وكانت هذه اللعبة بما اشتملت عليه من أسماء وألفاظ فارسية ،  
أثرا من آثار الفرس على المجتمع ظهر صدها واضحا في الأدب على النحو  
الذى شاهدناه ، لأن الأدب كان ، ولم يزل ظلا مكثفا للحياة الاجتماعية ،  
وصورة صادقة لها تعبر عن أفكارها ، وترسم آمالها ، وآلامها ، وترجم  
عاداتها وتقاليدها ..

ولقد كان الثمالي مدركا لهذه الحقيقة تمام الإدراك فقسم أبواب  
التيمة حسب الأقاليم ، إيماننا منه بأثر .. الأقليم في نتاج شعرائه من الأدب .

وأخيرا هناك اتجاه في أدب التيية يدل - أيضا - على تأثر  
هذا الأدب بالروح الفارسية ، وهو كثرة الأمثال الفارسية المبرمة ، ذلك أن  
الفرس قد عرفوا منذ القدم بالحكمة ، وحسن الرأي وسداد التفكير ، كما برعوا  
في ضرب الأمثال المستوحاة من طبيعة الفارسية ..

ولما كان كثير من الأدباء العرب في فارس والمراق يعرفون اللغة

(١) المرجع نفسه ( ٣ : ١١٣ ) .

الفارسية ويظلمون على آداب الفرس ، وتراثهم ، تولوا ترجمة طائفة ضخمة من الأمثال الفارسية إلى اللغة العربية ، وصاغوها في قوالب شعرية ، ليسهل حفظها ويكثر تداولها .

ولقد كان أبو الفضل المُرُوزِيُّ الشاعر المربي المعروف من أكثر شعراء اليتيمة ميلا إلى الفرس ، وحبا لأدبهم ، وتعلقا بتراثهم ، وتشبها بحضارتهم فترجم إلى العربية مجموعة ضخمة من أمثالهم . . . وهي كثيرة ومتنوعة . . . وبعضها مستمد من البيئة الريفية أو الصحراوية كقوله :

تَالَ الْحِمَارُ مِنَ السَّقُوطِ فِي الْوَحْلِ  
مَا كَانَ يَهْوَى وَنَجَا مِنَ الْعَسَلِ

وقوله :

وَالْتَمَزُ لَا يَسْمَنُ إِلَّا بِالْمَلَفِ  
لَا يَسْمَنُ التَّمَزُّ يَقُولُ ذِي لَطَفٍ

وقوله :

طَلَبُ الْأَعْظَمِ فِي بَيْتِ الْكِلَابِ  
كَطَلَابِ الْمَاءِ فِي كَمَحِ السَّرَابِ

وقوله :

إِذَى الثَّغْلِبِ شَيْئًا وَطَلَبُ  
قِيلَ : هَلْ مِنْ شَاهِدٍ ؟ قَالَ : الذَّنْبُ

وبعضها يتعلق بأسلوب المعاملة ، وآداب السلوك كقوله :

مَنْ مُثِّلَ الْفُرْسَ ذَوِي الْأَبْصَارِ  
الْثَّوْبُ رَهْنٌ فِي يَدِ الْقَصَارِ

وقوله :

كَانَ يُقَالُ : مَنْ أُنِىَ خَوَانَا  
مِنْ غَيْرِ أَنْ يُدْعَى إِلَيْهِ هَانَا

وقوله :

مَنْ لَمْ يَكُنْ فِي بَيْتِهِ طَمَامًا  
فَسَالَهُ فِي مُحْفَلٍ مَقَامًا

ومعناها يصور نفسية المجتمع الفارسى ، وآماله ، وطموحه ، وثقافته ،  
وتجاربه فى الحياة كقوله :

أَعْظَمُ مَا نَسَى صَفَةَ اللَّيْلِ وَجِدَّ  
اللَّيْلُ حُبْلَى لَيْسَ يَدْرِى مَا يَلِدُ (١)

وقوله :

إِذَا لَمْ تُطِيقْ أَنْ تَرْتَقِى ذُرَّةَ الْجَبَلِ  
لِمَجْزُ فَقِّفْ فِي سَفْحِهِ هَكَذَا الْمَثَلُ (٢)

كان ذلك كله أثرا من آثار الفرس على المجتمع العربى فى كل من  
المراق وفارس ، تجلى واضحا فى هذا الأدب الذى صور عادات الفرس  
وتقاليدهم ، واحتفل بأعيادهم ومواسمهم ، ونشر لغتهم وألفاظهم على النحو  
الذى أضحناه .

(١) هناك بيت عربى فى هذا المعنى يقول :  
والليالى من الزمان حُبَالَى \* فغمات يلدن كل عجيب  
ولا ندري أيهما الاخذ من الثانى \* د / سرحان .  
أنظر البيضة ( ٤ : ٨٣ ، ٨٤ )

(٢)

ولكن : هل استطاع ذلك التيار الفارسى الجارف أن يخصص  
الروح العربية فى فارس والمراق ؟ •

وهل اختفى حقا شمر الحماسة من الأدب العربى فى تلك  
الحقبة ؟؟ •

ذلك ما سنحاول الإجابة عليه فى الفصل القادم - إن شاء  
الله - ••

\* \* \*



٢٢ الفصل الثاني ::  
.....

” أثر الحياة العربية في أدب البيتة “  
-----

على أن هذا التيار القوي من المعاداة والتقاليد الفارسية القديمة التي تحدثت عنها في الفصل السابق ، لم يستطع أن يخدم الروح العربية ولا أن يمنع المد العربي من الانتشار والتدفق .

ذلك أن بعض العرب الذين عاشوا في فارس والعراق آنذاك ، قد آلمهم ما آل إليه أمرهم ، وعز عليهم تطاول الفرس عليهم ، فأخذوا يتظلمون إلى ماضيهم المجيد ، وينظرون عبر ذلك الماضي إلى مجد آبائهم ، وأجدادهم ، أولئك الذين أقاموا الدنيا ، وأقعدوها بما حققوه من انتصارات في دنيا الفتوحات . . المادية أو الروحية ونفس عليهم حياتهم ما شاهدوه من ضعف الخلفاء ، وخضوعهم لملوك بني بويه الذين كانوا يتمصبون لبني جنسهم من الفرس ، ويشجعونهم على إحياء عاداتهم وتقاليدهم ، والاحتفال بأعيادهم ، ومواسمهم ، قطعت الروح الفارسية على المجتمع كله وضعت النمرة العربية في نفوس العرب ، وهجر معظم شعرائهم الفخر بمجد الآباء ، وتحول الأدب العربي إلى أدب ضعف وانحلال ومدح كله نفاق وبالفن ، واقتصر الفرس بقوميتهم ، وتحاملوا كثيرا على العرب . .

مثل هذا الواقع المؤلم الذي آل إليه أمر العرب في هذه البلاد ، دنع بعض أدباء العرب الذين يفارون على قوميتهم إلى التعلق بمرويتهم ، والتمصب لها ، ورثس هذه الحياة الناعمة الماجنة التي كان الناس يجنونها في تلك البيئة الجديدة ، تحت السيطرة الفارسية . .

ومن هؤلاء الأدباء شاعر عربي غيور عاش في بغداد في القرن الرابع الهجري ، وآلمه ما صار إليه أمر قومه في تلك البلاد ، فراح يمتز بمرويته وتقاليدها الأصيلة ، ويتننى ويطاول بماضي العرب وآثرهم ، ويسخط على الحياة الفارسية ويتبرم بالمعيش في بغداد التي يسيطر عليها الموالي من الفرس ، ويتطلع إلى مستقبل مشرق ، وسجد عريض ، وينحى باللائمة على

أبناء جلدته الذين غدوا كالتساة لا نخوة تحركهم ، ولا شهامة تثير فيهم  
الحماس ، وهذا الشاعر العربي الفيور على المربية والإسلام هو : أبو الحسن  
محمد بن الحسين الموسوي الحلوي الملقب بالشريف الرضي وقد ولد ببغداد  
سنة تسع وخمسين وثلاثمائة للهجرة . . . وكان شعره صورة صادقة لنفسه الأبية  
التي طبعت على الشمم والأنفة ، وصقلت بالمزة والكرامة ، وغذيت بالدماء  
المربية الحرة التي لاتعرف الخنوع ، ولا تألف الخضوع .

ولهذا جاء شعره صورة ناطقة بالجزالة المربية ، وقوة النظم  
ورصانة الأسلوب ، إلى احتوائه لتجارب الحياة ، ونقد المجتمع وشكوى الزمان ،  
والاعتداد بالفضيلة ، والتغنى بالمكارم ، والفخار بالمنصر العربي ، والاشادة  
بما كان له من عزة وسجادة وبطولة وأصالة ، جاوز صوتها فلك الجوزاء . .

وقد تجلت الروح المربية عند الشريف الرضي في ضيئة بالحياة  
البغدادية ، وتبرمه بالسيطرة الفارسية ، وحنينه إلى الحياة المربية الحرة  
في الجزيرة الفسيحة الرحبات .

كذلك تجلت في اعداده بالآباء ، والأجداد ، والإشادة بآثرهم  
والإطراء لمحامدهم ، وطبائهم النمرزية .

وقد ارتسمت هذه المعاني على سفح شعره ، في التطلع إلى  
المعالي ، وعدم الرضا بالهزيمة في أي ميدان ، وفي تهنئة والده بالأعياد  
الإسلامية كميدى الفطر ، والأضحى ، وفي شكوى الدهر ، والتمرد على  
الأوضاع القائمة . .

نعم . . لقد كان الشريف الرضي ضيق الصدر بالحياة البغدادية  
حتى كرهها ، وتمنى التزوج عنها ، والرحيل منها ، وهجر مراسمها والبعد عن  
ظواهرها ، التي تؤذى الميرون . .

وكثيرا ما كان يشكو قلة الأصدقاء ، وندور الأوثياء ، وينسى سوء  
حظله ، في هذا ، ومع ذلك ظل قلبه معلقا بالمعالي ، مشربيا إلى المكان  
منساقا في طريق المجد والمظمة وإنه ليقول مخاطبا مدينة بغداد :

تَوَقَّعِي أَنْ يُقَالَ قَدْ ظَنَّنَا  
مَا أَنتَ لِي مَنُزِلًا ، وَلَا وَطَنًا  
يَا دَارُ قَلِّ الصَّدِيقِ قَسَا  
إِحْسُودًا وَلَا أَرَى سَكَنًا  
كَيْفَ يَخَافُ الزَّمَانُ مُتَصَلِّتٌ  
مُنْذُ خَافَ غَدَرَ الزَّمَانِ مَا أَمِنَا  
لَمْ يَلْبِسِ التَّوْبَ مِنْ تَوَقُّعِهِ  
لِلْأَمْرِ إِلَّا وَظَنُّهُ كَهَنَانًا (١)

ثم تهيجه ذكريات الماضي المجيد فينسى همومه ، ويتطلع إلى  
مشارف الملا ، وأرائك المجد ، ويفتخر بنفسه ويقومه فيقول :

لِي مُهْجَةٌ لَا أَرَى لَهَا عَوَضًا  
غَيْرَ بُلُوغِ الْمَلَا وَلَا شَمَانَا  
مَا ضَرَبْنَا أُنْتَنَا بِلَا جِدَّةٍ  
وَالْبَيْتُ وَالرُّكْنُ وَالْمَقَامُ لَنَا  
سَوْفَ تَبْرَى أَنْ تَهْلُ آخِرُنَا  
مِنْ الْمَلَا قَوْقُ نِيلٍ أُولُنَا  
وَأَنْ مَا بَرَّ مِنْ مَقَادِينَا  
يُخَلِّفُهُ اللَّهُ فَيُفِي أَوَاخِيرَنَا (٢)

(١) المرجع السابق ( ٣ : ١٢٤ )  
(٢) المرجع نفسه ( ٣ : ١٢٤ )

وإذا كان الشريف يتألم مر الألم ، ويتمرد على الحياة البغدادية  
ويتفنى بمشرف نسيبه ، وكرم آبائه ، فما ذاك إلا لأنه كان يرى نفسه أهلاً  
لكل فضل ، ولم لا يكون ذلك وقد عاش في عصر انقلبت فيه الأوضاع ، وتبدلت  
الأحوال ، وانعكست الموازين ، واهتزت القيم ، ووصل فيه إلى الملك من هم  
دونه نسبة وحسباً وشرفاً ومجداً وكفاً ومقدرة ؟؟

لقد وصل إلى الملك من كان حجاجاً ، وإلى الإمارة من كان  
خطأً . . .

فلا عجب أن يسخط الشريف على وضعه وأن يضيق ذرعاً بالحياة  
والأحياء ، في ظل هذه الأوضاع الذليلة التي كرهها وتمنى الخلاص منها  
فيقول :

أَلَا لَا أَهْدُ الْمَيْشَ غَيْثًا مَعَ الْأَدَى  
لَا نَ رَقِيقَ الدَّلِّ حَتَّى كَيْتَتْ  
تَحَوَّنِي بِالنُّوتِ وَالسُّوتِ رَاحَةً  
لَمَنْ سَلَّ عَزِيَّ قَلْبُهُ يَمْلُ هَمِّي (١)

وهذه الهموم التي سيطرت على قلب الشريف ، وأحالت حياته  
إلى جحيم لا يطاق هي التي عجلت بمشيئه قبل الأوان وجملته يشيب وهو  
ابن عشرين :

عَجَلَتْ بِمَا شَيْبُ عَلَى مَفْرِقِي  
وَأَيُّ عُدْرٍ لَكَ أَنْ تَفْجَلَا  
فَكَيْفَ أَقْدَمْتُ عَلَى عَارِضِي  
مَا اسْتَفْتَرَقَ الشَّعْرَ وَلَا اسْتَكْمَلَا

كَيْتَ آرَى الْعَشْرِينَ لِي جُنَّةً  
 مِنْ طَارِقَاتِ الشَّيْبِ إِنَّ أَقْبَلًا  
 فَالآنَ سَيَّانِ ابْنُ أُمِّ الْقَتَّابِ  
 وَمَنْ تَسْدَى الْمُرَّ الْأَطْوَلَا (١)

" لقد كان شعر الشريف في أكثر أغراضه يمثل ظاهراً أدبية قائمة بذاتها تهدف إلى تصوير ما كان يختلج نفوس طبقة معينة من آلام وآمال وأغنى بهذه الطبقة ، أولئك المرب المملوكين على أمرهم في ميدان الحياة السياسية ، والاجتماعية فقد كانوا ينظرون إلى الحاضر وما أصابهم فيه على يد الأعاجم من فشل وإخفاق فيجزعون ويألمون ، وكانوا يتطلعون إلى المستقبل فتداعبهم الأحلام بالظفر والنجاح فيطمعون ويألمون " (٢) .

ولذلك لا نعجب إذا ما رأينا الشريف يكثر من الفخر في شعره والإشادة بمآثر قومه الذين كانوا يشعمرون بالهوان ، تحت وطأة السلطان الفارسي في هذه البلاد . . . وكان يرى نفسه أهلاً لكل فخر ، ولم لا ؟ أليس من بنى هاشم الكرم الذين تسنوا دُرّاً المجد في الجاهلية والإسلام وفي ذلك يقول :

أَنَا ابْنُ الْأَنْجَبِ مِنْ هَاشِمٍ  
 إِذَا لَمْ تَكُنْ نَجَبٌ مِنْ نَجَبٍ  
 ثَلَاثُ بَرُودِهِمْ بِالْكَرْبَلِ  
 وَلَمْ تَوَى عَائِيهِمْ بِالشَّهْبِ  
 عِطَاقُ الرَّجُوءِ وَجُنُوقُ الْحَيَا  
 دِ فِي الشَّمْرِ يَمْرُقُهَا بِالْقَبِّ (٣)

- |     |                                                      |
|-----|------------------------------------------------------|
| (١) | نفسه ( ٣ : ١٢٤ ) .                                   |
| (٢) | الأدب في ظل بني بويه ( ص ١٦٣ ) .                     |
| (٣) | جمع قب بكسر القاف وهو المعظم الناتى ، بين الاليتين . |

يُشَفِّ الوِضَاءُ خَلَالَ الشَّحْوِ  
بِ مِنْهَا وَخَلَفَ الدَّخَانَ اللَّهْبُ (١)

ولأنَّ الشريفَ ينتمى إلى بنى هاشم الذين ينتسب إليهم العباسيون  
كان يرى نفسه فى منزلٍ لا تقل عن منزلة الخلفاء ، ويرى أنه لا يختلف  
عنهم فى شئ إلا فى الخلافة ، فهم يتحلون بها على حين كان الشريف  
عاطلاً منها ..

وقد تجلّت هذه النظرة من جانبه فى مخاطبته للخليفة القادر  
بالله حيث يقول له :

عَطْفًا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّا  
فِي دَوْحَةِ الْمُلُوكِ لَا تَتَفَرَّقُ  
مَا بَيْنَنَا يَوْمَ الْفَخَارِ تَفَاوُتٌ  
أَبَدًا كِلَانَا فِي الْمَالِ مُعَرِّقُ  
إِلَّا الْخِلَافَةَ مَيِّزَتَكَ فَإِنِّي  
أَنَا عَاطِلٌ مِنْهَا وَأَنْتَ مُطَوِّقُ (٢)

وكان يرى أنه ينتمى إلى دوحة عالية الأغصان طيبة الثمار وأن غيره  
من أبناء عصره لا يدانيه فى ذلك ولا يقاربه .. فيقول :

لَنَا الدَّوْحَةُ الْمُلُوكِيَّةُ الَّتِي نَزَعَتْ لَهَا  
إِلَى الْمَجْدِ أَغْصَانُ الْجَدُودِ الْأَطْيَابِ  
إِذَا كَانَ فِي جَوِّ السَّمَاءِ عُرْوَتُهَا  
فَأَيْنَ عَوَالِيهَا وَأَيْنَ الذُّوَائِبُ (٣)

- |     |                     |
|-----|---------------------|
| (١) | اليتيمة ( ٣ : ١٣٠ ) |
| (٢) | نفسه ( ٣ : ١٢٤ )    |
| (٣) | نفسه ( ٣ : ١٣٥ )    |

وكان يرى - كذلك - أنه شَيْءٌ تَحَدَّرَ من ظهر أسود شجمان  
ومن كان هذا شأنه لا ينحنى لمخلوق ، ولا يذل لإنسان وذلك حيث  
يقول :

أَكَابِرُنَا والسا بقبون إلى المَلَا  
ألا تلك آسادٌ ونحن شُبُولُهُا  
وَإِنَّ أَسُودًا كُنْتُ شَيْلًا لِمَعْضِهَا  
لِحَقِيقَةٍ أَلَا يَذِلُّ قَبِيلُهَا (١)

وليس ببعيد أن يكون الشريف قد حدث نفسه بالخلقة ، أو متى  
نفسه بالملك ، والوزارة ، فلقد دارت هذه الأفكار برأسه وَطَوَّقَتْ في فؤاده  
وألحت على عقله ، وتملكت عاطفته ، فكسر حياته ، من أجلها ، وجعل أيامه  
وقفا عليها ، فمزق عن حياة الميث وصدف عن مسارات اللهو والمجون ،  
وانصرف إلى حياة الجد والكفاح وركوب الأخطار ، وتحمل الأهوال ، وتجشم  
الصماب ، وعبر عن ذلك في شعره ، دون خوف ولا وجل ، وأعلن أنه على  
استمداد لبذل النفس ، والنفيس من أجل تحقيق غايته المنشودة ، وهدفه  
الأسنى .. حيث يقول :

سَأُبْذِلُ دون المز ، أكرم مهجتي  
إذا قامت الحربُ المَوَانُ على رجلي  
وما ذاك أَنَّ النَّفْسَ غَيْرُ نَفْسِي  
ولكني رأيت الجبنَ ضَرْبًا من البُخْلِ  
وما المكرهون السَّمَّيَّةُ في الطَّلَى  
بأشجع ممن يكرهُ المال بالبنل (٢)

(١) نفسه ( ٣ : ١٢٦ ) .

(٢) اليتيمة ( ٣ : ١٣٢ ) .



وكثيرا ما كانت هذه الأمنية تلح عليه ، وتطارده في القلعة ،  
والنوم فيشمر عن ساعد الجد ، ويطلب من قومه أن ينفروا معه خفافا لملاقاة  
العدو ويقسم أنه سيبدل النفس رخيصة في سبيل تحقيق غايته فيقول :

حَذَقْتُ فُضُولَ الْعَيْشِ حَتَّى رَدَدْتُهَا  
إِلَى دُونِ مَا يَرْضَى بِهِ الْمُتَعَفِّفُ  
وَأَمَلْتُ أَنْ أَجْرِيَ خَفِيفًا إِلَى الْمَلَا  
إِذَا شِئْتُ أَنْ تَلْحَقُوا فَتَخَفُّوا  
حَلَفْتُ بِرَبِّ الْبُذُنِ تَدْمِي نَحْوُهَا  
مَالِئُ الْإِطْوَارِ كِبْرًا وَعَرَفُوا  
لَا تَبْذُلُ النَّفْسَ حَتَّى أَصَوْنَهَا  
وغيري في قَيْدٍ مِنَ الذِّلِّ يَرْسُفُ

ثم يتحسر على فوات الفرص وضياعها منه في الماضي فيقول :

فَقَدْ طَالَمَا صَحَّحْتُ فِي الْعَيْشِ فُرْصَةً  
وَهَلْ يَنْفَعُ الْمَلُوفَ مَا يَتْلَفُ (١)

ثم يحيب على قومه قمودهم ، وتخاذلهم عن نصرته ، وأنهم  
يتطلبون إلى الملا من غير سعى ، ويؤكد أنه لن يكون مثلهم متخاذلا  
كسولا ، ولكنه سيمضي لتحقيق هدفه من غير فتور ، ولا ملل فيقول :

بَنُو هَاشِمٍ عَيْنٌ وَنَحْنُ سَوَادُهَا  
عَلَى رَغَمٍ مِنْ يَأْبَى وَأَنْتُمْ قَدَاتُهَا  
وَأَعْجَبَ مَا يَأْتِي بِهِ الدَّهْرُ أَنْكُمْ  
طَلَبْتُمْ عَلَاً مَا فِيكُمْ أَدَوَاتُهَا

وَأَلْتَمِسُ أَنْ تُدْرِكُوها طَوَالِها  
دُعُوها سَيَسْمَعُ لِلْمَعَالِ سَمْعُها  
غَرَسْتُ غُرُوسًا كُنْتُ أَرْجُو لِقَاحِها  
وَأَكُلُ يَوْمًا أَنْ تَطْيِبَ جَنَّاتِها  
فَإِنْ أَثْمَرَتْ لِي غَيْرَ مَا كُنْتُ آمِلًا  
فَلَا ذَنْبَ لِي إِنْ حَنَنْتُكَ تَخَلَّاتِها<sup>(١)</sup>

إنها لزفرة حارة ، وعاطفة جياشة وشعور ملتهب ، صورتها هذه القطعة تصويرا حيا يثير الإعجاب بالشاعر المربى الطمّاح ، الغيور على عربته التي وجدها تُطْمَنُّ في كرامتها ، وسيادتها من أبناء فارس الذين كانوا من قبل موالى للمرب يدينون لهم بالطاعة والخضوع ..

كل هذه المعاني جعلته يبدع في تصوير ما يختلج في قلبه من آمال ، وآلام ، ويخبر قومه في المقطوعة الحماسية الآتية أنه بَالِغٌ غَايَتَهُ لا محالة ، إذا كان في العمر بقية ، وسد الله في أجله حيث يقول :

سَتَمْلِكُونَ مَا يَكُونُ مِنِّي  
إِنْ مَدَّ مِنْ ضَمِي طَوَالَ سِنِي  
أَدْعُ الدُّنْيَا وَلَمْ تَدْعُ مِنِّي  
وَسَمِعْتُ أَبَايَ وَلَمْ تَسْمَعْ مِنِّي  
أَفْضَلُ عَنْهَا وَتَضِيقُ عَنِّي<sup>(٢)</sup>

ونحن نسأل - بحد أن وصلنا إلى هذا الحد من دراسة شعر الشريف واتجاهاته ، وعرفنا نواياه ، ورغباته ، وأدركنا سر آلامه وطموحه - هل كان الشريف حقاً فارساً منواراً ؟ وهل كان قائداً حربياً ماهراً ؟

(١) نفسه ( ٣ : ١٢٢ ) .

(٢) نفسه ( ٣ : ١٣١ ) .

وهل كان حقاً يعمد المدة للانقضاء على بنى بويه ومحاولة إرجاع ملك المغرب ؟؟

وهل كانت لديه خطط حربية واقمية كما يقول ؟؟

وهل كانت عنده الجيوش الكافية للقيام بمثل هذه المهمة الخطيرة ؟؟

لَمْ أَنَّهَا كَانَتْ مَجْرَدَ أَحْلَامٍ ، وَأَوْهَامٍ ، وَرَغَايَاتٍ مَكْبُوتَةٍ فِي نَفْسِ الشَّاعِرِ ، وَفِي عَقْلِهِ الْبَاطِنِ . . . أَلَحَتْ عَلَيْهِ ، وَدَاعَبَتْ خَيَالَهُ فَتَحَدَّثَ عَنْهَا فِي شِعْرِهِ ، وَجَرَتْ عَلَى طَرَفِ لِسَانِهِ ، وَشَبَّاهُ قَلَمُهُ ؟ كَمَا كَانَ يَفْعَلُ الْمُتَنَبِّيُّ الَّذِي قَالَ عَنْهُ الثَّمَالِيُّ فِي " الْيَتِيمَةِ " . . .

" وَمَا زَالَ فِي بُرْدٍ صَبَّاهُ . . . إِلَى أَنْ أَخْلَقَ بُرْدٌ شَبَّاهُ ، وَتَضَاعَفَتْ عَقُودُ عَمْرِهِ ، يَدُورُ حُبُّ الْوَلَايَةِ وَالرِّيَاسَةِ فِي رَأْسِهِ ، وَيُظْهِرُ مَا يَضُمُّرُ مِنْ كَامِنٍ وَسَاوَسِهِ ، فِي الْخُرُوجِ عَلَى السُّلْطَانِ ، وَالِاسْتِظْهَارِ بِالشَّجْمَانِ ، وَالِاسْتِغْلَاةِ عَلَى بَعْضِ الْأَطْرَافِ وَيُسْتَكْتَرُ مِنْ انْتِصَرِيحٍ بِذَلِكَ فِي شِعْرِهِ كَقَوْلِهِ :

سَأَطْلُبُ حَقَّقَ يَالْقَنَّا وَمَشَايِخَ  
كَأَنَّهُمْ مِنْ طَوْلٍ مَا أَلْتَمَوْا مُسَرَّدُ  
يُقَالُ إِذَا لَاقُوا ، خَفَافٌ إِذَا دُعُوا  
كَثِيرٌ إِذَا شَدُّوا قَلِيلٌ إِذَا عُدُوا  
وَطَمِنَ كَأَنَّ الطَّمْنَ لَا طَمْنَ بِمَدَّةِ  
وَضَرْبُ كَأَنَّ النَّارَ مِنْ حَرِّهِ بَرْدُ

وقوله :

فَلَا تَحْسِبَنَّ الْمَجْدَ زَقَاً وَقَيْنَةً  
فَا الْمَجْدُ إِلَّا السِّيفُ وَالْفَتَكَةُ الْبَكْرُ

وتضرب أعناق الملوك وأن تُسرى  
لك التَّهَبُوتُ السودُ والمَسْكِرُ العَجَرُ  
وتركك في الدنيا دَوِيًّا كَانَتْ  
تَدَاوَلَ سَمْعَ المرءِ أَنَمْلُهُ الْعَشَرُ (١)

أغلب الظن أن الشريف كانت عنده رغبة حقيقية لتحقيق هدفه  
في الوصول إلى الملك والسلطان ، وإرجاع (\*) هبة العرب في هذه البلاد  
— كما كانت تلك الرغبة حقيقية في نفس المتنبي ، وكان الدافع عند الشعراء  
واحداً . .

فالمتنبي المربى الصميم كان يرى نفسه متفوقا على أقرانه ولدت  
عصره ، وكان ينظر فيما حوله من الممالك الإسلامية فيشاهد عجايباً !!  
يرى الأعاجم قد سيطروا على مقاليد الأمور ، واستأثروا بالنفوذ  
والسلطان دون العرب . .  
ويرى كافوراً الإخشيدي — ذلك — المبد الخصى الذي كان حجاباً  
— يترشح على عرش مصر . .

ويرى بنى بويه الذين كان أبوهم صيادا للسمك في بلاد الديلم  
قد سيطروا على فارس والمراق . .

فلا عجب أن تثور نفسه المربية الأبية ضد هذه الأوضاع  
المعكوسة . . تلك الثورة التي نفخت عليه حياته ، وجعلتها جميعاً لا يطاق

---

(١) البيت ( ١ : ٩٤ )  
المشهور : رحمه يرحمه — من باب ضرب ، أما أرجع الرباعي  
قلقة هذيل ، وهي فصيحة ، د / سرحان .

لأنه لم يكن يملك الوسائل الكافية لتحقيق غرضه ، والوصول إلى هدفه ،  
فما من حزيننا كاسف الهال .. مكلوم القواد يسيطر عليه الفشل والشعور بالمعجز .

والدوافع نفسها كانت تسيطر على روح الشريف . مع اليأس الشاسع بين  
الرجلين ، فالشريف كان له من شرف النسب وعراقة الأصل ما يجعله أهلاً لكل  
فخر ..

أما المتنبي فصاح علو قدره ، وبعد همته ، وقوة شاعريته كان ابن سقا :  
بالكوفة على ما يقول الرواة ..

وكان الشريف يستنى إلى الدوحة النبوية المباركة ، ويحظى باحترام  
المسلمين ، وتقديرهم في كل مكان ..

وكان يرى أن من سخرية الأيام أن يسبقه في موكب الحياة من هم دونه  
نسباً وحسباً وسيادة .. فتطلعت نفسه الأبية إلى تغيير واقعه الأليم ، ولو بالقوة  
المسلحة ، ودارت هذه الأفكار في رأسه ، وترجمها في شعره ولكنه ، ما كاد يبدأ  
في تنفيذ هذه الخطط ، وأبرز تلك الأفكار إلى حيز الوجود حتى اصدم بمواقف  
سياسية واجتماعية حالت بينه وبين ما يريد ..

فلم يكن هناك في تلك البيئة المراقية والفارسية من يهطف على العرب  
أو يري حقوقهم ، أو يحفظ عهدهم فالخليفة المباسي محجور عليه ، والمنصر المبري  
مخلوب على أمره ..

وكان الملوك ، والوزراء ، والقادة جميعاً من عناصر أعجمية .. فانطوى  
الشريف على نفسه ، بعد أن عز للنصير ، وقتل الممين وأخذ يضيغ آلامه ، ويجتر  
أحزانه ، وتسيطر عليه الهواجس والأراجيف ، ويشمر بخيبة أمل ، وسواد مصير ،  
فركبته الهموم ، وشاب رأسه من قبل المشيب ، وأنه ليقول ممبراً عن ذلك :

تَجَاذِبُنِي يَدُ الْإِيَّامِ نَفْسِي  
 وَيُوشِكُ أَنْ يَكُونَ لَهَا الْغَلَابُ  
 نَهَضْتُ وَقَدْ قَمَدَنَ بِي اللَّيَالِي (٩)  
 فَلَا خِيْلَ أُعِزُّهُ وَلَا رِكَابُ  
 وَمَا ذَنْبِي إِذَا أَتَنَقَّصْتُ خُطُوبُ  
 مُنْطَلِقَةً وَأَيْسَلُ غَضَابُ؟  
 وَمَعُضُّ الْمُدَمِّ مَأْثَرَةٌ وَقَفَرُ  
 وَمَعُضُّ الْمَالِ مَنَقَصَةٌ وَعَابُ  
 بَنَانِي وَالْمَنَانُ إِذَا نَبَتْ بِي  
 هَا أَرْضِي وَرِجْلِي وَالْتَرَكَابُ  
 سَوَاءٌ مَنْ أَقْلَ التُّرْبِ مَنْكَأُ  
 وَمَنْ وَارَى مِمَّا لَكَ التُّرَابُ  
 وَإِنْ مَزَايِلَ الْمَشْيِ اخْتَصَّارًا  
 مُسَاوٍ لِلَّذِينَ بَقُوا فَضَابُ  
 وَأَوْلْنَا النِّمَاءُ إِذَا طَلَقْنَا  
 إِلَى الدُّنْيَا وَآخِرْنَا الذَّهَابُ  
 وَإِنْ مَقَامٌ مِثْلِي فِي الْأَعْيَادِ  
 مَقَامُ الْهَدَرِ تَنْهَكُهُ الْكِلَابُ  
 رَهْوَنِي بِالْمُحُوبِ مَلْفَقَاتِ  
 وَتَسْطَعُوا بِأَنْتِي لَا أَعَابُ

(٩) هذا التركيب جاء على لفة "أكلوني البرانيث" وهي لفة بمعنى  
 الصرب وعليها في رأي أصحابها قول الله تعالى "وَأَسْرُوا النَّجْوَى  
 الَّذِينَ ظَلَمُوا" • د / سرحان •

وَأَنْتَى لَا تَدْتَسُنِي الْخَازِي  
وَأَنْتَى لَا يَرْوَعُنِي السَّابِ  
وَلَمَّا لَمْ يَلَاقُوا فِي سَيِّئَا  
كَسَوْنِي مِنْ عِيُوبِهِمْ وَغَابُوا (١)

إنها لنفمة حزينة باكية ، وزفرة حارة ثائرة ، أرسلها الشاعر من صدر  
سيطرت عليه الهموم ، ونفس عذبتها الآلام ، وقلب استبدت به الأحزان ،  
وتكالبت عليه الخطوب ، وتأمر عليه الأعداء ، وألقوا به الميؤوب ، ودنسوه  
بالمخازي ، ولفقوا له الأكاذيب ، فأصبح غريبا في وطنه ، وحيدا بين أهله وعشيرته  
ولكنه على الرغم من ذلك ما زال على الهمة ، مرفوع الهامة ، مستوى القامة كالهدر  
في كبد السماء ، تنبحه الكلاب .. ولكن هيهات الوصول إليه ، والنهل منه ، والخط  
من قدره والنزول بقيته ..

إن حالة الشريف النفسية التي صورتها تلك المقطوعة من شعره لتذكرنا  
بحالة أبي فراس الحمداني عندما كان أسيرا في بلاد الروم ، حيث كان يشعر  
بالمرارة ، ويحس بالحسرة ، ويرسل الآهات الحارة ، والزفرات الملتهبة ، ويعزى  
نفسه ويواسيها ، ويرجع أسباب وقوعه في الأسر إلى سوء الحظ ، وعذر الزمان  
حيث يقول :

أُسِرْتُ وَمَا صَبَحِي بِمُزِلٍ لَدَى الْوَقْصِ  
وَلَا قَرَسٍ مُهْرٌ وَلَا رَبٌّ مُعْرِ  
وَلَكِنْ إِذَا حُمِ الْقَضَاءُ عَلَى أَمْرِي  
فَلَيْسَ لَهُ بِرَيْقِهِ وَلَا بِحُرِّ (٢)

(١) البيت ( ٣ : ١٣١ ) .  
(٢) البيت ( ١ : ٦٣ ) .

وانبها لتذكرنا بحالة البارودي في منفاه عقب الاحتلال الإنجليزي لمصر  
في العصر الحديث ، فقد عاش بأساة حقيقية وانغمس بأحداثها ، فعبّر عنها أصدق  
تمبير ، وكان تصويره للأحداث تصويراً ذروباً ، ورسماً شخصياً يفتح عن شعوره ، ويوضح  
عواطفه الصادقة ، ويحلل نفسه بالصبر ، ويواسي احساسه بالفخر ويتمنى من خالقه  
انكشاف الكرب ، وزوال الهم .

عَلَى طَلَابِ الْعَزَمِ مِنْ مُسْتَقَرِّهِ  
وَلَا ذَنْبَ لِي إِنْ عَارَضَتْنِي الْمَقَادِرُ  
فَمَا كُلُّ مَحْلُولِ التَّرِيكِكِ خَائِبٌ  
وَلَا كُلُّ مَحْبُوكِ التَّرِيكِكِ ظَافِرٌ  
وَلَوْ رَمْتُ مَا رَأَى اسْرُؤُ بِخِيَانَتِي  
أَصْبَحْتُ مَبْطُونِ الْمَالِ وَاقِفٌ  
فَقَدْ يَحْتَجُّ الْمَالُ وَالْمَجْدُ غَائِبٌ  
وَقَدْ لَا يَكُونُ الْمَالُ وَالْمَجْدُ حَاضِرٌ  
وَلَوْ أَنَّ أَسْبَابَ السِّيَادَةِ بِالْفَتَنِ  
لَكَثَرَتْ رَبِّ الْفَضْلِ بِالْمَالِ تَاجِرٌ  
فَلَا غَرَّ أَنْ حَزَّتْ الْمَكَارِمُ عَارِيًا  
فَقَدْ يَشْهَدُ السَّيْفُ الْوَعَى وَهُوَ حَاسِرٌ  
أَنَا الْمَرْءُ لَا يَنْتَبِهُ عَنْ دَرَكِ الْمُسْلَا  
نَعِيمٌ وَلَا تَعْدُو عَلَيْهِ الْمَفَاقِرُ  
فَسَوْفَ يَبِينُ الْحَقُّ يَوْمًا لِنَاطِيرِ  
وَتَنْزُو بِمُورَاءِ الْحَقُودِ السَّرَائِرُ  
وَمَا هِيَ إِلَّا غُرَّةٌ تَسْمُ تَنْجَلِي  
غَيَابَتُهَا وَاللَّهُ مِنْ شَاءَ نَاصِرٌ (١)



ان حالة الرجلين واحده في الموقنين ، فالشريف يشمر بالغربة في بلاد يحكمها  
الفرس ، ويتحكم في مقدراتها المعجم ، فيتبهر بالحياة والأخياء في هذه البيئة الجديدة  
ويحس بخيبة الأمل بعد أن فشل في تحقيق آماله وأحلامه ، فينطوى على نفسه يجتر  
آلامه ، ويلحق همومه ، ويملك أحزانه ، ويرسل النغمات الحزينة ، والزفرات  
الحارة ، التي تصور حالته النفسية أصدق تصوير ، ويمزج أسباب فشله الى غمدر  
الأيام وتآمر الخطوب . .

وأما البارودي فقد كان قائدا عظيما ، ورديسا خطيرا وشاعرا فحسلا  
فأصبح أسيرا في " سرنديب " وفقر له الصديق ، وندر الرفيق وقل معه المميمين ،  
وتحطمت منه الآمال . . فأخذ ينحى حظه ، ويمزج نفسه بالتملق بأسباب السيادة ،  
والفخر بالفضل والشرف ، ويسلم وجهه لله تعالى ، ويتشبه بالإيمان به ، والتوكل  
عليه ، لأن الإيمان يهدى اليأس ، ويمت في النفس الأمل والمزم ، ومن لم يلجأ  
إلى الله ليحتسب به من مصائب الحياة فهو فيها من الخاسرين . .

ولي أمل في الله تحيا به المنسى  
ويشرق وجه الظن والخطب كاشر  
إذا المرء لم يركن إلى الله في السدى  
يحاذر من دهره فهو خاسر (١)

وهذا تماما ما فعله الشريف من قبل عندما يشمر من تحقيق آماله هلهلوع  
أهدافه ، فانه ركن إلى الله ، واتجه إليه بقلبه وجوارحه . . وأخذ يواسى نفسه ،  
ويمزجها ، ويذكر أن بقاء الإنسان في الدنيا محدود ، وأن اللجوء إلى الله خير  
علاج للجسم المكدود ، والنفس المعذبة الثائرة :

إِنْ أَنْقَبَ الْخَطْبُ فَلَا رُفْعَةَ  
أَوْ عَظَمَ الْأَمْرَ قَصِيرٌ جَمِيلٌ  
فَلِيَهِنَ الْمَرْءُ بِأَيَّامِهِ  
إِنْ مَقَامَ الْمَرْءِ فِيهَا قَلِيلٌ  
إِنَّا إِلَى اللَّهِ وَإِنَّا لَهُ  
وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١)

وأغلب الظن أن فحل الشريف السهامي ، وشموه بضمف العرب فسي  
المراق وفارس هو الذي دفعه إلى الإكثار من شعر الحماسة والفخر ، والاشادة  
بمآثر العرب ، والتفنن بمجودهم وكان ذلك من باب رد الفعل الطبيعي على سيطرة  
الفرس وهيمنة النظم الفارسية على المجتمع آنذاك . .

\* \* \*

على أن الشريف الرضي لم يكن فريدا في هذا الباب . . ولم يكن وحده  
هو الشاعر الذي يهجر عن الروح العربية الكامنة تحت الرماد ، وإنما كان مثله فسي  
ذلك بقوه أبو القاسم علي بن الحسين الملقب بالشريف المرتضى . . الذي كان  
كأخيه الرضي يشمر بالعربية في المجتمع المراق ويحن دائما إلى منبت الآباء والأجداد  
في الجزيرة العربية موطن العرب الأجداد ، وكان يتحرق شوقا الى هذه المواطن  
الغالية . . في مثل قوله :

أَحِبُّ ثَرَى نَجْدٍ وَنَجْدٌ بِحَيْدَةٍ  
أَلَا حَبْدًا نَجْدٌ وَإِنْ لَمْ تُفِدْ قُرْبًا  
يَقُولُونَ نَجْدٌ لَسْتَ مِنْ شَعْبِ أَهْلِهَا  
وَقَدْ صَدَقُوا لَكِنَّ لِي فِيهِمْ حُبًّا

كَأَنِّي وَقَدْ قَارَقْتُ نَجْدًا شَقَاوَةً  
فَتَى ضَلَّ عَنْهُ قَلْبُهُ يَنْشُدُ الْقَلْبَ (١)

وكان كأكخيه وكالمتنبى من قبل - يمشق البدويات ، ويهيم وجددا  
بالنجديات ، ويفضلهن على المراقيات والفارسيات اللاتي أبغدتهم الحضارة ،  
وسيطرت عليهن الروح الفارسية ، ولهذا كان يرسل إلى ظباء نجد عبر  
الأيثر غزلا عذبا رقيقا من قلب أضناه الوجد ، وعذبه الهوى ، ونفس مزقتها  
الغربة وقتلتها الوحدة ، فلم تعد ترى جمالا إلا في موطن الأُخبة من أرض  
نجد :

أَلَا يَا تَسِيمَ الرَّيْحِ مِنْ أَرْضِ بَابِلٍ  
تَحْمِلُ إِلَى أَهْلِ الْخِيَامِ سَلَامِي  
وَقُلْ لِحَبِيبٍ فِيكَ بِحُضْنِ نَسِيمِهِ  
أَمَا أَنْ أَنْ تَسْطِيعَ رَجْعَ كَلَامِي ؟  
وَإِنِّي لَأَهْوَى أَنْ أَكُونَ بِأَرْضِكُمْ  
عَلَى أَنْفِي مِنْهَا اسْتَفَدْتُ سَقَامِي (٢)

ومهما يكن من شيء فقد كانت هذه الأصوات المتمردة على السروح  
الفارسية تمثل طبقة العرب المنلوقة على أمرها في هذه البلاد ..

تلك الطبقة التي كانت لها من قبل السيادة المطلقة على هذه الأقاليم  
وكانت تنظر إلى غيرها من الموالى نظرة السيد للسود ، حتى ولو كانوا مسلمين ،  
وإذا بالأيام تتبدل ، وبالأوضاع تتغير ، وإذا بهؤلاء الموالى يصبحون  
سادة في هذه الأصقاع ، وإذا بهم يحيون عاداتهم وتقاليدهم القديمة ، ويمارسون  
طقوسهم الدارسة على مرأى وسمع من الجميع .. مما أزعج كل مسلم ، وأقلق

(١) تنسمة اليتيمة ( ١ : ٥٢ )

(٢) المرجع السابق ( ١ : ٥٢ )

كل عرب غيور على دينه وعرويته كالشريف الرضى وأخيه الشريف المرتضى .

على أن هناك من الشخصيات العربية من عاش في الأصقاع الفارسية البعيدة وتمرد على هذا التيار الفارسى الوثنى الجارف . ومنهم بديع الزمان الهمداني الذي تصدى للفرس ، وانبرى لهم وأخذ يدافع عن الإسلام ، ويشيد بالمرب ، ويذم الفرس ، ويسخر من عاداتهم ، وتقاليدهم ، وأعيادهم .

فكتب رسالة طويلة في معنى " السّدق " تعصب فيها للمـرب وللإسلام على الفرس والمجوس تمصبا شديدا .

وقد جاء في هذه الرسالة قوله :

" هذا هو الميّد ، وذلك هو الضلال البعيد ، إنهم يشبّون نارا هي موعدهم والنار في الدنيا عيدهم ، والله إلى النار يميدهم ، ومن لم يلبس مع اليهود غيارهم ، لم يعمد مع النصارى زناهم ، ولم يشب مع المجوس نارهـم " .

إن عيد الوُقُودِ لميّدُ رافك ، وإن شمار النار لشمار شرك ، وما أنزل الله " بالسّدق " سلطانا ، ولا شَرَفَ نيروزا ، ولا مَهْرَجَانَا ، وإنما صب الله سيوف العرب على رؤوس المجم ، لما كره من أديانها ، وسخط من نيرانها وأورثكم أرضهم ، وديارهم ، وأموالهم حين مقت أفعالهم " (١) . ثم واصل كلامه عنهم فقال :

" فلا وقدت نار المجوس ، والله لا أقول ذلك إلا غيرة على نعمته ، وشفقة على خطئه ، إنى أجد الله تعالى يمت من بَحَرِ الْبَحِيرَةِ ، وَسَيِّبَ السَّائِبَةِ ، فالنار أولى بأن يمت شاربها ، وهي ممبودة ، وإنما جعل الله تعالى

(١) اليتيمة : ( ٤ : ٢٥٠ ) .

النار تذكرة ومتاعا ، ولم يَجْمَلْهَا وَتَّاءَ وَلَا سَوَاعًا ، ولم يضرب الله تعالى لها  
عيدا ، ولم يَجْمَعْنِهَا لَهَا عيدا ، الله ، والنبي ، والعيد  
المربى والتكبير الجهير ، وتلك الجماهير ، والملائكة بعد ذلك ظهير ، ذلك  
- لا مَاشَرعَ الشَّيْطَانِ لِأَوْلِيَاءِهِ ، نارٌ لَدَيْهِمْ تُصَبُّ ، ولَحْنَةٌ عَلَيْهِمْ تُصَبُّ ، وخَمْرَةٌ  
مَتَاعُهَا قَلِيلٌ ، وفي الآخِرَةِ حَتَّارُهَا طَوِيلٌ <sup>(١)</sup> .

ولا شك أن هذه النفقة الحارة الصادرة من عربى مسلم غيور على  
عرويته ودينه إنما كانت - هى وغيرها - صدى للثورة المضادة للروح الفارسية  
التي سيطرت على المجتمعين المراقى والفارسى آنذاك ، وصبغت بهما بصبغة  
فارسية خالصة .

\*\*\*

---

(١) رسائل الهمذاني ص ٢١٩ .

(( الفصل الثالث ))

—

:: الرقيق وآثاره في أدب اليتيم ::

\*\*\*\*\*

### :: الفصل الثالث ::

#### " الرقيق وآثاره في أدب اليتيمة "

انتشرت تجارة الرقيق في هذا العصر انتشاراً عظيماً ، وكان يجلب إلى بغداد من ثلاثة طرق رئيسية <sup>(١)</sup> : الطريق الأوربي الغربي وطريق آسيا الشرقى <sup>(٢)</sup> ، وطريق إفريقية <sup>(٣)</sup> .

ولأهمية الرقيق وكثرته أنشئت له أسواق كبيرة في مدن العراق يشرف عليها تجار يعرفون بالنجاسين ، وكان في بغداد شارع يعرف باسم دار الرقيق ، كما كان هناك باب في بغداد أطلق عليه باب النجاسين <sup>(٤)</sup> .

وكان بسامراء سوق لبيع الرقيق تتخلله طرق متشعبة وبه عدة حجرات لبيع الرقيق <sup>(٥)</sup> .

وكان الرقيق من الذكور يقومون بالخدمة في القصور والبيوت والحقول ، أما الخصيان منهم فكانوا يقومون بحراسة النساء ، وخدمتهن ، ومنهم من كان يقيم بحراسة القصور ، ويطلق عليهم " القراشون " وكانوا يتخذون من بينهم رئيساً عليهم <sup>(٦)</sup> .

- 
- (١) كلمة " رئيسية " أو " رئيسي " من الأخطاء الشائعة ، والصواب : " طرق رئيسية " ، د / سرحان .  
(٢) " آسيا " خطأ شائع والصواب : " آسية " ، بالتاء ، د / سرحان .  
(٣) الحضارة الإسلامية لمتز ( ١ : ٢٨٣ ) .  
(٤) البلدان للهمقوي : ص ١٣ .  
(٥) الأغاني : ( ١ : ٩٥ ) .  
(٦) رسوم دار الخلافة للصايب : ص ٩ .

وكان بعض الرقيق من الذكور يطلق عليهم " الفلمان " وكانوا  
غالباً ما يقومون بحراسة الخلفاء (١) .

أما الجوارى فقد كثرن في هذا العصر كثرة هائلة ، وامتدّت  
بهن قصور الخلفاء والأمراء ، والوزراء ، والأثرياء حتى إن قصر الخليفة  
المتوكل كان يحتوى على أربعة آلاف بئارية (٢) ، وكان بعض الجوارى  
يشغلن بالنسج ، ويمرغن بالقياح ...

وقد اشتهر بعضهن بحسن الصوت ، وبراعة التوقيع ، وجودة  
المزف كقنوة البصرية ، وطوة ، وروحة ، ونهاية ، وقلم ، وسندس ، وغيرهن (٣)

وكان لهؤلاء الجوارى أثر كبير في نشر الشعور بالجمال ، وإشاعة  
الذراف بين الناس ، وكتابة الأشعار الرقيقة ، والعمل الطريفة على  
الأنسج والأردية ، ونادراً لأنهن كن مزيجاً من جنسيات شتى استطعن  
أن ينقلن الى المجتمع كثيراً من عادات بلادهن وتقاليدها .

وقد أدى التوسع في شراء الجوارى ، والتنافس على اقتنائهن  
إلى انتشار الفساد في المجتمع حيث عرف بعضهن بالخلاعة والمجون  
والتهافت على اللذة .

وقد بين الجاحظ الملة في ذلك فقال :

" كيف تسلم القينة من الذمّة ، أو يمكنها أن تكون غنيمة ،  
وانما تكتسب الأهواء ، وتتعلم الألسن والأخلاق بالنسج ، وهى إنما  
تنشأ من لدن مولدها ، إلى أوان وفاتها فيما يصد عن ذكر الله من

(١) تاريخ بغداد ( ١ : ٩٥ ) .

(٢) ذم الهوى لابن الجوزى ص ٦٥٣ ، وواجه أن الببالفة تليف  
هذا الكلام في برودها \* د / سرحان .

(٣) نهر الاسام ( ١ : ١٢٨ ) .



لهو الحديث ، وبين الخلفاء والمجان ومن لا يسمع منه كلمة جد ، ولا يرجع منه إلى ثقة ولا دين ، ولا صيانة مروية .

وتروى الحاذقة منهن أربعة آلاف صوت فصاحدا ، ويكون الصوت فيما بين البيتين إلى أربعة أبيات ، وعدد ما يدخل في ذلك من الشعر إذا ضرب بمضه ببعض عشرة آلاف بيت ، ليس فيها ذكر الله ... إلا عن غفلة ... ولا ترهيب من عقاب ، ولا ترغيب في ثواب ، وإنما بنيت كلها على ذكر المشرق والصبوة ، والغفلة ، ثم لا تنفك من الدراسة لصنمتها منكبة طيهما ، تأخذ من المطارحين الذين طرحهم كله تجميعه ، وإنشادهم مرادة . (١) .

كما أن بعضهن قد اتخذت في بغداد بيوتا للدعارة يأوى إليها أهل الخلاعة والذجون للتسرية والترفيه .

قال أبو حيان التوحيدي :

وقد أحصينا ونحن جماعة في الترخ ستين وأربعمائة جارية من الدجانبين ، وعشرين وبائة حرة ، وخمسا وتسعين من الصبيان البدور الذين يجمعون بين الحذف ، والصنعة والحسن والطرف ، والمثيرة ، وهذا سوى من كنا لا نظفر به ، ولا نصل إليه ، لمزته وحرسه ورقبائه (٢) .

ومن القيان من كن يتاجرن بالمشق ، والفناء فيوقعن فسى حبالهن الشبان الموسرين حتى يمتزغن أموالهم ، ثم يلفظنهم ، وقد وصف أحد الشعراء هذه الذاهرة فقال :

(١) ثلاث رسائل للجاحظ نشر فنكل ص ٧٢ .  
(٢) الانتاع والمؤانسة لأبي حيان ( ٤ : ١٨٣ ) .

صوت فلبصرُ التَّوَايَةِ من رُشْدِي  
وأيقنتُ أني كنتُ جُرْتُ عن القصدِ  
فلا يَمَشُقَنَّ من كان يَمَشُقُ قَيْنَةً  
فما هو منها في سَعْدٍ ولا سَعْدٍ  
توَدَّكَ ما دامت هداياك جَمَّةً  
وترفدك هِشَقًا ما بقيت أَخَا رُفْدٍ  
إذا ما رَأَتْ في مجلسٍ من تَخَالِهِ  
غَنِيًّا حَبَّتُهُ بِالتَّحِيَّةِ وَالسُّوْدِ  
فذا دَأْبُهَا حتى يَمُودَ من الْهَوَى  
سقيم فَوَادٍ لا يَمِيدُ ولا يَمِيدُ  
فتقصِدْ لا من حاجةٍ لِضَائِدِهَا  
ولكن لتكليفِ الهديةِ في القَصْدِ  
فمن بين خَلْقٍ يَصَاغُ وخاتم  
ومن كُذِّلَجٍ يُهْدَى على أثرِ القَدْرِ  
فذا فِعْلُهَا حتى إذا عاد مُقْلَسًا  
تَجَنَّتْ وأبدتْ جانبَ الهجرِ والقَدْرِ  
فقولاً لِمَنْ يَهْوَى الْيَقَانَ تَفَهَّنُوا  
مَقَالِي فَإِنِّي قد نصحتُ لكم جَهْدِي (١)

وعلى الرغم من ذلك فلا شأن ببعض الجوارى في المجتمع ،  
وقد بدور بارز في الحياة السياسية ، والاجتماعية ، وتهافت الرجال  
عليهن ، تهافتا شديدا ، وفضلوهن في بعض الأحيان على الحرائر ،  
نظرا لظرفهن ، وثقافتهن ، وروايتهن الأسمار ، وسمرتتهن النساء ،  
وكثرة تبرجهن ، وخلاصتهن . .

(١) ظهير الاسلام ( ١ : ١٢٨ ) .

وقد ظل الجاحظ تهافت الرجال عليهم بأن الرجل قبل أن يملك الأمة قد تهلل كثيرا من محاسنها ، وعرف عديدا من مفاتنها ما خلا حظوة الخلوة ، وما يقرب منها ، فأقبل على ابتياعها بمسدد وقوعها في نفسه ، وميلها اليها . .

أما الحرة فكان يستشير في جمالها النساء ، والنساء لا يصرن من جمال أمثالهن ، ما قد يقضى حاجات الرجل ويوجهه إلى موافقتهن ، لرغائهن في قليل أو كثير ، ومعروف أن الرجال بالنساء أبصر ، وإنسا تعرف المرأة من المرأة ظاهر الصفة ، فأما الخصائص التي تقع فسي نفوس الرجال فلا تعرفها (١) .

وكما كان لهؤلاء الجوارى تأثير في الحياة السياسية والاجتماعية كان لهن تأثير عظيم في الأدب وشروبه ، خاصة عند أولئك اللواتى سلبن الأرواح ، وخلصن المقول وسحرن النفوس وأسرن القلوب بجمالهن ، ودلالهن وسيطرن من أسيادهن على الجيد ، واستولين على العقائد ، وذلك بطرفهن وخفتن ، وغنائهن ، وما أوتين من صوت جيد رخيم .

كذلك كن سببا في كثرة المثلوعات الشعرية التي قيلت فسو، وصفهن ، والتغنى بجمالهن ، وكثرة الشعراء الذين تغزلوا فيهن بشعر هذب رقيق ، ونظام رطب دقيق ، يدل على شدة العشق وعظمة المنزلة ، وارتفاع الدرجة إلى حد كبير ، فهذا الوزير المهلبى يهيم وجدا بجارية حسنا اسمها " تَجَنَّى " ويكثر من وصفها في أدبه ، والتشبيب بها فى شعره ، ويرسل من أجلها الزفرات الحارة ، والآهات الملتهبة التي تصور هشفه لها ، وتعلقه بها فيقول :

---

(١) الحضارة الاسلامية لمتز ( ١ : ١٧٤ ) .

مَرَّتْ فَلَمْ تَنْزِلْ طَرَفَهَا تِيهًا  
يَحْسُدُهَا الْفُصْنُ فِي تَتَبِهَا  
تلكَ تَجَنَّى التي جَنَيْتُ بِهَا  
أَعَاذَنِي اللَّهُ مِنْ تَجَنِّيَهَا (١)

وقال يصف وقتنا سعيدا قضاء منها :

رَبِّ يَتَمَّ لَيْسَتْ فِيهِ الْقَصَائِي  
وَوَلَّيْتُ الْمَذَارَ وَالْعَدَلَ مَنَى  
فِي مَحَلٍّ يَحِلُّ لَذَّةُ الْمَيِّ  
سُورَةٍ مِنْ تَجَنَّى (٢)

أما أبو اسحاق الصابي فقد هام بإحدى جواربه هيأما شديدا  
وشبه بها في شعره تشبيها يدل على وجاه بها ومماناته من أجلها  
فقال :

إِلَى اللَّهِ أَمَكُو مَا لَقِيتُ مِنَ الْهَوَى  
يَجَارِيَةِ أَمَّهَا بِهَا الْقَلْبُ يَلْمَسُ  
إِذَا امْتَرَجَتْ أَنْفَاسُنَا بِالْأَرَايَا  
تَوَهَّمْتُ أَنَّ الرُّوحَ بِالرَّيحِ تُنَزَّجُ  
كَأَنِّي وَقَدْ قَبَلْتُهَا بِعَدِّ مَجْمَعَةٍ  
وَرَجَدِي مَا بَيْنَ الْجَوَانِحِ يَلْمَسُ  
أَضْفْتُ إِلَى النَّفْسِ الَّتِي بَيْنَ أَضْلُمِ  
بِأَنْفَاسِهَا نَفْسًا إِلَى الصَّدْرِ تُولَجُ

(١) البيت ( ٢ : ٢١٤ ) .

(٢) المرجع نفسه .

فَإِنْ قِيلَ لِي أَخَذْتُ أَيُّهَا شَيْءٌ مِنْهُمَا  
فَيَأْتِي إِلَى النَّفْسِ الْجَدِيدَةِ أَحْوَجُ (١)

وكما هام بعض الشعراء بالجوارى البيض وتنزلوا فيهن هلم  
بعض آخر بالجوارى السود وتعلقن ، وأغم بهن ، وقال فيهن شعرا  
كثيرا . .

ويذكر الثعالبي \* أن ديوان ابن سكرة الهامى يروى طوى  
خمسين ألف بيت من الشعر ، منها فى قينة سوداء ، يقال لها : " خمرة " .  
أكثر من عشرة آلاف بيت ، وكانت عروسة لنوادره وبلحه (٢) .

وكان للسلى - وهو من أعظم شعراء البيتية فى إقليم العراق -  
جارية سوداء ، تعلق بها قلبه ، وكانت له معها مغامرات عاطفية حارة  
صورها فى شعره تصويرا صريحا حيث يقول :

يَا رَبِّ غَانِيَةٍ بِيضَاءُ تَصْبَحُنِي  
مِنَ الْمُتَابِ كُتُومًا لِهَمِّ تَنْسَاغٍ  
أَشْتَاقُ طَرَّتَهَا لَمْ صُدِّعَهَا وَبِمِ  
مِنَ كُلِّهَا طَرَّرْتُ سُودًا وَأَصْدَاغُ  
كَأَنَّا لَا أَفْجَحُ اللَّهُ فَرَّقْتَنِي  
يَا لَمَبَّةِ السَّيْلِ - بَايَ تَحْتَهُ زَاغُ (٣)

وسهيا يكن من شئ \* فقد شاع فى هذا العصر حب الجوارى ،  
والهيام بهن ، وتفضيلهن على الحرائر ، وقل أن نجد شاعرا من شعراء

(١) البيتية ( ٢ : ١٣٤ ) .

(٢) المصدر السابق ( ٣ : ٣ ) .

(٣) المصدر السابق ( ٢ : ٣٨٦ ) .

المراق أو فارس هلم بحرة ، أو تنزل بها باستقنا بعض الشعراء  
التمصبين للمروة كالشريف الرضي وأخيه المرتضى فإنهما كانا طرازاً  
فهدا بين شعراء المراق في ذلك العصر .

أما معظم الشعراء في هذين الإقليمين فقد هابوا بالجوارى  
هشاً وجباً ، وتنزلوا بهن غزلاً خفيفاً ، وغير خفيف ، ويكفى أن تقرأ شعر  
ابن سكرة الهاشمي ، أو شعر ابن حجاج - وهما من أبرز شعراء  
المراق في ذلك الوقت - حتى إن الثماليين قرنها بجريير والفسزدق  
في العصر الأموي - حتى نعرف مقدار هشقهما للجوارى ، واستهتارهما  
بهن ، ولهما في ذلك أشعار صيغت بأصح الألفاظ ، وأقبح المبارات  
وكنت أود أن أستشهد ببعضها في هذا المقام . ولكن الحياة ينمى  
من ذلك لأنها غاية في الفحش والفجور . ومن شاء فليرجع إلى هذه  
الأشعار في ترجمتيهما باليتيمة أو غيرها .

وكما هلم الشعراء بالجوارى ، وتنزلوا فيهن ، تعلقوا كذلك  
بالنملان الذين كثروا في هذا العصر كثرة فائقة . وكانوا ملوكيين  
كالجوارى فتفزل الشعراء فيهم أيضاً وكان تأثيرهم في الأدب لا يقل عن  
تأثير الجوارى ، إن لم يتفوق عليه ، وقد ظهر بسببهم غرض جديد في  
الشعر العربي لم يكن معروفاً من قبل ، وهو النزول بالذكر .

ويذكر المؤرخون أن أبا نواس أول من جهر بذلك في صدر  
الدولة العباسية ، حيث كان شاذاً في سلوكه ، وتصرفاته ، وكثيراً ما كان  
يجاهر بذلك تحدياً لأذواق الجماهير واستهزاءً بحلما الاسلام ، وسخرية  
من كان يسميهم " المرتزقين " فكان يضمن شعره بعض الاشارات  
الداعية ، ويحطى الناحية الجنسية اهتماماً خاصاً إيماناً في الكيس  
والإبذاء .

وقد أدى أبو نواس هذه الرسالة الشيطانية كما يخفى إبليس وجنوده (١) وسنرى الشعر المربى تلك السنة السيئة وفتح بابا لمن جاء بحسده من الشعراء لم يكن معروفنا من قبل . .

ولم يكن للولوع بالفلمان شأن يذكر طوآل المصور التي كانت السيادة فيها للروح المربية .

أما في القرن الرابع فقد سيطرت الروح الفارسية على إقليدس فصار من والمراق سيطرة تكاد تكون تامة ، واصطبغ المجتمع الإسلامي بصبغة فارسية خالصة ، وأطلقت الماديات الفارسية برأسها من جديد وأمهج الناس يمارسونها بلا خوف ولا حياء . .

وفي الأخبار المأثورة أن عادة الولوع بالفلمان ، والهيام بهمهم عادة فارسية قديمة وفدت إلى المراق من الشرق مع بيوش المباسيين الذين جاءوا من خراسان .

فقد ذكر الجاحظ سبب حدوث هذه الحالة في الخراسانيين ، وهو خروج الأجناد في البموت مع الفلمان ، وذلك حين سن أبو مسلم ألا تخرج النساء مع الجند خلافا لبنى أمية الذين كانوا يسمحون بخروج النساء مع المعسكر ، فلما طال مكث الفلام مع صاحبه في الليل والنهار وعند اللباس والتستر - وهم جنود فحول تقع أبصارهم على خد كخشد المرأة ، وردف كردنها ، وساق كساقها تولدت عندهم هذه الفاحشة (٢) .

وأغلب الظن أن ذلك راجع إلى تأثير القوس بدعوة " مسزوك "

(١) ومن أشعاره في هذا المعنى قوله :

وكننت فتى من جند إبليس فارتى

بي الحال حتى صار إبليس من جندي

د / سحران

(٢) الحضارة الإسلامية ( ٢ : ١٦٠ ) .

الذى ظهر أيام الملك الفارس " قَبَادَ " وادعى النبوة ، وكانت رسالته تنحصر فى التشارك بين الناس وشيوعية الأموال والنساء ، وهو مذهب يدهو الى المتع الجسدية والإلحاد فى العقيدة ، والاغراق فى اللذة<sup>(١)</sup> ولهذا يقول أحد الشعراء فى البرامكة وهم فرس :

إِذَا ذَكَرَ الشَّرْكَ فى مَجْلِسِي  
أَنَارَتْ وَجْهَ بَنِي بَرْمَكِ  
وَإِنْ تَلَيْسَتْ عَنْدهُمْ آيَةٌ  
أَتَوْا بِالْأَحَادِيثِ عَنْ مَزْدَكِ<sup>(٢)</sup>

ولذا نجد أن حب الفلمان ، والتعلق بهم قد سيطر على كثير من شعراء العوالى ، وبعض العرب ، الذين تأثروا بالفرس ، وشاركوهم فى هذا الداء الويل ، منذ القرن الثانى الهجرى ..

ويزعم المؤرخون أن الخليفة الأمين كان مستهترا بالفلمان ويعمل إليهم ، ويقربهم من مجلسه ، ويكثر من شرائهم واقتنائهم ، فقد روى الطبرى " أنه بلغ من كلفه بالخصيان أنه طلبهم ، وابتاعهم ، وغالى بهم ، وصيرهم لخلوته فى ليله ونهاره ، وقول طعانه وشرابيه ، وأبهر ونهيه ، ورفض النساء الحرائر والاماء<sup>(٣)</sup> .

ويذكر السعوى " أنه لما أفضى الأمر إلى الأمين قدم الخدم وآثرهم ورفع منازلهم ، فلما رأت أنه شدة شغفه بالخدم واشتغاله بهم ، اتخذت الجوارى المقدودات ، الحسان الوجوه ، وعمت رموسهن وألبستهن

- 
- (١) دراسات فى تاريخ الأدب العربى ص ١٩٥ د / خفاجة ، دكتور  
عبد الرحمن عثمان .  
(٢) البيان والتبيين للجاحظ ( ٣ : ٢٠٦ ) .  
(٣) تاريخ الطبرى : ( ٣ : ٩٥ ) .



الأقضية والمناطق فاستقدودهن ، وبرزت أردافهن ، وبعثت بهن إليه  
فاختلفن بين يديه ، واستحسنهن ، واجتذبن قلبه وأبرزهن للناس  
من الخاصة والحامة ، فاتخذ الناس الجواري المطويات<sup>(٥)</sup> وألبسوهن  
الأقضية ، والمناطق ، وسموهن النلاقيات<sup>(٦)</sup> .

ويروى الشافعي عن عريب الصنينة أنها قالت : " كنت لمحمد  
الأمين وصيفة في عداد الوصائف ألبس قباءً ومنطقة وأقوم على رأسه  
وربما سقيته وسنى إذ ذاك سبع عشرة سنة<sup>(٧)</sup> .

وأنا أستبعد أن يكون الأمين العربي الهاشمي الصميم ، وابن  
هارون الرشيد يفعل ذلك ، أو يصل إلى هذا المستوى من الانحلال  
الخلقي والديني . . فقد كان أبوه - كما يقول الرواة - يحج طاماً ويخزو  
طاماً ، ويصلي في كل يوم مائة ركعة نافلة<sup>(٨)</sup> .

وأغلب الظن أن الذي حدا بالمؤرخين إلى الصاق التهم به ،  
ورميه بالموبقات هو خوفهم . . من الخليفة المأمون ، الذي تولسى  
الخلافة عقب الصراع المسلح الذي كان بينه وبين أخيه الأمين . .  
والذي انتهى بمصرع الأمين ، واستيلاء المأمون على ناصية الخلافة . .  
فلا غرابة أن يقف المؤرخون بجوار المأمون ويساندونه ويدافعون عنه ،  
ويمدحونه ، ويلصقون التهم بأخيه ، ويرمونهم بالخازي خوفاً من الحاكم ،  
وطامساً في رضا ، وما أصدق قول الشاعر في ذلك :

---

(٥) المطويات : المقصوصات الشعر . د / سرحان .

(٦) مروج الذهب للمسعودي ( ٨ : ٢٩٩ ) .

(٧) الديارات : ص ١٦٥ .

(٨) الفخرى في الآداب السلطانية ص ١٢٥ ومقدمة ابن خلدون :

( ١ : ١٣ ) .

وَالنَّاسَ مَنْ يَلْقَى خَيْرًا قَاتِلُونَ لَهُ  
مَا يَشْتَهِي وَلَا يَخْطِئُ الْهَبْلُ

وفضلا عن ذلك كان هؤلاء المؤرخون - ومعظمهم من أصل  
فارسي - يحقدون على الأمين لأن أمه زبيدة كانت هاشمية عربية  
ولم يوجد من خلفاء بني العباس من أمه وأبوه هاشيمان سواء (١) .  
كما كانوا يميلون بطبعمهم إلى المأمون الذي كانت أمه فارسية  
من السوالى . .

وعلاوة على ذلك تعلم أن عداوة الفرس للرشد وابنه الأمين أمر  
اشتهر وظهر منذ أن نكب الرشيد البرانية وقضى عليهم . . فلا غرابة  
أن يحاولوا تشويه تاريخه والحط من شأن ابنه الأمين الذي كانت  
أمه هاشمية .

وإذا كان بعض المؤرخين قد هجا الأمين ، وألقى به التهم  
لأسباب سياسية وشعبوية فإن البعض الآخر قد مدحه ووصفه بالفصاحة  
والهلاقة والكرم .

كما أن بعض الشعراء قد دافع عنه وهجا المأمون في قوله

لَمْ تَلِدْهُ أُمَّةٌ تُثَمِّ  
سَرَفٌ فِي السُّوقِ أَتَجَارَا  
لَا . وَلَا حُسْدٌ وَلَا خَسَا  
نَ وَلَا فِي الْخُزْيِ جَارَا (٢)

- 
- (١) النخري في الآداب السلطانية ص ١٩٣ .  
(٢) المرجع السابق ص ١٩٣ .  
(٣) المصدر السابق ص ١٩٣ .

يعرض بالمؤمن لأن أنه جارية ولأن الرشيد كان قد حده في جارية  
وجد معها ، أو في خمر .

وهذا هو شأن الصراعات الحزبية والحزبية بين الأَطْـرَافِ  
المتنازعة ينتصر لهذا فريق ويتمصب للآخر فريق . كالصراع بين  
الأمويين والهاشميين ، وبينهم وبين الخوارج والزبيريين ، وبين الموالي  
والعرب وهكذا .

فلا غرابة أن يتهم الأميين بالانحلال ، وأن يدنس بنسبة المخازي  
إليه .

ولا أريد - هنا - أن أنفي عن المجتمع المباسي حب الفلمسان<sup>(\*)</sup>  
والتشبيب بهم في الشعر ، فقد كان ذلك موجودا منذ عهد أبي نواس  
في صدر الدولة ، ولكني أريد أن أبري<sup>(\*)</sup> الخلفاء ، وهم أئمة المسلمين  
ما رموا به عن جهل وقلة ، أو عن عد وخبث<sup>(\*)</sup> ، وسهما يكن من  
شيء . فقد شاع بين الشعراء الفزل بالفلمان ، والتشبيب بهم ، منذ  
القرن الثاني الهجري ، . . . ولكنه في البداية كان قاصرا على طائفة  
خاصة من الشعراء المجان كأبي نواس وأضرابه . وكانوا يحاربون  
من الخلفاء ، وعلماء الدين ، وثقاة المجتمع أشد الحرب وظل  
الحال كذلك طَوَّال القرنين الثاني والثالث بعد الهجرة .

(\*) هذا اتجاه واضح الصحة كل الوضوح ، وقد علت الشعوبية  
واليهودية القديمة وتمصبوا الموالي على تجريح خلفاء المسلمين  
وقادتهم ، ونقل ذلك كثير من أعداء الاسلام قديما وحديثا ، ومنهم  
في هذا القرن الأستاذ جورجى زيدان في كتبه : تاريخ آداب اللغة  
العربية ، والتدوين الاسلامي ، وروايات تاريخ الاسلام وغيرها ، والكتب  
القديمة ملأى بهذه الأكاذيب ، وقد استغل المستشرقون هذه  
الخرافات ، وشنعوا على قادة الاسلام طويلا . د / سرحان .

أما في القرن الرابع - وبعد أن استولى الفرس على زمام الأمور في نارس والمراق - فقد أصبح الغزل بالفلمان والتشبيب بهم شأن الخاصة والماعة ..

ومن ذلك ما يروى عن عز الدولة البويهى من أنه أسر له فسى لإحدى المواقع غلام فجذب عليه جنونا ، وحدث له من الحزن ما لم يسمح بمثله حتى زعم أن فجيئته بهذا الغلام فوق فجيئته بالملكة ، وما زال يظهر الشكوى حتى خف ميزانه ، عند الناس وسقط من عيونهم (١) .

وبما ذكره أبوحيان من : أنه كان بالموصل غلام مفن قد سلا الدنيا عيارة وشطارة ، واقتضح أصحاب النسك ، والوقار ، وأصناف الناس من الصفار والكبار ، بوجهه الحسن ، وشره المبتسم ، وحديثه الساحر ، وطرفه الفاتر ، وقده المديد ، ولقطه الحلو (٢) .

وانجرف الأدباء في هذا التيار الآثم ، وأكثروا من القول فسى هذا الفرض ، وخاض الجميع في هذا المستنقع المعفن دون خوف ولا حرج ..

فقد روى الثعالبي في يتيئته أشمارا كثيرة في هذا الباب لأدباء عظاماء من نوى المراكز السياسية الخطيرة في الدولة كالوزير السهلبى (٣) والصاحب بن عباد (٤) وأبى اسحاق الصابى (٥) وغيرهم .

أما سائر شعراء اليتيمة في المراق وفارس فيندر أن نجد شاعرا منهم لم يتغزل في الفلمان ، بالإضافة إلى تغزله بالجسوارى ،

(١) الكامل في التاريخ ( ٨ : ٤٩٥ ) .

(٢) الامتاع والموانسة : ( ٢ : ١٧٤ ) .

(٣) اليتيمة ( ٢ : ٢٠٤ ) .

(٤) نفسه ( ٣ : ٢٣٧ ) .

(٥) نفسه ( ٢ : ٢٤١ ) .

بل إن بعضهم ذهب إلى أبعد من ذلك فقصر تشبيهه على الفللمان دون النساء كنصر بن أحمد الخبز أرزى ، الذى كان ميالا إلىسى الفللمان كثيرا من القول فيهم ، وكان أميا لا يكتب ، ولا يتهججسى ، وكانت حرفته خبز الأرز فى مكانه بعريد البصرة فكان يخبز وينشد أشعاره المقصورة على الخزل ، والناس يزدحمون عليه ، ويتظرفسون باستماع شعره ، ويتمجبون من حاله وأمره ، وكان أحداث البصرة يتنافسون فى إمالته إليهم ، ويذكره لهم ، ويحفظون كلامه لقرب مأخذهم وسهولته (١) .

وقد روى الثعالبي له فى الفللمان شعرا كثيرا يخرجنى أن أذكره فى هذا المقام فليرجع إليه من يريد هناك (٢) .

وهنا ينبغي أن أشير إلى أمر هام أشار إليه بعض الباحثين (٣) وهو أن النزل بالمذكر يبدو كثيرا فى الشعر العربى خاصة فى ذلك العصر مع أننا لو تدبرنا الأمر قليلا لوجدناه بريئا من معظم تلك القصائد والقطوعات التى تحمل سمات النزل بالمذكر وهى ليست فى الحقيقة منه ، ذلك أن ضمائر المذكر أيسر وأخف من ضمائر المؤنث ، وليس بعيد أن يكون هؤلاء الشعراء قد استخدموا ضمائر المذكر مع أنهم فى الواقع كانوا يوجهون شعرهم إلى معشوقات لا إلى معشوقين وهذه عادة قديمة فى الشعر العربى ، فقد كان الشعراء قديما يذكرون ليلى وسلى وسعدى ولبنى وغيرهن من الأسماء الطيبة فى موازين الشعر العربى وإن كانوا يقصدون أشخاصا

(١) البيتية ( ٢ : ٣٣٨ ) .

(٢) المصدر نفسه ( ٢ : ٣٣٩ ) .

(٣) الدكتور : محمد عبد العزيز الكفراوى فى كتابه تاريخ الشعر العربى ( ٣ : ١٣٦ ) .

غيرهن (٨) .

ولو تدبرنا أعمار الأغاني المأطية في مصر الحديث  
لوجدنا أكثرها يستخدم في الغزل ضمائر المذكر قصد التخفيف ، أو  
يقصد الرمز والتعويو والشعراء بطبيعة الحال يقصدون المؤنث ٠٠٠ لا  
المذكر ، لأن طبيعة مصر ، وذوق أبنائها يتناهى مع هذا الشذوذ .

وقد يقال : إن كثيرا من النماذج الشعرية التي تغزل فيها  
شعراء القرن الرابع بالمذكر فيها ما يمين على تحديد جنس المتغزل  
به ، كالتصريح باسمه ، أو كنيته ، أو لقبه ، فليس هناك سبيل إلى تبرئة  
القوم ما روي به ٠٠

وللإجابة على هذا التساؤل ينبغي أن أشير - إنصافا -  
للحقيقة - إلى أن الشعراء في ذلك العصر كانوا فريقين :

الأول : تأثر بالروح الفارسية فضمعت أخلاقه ، ورق دينه ، وهؤلاء  
كان غزلهم بالمذكر حقيقيا ، ومصدره الميث ، ودوافعهم  
التحلل ، وهدفه اللذة والمهيدة ومن هؤلاء : الواساني ، وابن  
لنك ، وابن حجاج ، وابن سكرة لأن سيرتهم الشخصية تؤكد  
ذلك ٠٠

والثاني : كان يطرق هذا الباب من قبيل التقليد ، والمحاكاة ،  
ويتخذ منه وسيلة للتصرف في فنون القول وترويض الأذهان  
على الإجابة ، وكان شعرهم في هذا الباب ضربا من الدعابة  
والظرف ، ولونا من ألوان الترف الفكري ، والتسلية ٠٠ أكثر  
منه مفاخرات حقيقية مصدرها الميث والمجون .

(١) وفي مثل ذلك يقول البحتري :

وسميتها من خشية الناس زينها

وكم سترت حبا عن الناس زينب

د/سرحان

وهؤلاء كانوا كثيرين ، ومما هم من الحكماء ، والقضاة ، والملما<sup>١</sup> .  
ولست أريد بهذا القول أن أبرئ القوم مما رموا به ، بل مما رسوا  
أنفسهم به ، ولكنى أستدل على ذلك من واقع حياتهم الاجتماعية ،  
وحالاتهم الثقافية والأدبية ، فقد انتشرت في هذا العصر المجالس  
الأدبية ، وتعددت الندوات العلمية - التي تشبه إلى حد كبير -  
الصالونات الأدبية في عصرنا الحديث ، وكان القوم - خاصة ذوى  
المناصب السياسية والدينية فيهم ، يتسابقون في انشاد الأشعار  
ووصف ما يحيط بهم من مظاهر الحضارة ، وتصوير كل ما يدور فى  
خواطرهم بدون تكلف ولا استكراه ، وكانوا يطرقون كل باب ، ويخوضون  
فى كل فن . فلا غرابة أن يشاركوا غيرهم فى هذا اللون ، وهو  
الغزل بالمذكر من باب الدعابة والظرف ، والترغى الفكرى والمقلب من  
غير أن يقصدوا من وراء ذلك إلى شىء .

والدليل على ذلك تنوع الأشعار التى قيلت فى المذكر فشاعر  
يمشوق نصرانيا (١) وثان يمشوق صوفيا (٢) وثالث يمشوق بدويا ، أو  
شاطرا ، أو جنديا (٣) ورابع يمشوق أعرج (٤) أو غلاما قد التحس (٥)  
أو أسود أو أبيض (٦) وهكذا .

وكل هذه النماذج الغريبة التى وردت فى اليتيمة تدل على  
أنها كانت محاولات أدبية أكثر منها منامرات عاطفية أو جنسية ،

- |     |                                |
|-----|--------------------------------|
| (١) | اليتيمة ( ١ : ٣١٨ ) .          |
| (٢) | نفسه ( ١ : ٣٨٩ ) .             |
| (٣) | نفسه ( ٢ : ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٥ ) . |
| (٤) | نفسه ( ٣ : ٦ ) .               |
| (٥) | نفسه ( ٣ : ٥ ) .               |
| (٦) | نفسه ( ٢ : ٢٤١ ) .             |

والا فسا معنى أن يعشق شاعر صوفيا مع أن لديه من المباداة  
ما يشغله عن عبث المابئين ، وتحلل الماجنين ؟ وما معنى أن  
يعشق آخر جنديا لا يتصور فيه الا الفحولة ، والخشونة ، أو يهوى  
شاطرا لا يتوقع منه إلا الفتك ؟ أو بدويا لا يتسهبه الا الشهب  
والمسرار ؟ .

أنا لا أتصور حدوث هذا من شاعر اللهم إلا إذا كان ذلك  
ضربا من التسلية وتزجية وقت الفراغ ، وتدريب الذهن على الاجادة  
والتصرف في فنون القول ..

على أن كثيرا من الشعراء الذين تغزلوا في الغلمان قد  
أعلنوا صراحة أنهم لا يقصدون من وراء كلامهم عبثا ولا مجونا ، ولا  
ينشدون لذة ولا متاعا ، وصرخوا أنهم غير جادين فيما يقولون ..

ولنتنظر إلى هذا النص الذي قاله أحد شعراء " اليتيمة"  
في إقليم المراق وهو الْقَجَّجُ البصرى الذى يزعم فيه - كما يزعم  
غيره من نقادنا المصريين أنه شمر يغوى الصبيان في مسجد البصرة  
وأن منه قوله :

ألا يا جامِعَ البَصْرِ  
رَية لا خَبرَكَ اللُّهُ  
وَسَقَى صَحْنَكَ الزُّنْ  
مِنَ الفَيْثِ فَـرَوَاهُ  
فَكَمْ مِنْ عَاشِقِي فَيْكَ  
يَسْرِى مَا يَتَنَاهَا  
وكَمْ طَبَّيٍّ مِنَ الْإِنْسِ  
تَلِيحٍ فَيْكَ مَرَعَاهُ



تَصْبَحْنَ الْفَجَّ بِالْمَلِ  
 لَهُ فِيكَ قَصْدَنَاءُ  
 بقرآن قرآناء  
 ونفسهم روثنأه  
 وَكَمْ مِنْ طَالِبٍ لِلشَّمْعِ  
 سر بالشعر طلبنأه  
 فما زَالَتْ يَدُ الْإِيَّ  
 حَتَّى لَانَ مَتْنَاهُ  
 وحتى ثَبَتَ السَّنَجُ  
 عَلَيْهِ فَرَكِبْنَاهُ

والى هنا يبدو الأمر حقيقة حيث يذكر الشاعر أنه يتخذ  
 العلم وسيلة لاصطياد الصبيان فى المسجد وأنه يظل يخدعهم ويفرر  
 بهم بما يقرؤ عليهم من قرآن ، وما يرويه لهم من تفسير ، وما ينشده  
 أمامهم من أشعار ، حتى تلين قناتهم ، ويقموا فرجة سهلة للذئاب .  
 ولكن قبل أن نصل إلى هذا الحكم لابد أن نقرأ النص  
 إلى آخره حتى نعرف الحقيقة ..

يقول الشاعر بعد ذلك :

آلَا يَا طَالِبَ الْأَمْرِ  
 كَدَّبَ مَا ذَكَرْنَاهُ  
 فَلَا يَخْرُكُ مَا قُلْنَا  
 فما بِالْجِدِّ قُلْنَا (١)

(١) اليتيمة ( ٢ : ٣٣٦ ) .

فهو يعلن صراحة أنه يمزج في كلامه ، وأنه غير جاد فيما  
يقول ، نسا هي محاولات أدبية لترويض الذهن على الإجابة  
والقلم على الكتابة و اللسان على التصرف في فنون القول ، وامتاع  
القرأ بالدعابات الطريفة ، والفكاهات اللذيذة .

\* \* \*

واذا ما تركنا ابن لنكك إلى غيره من القضاة والمعلماء وجدناهم  
يسبرون على الدرب نفسه ، . .

فهذا ابن خلاد القاضي ينهج نهجه في الأسلوب والطريقة  
وفي نهاية الشوط يرى نفسه من تهمة الريبة ، والفسوق فيقول في  
غلام من الديلم :

يَا مَنْ لَصَّبَ قَلْبِي  
بِاتٍ يَرَامِي الْفَلَكَ  
جَارَ يَوْمٍ مُسَلَّطٍ  
يَجُورُ فِيْن مَلَا  
يَهْتَزُّ مِنْ عَاشِقِهِ  
يَضْحَكُ مِنْهُ إِنْ بَكََا  
فَقُلْتُ يَا أَحْسَنَ مَنْ  
تُحْمِرُهُ عَيْنِي مِنْ لَكََا  
فَقَالَ لِي بِمَنْتِي  
إِلَيْكَ لَا أَجْرُحَكََا  
تَهَا لِقَائِي يَتَنَبَّيْ  
مِنْ السَّامِصِي دَرَكَا

وهنا يهيب القاضى للدفاع عن نفسه ويبرئها من الريبة التى  
رماه بها الغلام ، ويمتري بأنه لم يرد سوءاً ولا اثماً ، ويقسم أن  
الغلام مخطئ ، فى بقوله آثم فى تهمته ، وذلك حيث يقول :

فَقُلْتُ وَاللَّهِ الَّذِى  
صَيَّرَنِى عَمْدًا لَكَ  
مَا إِنِ ارِدْتُ بِسَاءَةٍ  
وَلَمْ أُرِدْ سُوءًا بِكَ  
وَأَنْتَ فِى قَوْلِكَ ذَا  
آثَمٍ يَمُنُّ أَشْرَكَ (١)

ألمعنى هذا كله دليل على أن هؤلاء الشعراء - خاصة  
أفاضل العلماء والقضاة منهم ، كانوا لا يمتنون ما يقولون وأنهم كانوا  
يطرقون هذا الباب من قبيل الدعابة والظرف وبجارية غيرهم ممن  
الشعراء ، إظهاراً للتفوق والنبوغ ؟ ولنتأمل كذلك قول القاضى على  
ابن عبدالمعز الجرجاني فى غلام :

مَنْ ذَا النَّزَالُ الْفَائِزُ الظُّرْفُ  
الْكَامِلُ الْبَهْجَةُ وَالظُّرْفُ  
مَا بِمَالٍ مَهَيَّبَةٍ وَأَنْحَاطٍ  
دَائِبَةٍ تَمُتُّ لِي حَتْفِي  
وَأَمَّا لِذَاكَ السَّوْدُ فِى خَدِّي  
لَوْ لَمْ يَكُنْ مُتَّبِعَ الْقُطْفِ (٢)

(١) الهيمية ( ٣ : ٣٨٨ )  
(٢) المصدر نفسه ( ٤ : ١٠ )

فهو يصح بحرية العبث بالفلمان ، والاستهتار بهم ، وهذا ما نتوقعه على الأقل من قاض فاضل كالجرجاني الذي عرف بالصلاح والتقوى ، واشتهر بالعدل والاستقامة والحمد عن مواطن الشهوات وأنه للذي يقول :

يَقُولُونَ لِي فِيكَ أَيْقَانٌ وَإِسَاءَ  
رَأَوْا رَجُلًا عَنْ مَوْفِقِ الذَّلِّ أَحْجَمًا  
وَمَا زِلْتُ مُتَحَارًّا بِمَرْضَى جَانِبَا  
مِنَ الذَّمِّ أَخَذَ الصَّبَابَةَ مَغْنَمًا  
إِذَا قِيلَ هَذَا مَشَرَّبٌ قُلْتُ قَدْ أَرَى  
وَلَكِنْ تَقَى الْحَزَّ تَحْتَسِلُ الظَّمَا (١)

ولا أريد من وراء ذلك أن أبرئ شمرا هذا المصير من تهمة العبث والمجون ، والاستهتار بالفلمان ، والتشبيب بهم ، فقد كان بعضهم يفعلون ذلك عن قصد متأثرين بالمعادات الفارسية التي تولع بالشهوة ، وتنشد اللذة ، وتدعو إلى متع الحياة .

ولكني أريد أن أؤكد ما ذهبت إليه من أن كثيرا من شمرا ذلك المصير - خاصة الحكم والقضاة والملما - كانوا يطرقون هذا الباب من قبيل التقليد والمحاكاة ومجاراة غيرهم في هذا الباب حتى لا يوصفوا بأنهم أقصر منهم ذراعا ، أو أضيى باعا في تعاطي فنون القول والإجادة في الكلام . . . كما كانوا يفعلون ذلك من باب الظرف والدعابة والبحث عن الغريب المثير .

(١) المصدر السابق ( ٤ : ٢٢ ) .

هذا إلى أن حياة الترف والرخاء في هذا المجتمع قد  
انعكست على أفكار القوم وآدابهم ، فكانوا مترفين في أفكارهم ، كما  
كانوا مترفين في مآكلهم ، وملبسهم ومسكنهم ، وكانوا ينشدون النعمة  
الفكرية .. كما كانوا ينشدون النعمة الحسية ..

ومهما يكن من شيء فقد كان لكثرة الرقيق في المجتمع أثرها  
الواضح في ظهور هذا الغزل العفيف أو الجسدي في الفلمــان  
والجوارى ، ومن هنا ترك الشعراء لنا هذه الثروة الأدبية الضخمة  
التي امتلأت بها كتب التراث .. وكان ذلك كله من أثر كثرة الرقيق  
وانتشاره في المجتمع .

\* \* \*

(( الفصل الرابع ))

-

:: مدى التشيع في أدب اليتيمة ::

\*\*\*\*\*

(( الفصل الرابع ))

:: صدق التشيع في أدب الهتمة ::

~~~~~

يذهب بعض الباحثين إلى أن الدور الأولي للتشيع قد نهتت
عندما لحق الرسول عليه السلام بالرفيق الأعلى (١) .

ذلك أن النية قد اتجهت إلى مهاجمة على كرم الله وجهه من بعض
القرشيين كالعباس بن عبد المطلب وأبي سفيان بن حرب ، وأن جماعة
من الصحابة كانت ترى أن علياً أفضل من أبي بكر وعمر ومن هؤلاء عمار
ابن ياسر وأبوذر الغفاري وسلمان الفارسي وجابر بن عبد الله ونبو
العباس وكنية وغيرهم .

وتروى أن علياً قد تروى في مهاجمة أبي بكر ستة أشهر لأنه كان
يرى نفسه أحق بالخلافة منه (٢) .

ولكن مذهب الشيعة لم ترسخ قواعده ويكثر أتباعه ويعظم نفوذه
إلا في عهد بني أمية عندما اغتصب معاوية الخلافة من علي وبنيه وصورها
ملكاً وراثياً عوضاً .

ولقد كان استشهاد الحسين بن علي في كربلاء على يد زبانية
اليزيد بن معاوية نقطة تحول بارزة في تاريخ المذهب العلوي فآزاد
عطف المسلمين على آل البيت واشتد تعلقهم بهم وأخذوا يناهضون بسنن
أمية ويعملون جاهدين على الخلاص منهم وإزالة ملكهم شأنهم في ذلك

(١) فجر الاسلام ص ٢٢٦ لأحمد أمين ط بيروت الطبعة الماشرة .

(٢) المصدر السابق ص ٢٦٢ .

شأن الخوارج والزييريين وكان طبعيا أن يكون لكل حزب من الأحزاب المتصارعة شعراؤه الذين يدعون له وينشرون مبادئه ، ويناضون أعداءه .

وكان من أبرز شعراء الشيعة في عصر بني أمية الكميث بن زيد الأسدي وأمين بن حُرَيم الأسدي وكثير عزة والفرزدق وغيرهم .

ولما دالت دولة بني أمية وحلت محلها دولة بني العباس لم يكن حظ الشيعة في الدولة الجديدة بأعظم من حظهم مع بني أمية فلقوا من الاضطهاد والذل والمطاردة والنفس على يد بني عبوتهم الشيء الكثير . .

على أن ذلك كله لم يفت في سواعدهم ولم يضيف نفوذهم ولم يخرس ألسنتهم فكان لهم شعراؤه المدافعون عنهم المتحمسون لدعوتهم وفي مقدمتهم دعلج بن علي الخزاعي صاحب القصيدة الطويلة المشهورة . .

مَدَارِسُ آيَاتٍ خَلَّتْ مِنْ تِيَلَاوَةٍ
وَمَنْزِلٌ وَحَسْبِي مَقَرَّ الْمَرْصَاتِ (١)

فلما كان القرن الرابع الهجري وهنت الدولة العباسية ، وتصدعت جدرانها ، وانقرط عقدها وانقسمت إلى دويلات صغيرة لا تربطها بهيمنة أو هي الصلات ، وأخذ حكامها يملنون ولاهم لمذهب التشيع دون خوف ولا وجل من خلفاء بني العباس الذين ضعفوا في ذلك العصر وأصبحوا لا حول لهم ولا قوة .

ومن الدول التي تولدت عن الدولة العباسية واشتهرت بالتشيع في ذلك العصر . الدولة البرهية في فارس والحواقي والدولة الحمدانية في الشام والموصل والدولة الفاطمية في مصر والمغرب وغيرهم . . والذي يعنينا

(١) الكامل في التاريخ لابن الاثير (٣١٥:٦) .

من هذه الدول جميعا الدولة البويهية : فهي التي سيطرت على فارس والمراق واستولت على بغداد واستبدت حكمها بالخلفاء ونشروا مذهب التشيع منذ اللحظة الأولى من وصولهم بغداد ..

ففي سنة ٣٣٤ هـ عقب استيلائهم على بغداد حاول معز الدولة البويهي أن يزيل الخلافة العباسية وأن يجعلها في البيت العلوي وفكر في مبايعة محمد بن يحيى الزيدي العلوي لولا أن أشار عليه أحد خواصه ألا يفعل قائلا له : " إنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة ، ولو أمرتهم بقتلك لقتلوه مستحلين دمه ، ومتى اجلست بمضى العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافتهم فلو أمرهم بقتلك لقتلوا مستحلين دمك " .

فأعرض عما كان عازما عليه وأبقى اسم الخلافة لبيت العباس وانفرد هو بالسلطان ولم يبق بيد الخليفة البتة إلا ما أقطعه معز الدولة مما يقوم بحاجته (١) .

ولم يلبث مذهب التشيع بعد ذلك أن تأثر بمعتقد الفرس المتوارثة فأصبح شعارا لبعض الفرق الدينية المتطرفة كالقرامطة والإسماعيلية والقائلين بالتناسخ ، والذين يؤمنون علما وغيرهم .. فكان هؤلاء جميعا يتسترون بالتشيع ، ويتخذون من حب آل البيت وسيلة لتحقيق مآربهم والوصول إلى أهدافهم ، وكانوا دائما يظفرون برعاية بني بويه وتأيدهم

وقد ذكر ابن الأثير " أن الوزير المهلبى قد ظفر بقوم يزعمون أن روح علي بن أبي طالب وروح فاطمة الزهراء قد حلت بهم وانتقلت إليهم

(١) ضحى الاسلام (٣ : ٣١١) ط نهضة مصر للطباعة السابعة .

فحبسهم ولكنهم التجأوا إلى أهل البيت فأمر معز الدولة باطلاقهم فلم يكن للوزير يد من أن يدعن لمشيئته خوفا من أن يتهم بالميل عن التشيع^(١) .

ويذكر ابن الأثير كذلك أن بنى بويه قد سمحوا للقرايطنة أن يمينوا لهم نائبا في بغداد يتحكم تحكم الوزراء^(٢) .

على أن أمر بنى بويه لم يقف عند هذا الحد في مناصرة الشيعة ونشر التشيع وإنما ذهبوا إلى أبعد من ذلك حينما كانوا يسبون الصحابة رضوان الله عليهم ويشعلون نار الفتنة بين الشيعة وأهل السنة ويميلون جاهدين على نشر الطغوس المذهبية المغالية ..

ففي سنة ٣٥١ كتب الشيعة -بإيعاز من معز الدولة على جدران المساجد -لن الله معاوية ولعن من نصب فاطمة " قَدَّكَ " ومن نفى أباندر ، ومن أخرج العباس من الشورى .. فلما كان الليل حكاه بعض الناس فاراد معز الدولة أعادته فأشار عليه الوزير المهلبى بأن يكتب مكان ما محس .. لعن الله الظالمين لآل رسول الله ، ولا يذكر في اللعن أحدا إلا معاوية ففعل^(٣)

وفي سنة ٣٥٢ هـ أمر معز الدولة في يوم المأثر من المحرم أن تغلق الأسواق والدكاكين ، وأن يظهر الناس الحزن والنهابة . وأن تخرج

(١) الكامل في التاريخ (٦ : ٣٩٩) .

(٢) المصدر السابق (٧ : ١٢٦)

النساء ناشرات الشمور مسودات الوجوه مشقوقات الثياب وأن يلطمسن
وجوههن على الحسين بن علي فنمل الناس ذلك وكان هذا أول يوم
نبح فيه على الحسين ببغداد (١) .

وفي الثامن عشر من ذي الحجة - من العام نفسه - أمر معمر
الدولة كذلك باظهار الزينة في بغداد ، فأشعلت النيران ، وأظهر الفرح
وفتحت الأسواق ليلاً كما يفعل في ليالي الأعياد احتفالاً بعيد الفديسر
- يعني غدِير خم - وهو الموضع الذي يروى أن النبي عليه الصلاة
والسلام قال فيه عن علي : " من كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم والي من
والاه وعاد من عاداه " وضربت الدياب وبهوقات وكان يوماً مشهوداً (٢)

ولقد كان لهذه الطقوس المذهبية أثرها العظيم في نفوس الشيعة
في فارس والعراق فأخذوا يتملقون بترائهم القديم الحافل بالأسى
والأحزان ، ويتدارسون تاريخهم الملى بالكوارث والآلام ، وجعلوا
يجسمون الصائب التي حلت بآل البيت طوآل أربعة قرون من الزمان . .
فتبها لهم من ذلك كله آفاق فسيحة في عالم الأحزان ، هامت بها نفوسهم
واطمأنت إليها أفئدتهم ، وأصبحت لهم ممينا لا ينضب من التجارب
وأسباب المماناة . . مما كان له أوضح الأثر في فنونهم وآدابهم .

وإذا كان الأدب مرآة تنعكس عليها الحالة الاجتماعية للشعب وترسم
صورة صادقة لحياة الأفراد والجماعات فإن أدب الشيعة في هذا العصر

(١) المصدر السابق (٧ : ٧) .
(٢) الكامل في التاريخ (٧ : ٧) .

كان ظلا للحالة الاجتماعية والنفسية لجماعة الشيعة ، ولهذا استطاع أن
يصور آلامهم وأحزانهم وأمكنه أن يعبر بصدق عما يدور في نفوسهم من
أفكار وما يختلج في عقولهم من اتجاهات وآمال ..

والداوس لأدب الشيعة في هذا العصر يجد فيه بوضوح آثار اللوعة
والأسى ، ويلبس في ثناياه آيات الحزن والحسرة .

فذلك أن جماهير الشيعة التي أنهكتها الأحزان وطحنها المآسى
والآلام واستبد بها اليأس والجزع كانت في حاجة ملحة إلى ترديد الأناشيد
الشجية والأغاني الحزينة لتتوخ بها على سيد الشهداء أمام قسبه في
كربلاء .

فقد استحوذ على هذه الجماهير شعور قوي بمظم الكارثة التي
حلت بآل البيت حتى عاودتها الأطياف في المنام وكان من أثر ذلك كله
أن كثر عدد الذين يرون النبي عليه السلام في المنام ومشاهدون فاطمة
" رض الله عنها " وهي تنذب ابنها سيد الشهداء .

ولعل القصة الآتية التي رواها الثعالبي في "البيته" خير شاهد على
ما وصلت إليه حالة الشيعة في هذا العصر من حبهم لآل البيت وتعلقهم بهم
ومشاهدة أطيافهم في المنام ..

حدث الثعالبي قال : قال لي الزاهد أخبرني ابن بشر أنه
كان له جد لأمه يعرف بكونان - وكان من أهل الأدب والكتابة وحسن
الشعر والخطابة قال لي " حججت سنة من السنين وجاورت بمكة حرسها
الله ، فاعتللت علة تطاولت بي وضاق ممها خلق ، ثم ، صلحت منها بعض
الصلاح ففكرت في أني عملت في أهل البيت تسما وأربعين قصيدة مدحا ،
فقلت أكلها خمسين ثم ابتدأت فقلت :
بنى أحمد يا بني أحمد *

ثم أرتج على فلم أقدر على زيادة ، فمظم ذلك على ، واجتهدت
فى أن أكمل البيت فلم أقدر فحدث لى من النعم بهذه الحالة ما زاد على
غنى بخلقى فتمت اهتماما بالحال ، فرأيت النبى صلى الله عليه وسلم
فى المنام فشكوت إليه ما أنا فيه من الإضاعة وما أجده من الملة وأخبرى
من القلة .

فقال لى : تصدق يوسع عليك ، وصم يصح جسمك .

فقلت : يا رسول الله ، وأعظم مما شكوتك إليك أننى رجل شاعر
أشبه وأخص ولدك الحسين بالمحبة ، وتداخلى له رحمة لما جرى له من
القتل ، وكنت قد عملت فى أهل بيتك تسعا وأربعين قصيدة فلما خلست
إلى نفسى بهذا الموضع حاولت أن أكملها خمسين فبدأت قصيدة
قلت فيها مصراعا وأرتج على إجازته ، ونفر عنى ما كنت أعرفه ، فما أقدر
على قول حرف فقال لى قولنا نجاة فيه إلى أنه ليس هذا إلى لقوله تعالى :
" وما علنناه القمراً وما يتهنى كة " ثم قال : اذهب إلى صاحبك وأوص
بهذه الشريفة إلى ناحية من نواحي المسجد ، وأمر رسولا أن يضى إلى
حيث أوما ، فمضى بى الرسول على ناس فيهم على بن أبى طالب فقال له
الرسول : أخوك وجه الهك بهذا الرجل فاسمع ما يقوله .

قال : فسلمت عليه وقصصت عليه قصتى كما قصصت على النبى صلى
الله عليه وسلم . فقال لى : فما المصراع ؟ قلت :

بنى أحمد يا بنى أحمد *

فقال للوقت قل :

..... * بكت لكم عبيد السجد

يَهْتَرِبُ وَاهْتَرَقَبُ النَّبِيَّ * أَبِي الْقَاسِمِ السَّيِّدِ الْأَصْبَدِ
وَأَظْلَمَتِ الْأَفْقُ أَفْقَ الْهَلَا * د وَذَرِ عَلَى الْأَرْضِ كَالْأَسَدِ
وَمَكَّةَ مَادَتْ بِبَطْحَائِهَا * لِإِعْظَامِ فَعِيلِ بْنِ الْأَعْبَدِ
وَمَالَ الْحَطِيمِ بِأَرْكَانِهِ * وَمَا يَا بُنَيَّةَ مِنْ جُلُودِ
وَكَانَ وَلَهُمْ خَاذِلًا * وَلَوْ شَاءَ كَانَ طَوِيلَ الْهَدِّ

قال : ورددها ثلاث مرات فانتبهت وقد حفظتها (١) :

وإذا صحت هذه الرواية - وأظنها صحيحة - فإنها تدل على
مدى ما وصل إليه حب الشيعة لأهل البيت وعطفهم عليهم وتفكيرهم في
مآسيتهم في الليل والنهار .

وإذا كان علماء النفس يرون أن الأحلام غالبا ما تكون انعكاسا لما
يفكر فيه الإنسان في يقظته ، وأنها صدى لرفضاته الكامنة وآلامه المكبوتة .
فهو يرى في نومه ما يهيم ويشغل باله في يقظته . . . وإذا كان الأمر
كذلك فإن تفكير الشيعة المستمر في أهل البيت وحزنهم الدائم من أجلهم
قد خلق فيهم حالة من الشفافية المحيية وجعل روحهم قريبة من روح
النبي عليه الصلاة والسلام في المنام .

ولذلك كان الهكام والتحسر والنواح والمويل سمة بارزة من سمات
الفن الشعري لجماعة الشيعة في صدر الدولة العباسية . . فلما ضعفت هذه
الدولة وتداعت أركانها في القرن الرابع وتولى الشيعة من بني بويه زمام
الأمر في بغداد أخذت الاحتفالات بذكرى الحسين تتخذ طابعها

(١) البيتية (١ : ٣٦٤) .

رسما ، وكان من مظاهر هذه الاحتفالات أن يدلى الشعراء بدلائهم
فى هذه المناسبة الباكية ، فجاء شعرهم حزينا كثيرا . . . قوامه اللوعة على
أهل البيت تارة ، وهجاء بنى أمية أو بنى العباس تارة أخرى ، والتعريض
بأهل السنة والنيل منهم مرة ثالثة . .

فهذا أبو بكر محمد الخالدي أحد شعراء الموصل بالمعراق يبكى
وينتحب ويذكر صرخ الحسين فى كربلاء ، وكيف عز عليه الحى وتخلى عنه
النصير " ، ويلعن يزيد بن معاوية وأباه بل يلعن كل من خذل الحسين
وتخلى عن مناصرته ، فيقول :

إِذَا تَفَكَّرْتُ فِي مُصَابِهِمْ * أَتَمَبَّ زَنْدَ الْهَمُومِ قَائِدُهُ
بَعْضُهُمْ قَرِيبٌ مَصْرُوعُهُ * وَبَعْضُهُمْ بَعْدَتْ مَطَارِكُهُ
أَظْلَمَ فِي كَرْبَلَاءَ يَوْمِهِمْ * ثُمَّ تَجَلَّى وَهُمْ ذِبَائِحُهُ
لَا يَبْجَحُ الْفَيْتُ كُلَّ شَارِقِيَّةٍ * تَهْجَى غَوَادِيهِ أَوْ رَوَائِحُهُ
عَلَى تَرَى خَلَّةَ ابْنِ بَنْتِ رَسُولِ اللَّهِ مَجْرُوحَهُ جَوَارِحُهُ
ذُلَّ حِمَاهُ وَقَتْلَ نَاصِرِهِ * وَنَالَ أَقْصَى مُنَاهُ كَاسِحُهُ
عَقَرْتُمْ يَا لَتَرَى جَبِينِ قَسَتَى * جَبْهَتِ يَمْدِ النَّبِيِّ مَاسِحُهُ
يُطَلِّ مَا بَيْنَكُمْ دَمَ ابْنِ رَسُولِ اللَّهِ وَابْنَ الْمَفْاحِ سَافِحَهُ
سَهَا نَ عِنْدَ الْأَنَامِ كُلِّهِمْ * خَاذِلُهُ مِنْكُمْ وَذَابِحُهُ (١)

* * *

ومن شعراء الشيعة الممدودين بالموصل الخباز الهلدي وهو أبو بكر
محمد بن أحمد المعروف بالخباز الهلدي نسبة الى قرية يقال لها بَلَدٌ من قرى

(١) الوثيقة (٢ : ١٦٩) .

الجزيرة التي فيها الموصل ، وقد كان أميالا يعرف القراءة ولا الكتابة ،
ومع ذلك كان شاعرا حسن الشعر وكان يباهى بأبيته ويتحدى بها
الشعراء كقوله :

بألفتي في شتّى وفي ذي * وما خشيت الشاعر الأملى
بجريت في نفسك شأنا فما * أخذت تجريبك للسم (١)

وقد اشتهر الخباز البلدي بالغلو في التشيع حتى كان يمزج به
مختلف فنونه الشعرية بما فيها النزل والمجون .

وقد لاحظ الثعالبي ذلك عندما قال عنه " وكان يتشيع ويمثل في
شعره بما يدل على مذهبه كقوله ..

وحمايم تتهنئتين * واللهم داجي المشرقين
شبهتهن وقد بكى * ن وما ذرفن دموع عيين
بنساء آل محمد * لما بكين على الحسين (٢)
* * *

وهذا دليل على استبداد فكرة التشيع برأسه وبلا زمتها لمقله ..

وكان تشيعه يقوم على محورين :

أولهما : إعلان ولائه المطلق لعلي وأبنائه من بعده ..
وثانيهما : كراهيته الشديدة لأعدائهم من بني أمية وبني العباس
وأهل السنة .

وكان في كل ذلك يمزج التشيع بمختلف الأغراض الشعرية — بما فيها

(١) اليتيمة (١٨٩:٢)

(٢) نفسه (١٩٠:٢)

الغزل والمجون ، فمن شعره الذى يعلن فيه موالاته لعلی وبخسه لهنى أمیه
قوله فى الغزل :

تظن بأننى أهدى حبيباً * سواك على القطيعة والهماد
جحدت إذن موالاتي علياً * وقلت بأننى مؤلى زبياد (١)

ومن شعره فى الهجوم على أهل السنة قوله فى الغزل كذلك ..

قالوا تكهل من هوى * ت فقلت رسم قد دثر
عانت من طلاييه * زمرأ مواصلت زمر
وكذاك أصحاب الحديس * ك نفاقهم عند الكبر (٢)

وكان فى مجونه وغزله بالذكر لا ينسى أن يصيغ شعره بصيغة

شعبية * فيقول :

أنا إن رمت سلوا * عنك يا قرة عيني
كنت فى الإثم كمن شأ * رك فى قتل الحسين
لك صلات على قلبى * بهى يفتد كالديسى
مثل صلات علي * يوم بدر وحنين (٣)

* * *

ويصوغ الشاعر المعنى نفسه تقريبا فى براعة فائقة فيقول :

أنا فى قبضة الخرام رهين * بين سيفين أرهفا وردى

-
- (١) الهتمة (١٩١:١) *
(٢) نفسه (١٩٢:٢) *
(٣) الهتمة (١٩٠:٢) *

فَكَانَ الْهَوَى فَتَى عُلْوَى * ظَنُّ أَنَّى وَلَيْتَ قَتَلَ الْحُسَيْنِ
وَكُنَى "يَزِيدُ" بَيْنَ يَدَيْهِ * فَهُوَ يَخْتَارُ أَوْجَعَ الْقَتْلَيْنِ (١)

* * *

ومهما يكن من شيء فقد كان الخباز البلدى من شعراء المسراق
المتشبهين بفكرة التشيع ، فجاء شعره صورة صادقة لميوله الدينية واتجاهاته
الفكرية والمذهبية .

أما أسلوبه فكان سهلا سلسا تندرفيه المحسنات الهمجية ، وتقل
فيه الصور البهائية التى فتن بها شعراء عصره .

ولعل ذلك راجع إلى أميته وعدم ثقافته وضيق أفقه وعجزه عن الدرس
والتحصيل ، فخلا شعره من الغموض والغمابة ، ولكنه على الرغم من ذلك ،
كان بارعا فى إعلان مذهبه فى التشيع فى كل غرض من أغراض شعره حتى فى
الغزل والمجون .

أما نصربن أحمد الشهير بِأَلْخَبَزِ أُرْزَى فقد كان يشبه الخباز البلدى
فى حرفته وأميته ومذهبه الشعرى ، كما كان يشبهه فى تشيعه ، وفى مزج
التشيع بمختلف الفنون الشعرية . . . وكان بينه وبين ابن لنكك البصرى
مودة صادقة ، وعلاقة متينة ، وكان ابن لنكك - على علو منزلته وارتفاع
قدره ينتاب دكانه بمرصد البصرة وكان يدور بينهما مكاتبات ، وأشعار
فى الأخويات ومساجلات أدبية رائمة فى مختلف الشؤون . . . وحدث أن

(١) نفسه (٢ : ١٩٠) .

حضر ابن لنكك عنده وعليه ثياب بيض فاخرة فتأذى بالدخان وساء أثره
على ثيابه فانصرف من عنده وكتب إليه مداعبا :

لنَصْرِفِي فَوَادِي فَرْطٍ حُسْبٍ * يُنِيفُ بِهِ عَلَى كُلِّ الصَّحَابِ
أَتَيْنَاهُ فَيَخْرُنَا بِخُورًا * مِنَ السَّحَابِ الدَّخَنِ بِالتَّهَابِ
فَقِمْتَ مَهَادِرًا وَحَسِبْتَ نَصْرًا * يَرِيدُ بِذَلِكَ طَرْدِي أَوْ زَهَابِي
فَقَالَ : مَتَى أَرَاكَ أَبَا حَسَنِ ؟

فَقُلْتُ لَهُ : إِذَا أَتَسَخَّثَ ثِيَابِي (١)

فلما قرئت عليه هذه الأبيات سَوَّبَهَا سرورًا عظيمًا وأملى على من كتب
له الأبيات التالية التي تدل على ظرفه وحسن تعليله وسرعة بديهته وقسوة
احتجاجه وبراعته الفائقة في مزج التشبيح بالأخويات :

مَنْحَتُ أَبَا الْحَسَنِ صِيمٌ وَدَى
فَدَاعِيَنِ بِالْفِطَاظِ عَذَابِ
أَتَى وَثِيَابُهُ كَالشَّيْبِ لَوْنًا
فَقَدَنْ لَهُ كَرِيمَانِ الشَّهَابِ
وَبَغِضَ لِلْمُشِيبِ أَعْدَاءَ عَدِيٍّ
سَوَادَّ لَوْنُهُ لَوْنُ الْخَضَابِ
فَإِنْ يَكُنِ التَّقْزِزُ فِيهِ فَخْرًا
فَلَمْ يَكُنْ الْوَصِيُّ أَبَا تَرْابِ (٢)

-
- (١) اليتيمة (٣٣٧:٢) •
(٢) نفسه (٣٧٤:٢) •

أما شعراء الشيعة في إقليم فارس فكانوا كثيرين وكان أعظمهم قدرا وأعلامهم منزلة وأسماهم مكانة وأشدهم عطفًا على أهل البيت ٠٠ الوزير الخطير والأديب الكبير صاحب بن عباد الذي ألف كتاب "الإمامة ففى فضائل على بن أبى طالب" واهتم بنشر التشيع فى بلاد فارس أيام وزارته ٠٠

وقد روى الثمالى أن صاحب عمل فى مدح أهل البيت قصيدة تبلغ سبعين بيتًا ممرأة من الألف التى هى أكثر الحروف دخولاً فى المنظوم والمنثور ومطلعها :

قَدْ ظَلَّ يَجْنَحُ صَدْرِي * مِنْ لَيْسَ يَعْدُوهُ فَكَيْفِي
فتعجب الناس منها وتداولتها الرواة (١) .

وكان صاحب يعلن عن موهله الشيعة واتجاهاته المذهبية فى كل مناسبة ٠٠ وكان كثيره من غلاة الشيعة — يرى أن حب على كرم الله وجهه وسيلة إلى الجنة ، وطريق إلى النعيم كما كان يصب جام غضبه على أهل السنة الذين كانوا يعادون الشيعة ويسفهن آراءهم ، ويمتقدون أن تفضيل على على سائر الصحابة ٠٠ وفيهم أبو بكر وعمر — بدعة ما أنزل الله بها من سلطان .

ومن شعره الذى يوضح فيه مذهبه قوله :

حب على بن أبى طالب * هو الذى يهذى إلى الجنة
إن كان تفضيلى له يدعة * فلمنة الله على السنة (٢)

(١) البيتية (٣ : ٣٧٤) .

(٢) البيتية (٣ : ٢٤٧) .

ولم يكن تشييمه قاصرا على حب على وأبنائه رضوان الله عليهم
وإنما كان يجب كل الملوك في عصره ، ويحطف عليهم ويساند هم ، ويعد
نفسه واحدا منهم ، ولم يكن يطيق أن يتعرض أحدهم لشدة أو تصيبة
ضائقة أو تحل به نازلة أو يلم به مرض .

كتب مرة إلى أحد الملوك في مرضه :-

يا سيدا أفديه عند شكائيه * بالنفس والولد الأعزّ وسالاب
لم لا أبيت على القواش مسهدا * وقد اشتكى عضو من أعضاء النبي (١)

وكان الملوك بدورهم يحبونه ويجلونهم وينزلونهم من نفوسهم منزلة
رفيعة ، ويبادلونهم ودا بود واحتراما باحترام .

كما كانوا يتقنون فيه ويستشيرونهم فيما يمرض عليهم من
أمور .

كتب إليه أحد هم يخبره بأنه رزق مولودا ويسأله أن يسميه ويكنيه
فوقع في رقعة بما يدل على مذهبه " أسعدك الله بالفارس الجديد ،
والطالع السعيد فقد - والله - ملأ العين قرة ، والنفس مسرة ، والاسم
على لهملى الله ذكره والكنية أبو الحسن ليحسن الله أمره ، فاني أرجو
له فضل جده وسعادة جده وقد بحث لتمويذه دينارا من مائة مثقال ،
قصدت به مقصد الفأل - رجاء أن يميش مائة عام ، ويخلص خلاص
الذهب الإبريز من نوب الأيام والسلام (٢) .

(١) اليتيمة (٢٤٨ : ٣) .

(٢) اليتيمة ح ٣ ص ١٧٥ .

ولا أدل على حبه للملوك في مده * وتعلقه بهم منذ
مده من أنه زج ابنته الوحيدة لأحدهم - وهو أبو الحسين على بن
الحسين الحسنى الملو - فرزق منها مولودا أسما عبادا ، وكناه أبا
الحسن ، وقد فرح صاحب سبطه هذا ، فرحا عظيما وأنشأ يقول
عند بشارته :

أحمد الله لبُشْرَى * أقبلت عند المَشْرِى
إن حبانى الله سبطا * هو سبط للنسبى
مرحبا تَمَنَّة أهلا * يُفْلِم هَامِسى
نبوى علوى * حسنى صاحبى

ثم قال :

الحد لله حمدا دائما أبدا * إن صار سبط رسول الله لى ولدا ^(١)

وأخذ الشعراء يتوافدون على داره يشاركونه الفرحه بهذا المولود
الملوى صاحبى ، وأنشدوا فى حضرته القصائد الطوال فى هذه المناسبة
السعيدة .

فقال أبو محمد الخازن قصيدة على وزن بيت صاحب ورويه مطلعها :

بُشْرَى فقد آنَجَزَ الإقبال ما وَعَدَا

وكوكب المجد فى أفق الْعَلَا صَعَدَا ^(٢)

وقال جعد الصمد بن بابك :

أناك المَزَّيْسَحْبُ بُرْدَتِهِ * على ميثاء حالمة التراب

(١) نفسه (٢١٥:٣) .

(٢) اليهيمة (٢١٥:٣) .

بهدير من بنى الزهراء سار * تَعَرَّى عَنْهُ جَلِيَابُ السحاب
تفرغ في النوبة ثم ألقى * بضميه إلى خير الصحاب
تلاقى لابن عباد فروع النسيبة والوزراء في نصاب (١)

أما أبو الحسن الجوهري فقد غالى في كلامه عن هذا المولى
وادعى أنه المهدي المنتظر الذي سيملا الأرض عدلا كما ملكت جورا فقال :

هَلُمَّ إِلَى الْخَيْرِ الْمَأْتُورِ مَسْتَبَدِّهِ
فِي الطَّالِقَانِ فَتَشَرَّتْ عَيْنُ نَائِلِهِ
فذلك الكنز عباد وقد وضحت
عنه الإمامة في أولى مخايلها (٢)

مشيرا بذلك إلى ما روتهم الشيعة بفارس من أن بالطالقان كنزا من
ولد فاطمة يملأ الأرض عدلا كما ملكت جورا ولما كان صاحب من قرية
" الطالقان " من قرى أصهبان ورزق سبطا فاطميا هو عباد تأول الشعراء
له هذا الخبر (٣) .

ومهما يكن من شيء فقد كان صاحب من كبار أدبار الشيعة في القرن
الرابع هـ وكان شديد الإخلاص للملوكيين شديد المطفة عليهم هـ وكثيرا
ما كان يدفعه الأسى - على ما حل بأهل البيت من مصائب - إلى هجاء
معاوية وكل من يناصره من الناصبة ومن ذلك قوله :

-
- (١) نفسه (٢١٧: ٣) .
(٢) البتة (٢١٦: ٣) .
(٣) نفسه (٢٤٧: ٣) .

نَاصِبٌ قَالَ لِي : معاوية خُـا

لَكَ خـِـمِرُ الْأَعْيَامِ وَالْأَخْـوَالِ

فَهُوَ خَالٌ لِلْمُؤْمِنِينَ جَمِيعًا

قُلْتُ خَالٌ لَكِنْ مِنْ الْخَيْرِ خَالِي (١)

وكما كان يكره معاوية ويهجوّه كان لابنه يزيد أشدّ كرهاً ، وأهظم بغضاً ،
فكان يلعنّه في كل مناسبة . . .

روى الثعالبي : أن صاحب كان إذا شرب ماءً بشلج أنشد على

أشده :

تَمَقَّقَةُ الثَّلَاجِ بِمَاءٍ عَذْبٍ * تَسْتَخْرِجُ الْحَمْدَ مِنْ أَقْصَى الْقَلْبِ

ثم يقول : اللهم جدد اللعن على يزيد (٢)

مشيراً بذلك إلى أن سيد الشهداء قد مات ظمآنًا . . .

ولعل تشييع صاحب يفسر لنا علاقته الوطيدة بالشريف الرضي أكبر
زعماء العلويين في القرن الرابع ، فقد كانت بينهما مودة وتماطف وصادقة
متينة ، كان من ثمارها أن مدحه الشريف - على علوقه - وجلال منصبه ،
وشرف نسبه بقصيدتين ، ورثاه بواحدة ، كما رثاه غيره من العلويين . . .
كأبي المباسم العلوي الهذاني الذي جزغ لموت صاحب لأنه كان أكبر
نصير لهم في القرن الرابع وقال فيه :

مَاتَ الْمَوَالِي وَالْمَحَب * لِأَهْلِ بَيْتِ أَبِي تَرَابِ

قَدْ كَانَ كَالْجِبِلِ الْمُنِي * سَحَ لِهِمْ فَصَارَ مَعَ التَّرَابِ (٣)

(١) المصدر السابق (٢٤٧ : ٣) .

(٢) المصدر السابق (١٧٧ : ٣) .

(٣) نفسه (٢٦٠ : ٣) .

ومن أدياء الشيعة في فارس كذلك أبو بكر الخوارزمي فقد كان متعصبا
للملوكيين - كالمصاحب - صريحا في موالاته لهم ، وتعلقه بهم ، فسلط
قلبه على خصومهم من الناصبة وأهل السنة ، وأصلاهم نارا حامية .

فمن شعره في هجاء فقيه منهم قوله :

مُجَبَّرٌ صَيَّرَ أَبْنَهُ نَاصِبِيًّا * مُجَبَّرًا يَلَهُ وَتِلْكَ عَجِيبَةٌ
ليس يرضى أن يدخل النار قسرا

ساعة الحشر إذ يقود حبيبه (١)

* * *

وكان لفلوه في تشييعه بمعتقد أن الملوك ينبغي أن يكون ملطورا
من طينة نقية طاهرة غير التي خلق منها الناس جميعا ، كما ينبغي أن يكون
مثلا أعلى في سلوكه وتصرفاته ، وقدوة صالحة لغيره ، وكان يهبطه أن
يكون الملوك كسائر الناس يخطئ ويصيب ، ويسوء ويحسن ، ولذلك هجا
علوها كان دنيئ النفس سيئ السلوك لأن تصرفاته تعد دعاية سيئة
لهذه الشيعة فقال فيه :

شريف فعله فعل وضع * دنيئ النفس محبوب الجدد

عوار في شريعتنا وفتح * علينا للنصارى واليهود

كان الله لم يخلقهُ إلا * لَتَنْعِطِفَ الْقُلُوبُ عَلَى يَزِيدَ (٢)

وكان الخوارزمي يقيم في نيسابور الكبرى مدن خراسان ، وكانت
يومئذ خاضعة للدولة السامانية وعلى الرغم من إقامته في ظل بني سامان

(١) الهيتمة (٢١٦:٤) .

(٢) الهيتمة (٢١٦:٤) .

وتتبعه بخيرات بلادهم كان يتحامل عليهم كثيرا ، ويهجوهم وهو في غمر دارهم ، ويطلق لسانه بما لا يقدر عليه كما يقول الثمالي (١) .

على حين كان يميل إلى بنى بويه ويتمصب لهم ويدحهم في كسر مناسبة مع أنه كان بعيدا عنهم لا يعيش في بلادهم . . . وهذا يدفعنا إلى التساؤل عن أسباب هذا التصرف الغريب من جانب الخوارزمي . . .

ولا شك عندي أن ذلك راجع إلى تشييمه وإخلاصه لمقدراته . . . فقد كان تشييمه يدفعه إلى حب بنى بويه وهم بعيدون عنه . . . لأنهم كانوا شيعة زيدية ، على حين كان تشييمه سببا مباشرا في بغضه لبني سامان وتحامله عليهم ، مع أنه كان يعيش في بلادهم . . . لأنهم كانوا سنين ، معتدلين ، . . . فكان طبيعيا أن يجد من بنى بويه علفا ومودة لا يجدها من بنى سامان . . .

كما أن غلوه في التشييم يفسر لنا تلك الخصومة الأدبية الشهيرة التي حدثت بينه وبين بدیع الزمان الهمداني الذي كان يناهض الشيعة ، ويجاهر بعداوتهم ، وينكر عليهم غلوهم في مذهبهم ، وتطرفهم في عقيدتهم ، فكان يدهيا أن يحدث خصام بين الأدبيين الكبيرين تكون نتيجته تلك المناظرة الشهيرة التي دفع فيها الخوارزمي الثمن غاليا وكانت حياته هي الثمن .

فلقد وجد الهمداني خصمه الكبير يوسع الصحابة وأهل السنة شتا وسخريا وتقريحا ، وغازله أن يتمصب الخوارزمي لبني بويه ، ويغالى في مدحهم مع أنه كان يعيش في خراسان بعيدا عنهم ، وأن يطلق لسانه

(١) اليتيمة (١٩٥:٤) .

فى بنى سامان مع أنه يعيش فى كفهم ، ويأكل من خيراتهم .

هذا علاوة على تكبره وغروره وترفعه عن مصادقة الديق . . . فرأوته
الفكرة أن ينتقم من هذا الخصم المنيد . . . وقد كان — فاستطاع — بأسلوبه
الساخر ولطفه اللاذع ، وبما وهبه الله — من حدة ذكاء ، وسرعة بديهة
وقوة بيان ، وقدرة على الارتجال — أن يجعل من الخوارزمى أضحوكة
بين الناس ، وأن ينتصر عليه انتصارا أودى بحياته ، وكانت تلك الخصومة
الأدبية الشهيرة ثمرة غير مباشرة من ثمار الصراع المذهبى بين الشيعة
وأهل السنة .

ولقد كان الخوارزمى فى رسائله أشد اعلانا لتشيعه منه فى شعره ،
ولكن الثعالبى — للأسف الشديد — لم يختر من رسائله إلا ما كان خالها
من التشيع ، ولمعله كان يفعل ذلك عن قصد حتى لا يورط نفسه فى الصراعات
المذهبية التى اشتد أوارها بين الشيعة وأهل السنة فى ذلك العصر . .
خاصة أن الثعالبى قضى شطرا من حياته فى ظلال الدولة السامانية
— وهى سنية — وخطر آخر فى ظلال الدولة الفزنوية — وهى سنية كذلك —
فكان طبيعى أن يتجنب التورط فى مثل هذه المشاكل حتى لا يقع تحت طائلة
المقاب من حكامه السنيين .

وقضلا عن ذلك كان الثعالبى معروفا بكثرة المجاملة للحكام والثناء
عليهم فى كتبه ومؤلفاته ، وكان مشهورا بالاعتدال فى الرأى والمقيدة ،
والمزوف عن التطرف والمفالة .

ولعل هذا يفسر لنا تجاهله لكثير من أدب الشيعة فى عصره ولسم
يذكر لنا منه فى البيهية إلا القليل من النصوص التى لا تشبع نهم الباحثين .

ولا تكاد تملأ صورة صادقة عن المد الشيعي في ذلك العصر ، فقد كان كثير من عمالقة الفكر والأدب في إقليم فارس والمراق من غُلَاة الشيعة كالصاحب والخوارزمي والشريف الرضي الذي كان من أبرج أدباء الشيعة تصويراً لآلامهم ورسماً لآسئهم ، وديوانه الكبير حافل بالقصائد الطوال في التشيع وهي تمتاز بصدق العاطفة ، وحرارتها ، وتدل على الأسى والمعاناة .

ولأمر ما قال الثعالبي عنه : " ولست أدري في شعراء العصر أحسن تصرفاً في المراثي منه (١) " .

وعلى الرغم من ذلك تجاهل الثعالبي في مختاراته لشعر الشريف كل ما يدل على تشيعه للأسباب التي أشرت إليها آنفاً .

وإزاء هذا التقصير الواضح من جانب الثعالبي في حق الأدب الشيعي عملت جاهدة على أن أرسم صورة صحيحة للتيارات الأدبية لجماعة الشيعة من خلال ما جمعته من نصوص كانت متفرقة في اليتيمة وربما ذكرها الثعالبي غفواً .

ولعلني أكون قد وفقت من خلال عرض ودراستي لهذه النصوص في أن أرسم صورة صادقة للمد الشيعي في إقليم العراق وفارس في ذلك العصر ، وأن أعطى فكرة صحيحة عن الجانب الموضوعي لذلك الأدب .

أما عن الجانب اللفظي لأدب الشيعة فقد امتاز ذلك اللون بسهولة الألفاظ ووضوح المبارات وغذوبة الأسلوب والحمد عن الغرابة والغموض ، والوعورة .

(١) اليتيمة (٣ : ١٢٨) .

كما خلا ذلك اللون أوكاد من المحسنات الہدیعی والصفاغة
البیانیة والزخرفة اللفظیة والخیال المجنح والمبالغات المفقونة •

ولعل ذلك راجع إلى صدق الاحساس وحرارة الماطقة ، والصنعة
غالبا تذوب أمام الماطقة القویة كما أن أسلوب الجدل والمناظرة السدی
امتاز به أدب الشهمة جملة أشبه ما يكون بالخطابة والمناظرة ، وأبعد
ما يكون عن الصنعة اللفظیة والزخرفة الہدیعی فبدأ هذا الأدب وقسورا
حزینا شأنه فی ذلك شأن الرثاء فی معظم الأحيان •

:: الفصل الخامس ::
~~~~~

” تأثير أهل الذمة في أدب اليتيمة ”  
-----

كان أهل الذمة في القرن الرابع يتمتعون بكثير من ضروب التسامح الديني في ظل الإسلام ، كما كانوا يمارسون شعائرهم الدينية في حرية كاملة ، واشتركوا جميعاً في نواحي الحياة العملية والأدبية ، ونظّموا أنفسهم بحيث كان معظم الماليين في الشام يهوداً على حين كان معظم أطباء القصور في بغداد نصارى ، واشتهر اليهود في ذلك العصر بلحترافهم حرفاً خاصة كالصيرفة ودباغة الجلود والصباغة (١) .

وانتشر أهل الذمة في مدن العراق وفارس وخاصة بغداد وتكريت والرها (٢) ، وكان في فارس بلدتان تسمى كل منهما اليهودية أحدهما بجرجان والأخرى بأصهبان كما كان في بغداد درب يسمى درب اليهود وأصبح أثرهم عيقاً في الحياة الاجتماعية (٣) .

وكان للنصارى على وجه الخصوص أعياد كثيرة ومتعددة على مدار السنة ، وكان الاحتفال بها - غالباً - يتم في الأديرة التي كانت منتشرة في ربوع العراق وفارس ، وسائر بلاد المسلمين .

ومن أشهر أعيادهم في القرن الرابع عيد الميلاد ، وعيد الشعانين وعيد الفصح ، وكانت طبقات المجتمع تشترك في الاحتفال بهذه الأعياد على اختلاف ألوانها ، وجنسياتها ، وأديانها ، كما كان حكام بني بويه يشاركونهم في مظاهر هذه الاحتفالات (٤) .

وكان لهذه الأعياد أثر كبير في أدب اليتيمة تجلى على وجه

(١) ضحى الإسلام ( ١ : ٣٢٥ ) .

(٢) أحسن التقاسيم للمقدسي ص ٢٢١ .

(٣) ضحى الإسلام ( : ٣٢٥ ) .

(٤) أنظر الفصل الخاص بالطوائف الدينية في الباب الأول من هذا البحث .

(٥) اليتيمة : ( ٢ : ٣٩ ) .

الخصوص في وصف مظاهر الاحتفالات بالأعياد ، وما يقترن بها غالباً من عادات كرش الماء على المارة " يوم الفصح " ، ووصف مجالس الشراب والأنس ، وتهنئة النصارى بأعيادهم ، وشاركتهم فيها (١) ، كما كان بعض الشعراء يتبادلون التهنئة بأعياد النصارى على غرار ما كانوا يفعلون في أعياد الفرس .

وللصاحب بن عباد مقطوعة شعرية رقيقة بحث بها الى صديقه أبي بكر الخوارزمي يهنئه بيوم الفصح ، ويحثه فيها على اللهو والقصف كما كان يفعل النصارى . . . . فيقول :

أَسْعَدَكَ اللَّهُ بِيَوْمِ الْفَصْحِ  
وَعَشْتَ مَا عَشْتَ بِيَوْمِ سَبَحِ  
يَا رَأْمَ مَالِي فِي الْوَرَى وَرِيحِي  
وَطْفَرِي وَنُصْرَتِي وَنَجْجِسِي  
شُرْبًا وَلَا تُصَيِّحْ لِأَهْلِ النَّصْحِ  
فَالْحَزَمَ أَنْ تَشْرَبَ قَبْلَ نُصْحِي  
سكر النصارى في غداة الفصح (٢)

أما عادة رش الماء يوم الفصح فقد أعجب بها الشعراء وتأثروا بها وكانوا يشاركون النصارى فيها ويكثرون من وصفها في أشعارهم . مثل قول السلافي - أحد شعراء العراق المشهورين - يصف مظاهر الاحتفال بتلك المناسبة ويمدح ضد الدولة البويهى الذى كان يسدلى بدلوه في هذا الصبب :

(١) اليتيمة ( ٣ : ٦١ ) .  
(٢) المصدر السابق ( ٣ : ٣٣٩ ) .



لولا اشتياؤُ الماءِ كَفَّكَ لم يكن  
قلبُ الندى وحشا السحابِ تنزل  
ولقد نثرت على الهوا أمثاله  
ذا سجع صافٍ وهذا سلسل  
وكانما ذهبي زرا فأتنا  
تربي بأسهم فضة تتسلسل  
من فوق كل ذؤابتين سحابة  
أهين كل اثنين منها جدول  
فأرقت حتى ماء وجهي إانه  
من غير ماء السورد لا يتبدل  
فاترك لنا ماء الشباب ولا ترق  
ماء الصوام فهو فيها أجمل (١)

وهكذا كان لاختلاط أهل الذمة بالمسلمين أثر عميق في الحياة الاجتماعية والأدبية ، فكترت المقطوعات والقصائد الشعرية التي تصور عاداتهم وتقاليدهم وتسجل أعيادهم وبواسمهم ، وتوضح العلاقات الودية التي كانت تربطهم بالمسلمين ومن جهة أخرى كان للديارات المنتشرة في العراق وفارس وسائر أقاليم دولة الإسلام أثر واضح في الأدب العربي فقد اتجهت أنظار جمهرة من الأدباء والشعراء والمؤرخين منذ صدر التأليف في الإسلام . . إلى الديارات ، فوصفوا طيب موقعها ورقعة هوائها وعدوبة مائها ، وتغنوا بمحاسنها وبما وجدوه فيها من مجالي الأنس والطرب ، ومواطن النزهة واللهو . .

(١) المصدر السابق ( ٢ : ٣٩٠ ) .

وقد أتاحت هذه الديارات لجماعات من الأدباء والشعراء أن يلجوا باباً من الوصف ما كان لهم أن يلجوه لولاها ..

يشهد بذلك كتب الديارات العديدة التي ألفت في هذا الفن في عصر الثمالي مثل كتاب "الديارات" لأبي الفرج الأصبهاني المتوفى سنة ٣٥٦ هـ وصاحب الأغاني المعروف وكتابه في الديارات مشهور ، وقد ذكره غير واحد من المصنفين كالثمالي (١) وابن خلكان (٢) والصفدي (٣) وحاجي خليفة (٤) .

ومثل كتاب "الديرة" للسري الرفاء المتوفى سنة ٣٦٢ هـ وكتاب "الديارات" للخالديين أبي بكر محمد وأبي عثمان سعيد شاعري سيف الدولة وخازني دار كتبه ..

وقد ضاعت كل هذه الكتب فيما ضاع من تراث الأقدمين ..  
ومثل كتاب "الديارات" للمشابهي المتوفى سنة ٣٨٨ هـ وكتابه هذا سلم من غوائل الدهر وقد حققه كوركيس عواد وطبعه ببغداد ، وهو من أجل الكتب التي ألفت في هذا الفن ..

وهذا القدر الضخم الذي ألف في الديارات يدل على أنصر النصارى في الحياة الأدبية كما يدل على التمايش السلي الذي كان سائدا بينهم وبين المسلمين ..

- 
- (١) البتيسة ج ٣ ص ٦٦ .  
(٢) الوفيات ج ١ ص ٤٧٥ .  
(٣) الواقى بالوفيات ج ١ ص ١١٨ .  
(٤) كشف الظنون ج ١ ص ٧٦٢ .

وكانت تلك الأديار غالبا ما تقام في مواقع خلوية جميلة تحيط بها الرِّيا والجبـال وتَحفُّها الرياض والأشجار وكان ذلك يفرى هناك الجمال الطبعي من الشمراء وغيرهم بزيارتها للتمتع بمناظرها الخلابة ورياضها النضيرة وخبورها الممتقة ، والتغزل بفلمانها وجواربها وإشباع مطالب الجسد الحسية .. كما كانوا يمارسون فيها بعض الأنشطة الاجتماعية والثقافية كسماع الغناء والطرب ، وقراءة الشعر والأدب ، وإشباع النفوس بالمتعة الروحية ، والمحاورات الأدبية والمناقشات العلمية ..

ومن أشهر أديار العراق في تلك المدة : ( دير قتي بالقرب من بغداد وقد وصفه الشافعي بقوله .. هو دير حسن يزوره عابرون .. فيه مائة قلابة لرهبانة ، وحول كل قلابة بستان ، وعليه سور عظيم يحيط به ، وفي وسطه نهر جار <sup>(١)</sup> .

وقد أكثر الشمراء من وصف هذا الدير وأنصوا في الحديث عنه وتصوير ما كان يدور فيه من مجالس الأنس ، وحفلات الغناء ومظاهر الميث والمجون ..

ولأبي بكر الخالدي في هذا الدير قصيدة عذبة يصف فيها ليلة من ليالي الأنس قضاها فيه فيقول :

فَلَا تُكْرَنَ لِديْرِ قُتَيِّ لَيْلَةً  
أَشْرَقَتْ ظِلْمَتُهَا بِهَدْرٍ مَشْرِقٍ  
يَتَنَا نُوْفَى اللَّهِوْ فِيهَا حَقُّهُ  
بِالرَّاحِ وَالْوَتْرِ الْقَصِيحِ الْمُنْطَقِ

والجو يسحب من طيل هوائه  
ثوباً يرش بطله المسترقى  
حتى رأينا الليل قوس ظهره  
هزماً وأثر فيه شهب الفرقى  
وكان ضوء الفجر في باقى الدجى  
سيف جلاء من اللجج المحرقى (١)

ويبدو أن الشاعر الخالدي كان من عشاق الجمال الفطرى فكان  
يتردد بكثرة على الأديرة يبحث عن الثمة الحسية • • المتمثلة نفسى  
مجالس الشراب والغناء • والمعبث بجوارى الدير وراهباته • كما ينشدد  
الثمة الروحية المتمثلة فى إنشاد الأشعار ومدارسة الأدب • ومناقشة  
القضايا العلمية والفلسفية •

ومن قوله يصف وقتاً سعيداً قضاءه بدير ممران • • ويدعو للدير  
بالسقى والبقاء • •

محاسن الدير تمهيجى وسباحى  
وخمره فى الدجى صبحى وصباحى  
أقمت فيه إلى أن صار ههنا  
بهتى وفتاحه للحسن مفتاحى  
منادماً فى قلايته رهابنة  
راحت خلايقهم أصفى من السراج  
قد عدلوا ثقل أديان وعرفية  
فيهم بخفة أديان وأراج

ورشحوا فَرَّرَ الآدابَ فلسفةً  
 وحكمةً بعلوم ذات إِبْطالٍ  
 في طبٍ بُقْرَاطَ لحنِ المَوْصِلِ وفي  
 نحو البربرِ أَسْمارِ الطرماحِ  
 ومنشدٍ حين يديه المزاج لنا  
 " أَلْعُ برقي سرى أم ضوءٌ نصباح " <sup>(١)</sup>  
 وكم حَنَنْتُ إِلَى حَانَاتِهِ وغدا  
 شوقي يكثر أصواتاً بأقداحِ  
 حتى تخسر خسارى بمصرفتي  
 وصبرت مُلْحَى في السكر مُلَاحِي  
 يا دبير مَرَّانَ لا تعلم ضحي ودجى  
 سِجَالِ غَيْثِ ملك الودى سَحَا  
 إِنْ تُفَنِّ كَأْسَكَ أَكْيَاسِي فَأَنْزِلْ بِهَا  
 يَفْلُ جَيْشِ هَمُوسِي جَيْشِ أَفْرَاحِي <sup>(٢)</sup>

وكان أخوه أبو عثمان الخالدي يمشق الديارات ويتردد عليها  
 مثله ولا غرابة في ذلك فقد وصفهما الثعالبي " بأنهما كانا يحييان بسرج  
 واحدة وأن ما يجسمهما من أخوة الأدب مثل ما ينظمهما من أخوة  
 النسب ، وأنهما كانا يشتركان في قرض الشعر وينفردان ، ولا يكادان  
 في السفر والحضر يقفان <sup>(١)</sup> .

وعلى الرغم من هذه الموافقة في الأخلاق والصفات والطباع  
 والثقافة كان أبو عثمان هذا أبرع من أخيه أبي محمد في شعر

(١) المصدر السابق ( ٢ : ١٢٠ ) .

(٢) نفسه ( ٢ : ١٦٥ ) .

الديارات وله في وصفها قصائد شعرية رائعة تتناثر بجمال الإستمارة وحسن التشبيه ودقة التصوير ، كما تتناثر بسلاسة اللفظ وعذوبة الجرس ، والحمد عن التكلف والغموض .

وله في دير سميد الواقع جنوبي الموصل (١) قصيدة عذبة . . . .  
رطبة يصف فيها جمال الطبيعة ، ويتحدث عن الخمر ومجالس الشراب ويصور جانبها من منامراته الماطفية ، ويتنمى لو أقام في هذا الدير اقلامة الأبد فيقول :

يَا حُسْنَ دَيْرِ سَمِيدٍ إِذْ حَلَلْتُ بِهِ  
وَالْأَرْضُ وَالرَّيْضُ فِي وَشِيٍّ وَدِيَّاجٍ  
فَمَا تَرَى غُصْنًا إِلَّا وَزَهْرَتِيهِ  
تَجْلُوهُ فِي جَبِيٍّ مِنْهَا وَدَرَّاجٍ  
وَاللِّحَامِ الْهَانَ تَذَكَّرْنَا  
أَخْبَانَنَا بَيْنَ إِرْمَالٍ وَإِهْرَاجٍ  
وَلِلنَّسَمِ عَلَى السُّدْرَانِ رَفْرَفَةٌ  
يُزَوِّرُهَا فَتَلْقَاءُ بِأَسْوَجٍ  
وَالْخَمْرُ تُجَلِّي عَلَى خُطَايِيهَا فَتَرَى  
عَرَائِصَ الْكَرَمِ قَدْ زَهَبَتْ لِأَزْوَاجٍ  
وَكَلْنَا مِنْ أَكَالِهِلِ الْمَهَارِ عَلَى  
رءُوسِنَا كَأَنَّا كُنَّا فِي السَّجِ  
وَنَحْنُ فِي فَلَكِ اللَّهِوِ الْمَحِيطِ بِنَا  
كَأَنَّا فِي سَمَاءٍ ذَاتِ أَبْرَاجٍ

ولست أنسى مقامى وسط هيكله  
حتى الصباح غزالاً طرفه ساجس  
أهز عطفى قضيب البان ممتنقا  
منه وألثم عيشى لعبة العاج  
وقولسى والتفانى عند منصرفى  
والشوق يزج قلبى أى إزعاج  
يا دير ياليت دارى فى فنائكه أو  
ياليت أنك لى فى درب دراجسى (١)

وكان دَيْرُ البوصل الأعلى بالمراق من أجمل الديارات فى القرن الرابع  
وقد وصفه الشافعى بقوله : " هذا الدير بالموصل فى أعلاه يطل على  
دجلة وهو دير كبير يضرب به المثل فى رقة الهواء وحسن المستشرف  
فيقال إنه ليس للنصارى دير مثله فيه قلايات كثيرة وله درجة منقورة فى  
الجبيل يفضى إلى دجلة وعليها يستقى الماء من دجلة ٥٥ وتحت الدير  
عين كبيرة تصب إلى دجلة ولها وقت من السنة يقصدها الناصريستحمون  
فيها (٢) .

وقد أكثر الشعراء من التردد على هذا الدير ووصف مظاهر  
الجمال فيه ، وتصوير منامراتهم الماطفية .

ولأى هسان الخالدي أيضاً شعر عاطفى قاله فى أحد غلاني هذا  
الدير ، أو فى إحدى جواربه من النصارى :

(١) المصدر السابق ( ٢ : ١٨٦ ) .  
(٢) الديارات ص ١٧٦ .

فَرَّ يَدِيرِ الموصِلِ الأعلَى  
أنا جُدَّه وهواءُ لى مَوَلَى  
لَيْمَ الصَّليْبِ فقلْتُ من حَسَدِ  
قَبْلِ الحَبِيبِ نَسَى بِهَا أَوَّلَى  
جُدَّ لى بِأَحْدَاهُنَّ كى يَحْيَا بِهَا  
قَلْبى فَهَتَّاهُ عَلَى النِّقَاسِ  
فاحسَّرَ من خَجَلٍ وَكَمْ قَطَفْتُ  
مِنى شَقَائِقى وَجَنَّةَ خَجَلَى  
وَنَكَلْتُ صَبْرى عِنْدَ فِرْقَتِهِ  
فَمَرَضْتُ كَيْفَ تُحَرِّقُ الشَّكْلَى (١)

وللسرى الرفاء: شاعر الموصل الكبير شعر فى الديارات يمتاز  
بالسهولة والمذوبة وحسن استعمال الطرق البيانية كما يمتاز بالسوزن  
اللطيف والنفمة الموسيقية الجميلة والألفاظ اللينة الناعمة والحسوف  
المتألفة التى لا تخرج السمع والتى تسيل سيلانا على اللسان .

يقول فى بعض ديارات الموصل :

شاقنى مَسْتَشَرُّ الدِيرِ وَقَدْ  
راح صَوْبَ المَزْنِ فِيهِ وَسَكَرُ  
أَهْوَاءِ رَقَى نَسَى أَرْجَائِهِ  
أَمْ هَوَى راقى ضَا فِيهِ كَدَرُ  
أَمْ خَدُودُ سَفَرَتْ عَنْ وَرْدِهَا  
أَمْ رَبِيعٌ عَنْ جَنَى الوَرْدِ سَفَرُ



مجلس ينصرف القرب وما  
طويت من بسطة تلك الحبر  
وكان الشمس فيه تشرت  
ورقا ما بين أوراق الشجر  
بين غدير تقع الطير بها  
فتراهن رياضاً في غدير  
ونسيم وكثره الروح فبان  
طار في الصبح ارتدنا عطر  
وترى يشهد بالطيب له  
عق خالف أطراف الأثر  
وهي نمرت أعلامها  
فلها ظل طينا منتشر (١)

وقال يصف ليلة من لياليه الماجنة بأحد الأديرة ، ويصف الشروع :

ودير شفت بفسلانيه  
فكدت أقبل طابانها  
فلما دجس الليل فرجته  
برج تحيى جثمانها  
بشمع أغير قدود الرياح  
وسن دراها وألوانها  
غصون من التبر قد أزهرت  
لهيبا يزين أفتانها

فِي أَحْسَنِ أَرْوَاحِهَا فِي الدُّجَى  
وَقَدْ أَكَلَتْ فِيهِ أَسَدَانِهَا  
سَكِرَتْ بِقَطْرِ بِلِّ لَيْسَلَةٍ  
لَهَوَتْ فَفَازَتْ غِزْلَانِهَا  
وَأَيُّ لَيْالِي الْهَوَى أَحْسَنُ  
إِلَى فَأَنْكَرْتُ إِحْسَانِهَا (١)

ومهما يكن من شيء فقد كان لاختلاط النصارى بالمسلمين أثر واضح في الحياة الاجتماعية وانعكس هذا الاختلاط على أدب اليتيمة فكثرت فيها المقطوعات الشعرية التي تصف أديار النصارى أو السقى تصور عاداتهم وتقاليدهم وأعيادهم ومواسمهم ، أو التي تمكس العلاقات الاجتماعية التي كانت قائمة بين الطرفين وكان ذلك الشعر - خاصة ما قيل منه في الأديرة - يمتاز بعذوبة الألفاظ ورقة المهارات وجمال الجرم ، وحسن الموسيقى ، ودقة الوصف وبراعة التصوير والإكثار من الصور البيانية من غير تكلف ، ولا غموض .

ذلك أن جمال الطبيعة في هذه الديارات قد ظهر صدها في الأدب ، فأكسبه رونقا وبهاء ، وكساه حسنا ورواة .

ومن هنا يعد هذا الشعر أصدق صورة للحالة الاجتماعية لأهل الذمة في ذلك العصر - خاصة النصارى - كما يعبر بصديق عن العلاقات الاجتماعية السوية ، التي كانت قائمة بينهم ، وبين المسلمين في القرن الرابع .

(١) اليتيمة ( ٢ : ١٥٥ ) .

أما أثر اليهود في الحياة الاجتماعية والأدبية فقد كان محدوداً للغاية إذا قيس بأثر النصارى ، بل إن أثرهم في أدب البشيمية كان محدوداً تقريباً ، ويندر أن نجد شاعراً عربياً في ذلك العصر وصف يميمهم ، ومسابدهم ، أو صور عاداتهم وتقاليدهم ، أو تحدث عن أعيادهم ، ومواسمهم ، أو ذكر شيئاً من علاقاتهم الاجتماعية بالمسلمين .

وأغلب الظن أن ذلك راجع إلى طبيعة اليهود في كل العصور فتراهم يحبون العزلة ، ويميلون إلى الإبتلاء على أنفسهم ، كما أنهم يخافون الناس ولا يثقون في أحد من غير بني جنسهم ولهذا يحذرون الاختلاط والاندماج ويتعاملون على غيرهم ويحيطون أنفسهم دائماً بسياج من العزلة والسرية والتكتم ، ويقفون في حِوَار ضيقة قدرة مظلمة يمارسون فيها شعائهم الدينية بعيداً عن الناس ، ومن ثم كان أثرهم في الحياة الاجتماعية محدوداً وفي الحياة الأدبية نادراً ، وذلك عكس ما كان عليه النصارى .

:: الباب الرابع ::

" التفاوت الطبقي في المجتمع وأثره في اليتيمة "

الفصل الأول :

موقف الحكم من الأدب \*

الفصل الثاني :

ترف الحكم وأثاره في اليتيمة \*

الفصل الثالث :

مجالس الفناء والطرب وصداها في أدب اليتيمة \*

الفصل الرابع :

المجون وأثره في اليتيمة \*

الفصل الخامس :

مظاهر الفقر والحرمان في أدب اليتيمة \*

\* \* \*

ٖٖ الفصل الأول ٖٖ

موقف الحكام من الأئمة

كانت بغداد في صدر الدولة المباسية تحتل مكانة سامية ،  
وتشغل أول منزلة رفيعة بين المدن الإسلامية الكبرى ، كما كانت مركزاً  
للحياتين العلمية والأدبية ، وملتقى لمختلف التيارات الفكرية والروحية ،

وقد اختلطت فيها الأجناس البشرية ، وامتزجت الثقافات العالمية  
والتقت شتى الحضارات الإنسانية ، فهدت قبةً لأنظار الأدباء ، ومقصداً  
لطلاب الشهرة والظهور ، وثابة لرائع المجد والعظمة ولم يناقسهما  
في هذا المجال مدينة أو حضرة إسلامية أخرى . . فكان لزاماً على أولئك  
الشعراء الذين يبتغون الشهرة ، ويتطلعون إلى الفنى والثراء ، ويطمعون  
في الأخذ والمطام ، أن يشدوا إليها الرجال ، ويقطعوا دونها الأدغال  
حيث قصور الخلفاء ، والوزراء ، وساكنت الكبراء ، والمعلماء ، وحيث مجالس  
المعلم ، وحلقات الدرس وتدوات الأدب ، يمدحون الحكم تارة ، ويخشون  
مجالس المعلم تارة أخرى حتى إذا سنحت لهم القرص ، وتبهاأت لهم  
الظروف مدحوا الخلفاء ، وكبار رجال الدولة ، وتقربوا إليهم ، واختصوا  
بهم ، وعاشوا في أكنافهم ، ونالوا عطاياهم ، وجوائزهم .

على أنه لم يكن من السهل على كل أديب أن يظفر بالحظوة  
لدى المدحجين لأن الطريق إلى الخلفاء كان وعراً وشاقاً ، وكان من  
الصعب على الشعراء الوصول إليهم ، إلا أولئك الذين أوتوا حظاً من  
الموهبة ، والنبوغ أو رزقوا قدراً من الحيلة والدهاء ، أو ساعدتهم  
الوساطات على أن ينالوا هذا الشرف العظيم ، ومن ثم كان تشجيع  
الحكام للأدب والأدباء - آنذاك - محصوراً في نطاق ضيق . .

أما في عصر النعماني - وهو القرن الرابع الهجري - فقد  
تعددت الحواضر الإسلامية واثمت الدولة المباسية إلى دويلات  
كثيرة شبه مستقلة ، ولم يعد لبغداد مركز الصدارة بين الحواضر



وأبو الحسن السالتي هجر بغداد إلى الموصل ثم ورد أصبهان  
ثم آثر حضرة عضد الدولة بشيراز (١).

بديع الزمان الهمداني كان جوابة آفاق... فلم يترك من  
خراسان وسجستان وغزنة بلدة إلا دخلها وجبى من ثروتها ، وجنى من  
ثمرتها ، واستفاد من خيرها وسيرتها ، ولم يترك أميراً ولا ملكاً ولا وزيراً  
ولا رئيساً إلا استمطر منه بنو ، وسرى منه في ضوء (٢).

والثعالبى نفسه كان أخا تنقلات وأسفار ، وحليف إقبال وإدبار  
وله رحلات متعددة إلى جرجان والجرجانية وغزنة ، ويدل على ذلك  
قوله في مقدمة كتابه " اليواقيت في بعض المواقيت " : فانتحت بنيسابور  
وتطرفته بجرجان وتنصفته بالجرجانية واستتمتته بغزنة .

وقد شاع في ذلك العصر حرص الملوك والأدباء على إهداء  
كتبهم ونشرات قولهم إلى ملوك ورؤساء عصرهم ،... فعمل ذلك الثعالبى  
الذى أهدى كتابه إلى الصاحب بن عباد في أصبهان ، وإلى الأمير  
قابوس بن وشمكير في طبرستان ، وإلى الأمير أبى الفضل الميكالى فى  
نيسابور ، وإلى مأمون بن مأمون أمير خوارزم ، وإلى السلطان نصر أخى  
السلطان محمود (٣) ، وفعل مثله البيرونى الذى أهدى كتابه " التفهيم  
في صناعة التنجيم " إلى أمير خوارزم ، وأهدى كتابه " الآثار الباقية "  
الى الأمير قابوس ... وأهدى كتابه " الهند " إلى السلطان محمود ،  
وأهدى كتابه " القانون السعوى فى الفلك " إلى السلطان مسعود ابن  
السلطان محمود الفزنوى (٤).

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٣٧٠ .

(٢) نفسه ج ٢ ص ٢٤٢ .

(٣) تاريخ الأدب فى إيران من الفردوس إلى السعدى للمستشرق براون

ص ١١٦ ط السعادة ببصر .

(٤) بديع الزمان الهمداني للشكعة ص ٢٩ .



وأما أبو الفج الأصفهاني فقد أهدى أجل كتبه " وهو الأغاني " إلى سيف الدولة بحلب وإلى عبدالرحمن الناصر بقرطبة (١) .

وهكذا حظى الأدباء في القرن الرابع بمنايا الحكام الذين اهتموا بالأدب واحتفلوا بأهله احتفالا يدعو إلى الدهشة ويشير العجب ويبحث على التساؤل !! .

فما الذي حدا بهؤلاء الحكام إلى رعاية المعلوم والآداب إلى هذا الحد ؟ ، وما الذي حملهم على تكريم العلماء وتقريب الأدباء والتسابق في إجابة مطالبهم والحرص عليهم ؟ .

أتراهم كانوا يفعلون ذلك حبا في العلم ورغبة في الأدب ؟ أم كان الدافع إلى ذلك هو حرصهم على تزيين مجالسهم بهؤلاء الأدباء كما كانوا يزينونها بوسائل الترف وأدوات الزينة ؟ . أم كان طلب التسلية وتزجية وقت الفراغ هو الحامل على هذا كله ؟ . أم كان ذلك التسابق مجرد تنافس يحدث مثله كثيرا بين الخصوم والأقران ؟ . كل افتراض من هذه الافتراضات قد يكون هو الفاية . فقد ذكر غير واحد من القدامسى والمحدثين أن من هؤلاء الحكام من كان عالما أدبيا يهوى العلم ، ويمشق الأدب ، كابن المميد . .

ومنهم من كان أدبيا يحنو على الأدباء بدافع من الحب والاعجاب كالصاحب ، والمهلبى . .

ومنهم من كان فيلسوفا يميل إلى الفلسفة ، ويقرب أهلها كابن سمدان . .

---

(١) ظهر الإسلام ج ١ ص ٢٤٠ .

ومنهم من كان أديبا يحب الكتب فيجمعها ، ويعنى بها كسابور  
ابن أردشير .

ومع إيماني بكل الدوافع السابقة أعتقد أن السبب الحقيقي وراء  
ذلك التكالب على الأدباء يرجع في الدرجة الأولى إلى المنفعة المتبادلة  
بين الطرفين . فكلما كان الأدباء محتاجين إلى أموال الحكام وجوائزهم  
كان أولئك الحكام محتاجين بالقدر نفسه - إلى قصائد الشعراء ورسائل  
الكتاب التي تملئ من شأنهم وترفع من قدرهم .

ويخيل إليّ أنه لولا المتنبي لما عرف لسيف الدولة هذه المكانة  
المرموقة التي نبأها بين حكام عصره ، ولما كان له هذه السيرة البطولية  
التي أحالتته إلى شخصية أسطورية لا نظير لها في عالم الحقيقة ، مع أنه  
كان حاكما لامارة صغيرة هي حلب وما جاورها من القرى والنجع .

ولم تكن حاجة الحكام إلى الكتاب بأقل من حاجتهم  
إلى الشعراء .

ذلك أن معظم هؤلاء الحكام كانوا في صراع دائم مع جيرانهم  
في الخارج ومع منافسيهم في الداخل وكانوا مهددين في كل لحظة  
بالإغارة عليهم من الخارج أو التمرد عليهم من الداخل . وكانت رسائل  
الكتاب - في ذلك العصر - أشد عونا للحكام من سيوف الفرسان .

وقد سبقني إلى هذا الرأي الثعالبي نفسه عندما تَوَهَّ قديما بالكتاب  
وأشار إلى خطرهم في قوله: "إن الكتاب وهم ألسنة الملوك إنما  
يتراسلون في جباية خراج أو سد ثغر ، أو عارة بلاد أو إصلاح فساد ،  
أو تحريض على جهاد ، أو احتجاج على فقة أو دعا ، إلى ألفه أو نهى

عن فرقة ، أو تهينة بمطية ، أو تمزية برزية ، أو ما شاكلها من جلائل  
الخطوب ومماظم الشؤون<sup>(١)</sup> .

وقد أجمع أهل البصيرة في الترسل على أن رسالة ابن العميد التي  
كتبها إلى ابن بلكا - عند استمضائه على ركن الدولة البويهى - قصدت  
نابت عن الكاتب في عرك أدبيه ، واستصلاح شأنه ، ورده إلى طاعة  
صاحبه<sup>(٢)</sup> .

على أن الكتاب أنفسهم لم يكونوا يجهلون حقيقة أدوارهم في خدمة  
الملوك ، بل كانوا يعرفون جيدا خطورة مراكزهم ، حتى لقد زعم أبو  
إسحاق الصابى في إحدى قصائده أنه لسان السلطان وكاتبه الموفق الذى  
يؤازره فيما عراه من خطوب ، ويده برأيه الواضح الذى يريه ضوء الشمس  
وسط ظلام الليل ، ويدعى أنه يمين السلطان التى يطش بها وعينه  
التي ينظر بها ، ولسانه الذى يتحدث به ، وأنه فقير إلى كلاءه السدى  
يرد به رأس الجميع فينتنى ويجمله سوط الحرون فيمنق حيث يقول :

وقد علم السلطان أنى لسانه  
وكاتبه الكافي السديد الموفق  
أؤازره فيما عراه وأمدده  
برأى يريه الشمس والليل أفصح  
يجدد بى تهج الهوى وهو دارس  
ويفتح بى باب النهى وهو مخلق  
فيمنأى يمنأى ولفظى لفظه  
وعينى له عين بها الدهر يرمى

(١) نشر النظم وحل العقد للثمالين ص ٣ ط مصر ١٣١٧ هـ .

(٢) اليتيمة ص ٣ ص ١٧٤ .

ولِيَقَرَّ تَضَحَّى الْمُلُوكَ فَقِيرَةً  
 إِلَيْهَا لَدَى أَحْدَانِهَا حِينَ تَطْرُقُ  
 أَرْدُ بِهَا رَأْسَ الْجَسَجِ فَيَنْشَنِي  
 وَأَجْمَلُهَا سَوَاطِ الْحُرُونِ فَيَمْنُقُ  
 فَانْ حَاوَلْتُ لَطْفًا نَسَاءً مَرَقَ  
 وَانْ حَاوَلْتُ عَفَا فَنَارَ تَأَلَّقَ (١)

وبلغ من عظم مكانة الكتاب في ذلك العصر أن صار الاعتقاد راسخا  
 بأن حملة الأقلام أجدي وأنفع من حملة السيوف ، وأنهم يبلغون بأقلامهم  
 مالا يبلغه الفرسان بخيولهم .

يقول أحد شعراء البيتية وهو الخيري معبرا عن ذلك :

وَأَعْلَمُ بِأَنَّ الْمَلِمَ أَرْفَعُ رَتَبَةً  
 وَأَجَلُ مَكْتَسِبٍ وَأَسْنَى مُفْخِرٍ  
 هُضْمَرِ الْأَقْلَامِ يَلْغُ أَهْلُهَا  
 مَا لَيْسَ يَلْغُ بِالْجِيَادِ الْضَمَرُ (٢)

وإذا كان الأمر كذلك . . فلا غرابة أن يسند الحكام المناصب  
 الإدارية الكبرى كالوزارة وما يشبهها إلى الكتاب والشعراء ولو لم يكن  
 الحكام محتاجين إلى قصائدهم السائرة ، ورسائلهم المحيرة ، لما رأيناهم  
 يتسابقون إليهم إلى هذا الحد ، ولكان لهم في غيرهم من رجال الإدارة  
 والمهنيين بشؤون الحكم خير عوض ، وليس من قبيل المصادفة أن يظهر  
 أمثال : ابن المميد والصاحب والمهلبى وابن سعدان ، وسابور بن أردشير

(١) البيتية ج ٢ ص ٢٤٧ .

(٢) نفسه ج ٢ ص ٨٩ .

— من وزراء فارس والمراق — فى ذلك العصر ، وما منهم إلا كاتب بليغ وشاعر منلق ، لأنهم كانوا خير سند لبني بويه فى الحرب والسلم على حد سواء . . .

وعلى الرغم من أن بني بويه — حكلم فارس والمراق فى ذلك العصر — كانوا فرسا لا يعرفون اللغة العربية أول عهدهم ، نجد أنهم سرعان ما اندمجوا فى المجتمع العربى فى بغداد ، وتأثروا بالثقافة العربية وأثروا فيها — منذ الجيل الثانى منهم — فقبوا العلماء ، وفتحوا أبوابهم للكتاب والضمراء ، وغروهم بالمعاليق والهباء . . ولم يكد الجيل الثانى من بني بويه يأتى حتى ظهر منهم الضمراء والأدباء والكتاب الذين رأى الثعالبى أن يفرد لهم فى اليتيمة بابا كاملا ، تحدث فيه عن أدبائهم واختار من أشعارهم قدرا كبيرا . .

ومن أبرز شعرائهم ، عز الدولة ، وأبو المباسخ خسرو بن ركن الدولة وتاج الدولة بن عضد الدولة الذى كان آدب بني بويه وأشعرهم كما يقول الثعالبى (١) .

وكان أبوه عضد الدولة شاعرا نابغا فى عدة شؤون . . وكان على ما مكن له فى الأرض وجمل راليه من أزمة البسط والقبض وخص به من رفعة الشأن وأوتى من سعة السلطان . . يتفرغ للأدب ويتشغل بالكتب ويؤسّر مجالسة الأدباء على مناداة الأمراء ويقول شعرا كثيرا (٢) .

وكانت حضرته مقصدا للضمراء وقبلة للأدباء الذين يحجون إليها من أطراف البلاد الإسلامية كالمثنى والسلى والخوارزم وغيرهم فينضمونهم

(١) اليتيمة ج ٢ ص ١٩٨ .

(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ١٩٥ .

بالمال ويجزل لهم المطا\* ، وكان مجلسه لا يخلو من المناقشات العلمية والمحاورات الأدبية ، وكان يستحث الشعراء على الإجابة في القول ويشجعهم على الارتحال للشعر ، وكان لا يحضر أمامه شئ من الطعام أو الشراب إلا أنشد فيه لنفسه أو لغيره شعرا حسنا ، فبينما كان جالسا ذات يوم مع بعض الأدباء على المائدة إذ قدمت بهظة<sup>(١)</sup> فنظر عند الدولة الى أبي بكر الخوارزمي وطلب منه وصفها فارتج عليه وغلبه سكوت صعبه خجل فارتجل عند الدولة وقال :

بَهْظَةٌ تَعْجِزُ عَنْ وَصْفِهَا  
يَا مُدَيِّ الْأَوْصَافِ بِالزُّورِ  
كَانَتْهَا فِي الْجَمَامِ مَجْلِسِيَّةٌ  
لَالِي\* فِي مَاءِ كَائِسِي<sup>(٢)</sup>

وكان لذلك كله أثره العميد في رقي الأدب وازدهاره في بلاطه واتقاد جذوة النهضة لمختلف الملموم والفنون في المراق وفارس على يد حكلم بنى بويه .

أما وزراءهم فقد كان التنافس بينهم على أشده في تقريب الملماء وتكريم الأدباء ، وكان كل منهم يمثل مدرسة ، بل جامعة تحوى ألوانا مختلفة من الثقافات والمعارف وضروبا متنوعة من الملموم والآداب .

ومن أجل هؤلاء الوزراء مكانة ، وأعلام قدر ، وأسماهم منزلة وأغزهم علما وأدبا في فارس ابن العميد الذى كان كما وصفه الشعالي " عمن المشرق ، ولسان الجبل ، وعاد ملك بنى بويه وصدر وزراءهم وأوحد المصر في الكتابة وجميع أدوات الرياسة وآلات الوزارة والضرب في الآداب

(١) البَهْظَةُ : الأُرْزُ يطبخ باللبن والسمن .

(٢) اليتيمة ( ٢ : ١٩٦ ) .

بالسهم الفائزة ، والأخذ من المعلوم بالأطراف القوية . . . يدعى الجاحظ  
الأخير والأستاذ والرئيس ، يضرب به المثل في البلاغة وينتهي إليه فس  
الإشارة بالنصائح والبراعة مع حسن الترسل وجزالة الألفاظ وسلاستها  
إلى براعة المعاني ونفاستها وما أحسن وأصدق ما قال له صاحب وقد  
سأله عن بغداد - عند منصرفه عنها - : " بغداد في البلاد كالأستاذ  
في المباد " ، وكان يقال : بدئت الكتابة بمحمد الحميد وختمت بابن  
المعبد (١) .

وكان في قصره يمثل المدرس النشط الذي يعنى بتهديب طلابه  
وتعريفهم على قرض الشعر وكان ينتهز المناسبات ويطلب منهم أن ينظموا  
فيها شعرا ، فإذا حياء بعض الزائرين ياترجع - مثلا - قال لهم  
تعالوا نتجاذب أطراف وصفها (٢) .

وإذا سئل بعض الحاضرين في مجلسه عن قصيدة له فقال ولم يقصد  
وزنا : أى جهد لقيته . . . وشقاء شقيته .

قال لهم ابن المعبد قولوا على هذا الوزن (٣) .

وهكذا كان ابن المعبد يقارض الشعراء وينظر الفقهاء ويكتسب  
الأصدقاء كما كان صاحب طريقة فريدة في الكتابة عرفت باسمه وتأثر بها  
الكتاب في زمانه وبعد زمانه ، فضلا عن ذلك كانت له مكتبة كبرى  
تحتوى آلاف الكتب والمجلدات بالرى وكان يمهّد بتدبيرها وتنظيمها إلى  
أبي علي أحمد بن محمد بن مسكويه الشاعر المؤرخ الفيلسوف صاحب كتاب  
" تجارب الأمم " .

(١) اليتيمة ج ٣ ص ١٣٧ .

(٢) نفسه ج ٣ ص ١٥٧ .

(٣) نفسه ج ٣ ص ١٥٨ .

ولعل المتنبي لم يكن مبالغا في وصفه له بقوله :

مَنْ يُبْلِغُ الْأَعْرَابَ أَنِّي بِمَدْيَا  
جَالِسْتُ رَسْطَالِيَّ وَالْأَسْتَدْرَا  
وَسَحَتِ بَطْلِيمُوسُ دَارِسَ كَتَبِهِ  
مَتَمَلَّكَ مُتَبَدِّيًا مَتَحَضَّرَا  
وَلَقِيتُ كُلَّ الْقَاضِلِينَ كَأَنَّمَا  
رَدَّ إِلَهُ نَفُوسَهُمْ وَالْأَهْوَاسَا (١)

أما صاحب بن عباد وزير مؤيد الدولة وفخر الدولة فقد كان  
كما وصفه الثعالبي أيضا : " صدر المشرق وتاريخ المجد وغرة الزمان  
وينبوع المدد والاحسان ، وكانت حضرته محط رجال الأدباء والشعراء ،  
وبوسم فضلائهم وسترع آمالهم ، وكانت أمواله مصرفة اليهم وصنائمه مقصورة  
عليهم ، كما كانت همته في مجد يشيده ، وإتباعه يحدده ، وفاضله  
يصطنعه ، وكلام حسن يصنعه أو يسمعه " .

" ولما كان نادرة عطار في البلاغة وواسط في الدهر فسي  
السماحة جلب إليه من الآفاق وأقصى البلاد كل خطاب جزل وتذال فصل  
وصارت حضرته مشردا لروائع الكلام وبذائع الأنعام وشار الخواطر ومجلسه  
مجما لصوب العقول ، ونوب الملموم ، ودرر القرائح ، فبلغ من البلاغة  
ما يمد في السحر ويكاد يدخل في حد الإعجاز ، وسار كلامه مسير  
الشمس واحتف به من نجوم الأرض وأفراد المصر وأبناء الفضل وفرسان  
الضمير من يربى عددهم على شعراء الرشيد ولا يقصرون عنهم في  
الأخذ برقاب القوائمي وملك رقاب السمانى " .

(١) البيتية ج ٣ ص ١٣٩ .



ثم أخذ الثماليين بعد ذلك يعدد شعراء صاحب وندمائه فقال : \* وجسدت حضرة صاحب بأصفهان والزهري وجرجان أمثال أبي الحسن السلافي وأبي بكر الخوارزمي وأبي طالب المأموني وأبى الحسن البديهي وأبي سعيد الرستمي وأبي القاسم الزغراني وأبى المياض الضبي وأبي الحسن علي بن عبدالمزيز الجرجاني وأبي القاسم ابن أبي الملا\* وأبي محمد الخازن وأبي هاشم الملو وأبي الحسن الجوهري وابن المنجم وابن بابك وابن القاشاني وأبي الفضل الهمداني وإسماعيل الشاسي وأبي الملا\* الأسدي وأبي الحسن الفويري وأبى دلف الخزرجي وأبي حفص الشهر زوري وأبي ميمر الإسماعيلي وأبى الفياض الطبري وغيرهم ممن لم يبلغني ذكره أو ذهب عن اسمه " (١) .

إنهم عدد ضخم من الأدباء والشعراء الذين أحاطوا بهـذا الوزير العظيم والتفوا حوله وساروا في فلكه وقبسوا من ضوءه واغترفوا من بحره وعاشوا في كنفه فغمرهم بمطفه ورعايته .

وقد كان كأستاذ ابن العميد يشجع الشعراء على القول ويدرسهم على الإرتجال ويحثهم على الإجاداة ويقترح عليهم الموضوعات ويطلب منهم أن ينظموا فيها الشعر ولكن في نطاق أوسع وبصورة أعم وأشمل ، . . . يعني داراً بأصفهان فطلب منهم وصفها فتسابقوا في ذلك ، ووقع في يده فيل وهو بجرجان فأمرهم أن يقولوا فيه شعراً ، ونفق برذون أبي عيسى بن المنجم بأصفهان فطلب منهم أن يرووه ويعزوا صاحبـه على سبيل المداعمة ، فاستجابوا لرغبته مسرعين وكان من أثر ذلك ظهور مجموعات شعرية ضخمة أوردها الثماليين كلها في اليتيمة وعرفت بالداريات والفيليات والبرذونيات (٢) .

(١) اليتيمة ج ٣ ص ١٦٩ .

(٢) انظر اليتيمة ج ثمن ص ١٧٣ الى ص ٢١٥ .

كما أورد له الثمالي طائفة ضخمة من رسائله الأخوية فـ  
التهنئة والمدح والملاطفة وطائفة أخرى من سلحه ونوادره وتوقيعاته  
واختار له قدرا كبيرا من عيون شعره في مختلف الأغراض والفنون .

وليس أدل على حب الصاحب للملم وتكريمه للأدب من أنه كان  
يستخف بالوزارة وتقاليدها ويتزيا بزي أهل الملم ويخرج على الناس  
متطلسا متحسنا (١) .

وسما يكن من شئ فقد كان تأثير الصاحب في الحياة العلمية  
والأدبية عظيما بالفا ، وقد تجلى ذلك بوضوح في كتاب اليتيمة حيث  
أورد له الثمالي ولشعرائه طائفة ضخمة من الأخبار والأشعار تهو على  
خسعين ومائة صفحة من الحجم المتوسط .

أما وزراء بني بويه بالمراق فلم يكونوا أقل حماسا من إخوانهم  
بفارس في تقريب الملما وتكريم الأدباء ولم يألوا جهدا في تشجيع  
الحركة الفكرية في بلادهم فاجتذبوا إلى قصورهم قادة الفكر والبيان  
وأمراء الكتابة والشعر .

ومن أبرز وزراءهم في إقليم المراق : الوزير المهلبى . . وابن  
سعدان وساجور بن أردشير . أما المهلبى فقد كان — كما يقول الثمالي —  
" يترسل ترسلا مليحا ويقول الشعر قولا لطيفا يضرب بحسنه المثل  
ولا يستحل معه العمل يغذى الرج ويغلب الرج " (٢) .

وكان يحقد مجالسه الأدبية في قصوره الجميلة ومساتينه الأنفوسة  
فيؤمها كثير من قادة الفكر وأمراء البيان أمثال الصاحب والقاضى التنوخى

(١) الأدب في ظل بني بويه ص ١٣٠ .

(٢) اليتيمة ج ٢ ص ١٠٢ .

وابن فريجة وابن معروف وغيرهم .. حيث كانوا يأخذون في فنون مختلفة من المناشدات والمجاوليات والمذكرات والمدائح (١) .

وكان صاحب يتردد على هذه المجالس السهلية عندما كان يسرور المراق ويمجيب بها .. فأكثر من وصفها في كتابه "الروزنلمجة" فقال في أحد فصوله مخاطبا أستاذه ابن الصيد : "وردت - أدام الله عز مولانا - المراق فكان أول ما اتفق لي استدعاء مولاي الأستاذ - أبي محمد - يعني السهلي - لي ، وجمعه بين ندمائه - من أهل الفضل - وبينى ، وكان الذى كلمنى منهم شيخ ظريف خفيف الروح أديب متقمر في كلامه لطيف يعرف بالقاض ابن فريجة ، فانه جازانى في مسائل خفتها تمنع من ذكرها واقتضاها (٢) .

وكان السهلي يحب الأدب ويكثر من الحديث حوله في كل مناسبة ولو كان على مائدة الطعام فقد حكى ياقوت " أن السهلي كان يكثر الحديث على طعامه وكان طيب الحديث ، وأكثره مذاكرة بالأدب وضروب الحديث على المائدة لكثرة من يجمعهم عليها من العلماء والكتّاب والندماء (٣) .

وقد بلغ من حبه للأدب وعطفه على أهله أنه كان يحتفل من أبي الفرج الأصهباني مالا يحتله بشر ، فهو على ما كان من نظافته وأناقته في مأكله كان يتكلف الصبر على مؤاكلة أبي الفرج فلا يظهر في وجهه انكارا ولا استكراها (٤) .

(١) الأدب في ظل بنى بويه ص ١٣٢ .

(٢) البتيمية ج ٢ ص ٢٠٥ .

(٣) مجمع الأنبياء ج ٩ ص ١٤٣ .

(٤) نفسه ج ١٣ ص ١٠٢ .

وقد اهتم به الثمالي كثيرا في "التيمة" وأفرد له بابا كاملا  
تحدث فيه عن نسبه ومكانته وتقلب الدهر به وكرم أخلاقه وحميد صفاته ،  
كما تحدث عن مجالسه الأدبية والحنائية وجمع طائفة ضخمة من أشعاره  
في مختلف الأغراض والفنون وهذا يدل على مكانة المهلبى وطو كعبه  
في الأدب وأثره في نهضة العلوم والآداب والفنون بإقليم العراق  
في زمانه .

وبالإضافة إلى مجالس المهلبى الأدبية والعلمية كان هناك بالعراق  
مجلس آخر ذو شأن كبير في تاريخ المجالس الأدبية وهو مجلس أبى  
جدالله الحسين بن سعدان المتوفى سنة ٣٧٥ هـ وزير مصمم الدولة  
البويهى الذى كان يعيل إلى الفلسفة ويحب أهلها ويقرب المشتغلين  
بها ويشملهم بمحطه ورعايته . . وكان أبو حيان التوحيدى الأديب الكبير  
والفيلسوف العظيم يجالسه ويناديه ويقضى معه الأسيات الطويلة ويناقشه  
في مسائل فلسفية وأدبية بالغة الأهمية . . كحياة الانسان وطبيعته  
الروح ومميزات ذوى الشأن من المصيرى ومواهب العرب الهارزة مع  
موازنتها بمواهب غيرهم من الأجناس الأخرى وموازنة كتبه الحسابات  
بكتاب الرسائل وإظهار أيها أكثر فائدة للحاكم وأنفع لحكمه . . إلى  
كشف امتياز علوم اللغة على علوم المنطق . . وغير ذلك مما هو  
مذكور في كتابه الشهير "الإمتاع والمؤانسة" .

وكان مجلسه حافلا بأفاضل العلماء والأدباء والفلاسفة في عصره  
كأبى حيان التوحيدى وأبى على عيسى بن زرقه النهرانى المتفلسف وابن  
عبد الكاتب وابن الحجاج الشاعر وأبى الوفاء المهندي وابن بكر وابن  
مسكويه وأبى القاسم الاهوازي وأبى سعد بهرام بن أردشير وابن شاهويه

سوى الطائفتين من أهل الدولة (١) .

وكان ابن سعدان كثيرا ما يباهى بمجلسه هذا ويفخر به على مجالس الوزراء المزمعين له في فارس والعراق أمثال ابن الميمـسـد والصاحب والمهلبى وكان يقول : " ما لهذه الجماعة بالمراق شكل ولا نظير وإنهم لأجيان أهل الفضل وسادة ذوى العقل " .

وكان يوازن بينهم وبين ندماء الوزراء الآخرين فيقول : " أنتظن أن جميع ندماء المهلبى يقفون بواحد من هؤلاء ؟ " أو تقدر أن جميع أصحاب ابن العميد يشبهون أقل من فيهم ؟ وهل عند ابن عباد إلا أصحاب الجدل الذين يشغبون ويحقنون ويتصاحون ؟ (٢) .

وأما سابور بن أردشير وزير بهاء الدولة البويهى فقد كان أدبيا كبيرا جمع حوله طائفة كبيرة من الشعراء أمثال السامى والحمدونى وأبى الفرج البيهقى وابن لؤلؤ وابن بابك والنمى والحامى والخالع وغيرهم وقد أترد الثعاللى فى اليتيمة بابا كاملا لشعراء سابور من أهل المراق وغيرهم من الذين كانوا يعدحونه ويشهدون به فى أشعارهم (٣) .

ومن مآثر ذلك الوزير العظيم تلك المكتبة الضخمة التى أسسها سنة ٣٨٣ هـ فى هذه السنته جامع سابور دارا بالكخ بين الصوريين فى بغداد وعمرها وسماها دار العلم ووقفها ونقل إليها كتب كثيرة (٤) .

- 
- (١) الصداقة والصديق لأبى حيان ص ٣٠ .  
(٢) دراسات فى الحضارات الاسلامية د . أحمد شلبى ص ٩٠ .  
(٣) اليتيمة ج ٣ من ص ١٠٩ الى ص ١١٦ .  
(٤) شذرات الذهب لابن العماد ج ٣ ص ١٠٤ .

ويذكر ياقوت (١) أن عدد الكتب التي بها كان أربعمائة وخمسة  
آلاف مجلد من أصناف المعلوم ٠٠ منها مائة مصحف بخطوط بني مقله ٠

وكانت تلك المكتبة مركزا ثقافيا ممتازا يلتقى فيه العلماء والباحثون  
والدارسون للقراء والبحث وطالما عقدت فيها المناظرات الأدبية  
والمناقشات العلمية ولقد زارها أبو العلاء المصري عندما كان في  
بغداد وقال فيها :

وَفَتَّ لَنَا فِي دَارِ سَابُورَ قَيْنَةً  
مِنَ الْوَرَقِ مَطْرَابُ الْأَصَائِلِ مِهَالٍ (٢)

وهكذا كان الحكم - في إقليم العراق وفارس - يشجعون  
العلماء ويقربون الأدباء ويجزلون لهم العطايا والهدايا وكانوا  
يتنافسون في ذلك تنافسا عجيبا كان من نتائجه أن كثرت مراكز العلم  
وتعددت مجالس الأدب وازداد عدد الشعراء ازديادا عظيما  
وازدهرت الحركة الأدبية والعلمية في ذلك العصر ازدهارا لم تمسرف  
له مثيلا من قبل ولعل كتاب اليتيمة الذي ألف في هذا العصر  
والذي أنشأه لشعراء وكتاب العالم الإسلامي في تلك الحقبة خير شاهد  
على ذلك ٠

\* \* \*

---

(١) معجم البلدان ج ٢ ص ٣٤٢ ٠  
(٢) الأدب في ظلال القويمات ص ٣٦ لأحمد الشمراني ٠

(( الفصل الثاني ))

:: ترف الحكام وأثره في أدب البيتمة ::

=====

### :: ترف الحكام وأثره فى أدب اليتيمة ::

~~~~~

بلغت الحضارة المباسية فى القرن الرابع قمة الازدهار والرقى ،
وأصبحت الحياة الاجتماعية - بفضل ذلك - صعبة معقدة ، فيها كثير
من التكاليف والمبالغة ، فأقبل الحكام على هذه الحياة الجديدة يتفهماً و
ظلالها وقطفون ، ثمارها ، ويتمرغون فى نعيمها ، تاركين معظم
الرعية فى فقر مدقع ، مؤس شديداً .

قد هجروا الماديات الحربية القديمة التى كانت تقوم على المساواة
والسهولة والفترة السليمة . . . إلى هذه الماديات الغريبة . التى لا
تمت الى الحياة الحربية بصفة ، وأخذوا يتأنقون فى مآكلهم ومشربهم
وملبسهم وسائر أمورهم والفوا فى ذلك حتى تمعدت حياتهم وأحوالهم .

ولعل الطريقة التى كانت متبعة - آنذاك - فى تناول الطعام
تمثل صورة صادقة لحياة هؤلاء الحكام المترفين .

فى أوائل القرن الرابع الهجرى كان الوزير أبو الحسن على بن
الفراء يدعو إلى طمأنينة فى كل يوم تسمة من الكتاب الذين اختصهم
وكان منهم أربعة نصارى ، فكانوا يقدمون على جانبيه وبين يديه . يقدم
إلى كل واحد منهم طبق فيه أصناف الفاكهة الموجودة فى الوقت من خير
شئ . ثم يجمل فى الوسط طبق كبير يشتمل على جميع الأصناف

وكل طبق فيه سكين يقطع بها صاحبها ما يحتاج إلى قطعه من سفرجل
وخوخ وكثرى ومعه طست زجاج يرمى فيه التففل فإذا بلغوا من ذلك
حاجتهم ، واستوفوا كفايتهم ، رفعت الأطباق ، وقدمت الطسوت والأباريق
ففسلوا أيديهم ، وأحضرت المائدة منشاة يدبىقى فوق مكبة خيـازر
ومن تحنها سفرة آدم فاضلة عليها وحواليها مناديل الفمر فإذا وضعت
رفعت المكبة والأغشية وأخذ القوم في الأكل وأبو الحسن بن الفرات
يحدثهم صوابهم وخطأهم فلا يزال على ذلك والألوان توضع
وترفع أكثر من ساعتين ثم ينهضون إلى مجلس في جانب المجلس السدى
كانوا فيه يغسلون أيديهم ، والفراشون قيام يصبون الماء عليهم ،
والخدم وقوف ، وعلى أيديهم المناديل الدبىقية ووطيلات ماء السورد
لمسح أيديهم ، وصبه على وجوههم (١) .

وهذا يكون ابن الفرات قد هجر الطريقة المربية القديمة التى
كانت تقضى بأن يوضع الطعام كله مرة واحدة واستعاض عنها بهـسـنـد
الطريقة الجديدة الممقدة التى تقضى بأن توضع ألوان الطعام بعضها
بعد بعض وهى الشائعة الآن فى أوربة كلها (٢) .

وكان الوزير المهلبى أكثر تعقيدا فى طريقة طعامه من سلفه ابن
الفرات فقد بلغ به الترف والتعقيد والتكلف فى تناول الطعام أنه كان
إذا أراد أكل شئ يبلعه كالأرز واللبن وقى على جانبه الأيمن غلام

(١) الحضارة الإسلامية لمتـر جـ ٢ ص ٢٣١ .

(٢) نفسه جـ ٢ ص ٢٣١ .

معه نحو ثلاثين ملعقة زجاج مجوذاً فيأخذ ملعقة يأكل بها من ذلك اللون لقمة واحدة ثم يدفعها إلى غلام آخر قام من الجانب الأيسر ثم يأخذ أخرى فيفعل بها فعل الأولى حتى ينال الكفاية لثلاث يميند الملحقة إلى فيه دفعة ثانية (١) .

ولم يهتم الترف أنهم كانوا يأكلون في أوان من الذهب والفضة . وكانوا يسرفون في الإنفاق على الطعام والشراب ويالقون في ذلك . . حتى إن الخليفة المكنى كانت تقدم على مائدته عشرة ألوان من الطعام في كل يوم سوى صنوف الحلوا (٢) .

ولم يكن الوزراء أقل إسرافاً من الخلفاء في هذه الناحية فلقب كان لحامد بن العباس وزير المقتدر أربعون مائدة يختلف إليها في كل غداء أفواج من الناس كما كان للوزير ابن الفرات مطبخان أحدهما للخاصة والآخر للعامة وكان يقدم إلى الأخير يومياً سمون رأساً من السم ثلاثون جدياً غير المئات من الدجاج وكان الخبازون وأصحاب الحلوا يعملون ليل نهار (٣)

وفي كتاب "البخلاء" للجاحظ وغيره من الكتب التي ألفت في هذا العصر أسماء أطعمة كثيرة مثل "السكياج" وهو لحم يطبخ بخلل

(١) مجمع الادب ج ٥ ص ١٥٣ .

(٢) مروج الذهب ج ٤ ص ١٩١ .

(٣) تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني د . شوقي ضيف ص ٢٤ ط دار المعارف بمصر .

مضاف إليه شيء من الزعفران لتطيب رائحته ، والضيرة ٠٠ وهي لحم
ممزوج ببعض التوابل ، والشبارقات ٠٠ وهي شرائح مشوية من اللحم
والطياهج ٠٠ وهو طعام من لحم وبيض ومصل ، والهريرة ٠٠ وهي
لحم وما ، وسمن ٠٠٠ الى غير ذلك من أطعمة كثيرة ٠٠

ثم الحلوى من الفطائر والرقاق ومنها : اللوزينج : وكان
يتخذ من اللوز والدقيق والفتق وشرش بما ، الورد ٠٠ ومنها الفالودج
وهو حلوى من النشا وعسل النحل والسمن ، والخشكان ٠٠ وهو كمك
يحشى بالجوز والسكر ٠٠

ثم الأشربة : ومنها الجلاب وهو شراب ممزوج بما ، الورد كما
كانت تقدم مع الطعام المشبهات ويسمونها النقل (١) .

ومعظم هذه الأطعمة لم تكن معروفة في المجتمع العربي من قبل
وهذا يدل على مدى ما وصل إليه القوم من الانغماس في الحضارة المادية
الحديثة ٠٠ وأنقهم فيها .

أما فن الطبخ فقد نال عناية كبيرة من جانب المؤلفين في هذا
المصر فقد ألف الرازي مثلاً كتابين في هذا الفن أحدهما : " ما يقصد
من الأطعمة وما يؤخر " ، والثاني : " ترتيب أكل الفواكه " .

وآلف إبراهيم الحري كتاباً بعنوان : " الهدايا والسنة فيها " .

(١) تاريخ الأدب العربي مصر المباحث الثاني د شوقي ضيف ص ٧٥ .

كما ألف قسطنطين لوقا كتابا بعنوان : "التبذير وشربه في الولائم" (١) .
ولكل من على بن هارون النجم وإبراهيم بن المهدي المباسي وجحظة
البركي كتب قيمة في فن الطبخ (٢) .

وبالإضافة إلى ذلك كله تحدثوا عن النديم وصفاته ، وما يستحسن
منه وما يستقبح ، فلاحظ مثلا : يستحسن من النديم ألا يشمشمش
المعظام ولا ينادر إلى البيض الموضوع على القفل ولا يأخذ لنفسه أكباد
الدجاج وصدورها أو المنخ أو الكلى أو الميون أو صغار الفرائج (٣) .

وقد بلغوا من الأناقة في المعيشة أن جعلوا للظرف والظرفاء
قوانين متعارفة من خرج عليها كان غير ظريف ، وألف النشاء كتابين في
هذا الفن أحدهما "الموشى" ، والآخر : "حدود الظرف" .

وقد تحدث بالتفصيل عن قوانين الظرف وحدوده ، كما أوضح
صفات الظريف ، ومن كلامه في ذلك قوله :

اعلم أن كمال أدب الأدباء وحسن نظرف الظرفاء صبرهم على ما
تولدت به الكارم ، واجتنابهم لخسيس المآثم ، فهم لا يداخلون أحدا
في حديثه ، ولا يتكلمون على قاري في كتابه ، ولا يقطعون على
متكلم كلامه ، ولا يستمعون على سر سره ، ولا يسألون عما وروى عنهم
عليه ، ولا يتكلمون فيما حجب عنهم فهمه (٤)

(١) ظهر الاسلام ج ١ ص ١٠٧ .

(٢) الحضارة الاسلامية لآدم مئتر ج ٢ ص ٢٣٦ .

(٣) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٣٤ .

ولما كان الأدب صورة صادقة لحياة الأفراد والجماعات ، و مرآة
تنعكس عليها أوضاعهم الاجتماعية كان أدب هؤلاء الحكام مترفاً ناعماً
فأناقة المأكل والملبس والممشية جديرة بأن تحمل أصحابها على
التألق في الأدب فلا غرابة أن يكثر أدباء هذه الطبقة من وصف الأظعمة
والأشربة وغيرها . . من وسائل البذخ وأدوات التعميم .

لقد كان من أعلام الأدباء في ذلك العصر ابن العميد والصاحب
ابن عباد والوزير المهلبى وعبد العزيز بن يوسف وأبو إسحاق الصابى
وغيرهم ، وكانوا يحكم مناصبهم السياسية وكانهم الأدبية يعيشون فى
بذخ وطمع وحيون حياة هائلة مترفة ، ويتقلبون فى أعطاف المميش ،
يرون اللذة والطيش ويتأنقون فى طعامهم وشرابهم ويحتفلون بمجالسهم
وموائدهم احتفال ابن الفرات بموائد ، والمهلبى بمألفه ، ويصورون
ذلك كله فى أشعارهم ورسائلهم . .

وقد سبق أن تعرفنا الى أن عند الدولة الهيبى كان من الحكام
الذين يتفرغون للأدب ويتشغلون بالكتب ويؤمنون مجالسة الأدباء على
مناداة الأمراء ، وكان لا يحضر أمامه شئ من الطعام والشراب وأدواتهما
إلا أنشد فيه لنفسه أو لغيره شعراً حسناً (١) .

وكان أدبه فى هذه الناحية صورة صادقة لحياته المترفة الناعمة .
فأكثر من وصف الطعام والشراب ومجالس الطرب والفناء . .

(١) ج ٢ ص ١٩٦ .

أما أبو الفضل بن العميد فكان يتخذ من ألوان الطمام التي
تقدم إليه أو التي تهدي إليه من أصحابه وسيلة للمقارضات الشعرية
والمساجلات الأدبية . .

ومن ذلك أن ابن خلاد القاضي المزمن له أهدى إليه شيئاً
من الأطعمة وكتب إليه في وصفها - وابن العميد إذ ذاك ناقة مسن
مرض كان به - فكتب إلى ابن خلاد :

قُلْ لَابْنِ خَلَادٍ الْمُضَى إِلَى آمِيهِ
في الفضل يَبْرَزُ فِيهِ أَى تَبْرِيزِ
ماذا أَرَدْتَ إِلَى مَهْزُوزٍ نَائِيهِ
مَدَّيْعٍ عَنْ حَمَى اللِّذَاتِ مَلْهُوزِ^(١)
هَزَزْتَ بِالْوَصْفِ فِي أَحْشَائِهِ قَرْمًا
مَا زَالَ يَهْتَرُ فِيهَا غَيْرَ مَهْزُوزِ
لَمْ يَتْرِكْ فِيهِ قَهْوَى مَا وَصَفَ لَهُ^(٢)
مِنَ الْأَطْيَابِ عَضْوًا غَيْرَ مُحْفُوزِ
أَهْدَيْتَ تَبْرَةً أَهْدَتْ لِأَكْلِهِمَا
كَرَبَ الْمُطَامِيرِ^(٣) فَسَى آبٍ وَصُوزِ

فأجابه ابن خلاد بقصيدة منها :
يَا أَيُّهَا السَّيِّدُ السَّاسِ يَدَّوْحِيهِ
تَاجُ الْأَكَاسِرِ مِنْ كَيْسَرِي وَفُـرُوزِ
أَتَى قَرِيضُكَ يَزْهَى فِي مُحَاسِنِيهِ
زَهْوُ الرِّبَا بِأَشْرَتِ أَنْطَاسِ نـُـرُوزِ

(١) الملهوز : المدفوع المنوع

(٢) المحفوز : المظنون

(٣) المطامير : جمع مطيرة وهي الحفرة في جوف الأرض

يا حُسْنَهُ لَوْ كُنْهِنَا حِينَ يَهْجُوا
 خَطْبُ النَّبَارِ فِيهِ وَالْثَوَائِرِ
 أَقَرَّتْ بِالْمَجْزِ وَالْأَلْبَابِ قَدْ حَكَّتْ
 بِهِ عَلَى قَدِّكَ الْيَوْمَ تَعْجِيزِي
 جَوْزُ قَرِيضٍ فِي بَحْرِ الْقَرِيضِ فَكَمْ
 (١) مِنْ قَائِلٍ عِنْدَ قِسْوَالٍ يَنْجَهِزِي
 ...

وأهدى ابن خلاد مرة أخرى إلى ابن العميد كتاباً في الأطعمة
 عقب مرض كان قد ألم به فكتب إليه ابن العميد :

فَهَيْتُ كِتَابَكَ فِي الْأَطْعِمَةِ
 وَمَا كَانَ نَوْلِي أَنْ أَفْهَمَهُ
 فَمَ هَاجَ مَنْ قَرِمَ سَاكِنِي
 وَأَوْضَحَ مِنْ شَهْوَةِ مَهْمَةٍ
 وَأَرَتْ قَسِي كَيْدِي ظَلَّةً
 مِنْ الْجُوعِ نِزَانُهَا مَيَّزَةً
 فَكَيْفَ عَدَّتْ بِهِيَ نَاقِيَةً
 جَوَانِحُهُ لِلطَّوَى سَلَمَةً
 خَفُوقَ الْحَشَى أَنْ تُصِخَّ تَسْتَمِعَ
 مِنْ الْجُوعِ فِي صَدْرِهِ هَمَمَةً
 تَتِمَّحُ لَهُ شَرَّهَا مُوجِعَةً
 وَتَقْرَى بِهِ تَهْمَةً مُؤَلِّمَةً

(١) البيتية ج ٣ ص ١٥٠ .

فأين الإخاء وما يقتضيه منك بأشبابها المبررة
 وأين تتركك المستغنى فها إذا عاصت المكرمة
 وهلا أضفت إلى ما وصف * ت شيئا تهش لأن تطعمه
 يمد الصدق إليه يدًا * إذا ما رآه وشجى فيه
 وأين شواربك المرتضاه * إذا ما تفضلت الأظفمة
 وأين كواميك المجتبا * دون الأطلاب بالتكريمة
 وهل أنت راض بقولى إذا * ذكرت : دعوه لها الأهمه ؟

فأجابه ابن خلاد بقصيدة منها :

هلم الصيفة والقلم * وأدن الحيرة النعمة
 لكتب ما جئت في خاطري
 فقد عظم الخوض في التبرمة
 وأعجل على يهدي ونى
 فاني من الخوض في ملامعة
 ألا حمدا ثم يا حمدا
 كتابي المصنف في الأظفمة
 كفانا به الله ما راعنا
 يملأ سجدتنا المولامة
 أطاب الحديث له في العما
 ففقق شهوته النبهمه
 أياد الندي والحجى والملا
 ومن أوجب الدين أن نعطمه

لكن كان نهر ميسى أفسدت
ولم تات صنعتها مُحْكَمَةً
فصوف يُزورك شـيـيرازُنـيَا
فَقُسَيْمُ بِاللّهِ أَنْ تُكْرِمَهُ (١)
.....

وبالإضافة إلى ذلك وصفوا الهريسة والقطايف والسكاجة وخبز
الأرز والبيض المفلق ورؤوس الحملان وغير ذلك من ألوان الطعام
وصنوف الحلوى ..

ومن ذلك ما كتبه الصايى إلى صديق له يستدعيه وصفه ما عنده
من رؤوس الحملان والشراب والفتق قال :

طَبَاخُنَا صَانِعُ رُؤُوسَا
يَسْقُطُ مِنْ طِيهَهَا الْخِلَافُ
مُهَيَّضَةٌ كَاللَّجُونِ لَوْنَهَا
شَبَّهَةٌ كَلْهَهَا نِظَافُ
وَأَخَذَهَا فِي الرَّقْصِاقِ يَحْكِي
صَرِيحَ حُمَى لَهُ لِحَاؤُ
مَنْ بَيْنَ عِجْلِ الْبَسَى خَرُونِ
تَرْهَى بَتْنُفِيدَهَا الْقَحَاؤُ

(١) البهجة ج ٣ ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

مُخْلَفَاتُ الْقُدُودِ لَكِنَّ
 لَهَا بِأَسَانِيهِمَا اثْنَانِ
 وَكُلُّهَا رَاضٍ صَفِيرٌ
 لَهُ عَلَى ضَرْعِهَا أَجْكَافُ
 قَدْ أَشْمَتَهُنَّ أُنْهَكَ
 مِنْ طُولِ ارْضَاعِهَا عَجَافُ
 تُسْقَى عَلَى ذَاكَ رَوْحٌ دَدَنُ
 أَرَقُّ أَسَانِيهِمَا الْمُلَانُ
 عَرُوسٌ دَدَنٌ صَفَتْ وَطَابَتْ
 لَدُنَا وَطَعْمَتَا فَا تُعَافُ
 كَانَ إِبْرِيْقِيهِمَا لَدَيْنَا
 نَاكِبُ رَأْسٍ بِهِ رُعَافُ
 وَالنَّقْلُ مِنْ فَتْخِي جَنِيَّ
 رَطَبٌ حَدِيدِي بِهِ الْقَطَافُ
 لِي فِيهِ تَشْبِيهُ فَيْلَسُونِي
 وَالْفَاظُ لَهُ عَذْبَةٌ خِفَافُ
 وَمُسَمِّعٌ مَطْطَرِبٌ مَلِيحُ
 يَحْرَمُ عَيْنَ مِثْلِهِ الْمَقَافُ
 يَظْلِمُنِي صَاحِبَتَا وَلَكِنَّ
 فِي مُكْرَمِهِمَا بِسْمِ اثْنَانِ
 قَصِيرٌ إِلَيْهِ غَدَا يَلِيْلُ
 أَقْدِيكَ مِنْ كُفْلٍ مَا يُخَافُ

فَأَنْتَ أَصْلُ السُّرُورِ عُنْدِي
وَكُلُّ مَا بَعْدَهُ مُضَايُ (١)

...

ولا شك أن الصابي قد أجاد في وصف ما عنده من صنوف الطعام
واللون الفاخرة والشراب إجادة تُفْرِى صاحبه على إجابة طلبه وتلبية
دعوته ، وهو بهذا يصور لنا جانباً من حياته المترفة .. وإن كان جانبه
التوفيق في بعض التشبيهات التي احتوى عليها هذا النص كقوله عن
رؤس الحلالين :

وَأَخَذَهَا فِي الرِّقَاقِ يَحْكِي
صَرِيحَ حُسْنٍ لَهُ لِحَافٍ

فهو تشبيهه يخفض تنفر منه الاندواق السليمة وأباه الطبع المستقيم ..
وأسوأ منه قوله عن إبريق الشراب :

كَأَنَّ إِبْرِيقَهَا لَدَيْنَنَا * تَاكِسُ رَأْسَ بَيْتِ رَعَائٍ

....

وإذا كان الصابي قد أخفق في هذا النص من الناحية الفنية فإن
مؤامنه السري الرفاء أحد شعراء الموصل بالمراق كان أبرع منه في وصف
الحمل المشوى ، فقد وصفه وصفاً دقيقاً يدل على قوة الملاحظة ومراعاة
التصوير فقال عنه :

(١) البيتية ج ٢ ص ٢٣٨ .

أَتَمَّعَهُ مَعْصَرِ الْبُرْدَيْنِ
 أَبْيَضَ صَافِي حُمْرَةِ الْجَبِينِ
 خَلَفَ شَهْرَيْنِ عَلَى الْخَلْفَيْنِ
 ثُمَّ رَقَسَى بَعْدَهُمَا شَهْرَيْنِ
 فَجِئَهُ شِرَارِي فِي شَبْرَيْنِ
 يَا حُسَيْنَهُ وَهُوَ صَرِيحُ الْحَيْنِ
 بَيْنَ ذِرَاعَيْنِ مَفْطَلَيْنِ
 كَسَارِي حُكْدٍ مِنَ الْيَدَيْنِ
 وَطَرَفِ يَمْتَدِّ الْطَرَفَيْنِ
 كَثَلُ مِرَاةٍ مِنَ اللَّجَيْنِ
 مَذْهَبَةُ الْقَبْرِ وَالْوَجْهِ
 تَمْرِفُهُ مَرْهَقَةُ الْحَدَيْنِ
 يَكُونُ طَاءَ عَطِيرِ الْكَفَيْنِ
 شَقَّ حَشَاءٍ عَنْ شَقِيقَتَيْنِ
 أُخْتَيْنِ فَيَسَى الْقَدَّ شَبِيهَتَيْنِ
 (١) كَمَا قَرَنْتَ بَيْنَ كَأْتَيْنِ

•••

ولم تكن عناية القوم بمجالس الشراب أقل من عنايتهم بموائد
 الطعام فقد تأنفوا في هذه المجالس أيضا ، وأسرفوا في الاهتمام بها
 فكانوا يزينون أرضها بالزهر ، ويفرشونها بالورد ويعنون بالآلاتها

(١) البيتية ج ٢ ص ١٦٣ •

وروائعها وخمرها وفواكهها .. حتى إنه كان في بيوت الكبراء إلى جانب الطباخ رجل آخر يسمونه " الشَّرابِي " شأنه العناية بالشَّراب وآلاته والفاكهة والروائح (١) .

وكانوا يختارون لهذه المجالس أطرف الندماء وأكثرهم لطفًا وأطعمهم عشرة وكان وزراء المراق وعلی رأسهم المهلبی يجون القاضي التنوخي ويملون اليه ، ويتعصبون له ، ويعدونه ريحانة الندماء وتاريخ الظرفاء ، ومعاشرهم منه من تطيب عشرته وتلين قشرته وتكرم أخلاقه وتحسن أخباره (٢) .

قد ظهر صدى هذا الجانب في أدب اليتيمة فأكثر الأدباء - خاصة صاحب عهد العزيز بن يوسف والصابي - من وصف مجالس الشَّراب والطرب في أشعارهم ورسائلهم ، وكان الطحّاب من أكثر الأدباء وصفًا لهذه المجالس .. فقد وصف مجالسه الخاصة ومجالس صديقه المهلبی عندما كان يزوره في بغداد .

ومن ذلك قوله يصف بعض مجالسه يدعو أحد أصحابه إلى حضوره .
" نحن يا سيدي في مجلس قد تَفَقَّحَتْ فيه عيُونُ التَّرجِسِ ، وَتَوَرَّدَتْ
فيه خُدُودُ البَنْفَسِجِ ، وَظَاحَتْ مِجَاطِرُ الأَتْرُجِ ، وَتَفَقَّتْ فَارَاتُ النَّارَنْجِ ،
وانطلقت ألسنة الميدان ، وقام خطباء الأوتار . وهبت رياح الاقداح ،

(١) الحضارة الإسلامية لمتز ج ٢ ص ٢٣٩ .

(٢) اليتيمة ج ٢ ص ٣٠٩ .

ونفقت سوق الأنس وقام منادى الطرب ، وطلعت كواكب الندماء ،
وامتدت سماء الند ، فحياتي لما حضرت لنحصل بك في جنة الخلد ،
وتتصل الوسطة بالمقد (١) .

أما عبد العزيز بن يوسف فقد كان كاتباً وشاعراً ، وكانت مكانته
الاجتماعية لا تقل عن مكانة الوزراء وكان مترفاً في حياته كما كان مترفاً في
أدبه ومن قوله يصف مجلس أنس لمضد الدولة البهيقي :

فِي مَجْلِسٍ عَزَّ الْخِلَافَةُ مُحْسِدٌ
بِاقْطَارِهِ وَالنَّدَى وَالنَّهْرُ وَالْخَمْرُ
وَقَدْ أَرَجَتْ أَرْجَاؤُهُ وَتَمَطَّطَتْ
بِسَاطِعِ نَشْرِ مَا يُقَاسُ بِهِ نَشْرُ
وَقَفَّ فِيهِ التَّرْجِيحُ الْفَضْلُ أَغْنَى
مَحَاجِرُهَا بَيِّضٌ وَأَحَدُ أَهْلِهَا صَفْرُ
كَانَ الشُّمُوعُ الشُّعَلَاتُ خِلَالَهُ
ثَوَاكِلُ عَبْرَى مَا يُنْهِنُهَا الزَّجَرُ
إِذَا قُطِعَتْ مِنْهَا الرُّؤْسُ تَضَاكُكُ
وَكَانَ عَلَى قَطْعِ الرُّؤْسِ لَهَا بَشَرُ (٢)

.....

وقال الصابي يصف مجلساً من مجالسه الخاصة وشبهه بميدان
المعركة :

-
- (١) اليتيمة ج ٣ ص ٢٢٢ .
(٢) نفسه ج ٢ ص ٢٩٩ .

أَلَا تَرَى هُمُومِي فِي جَهَنَّمَ قَلِيلٍ
لَهَا مِنْ مَقَامِي فِيهِ قَرَارٌ
دَبَّادِبُهُ مِنْ طَوَالِ الْقِيَامِ
نِ وَالنَّائِ بِوُوقٍ لَهُ مُسْتَمَارٌ
وَجِلسُنَا حَوْسَةً أَرْدَجَتْ
لِزَجْفِ النَّدَامِ إِلَيْهَا بَدَارٌ
كَانَ مُكَاهَلَتُهُمْ إِذَا عَلَنَتْ
غَائِمٌ لِلْحَرْبِ فِيهَا شَعَارٌ
كَانَ الْكُوسُ بِأَيْدِي السَّقَاةِ
سُيُوفٌ لَهَا بِالذَّمَاءِ أَحْبَارٌ
كَانَ مَنَادِيهِمْ أَكْثَفُهُمْ
حَمَائِلُهَا إِذَا عَلَيْهِمْ تَدَارٌ
كَانَ رُجُومٌ تَحَايَاهُمْ
سَهَامٌ عَلَى الْجَيْشِ مِنْهَا نَشَارٌ
كَانَ الْجَامِرُ خَيْلٌ جَمَرَتْ
وَقَدْ ثَارَ لِلنَّدِ مِنْهَا غَسَارٌ
كَانَ السَّكَارَى رِجَالُ الرُّغَى
وَقَدْ غَفَرَتْهُمْ هُنَاكَ الْعَقَارُ (١)

.....

وفضلا عن ذلك وصف الصابي كثيرا من أدوات الترف ووسائل
النعم ومظاهر الحضارة كمتيدة الطيب والشمعة والورد والترجيس

(١) البيتية ج ٢ ص ٢٣٧ .

وشامة الكافور وطائر القبجة وطائر الخطاطيف وغير ذلك (١).

وهناك في أقصى الشرق من بلاد فارس عاش شاعر عباسي يدعى المأموني — نسبة الى المأمون أمير المؤمنين — قد نبغ في الاوصاف والتشبيهات فكان يصف كل ما تقع عليه عينه من مظاهر الحضارة ووسائل الترف ، فوصف المنارة والنار والحمام والمنشفة والشرابية والجليسد والققاعة والأترج والرطب المعمل والجوز والزبيب والمنايا والباقلات والبطيخ والملح المطيب وخبز الأبانير والرقاق والجبن والزيتون والمجة والشواء السقوي والسفود والهريسة وما الخردل والبييض المفلق والمهرنج اليابس والفالونج المعقود والمحبرة والمقلصة والاقلام والاسطرلاب وغير ذلك من الأدوات المنزلية والشخصية (٢).

وكررت في هذا العصر المجالس الأدبية غير الرسمية التي كانت تقام غالبا في قصور الوزراء أو بيوت الأدباء والأثرياء وكان الأدباء في هذه المجالس يتركون أنفسهم على سجيته فيطلقون القول من غير تكلف ولا تصنع ، ويكثرون من ارتجال الشعر في وصف ما يمرض لهم من النوادر كآبيات في انسان ساقط يلبس عمامة سرية (٣) أو في انسان شريف الأصل وضعف النفس (٤) أو انسان تولى إقطاعية فوجدها

(١) نفسه ج ٢ ص ٢٣٨ الى ٢٤٣ .

(٢) نفسه ج ٤ ص ١٦٠ حتى ١٧٣ .

(٣) البيتية ج ٢ ص ٢٦٠ .

(٤) نفسه ج ٢ ص ٢٦٢ .

خربة وفي المهاداة بالنبيذ ، وفي وصف مجلس أنس ، وفي شكر على
هدية وفي هجاء بخيل أو ثقيل ، وفي وصف معنى عرض أو حداث
حدث ونحو ذلك (١) .

وكتاب اليتيمة خير شاهد على ذلك فقد كثرت فيه القطوعات
الشمرية القصيرة التي أكثر الأدباء من نظمها ارتجالاً حتى زاحمت
القوائد الطوال ، وطفئت عليها .

وكان الأدباء يتناولون مادة هذه القطوعات غالباً ما كان يدر
على السنة الجالسين من النوادر والملح والفكاهات والألغاز والاحاجي
والمعيات .

ومن ذلك ما قاله الثعالبي في الزيت على سبيل الإلغاز للكثير
أبي نصر سهل بن المرزبان .

حَاجَيْتُ شَمْعَ الْمَلِكِ فَوَدَّ الْعَصِيرِ
نَدِيمَ مَوْلَانَا الْأَمِيرِ نَصِيرِ
مَا حَاجَةُ لِأَهْلٍ كُلِّ مَشِيرِ
فِي كُلِّ مَا دَارَ وَكُلِّ قَصْرِ
يَبَاعُ فِي الْأَسْوَاقِ بَعْدَ الْمَصْرِ

فأجابه الأمير بقوله :

يَا بَحْرَ آدَابِ بَنِي مُرَّ جَزِيرِ
وَحَظَّهُ فِي الْمَلِكِ قَمِيرِ نَزِيرِ

(١) ظهر الاسلام ج ١ ص ١٣٦ .

حزرت ما قُلْتُ وكانَ حَبِيزِي
أَنَّ الَّذِي عَنَيْتَ دهنَ السَّبْزِ
يَعَصِرُهُ ذُو قُسْوَةٍ وَأَزْرُ (١)
...

ولا شك أن كثرة المقطوعات الشعرية في اليتيمة يدل على الترف
الفكري لدى الطبقات الحاكمة التي كانت تنكث من مجالس الأدب والطعام
والشراب والطرب في قصورها وبنازلها رغبة في اللذة والتنازع وميلا إلى
كل غريب عجيب ..

ولقد كان لترف هؤلاء الحكام وتأنيقهم في مطعمهم ومشربهم
وسائر أمورهم أثره الواضح في الناحية الفنية للأدب علاوة على أثره
السابق في الناحية الموضوعية .. فقد تأنيقوا في الأسلوب وأكثروا فيه من
السجع والجناس والطباق وغيرها من المحسنات الهمدية ، كما أسرفوا في
استخدام الصور البيانية من تشبيه واستعارة وكتابة ، وأفسدوا المعانى
بالمبالغة والإحالة والتسهيل ، فالتأنق في الممشية والترف الحسن
في الحياة دفع القوم إلى الترف الفكري والتأنق في الأسلوب ، وهذه
حقيقة مؤكدة قد قررها غير واحد من الباحثين أمثال الأستاذ / أحمد
أمين (٢) والدكتور شوقي ضيف (٣) والأستاذ / خليل مردم (٤) ولعل

-
- (١) اليتيمة ج ٤ ص ٣٦٢ .
(٢) في كتاب ظهير الاسلام ج ١ ص ١٣٣ .
(٣) في كتابه : الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ٢٨٠ .
(٤) في رسالته عن ابن الحميد .

تشبيهات ابن المعتز الملكية خير شاهد على ذلك ...

والذى أعجب له أن بعض الباحثين^(١) حاول جاهدا إنكار هذه الحقيقة زاعما أن هناك فرقا كبيرا بين تألق الإنسان في مميشته ، وتألقه في أسلوبه . لأن التألق في المعيشة سهل ميسر لا مشقة فيه ولا عناء ، لأن الإنسان يعتمد فيه على الخدم والحشم والأعوان ، وعلى الأموال المكسدة في الخزائن ، أما التألق في الأسلوب فيحتاج إلى كد الذهن وإجهاد الفكر وترويض النفس في تصيد التجنيس والطباق والسجع والمجاز والبيان .

واعتقد أن هذا احتجاج باطل لأن التألق في الكتابة . .
— وإن كان فيه كد للذهن وإرهاق للفكر كما يقول الكاتب فيه لذة لا تدانيها لذة ، ومتعة روحية لا يعرفها إلا أولئك الذين يعشقون الأدب ويمارسون الكتابة حتى إن أحدهم ليترك طعامه وشرابه وسائر المتع الحسية من أجل الاستغراق في الكتابة والإبداع الفني ، وهو بذلك مفتبط سميد لا يشكو تعباً ولا رهقا . .

وإذا كان الاشتغال بالأدب فيه عناء للنفس والجسم كما يزعم الكاتب ، فما الذى حمل الأمراء والوزراء والحكام المترفين على الخوض فيه وركوب أهواله ، وتجشم أخطاره ومتاعبه ؟ .

لقد كان ابن النخعي والصاحب والمهلبى وغيرهم ينتهزون الفرص

(١) الزهيري في كتابه : الادب في ظل بنى بويه ص ٢٩٨ .

لقرض الشعر وكتابة الرسائل لانهم يجدون في ذلك متعة لنفوسهم
ولذة لأرواحهم . حتى لقد بلغ بهم حب الأدب أن أحدهم كان يفرح
إذا مدح بحسن الكلام وإجادة فنون القول أكثر مما يمدح بسطوة
الحكم وعظم النفوذ وسعة الملك +

وتاريخ صاحب بن عباد خير شاهد على ما أقول : فقد أثر
عنه أنه كان يطرب إذا مدح بعلوم الكعب في الأدب والבלغة أكثر مما
يطرب لأي شيء آخر حتى إن الوصول إلى قلبه كان سهلاً عن هذا
الطريق كما يقول أبو حيان (١) .

ولو كانت ممارسة الأدب والتأنق في الأسلوب تؤدي إلى
المشقة والعناء لانصرف هؤلاء الوزراء عنه إلى التمرغ في وسائل المتعج
الحسية والجسدية مؤثرين الراحة والنعيم . .

ولكنهم أقبلوا على الأدب يرتشفون من رحيقه ، ويغرفون من
بحره ، ويجدون فيه لذة لنفوسهم ، ومتعة لأرواحهم .

وإذا صحت هذه الحقيقة - وهي أن التأنق في الأسلوب مصدره
التأنق في المعيشة - فلا بد من الاستشهاد بأدب هؤلاء الحكام
لنرى إلى أي حد قد بالغوا في السجيع وأسرفوا فيه . . حتى ليندر أن
 نجد كاتباً منهم كان لا يلتزم به .

(١) معجم الأدباء ج ٢ ص ٢٧٦ .

لقد كان على رأس أدباء هذه الطبقة ابن العميد • الذى
كان يعد إماما لهذه الطريقة الجديدة فى الكتابة ، ثم تابعه على
ذلك بقية الكتاب كالصاحب والصايب والشمالي والوديح وغيرهم •

وما يدل على اسراف ابن العميد فى السجع واهتمامه بالمحسنات
والمبالغة فى المعنى قوله فى رسالة وجهها الى ابن بلكا عند استمعائه
على ركن الدولة :

" كتابى وأنا مترجح بين طمع فيك ومأس منك ، وإقبال عليك
وإعراض عنك ، فإنك تدل بسابق حرمة ، وتمت بمسالك خدمة ، أيسرهما
يوجب رعاية ، ومقتضى محافظة وعناية ، ثم تشفعهما بحادث غلول وخيانة
وتتبعهما بأننى خلاف ومضية ، وأدنى ذلك يحبط أعمالك ، ومحق
كل ما يرمى لك ، لا جرم أنى وقفت بين ميل إليك وميل عليك ، أقسدم
رجلا لصدك وأوخر أخرى عن قصدك ، وأبسطيدا لاصطلامك واجتياحك
وأثنى ثانية لاستيفائك واستصلاحك " (١) .

يستمر على هذا النحو حتى آخر الرسالة مكثرا فيها من ضروب
السجع والازدواج والألوان البهتان والمجاز ...

أما صاحب نقد كانت شهرته بالسجع لا تحتاج إلى دليل ، ...
قد كان يمشق السجع ويميل إليه ، ويتجشم الصواب فى سبيله •

قال أبو حيان : " وكان كلفه بالسجع فى الكلام والقول عند الجد

(١) البيتية ج ٣ ص ١٤٥ •

والهزل يزيد على كلف كل من رأيناه في هذه البلاد ، قلت لابن المسيبي
أين يبلغ ابن عباد في عشقه للسجع ؟ قال يبلغ به ذلك لو أنه رأى
سجعه ينحل بموقعها عروة الملك . مضطرب بها حيل الدولة ،
ويحتاج من أجلها إلى غم ثقيل وكلفة صعبة وتَجَشُّم أمور ، وركوب
أحوال . . لما كان يخف عليه أن يفرج عنها ويخليها ، بل يأتي بها
يستعملها ولا يعا بجميع ما وصفت من عاقبتها (١) .

ثم قال أبو حيان نقلاً عن ابن العميد " إن صاحب خرج من
السرى متوجهاً إلى أصفهان ومنزله " رَآمين " وهي قرية كالمدينسة
فطورها إلى قرية غامرة ماء ملح لا شيء إلا ليكتب إلينا : كتابي
هذا من النجهار يوم السبت نصف النهار (٢) .

وهما قيل عن تحامل أبي حيان على صاحب وعدائه له وتندر
به ظن من الثابت أن صاحب كان مَوْلَمًا بالسجع إلى حد العشيق
والهيام ، حتى لقد كان حريصاً على أن يكون كلامه كله مسجوعاً كقوليه
عن بغداد وقد سأله عنها ابن العميد " بغداد في البلاد كالأستاذ
في المهاد " (٣) .

وقوله لهديج الزمان وقد قَبَّلَ الأرض بين يديه " يا بني اقعد ،
لم تسجد ، كأنك هُدَّهْدُ ؟ " (٤) .

-
- (١) مجمع الادباء ج ٦ ص ٢٠٧ ط الحلبي بصر .
(٢) الصدر السابق ج ٦ ص ٢٢٠ .
(٣) اليتيمة ج ٣ ص ١٣٧ .
(٤) نفسه ج ٤ ص ١٢٤ .

وكان تأنقه فى رسائله أعظم من تأنقه فى كلامه ومن ذلك قوله فى
التهنئة ببنت " أهلا بحقيلة النساء ، وأمّ الأبناء ، وجالبة الأصهار ،
والأولاد الأطهار ، والمبشرة بأخوة يتناسقون ونجباء يتلاحقون ،
ثم قال :

فلو كان النساء كمثل هذى « لفضلت النساء على الرجال
وما التأنيت لاسم الشمين عيمباً
ولا التذكير فخراً للهلال

فأدرع يا سيدى احتباطاً ، واستأنف نشاطاً ، فالدنيا مؤمنة
والرجال يخدمونها ، والذكور يعبدها ، والأرض مؤمنة بها قسوام
الابدان وملاك الحيوان ، والحياة مؤمنة • ولولاها لم تتصرف الأجسام
ولا عرف الأنعام ، والجنة مؤمنة ، وهى وعد المتقون ، ولها بحسب
المرسلون ، فهنيئاً هنيئاً ما أوليت ، وأوزعك الله شكر ما أعطيت
وأطال بقاءك ما عرف النسل والولد ، وما بقى الامد ، وكما عمر لبد (١)

ولقد قدر لهذه الطريقة الجديدة فى الكتابة أن تسود ، وأن
تعمد لتشمل سائر الأغراض والقنون •

ومن رسائل الهمذانى فى الهجاء قوله " يا شبر ، ما هذا
الكبر ، ما فتر ما هذا الستر ، ما قرد ما هذا البرد ، يا يا جوج متى
الخروج ، يا قاع بكم تباع ما فرانى متى ترانى ، يا لقمة الخجل نحن

(١) التيتمة ج ٣ ص ٢٢٦ •

بهابك ، يا بيضة النخيلة من أتى بك ، يا دبة ، يا حبة ، يا من
فوق المكبة ، يا من قرب المذبة ، يا من خلقه المسبة ، يا دمل
ما أوجمك ، يا قمل لنا حديث معك ، فان رأيت آذيت والسلام (١)

والأغرب من ذلك أن تسرى هذه الطريقة على لغة التأليف
فترى المؤلفون في هذا العصر كالتعاليى وغيره قد التزموا بها فيما
يكتبون وما يصنفون حتى اننا لنجد التعاليى في اليتيمة كثيرا ما ينسى
مهمته الأصلية وهى إبراز الحقائق وتقرير الوقائع أثناء تراجعه للشعر
والكتاب وجعل كل همه تنميق الأسلوب وتصيد البديع والجوى روا
المجاز والإكثار من المبالغة والتسهيل كقوله عن السرى الرضا :

وما أدراك من السرى ، صاحب سر الشعر الجامع بين نظم
عقود الدر ، والنفت في عقد السحر ، ولله دره ما أعذب بحره ،
وأصفى قطره ، وأعجب أمره ، وقد أخرجت من شعره ما يكتب على جبهة
الدهر ، ويعلق في كعبة الفكر ، فكتبت منه محاسن وملحاً ، ودائع
وطرفاً . كأنها أطواق الحمام ، وصدور البزاة البيض ، وأجحمة
الطواويس وسوالف الغزلان ، وشهود المذارى الحسان وغسرات
الحدق الملاح (٢) .

وفي ظلال هذه الطبقة المترفة - وهى طبقة الحكام - ازدهر
فن من الغنون الأدبية ما كان له أن ينتمى الا فى ظلها وهو فن

(١) اليتيمة ج ٤ ص ٢٥١ .

(٢) اليتيمة ج ٢ ص ١٠٣ .

الأخويات ، فلقد كان هذا الفن وثيق الصلة بأخلاق الطبقة
الراقية في المجتمع التي سيطر عليها حب المال ، واستمدهتها الألقاب
الفارقة ، والجرى وراء المناصب المالية ، والتكالب على السلطة ،
والتملق بالأوهام الكاذبة ، ونتيجة لذلك قدوا الاحساس بالكرامة ،
وصاغروا أمام رؤسائهم واحتملوا في سبيل ذلك ما لا يحتمله الأحرار
حتى إنك لتنبذ الوزير المهلبى على جلالة قدره وعظم منصبه كسان
يلحقه من فحش معز الدولة وشتمه عرضه ما لا صبر لأحد عليه . . . فيحتل
ذلك احتمال من لا يكثر له منصرف إلى منزله (١) .

والأغرب من ذلك أن معز الدولة قد ضربه ذات يوم بالمقارح
خسعين ومائة بقرة يرايح بينها بأن يرفع عنه الضرب حتى يجهه ويكفه
ثم يحميد عليه الضرب ولكن الوزير قبل بعد أن شفى من هذا الضرب
أن يرجع إلى الوزارة (٢) .

فلا غرابة أن تكون العلاقات الاجتماعية بين هذه الطبقة التي
قدت الإحساس بالكرامة قائمة على المجاملة والكذب والخش والنفاق .

وقد بدا ذلك واضحا في رسائلهم الأخوية شعرا ونثرا ، فقد
عدوا إلى توجيه هذه الرسائل إلى الأمراء والوزراء والعمال والقضاة
والاصدقاء في شتى المناسبات كالتهنئة والتمنيّة والعتاب والاعتذار
والاهداء والاستشارة والشوق والزلزنى وغير ذلك من المناسبات التي

(١) تجارب الامم ج ٦ ص ١٤٦ .
(٢) المصدر السابق ج ٦ ص ١٩٠ .

كانوا يتصيدونها ويحشون عنها جريا وراء المناصب والألقاب وارضاء
لرؤسائهم •

وكان كل واحد منهم حريصا على اراقعة ما وجهه عند مخاطبة
رئيسه فيوجه إليه أرق المبارات ، ومخاطبه بأخف الألقاب ، ويتضرع
إليه تضرع الحبد لسيد ، والخادم لمولاه • • • ليرضى فيه نزعة الشرور
والتسلط ، ويمحى عن الشمر بالنقص •

ولعل الوزير ابن سعدان القليشوف المشهور كان صائبا في
تعليل تلك الظاهرة التي شاعت بين حكام عصره ومترفيهم عندما طلب منه
أبو حيان أن يأذن له في كافي المخاطبة وتأء المواجهة عند حديثه
معه ، فقال له لك ذلك وأنت المأذون فيه وكذلك غيرك وما في كاف
الخطاب وتأء المواجهة ؟ إن الله تعالى على علوشأنه ومسلطة ملكه
وقدرته على جميع خلقه يواجه بالتأء والكاف ولو كان في الكتابة
بالهيا رفعة وجلالة وقدر ورتبة وتقديس وتمجيد لكان الله أحق
بذلك وقدماء فيه ، وكذلك رسوله صلى الله عليه وسلم والأنبياء قبله
عليهم السلام وأصحابه رضى الله عنهم والتابعون لهم بإحسان رحمة
الله عليهم وهكذا الخلفاء فقد كان يقال للخليفة : يا أمير المؤمنين
أعزك الله وما عر أصلحك الله • وما عاب هذا أحد وما أنف منه
حسيب ولا نسيب ولا أباء كبير ولا شريف •

ثم أشار الوزير إلى أخلاق أهل عصره من الحكام والكبراء وشعورهم
بالنقص ومحاربتهم لبعض ذلك بالألقاب الكاذبة والغرور الخادع فقال :

وانى لأعجب من قوم يرغبون عن هذا وشبهه يحسبون أن في ذلك ضمة أو نقيصة أو خطأ أو زراية ، وأظن أن ذلك لمجزههم وفسولتهم واتخذواهم قتلهم وضوء ولتهم وما يجدونه من الفضاضة في أنفسهم وأن هذا التكلف والتجبر يحوان عنهم ذلك النقص ، وذلك النقص ينتفى بهذا الصلف - هيهات - لا تكون الرياسة حتى تصفو من شوائب الخيلاء ومن مقابح الزهو والكبرياء (١) .

فابن سعدان في كلامه هذا يعمل تكلف هذه الطبقة للمظمة الكاذبة والكبرياء المصطنع بأنه عملية تمييز عن النقص الذي كانوا يشعرون به داخل كيانهم وأعماق نفوسهم .

وقد صور أبو حيان طبيعة العلاقات التي كانت قائمة بـبين أفراد الطبقة الحاكمة في ذلك العصر أصدق تصوير عندما عتب على كلام ابن سعدان بالقول المأثور (ما تعظم أحد على من دونه إلا بقدر ما تصغر لمن فوقه) (٢) .

وهذا القول المأثور الذي استشهد به أبو حيان كان ينطبق تمام الانطباق على أخلاق الطبقة الحاكمة آنذاك .

قد كان كل واحد منهم يتعاطم على من دونه ويحتقره ويعامله بقسوة وكبرياء على حين كان يتضائل أمام من فوقه ويخضع له ويتقرب إليه فسي تذلل وخنوع .

(١) الامتاع والموانسة ج ١ ص ٢١ .

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ٢٢ .

والدارس لأدب الأخويات فى اليتيمة يجد فيه الدليل على ما نقول .

فلقد كان الأديب فى هذا المجتمع يهين^{*} إنسانا لا تربطه به
رابطة ود أو تعاطف ، يحزى آخر بحادث وفاء لا يثير فى نفسه حزنا
ولا حسرة يستمطف وجهها فيسبغ عليه آيات الاجلال و الإكبار
وهو لا يضر له غير اليفض والاحتقار ، ولهذا نراهم إذا كتبوا نسي
الشوق مثلا : أغاروا على معانى المشاق فانتحلوها ، وإذا كتبوا إلى
مريض سفحوا الدموع وأظهروا اللوعة والأسى ، وإذا كتبوا إلى وجيه تذللوا
وتضرعوا وهكذا .

من ذلك ما كتبه أبو اسحاق الصابى إلى صاحب بن عباد فى
الشوق :

" كبت - أطل الله بقاء^{*} صاحب - هذا الكتاب وأنا أود أن
سواد عيني مداده ويأضها طرسه شوقا إلى لآله غرته وقرنا إلى تقييل
أنامله وظما إلى ارتشاف بساطة^(١)

ان هذا كلام لا يصدر إلا من عهد لسيده أو من خادم لسولاه ،
وإنه ليحبر أصدق تعبير عن أخلاق هذه الطبقة التى ساد بيضا النفاق
وشاع الكذب والدّهان قامت علاقاتهم الاجتماعية على أساس التملسق
الكاذب والمبالغة المبقوطة .

وكتب الصابى إلى صاحب أيضا رسالة شعرية فى الشوق أغمار
فيها على معانى الماشقين قال :

(١) اليتيمة (٢ : ٢٣٢)

لَمَّا وَضَعْتَ صَحِيفَتِي * فِي يَدِ مَنْ كَفَّرَ رُسُولَهَا
قَبْلَتْهَا لِتَسْهَى * يُنْذِرُكَ عِنْدَ رُسُولَهَا
وَتُودِ عَيْنِي أَنَّهَا * قَرَنْتَ بِبَعْضِ فُضُولَهَا
حَتَّى تَرَى مِنْ وَجْهِكَ الـ * مَيْمُونِ غَايَةَ سَوْءِهَا (١)

أما عبد العزيز بن يوسف فقد كان أعظم من الصابي مُجَاطِلَةً وأقدر منه على الكذب والنفاق فأكثَر من الرسائل الأخوية شعرا ونثرا إلى صاحب وغيره من رؤساء المجتمع في شتى المناسبات .

ومن ذلك قوله في رسالة إلى صاحب : " كتابي - أدام الله عز مولانا - وحالي - فيها أغانيه من تمثل حضرته وتذكر خدمته والمواقف التي سعدت فيها برويته وأفدت من مشاهدته حظها ومقابلة نعم الله عليه وعلى الأدب وحزبه والكرم وأهله ، - حال امرئ هب وقد أوردته الأحلام مناهل أملة ، فهو يتلهم تذكرها ، وتلذذ تحيرا صناعي النفس تمثلا ، ويراقب المعنى تمثلا .

وأحمد الله تعالى على الأحوال كلها وأسأله قرب الادالة والمقبي السارة وأقول :

أَقُولُ قَلْبِي فِي ذِرَاكِ مَخْشِيٍّ
وَجِسْمِي جَنِيبٌ لِلصَّبَا وَالْجَنَائِبِ

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٥١ .

يُجَانِبُ نَحْوَ الصَّاحِبِ الشُّوقِ بِقُوْدِي
وَقَدْ جَاذَبْتَنِي عَنْهُ أَيْدِي الشَّوَانِبِ
سَقَى اللَّهُ ذَاكَ الْمَهْدُ عَهْدًا مِنَ الْحَيَا
وَلَكَ السَّجَا يَا الْفَرَّ غَر السَّحَابِ (١)

...

على أن صاحب نفسه لم يكن أقل من هؤلاء الكتاب مجاملة
لرواها عصره فقد أكثر من مراسلاته إلى ابن العميد وغيره وكان يتصاغر
أمام ابن العميد بقدر ما كان يتعاطف على من دونه .

ولقد أهدى مرة إلى أحد أصدقائه - ولعله ابن العميد - أترجة
وكتب معها رسالة نصها :

" ما زلت يا سيدي أفكر في تحفة تجمع أوصاف معشوق وعاشق
وتنظم نعمت مشوق وشائق حتى ظففت بأترجة كأن لونها لونسي ،
وقد منيت بعمدك ، ولبيت بصدك ، وكأن عرفها مستمار من عرفك ،
وظرفها مشتق من ظرفك .

مولاي قد جاتك أترجفة
من بعض أخلاقك مخلوقة
اليسها صانعها حلة
من سَرَقِ أَصْهَرِ سَرُوقَةٍ (٢)

...

(١) اليتيمة ٢ : ٢٩٢

(٢) اليتيمة ح ٣ ص ٢٢٥ . السرق : الحرير .

وحيث ان هؤلاء الكتاب كانوا يمثلون الطبقة العليا في المجتمع
كان طبيعيا أن يقلدوهم سائر أدباء عصرهم وأن تسرى طريقتهم في أدب
الأخويات إلى غيرهم، كأبي بكر الخوارزمي الذي كان — كما وصفه بديسع
الزمان * — لا يحسن إلا هذه الطريقة الساذجة وهذا النوع التداول
بكل قلم ، المُتَنَاول بكل يد ^(١) بمعنى به الرسائل الأخوية . . .

على أن الهمداني نفسه لم يكن أقل من الخوارزمي إجادَةً لفن
الأخويات فأكثر في رسائله من المجاملات الكاذبة ، والمبالغفة المصطنعة . . .
ولقد كتب إلى أبي بكر الخوارزمي في بداية عهده به كتابا
نصه :

أَنَا لِقَرِّبِ دَارِ الْأُسْتَاذِ — أَطَالُ اللَّهُ بِقَاءَهُ —
كَمَا طَرَبَ النِّشْوَانُ مَالَتَ بِهِ الْخَمْرُ
وَمِنَ الْارْتِمَاحِ لِلْقَائِمْ —
كَمَا اتَّفَضَ الْمُصَنِّعُ بِلِلَّةِ الْقَطْرِ
وَمِنَ الْامْتِزَاجِ بَوْلَانِ —
كَمَا اتَّفَقَتِ الصُّبُهَاءُ وَالْبَارِدُ الْمَذْبُ
وَمِنَ الْإِهْتِمَاحِ بِمِزَارَةِ ^(٢)
كَمَا اهْتَرَّتْ تَحْتَ الْبَارِحِ الْغُصْنُ الرُّطْبُ
... .

وكتب إلى صديقي آخر ما نصه " يمز على — أيد الله الشينج —
أن ينوب في خدمته قلبي عن قدمي ، وصعد برويته رسولي قبل

(١) رسائل الهمداني ٤ : ٢٤٣

(٢) اليتيمة ٤ : ٢٤٣

وصولى هرد مشرع الأنس به كتابى قبل ركابى ، ولكن ما الحيلة والمعواتى
جيه . .

وعلى أن أسمى ولي — * من على ادراك النجاح
وقد حضرت داره وقيلت جداره وبالى حب للحيطان (١)
ولكن شغف بالقطان ، ولا عشق للجدران ولكن شوق إلى السكان .

وهما يكن من شىء قد كان لترف الطبقة الحاكمة وتألقها فى
طعامها وشرابها ومجالسها وسائر أمورها أثره الواضح فى أدب الهنمية .

وقد تجلّى ذلك على وجه الخصوص فيما كتبه الأدباء خاصة
المترفين منهم كابن العميد والصاحب والصابى وجد المنيزين يوسف
وغيرهم فى وصف ما يقدم إليهم من ألوان الطعام وأنواع الفاكهة وصفوف
الحلوى ، وفى وصف مجالس الشراب والطرب والغناء .

كما ظهر ذلك أيضا بصورة جلية فى التألق فى الأسلوب والزخرفة
فى الكلام والإكثار من المحسنات الهمجية والصور البيانية .

وأخيرا تجلّى ذلك الأثر فى أدب الأخويات الذى راج رواجا
عظيما فى هذا العصر بين أفراد هذه الطبقة فأكثر الأدباء من الرسائل
الأخوية شعرا ونثرا مستخدمين فى ذلك ألفاظ التضرع ومهارات التوسل
والخنوع وهم فى ذلك كله خاضعون لظروف حياتهم الاجتماعية ومستجيبين
لمؤثراتها ودواعيها .

(١) المصدر السابق ٤ : ٢٤٣

((الفصل الثالث))

==
:: أثر الخنا والموسيقى في أدب الجريمة ::

:: أثر الفناء والموسيقى فى أدب اليتيمة ::

لعل مجتمعا من المجتمعات الإسلامية ، لم يحفل بالفناء والموسيقى
مثل ما حفل بهما المجتمع المباسى ، ويتضح ذلك من كثرة الكتب والمؤلفات
التي صنفت فيهما منذ مطالع الدولة المباسية حتى أواخر القرن الرابع . .

وقد بلغ من اهتمام العلماء بهما أن الفلاسفة كانوا يشاركون غيرهم
فى التأليف فيهما مثل الكندى الذى ألف كتابا مختلفة فى الموسيقى ، وكذلك
تلميذه أبو الطيب السارخى ، وقسطا بن لوقا البعلبكي ، والغرابي صاحب
كتاب " الموسيقى الكبير " وقد استطاع أن يدخل تحسينات على آلة القانون
الإغريقية (١) .

أما طبقة المننين فقد كان لها نشاط واسع فى هذا المجال ، ومن
أشهر شخصياتها فى ذلك إسحاق الموصلى " هَذَل " التى كان لها كتاب
فى الأغاني يشتغل على اثنى عشر ألف صوت (٢) ودنانير البرمكية ، ويذكر
أبو الفرج أن لها كتابا مجردا فى الأغاني (٣) ولمعروبن بانه كتاب فى
الأغاني يُعَدُّ من الأصول المهمة فيها (٤) .

-
- (١) المحصر المباسى الثانى ص ٨٥ د . شوقى ضيف .
 - (٢) الاغانى (١٣٨ : ١٥) ط الساسى .
 - (٣) المصدر السابق (١٦ : ١٣١) .
 - (٤) نفسه (١٥ : ٢٦٩) دار الكتب .

وقد عمل في هذا المصركثير من المصنفين على تحسين آلات الفناء
وتغذيته بالألحان الأجنبية خاصة أن كثرتهم كانت من الموالى بل إن منهم
من اخترع بعض الآلات الموسيقية مثل زَنَام الزامر الذي اخترع نَائِيًا نسب إليه
قيل : نَائِي زَنَامِي (١) .

ولعل انتشار الفناء وازدهاره في هذا المصريفسر لنا انفعال الناس
بإزاء هذا الفن الذي أحكمه أصحابه ، فهم يروون أن بعض من كانوا يحضرون
المصنفين كانوا ينطحون العمد من حسن ما يستمعون ، بل كانوا يرمون
بأنفسهم في الفرات — من شدة الطرب — لا يدرون ، وقد يمزقون أثوابهم
صالحون نعالهم في آذانهم لا يعرفون ما يصنعون (٢) .

ويذكر أبو حيان : أن ابن فهم الصوفي كان إذا سمع غناء " نهاية "
طارية ابن المصنفى ضرب بنفسه الأرض وتفرغ في التراب وهاج وأزبد وتعفر
شعره ، ولا يجسر أحد على الدنومه لأنه كان يحض بنانه ويخش بظفره
ويركل برجله وتخرق ملابسه ويلطم وجهه الفلطة (٣) .

أما ابن غيلان البزاز فإنه كان إذا سمع ترجيمات " بلور " طارية
ابن اليزيدي حلق بعينيه ، وسقط مغشيا عليه وصبوا على وجهه الكافور
وآء الورد وقرأوا في أذنه آية الكرسي والممؤتين (٤) .

-
- (١) تاريخ الأدب العربي المصير المباسي الثاني ص ٨٦ د شوقي ضيف .
(٢) المقصد الفريد لابن عبد ربه ج ٤ ص ١٢٤ .
(٣) الامتناع والموانسة ج ٢ ص ١٦٦ .
(٤) المصدر السابق ج ٢ ص ١٦٧ .

وما هو جدير بالذكر أن فن الغناء في العصر العباسي قد وصل إلى ذروة الرقي والانتشار في القرنين الثاني والثالث بعد الهجرة .

أما في القرن الرابع - الذي أرصد ظواهره الاجتماعية والأدبية - فقد انحسرت فيه موجة الغناء . . . وضعف شأنه بعض الشيء خاصة في بلاط الخلفاء .

ولا يستطيع باحث أن يزعم أن بلاط المستنكى أو المطيع ، أو الطائع في القرن الرابع كان في الترف والازدهار كبلاط الرشيد أو المأمون أو المتوكل أو يقاربه .

وذلك راجع في رأيي إلى ثلاثة أسباب رئيسة :

أولها : ضعف الخلفاء العباسيين في هذا القرن واستئثار بني بويه بالسلطة دونهم فضيقوا عليهم الخناق ، وعينوا لهم راتباً خاصاً لا يكفي حاجتهم الضرورية وانعكس ذلك في نظرة الشعراء إليهم فلم يمدوا يدها يتهاقنوا على قصورهم كما كانوا يفعلون في الماضي ، وإنما أقبلوا على الأمراء من بني بويه ووزرائهم في فارس والمراق كابن المعيد والصاحب والمهلبى ولم يكن حظ الخلفاء من الشعراء إلا التندر والسخرية مما آل إليه أمرهم ، كما فعل أبو دلف الخزرجي شاعر الكندي في القرن الرابع الذي تهكم بهم وأضحك الجاهل عليهم حينما جعل الخليفة المطيع من جيلة المكديين والمتسولين لأنه يعيش على ما يتفضل به عليه معز الدولة البويهى من جارية فقال :

وَمِنَّا سَائِرُ الْأَنْصَالِ * رِ وَالْأَشْرَافِ يَمُنُّ فِهْرِ

مِنَّا قَتَمُ الدَّيْسِ الْمَطِيحِ الشَّائِعِ الذَّكْرِ
يَكْدَى مِنْ مَمَرِ الدَّو * لَمَّا الْخَبَرَ عَلَى قَدَرِ (١)

.....

ثانيا : ضعف الحكومة المركزية في بغداد فلم تعد تسيطر على حكم
الولايات الإسلامية سيطرة كاملة كما كانت تفعل من قبل قللت
الأموال في خزائن بغداد خاصة تلك التي كانت تغد إليها من شتى بقاع
الدولة المباسية الواسعة في الماضي ، وانعكس ذلك على الوضع الإقتصادي
في بغداد وفي قصر الخلفاء على وجه الخصوص ..

ثالثا : ظهرت هناك عدة عواصم في المملكة الإسلامية وأخذت تنافس
بغداد وتقاسمها السيادة والرقى كالرى وحلب والقاهرة
وقرطبة وغيرها تنازعت بغداد وسائل الترفى والرخاء والطرب والفناء ...
وعلى الرغم من ذلك كله لا أستطيع أن أزع أن الفناء قد اختفى من
المجتمع المباسي في القرن الرابع وإنما كان موجودا في كل مكان .. في
قصور الحكام وفي ديارات النصارى وفي الحدائق العامة وفي دور النخاسين
وكان له صدى واسع في أدب اليتيمة .. تجلّى بوضوح في وصف مجاليس
الطرب والفناء وفي وصف الممّنين والممّنات وفي وصف آلات الطرب ،
وأدوات الموسيقى ، وفي نمومة قطوعات الشعر الفنائى وشيوعها في اليتيمة
وفي تأثير الفناء في موسيقى الشعر الداخلية والخارجية على حد سواء ..

(١) اليتيمة ج ٣ ص ٣٣٦ .

١ - مظاهر الغناء في اليتيمة

~~~~~

أكثر شعراء اليتيمة من وصف مجالس الطرب والغناء التي كانت تقام  
ظالها في أماكن خلوية جميلة كالرياض والبساتين أو على شواطئ الأنهار  
وحافات الغدران حتى يمتصوا حواسهم بشم الورد والريحان وروية الخضرة  
والماء ، وسماع الموسيقى والغناء يقضوا ساعات حالمة في جو مغمم بالبهجة  
والسرور ..

ومن ذلك قول صاحب بن عماد يصف مجلسا من مجالس الوزير  
المهلبى الغنائية التي كان يقيمها في بستانه الجليل على شاطئ دجلة \*  
" قد حضرنا حجرة تمرقبحجرة الريحان فيها حوض مستدير ينصب إليه الماء  
من دجلة بالدواليب وقد مدت الستارة وفيها حُسن المَكْرِية ففنت :

سلام أيها الملك اليماني \* لقد غلب الهماؤ على التداني  
فطرب الأستاذ أبو محمد أيده الله تعالى بغنائها واستعادها الصموت  
مرارا واتبعته أبياتا وهي :

تَطَوَّى المنازلَ عن حبيبك دائما  
وَتَظَلَّ تَبْكِيهِ يَدْمَعِ سَاجِمِ  
هَلَا أَقْنَتَ وَلَوْ عَلَى جَسْرِ الْفَصَا  
فَلَبَّثْتُ أَوْحَدَ الْحَسَامِ الصَّارِمِ

وتبعثها جارية ابن مقلة ولا غناء أطيّب وأطرب وأحسن من غائتها ففنت  
بوتين للأستاذ - - - يعني المهلبى - - - وهما :

يَا مَنْ لَهُ رَبٌّ مَكْتُمٌ الْقَوَاعِدُ فِي الْفُؤَادِ  
أَيُّهَا أَخَذَ الْمَاءَ مِنْ \* مَتَلَبِّ الْأَخْشَاءِ صَادِي

فتفتت الجميع ثم انهمسنا في الشرب واشتغلنا في الشدو وارتفع  
الأمر عن الضبط ، والأصوات عن الحفظ ، واتفتت في أثناء ذلك مذكرات  
ومناشدات ومجاهات وافترقا \* (١) .

قال في موضع آخر يصف بعض هذه المجالس:  
استحضرنى - المهلبى - قد خلعت عليه وقد تعد للشرب فأكرهنى  
عليه ثم قال : أتمرى أحسن صنيعاً منى بك ؟ وقد نقلتك من وأحرباء إلى  
وأطرباء ، وسمعت عنده خادمة الهسى سلافاً وهو يضرب بالطنبور ويجيد  
هغنى وحسن ونه يقول المهلبى وقد شربنا عنده سَلافاً .

قَدْ سَمِعْنَا وَدَّ شَرِينَا سَلافاً \* وَجَمَعْنَا يَلُطِفُهُ أَوْصَافَا  
وشاهدت من حسن مجلسه وخفة روح أدبه ومناشده للصنهرى وطبقته ما طاب  
به الوقت وهشت له النفس وشاكل رقة ذلك الهوى وعذوبة تلك اللحن (٢)

وما تجدر الإشارة إليه أن مجالس الفناء والطرب لم تكن تخلو من  
الخمر والشراب حتى إن الأترباء كانوا يسمون بعض المغنمين بأسماء الخمر  
كسلاف وخندريس وشمول وراح وأبى الكأس وأبى الدمام . . . وما شاكل  
ذلك ليحصلوا على اللذة من جميع أطرافها .

(١) القيمة ج ٢ ص ٢٠٧ .  
(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٠٦ .

ولعل ما يذكره صاحب من مجالس الهللى الفناينة خير دليل  
على ذلك . . . قد وصفني كتابه " الرُّؤْيَا مَجْه " بعض هذه المجالس  
قال : " أنفذ الأستاذ أبو محمد - يعنى المهلى - ليلة وقد مضى الثلث  
منها فاستدعاني فقصت وألفيته قد انتهى من بستانه الكبير إلى مصيها  
من دجلة على ميادين ريحان نضرة فاستحسن الموضع وقعد فيه يشرب مع  
خدمه - أبى الكاس وسلاف وأبى المدام وشراب وخندريس وشمول وراح -  
وأمر فقصت نحو مائة شعبة في أصول تلك الميادين وقعدت فغنى سلاف :

يَا شَقِيقَ النَّفْسِ مِنْ حَكِيمٍ \* نَمَتْ عَنْ لَيْلِي وَلَمْ أَنْسِ

قال الأستاذ بل غن :

يَا شَقِيقَ النَّفْسِ مِنْ خَدِيمِي \* لَمْ يَنْمَ لَيْلِي وَلَمْ أَنْسِ  
عَنِّي مِنْ شَمْرِ نَوَى حَكِيمٍ \* يَا شَقِيقَ النَّفْسِ مِنْ حَكِيمٍ

ولم نزل نشرب الزاج إلى أن باح الصبح بسره وقام كل منا يتمثر في  
سكره . (١) .

وهن أجل ذلك كنا نجد الشعراء الفنائين يلهجون بذكر الخمر  
ويكثرون من الحديث عنها في مقطعاتهم الفناينة حتى لكان الخمر كانت من  
لوازم السماع على نحو ما نشاهده من قول ابن حجاج :

من شروط الصُّبْحِ فِي الْمَهْرَجَانِ \* خَفَّةُ الشُّفْلِ مَعَ خُلُوعِ الْمَكَانِ  
وَحُلُولِ الطَّامِ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ مَذْأَسَى بَارِدِ الْأَلْوَانِ



والمروء التي تزف إلى الأثر \* طال في ثوب صبيها الأرجواني  
 رسموا طين دنتها وهو رطب \* باسم كسرى كسرى أنوشروا ن  
 وترى سوسن الكوس عليها \* كسوة من شقائق النعمان  
 ثم خفف الطبول بين الأغاني \* واصطكاك الأتار في الميدان  
 والمعاع الذي يمل على الأس \* مع ما تشتبه بلاثرجان  
 كل صوت من اقتراحات اسحا \* ق التي زينت كتاب " الاغاني "

.....

فأنت تراه يقرن الخمر بالفناء وكأنهما شيان لسمى واحد وشاع  
 ذلك في أدب اليتيمة حتى ليندر الحديث عن الخمر دون الحديث عن الطرب  
 والفناء .. فهذا العدد الدولة كان يحب الشرب وقت السحر على صوت قطرات  
 المطر ، وأن تمنحه جوار فائنات حيث يقول :

ليس شرب الكأس إلا في المطر  
 وغناه من جوار في السحر  
 فائات سالبات للشهوى  
 ناعيات في تضامني التمر  
 مبررات الكأس من مظلمها  
 ساقيات الراح من فاق البشر  
 ضد الدولة وابن ركبها  
 ملك الاملاك غلاب القدر<sup>(١)</sup>

.....

(١) اليتيمة ( ٢ : ١٩٧ ) .

أما ابن عمه عز الدولة فكان يشرب على قطرات المطر في صحن دجلة  
من كفاغيد مشوق القوام ٠٠ وقد شبه صوت الماء بين الفصون بصوت  
القيان الراقصات حول الزامر فيقول :

إشربْ على قطرِ السماءِ القاطِرِ  
في صحن دجلةِ وأعصِ زجرَ الزاجِرِ  
مشبولةً أبدى المزاجِ بكأسِها  
هدوا نثيراً بمن نظم جواهرِ  
من كفاغيد يستبكيك إذا مشى  
بدلالٍ معشوقٍ ونخوةٍ شاطرِ  
والماء ما بين الفصون مصفّى  
يمثل القيان رقصن حول الزامر (١)

وكما تجلت مظاهر الفناء في وصف مجالس الطرب والموسيقى تجلست  
كذلك في وصف المغنين والمغنيات ، وأدوات الموسيقى والطرب ، فأكثر الشعراء  
من وصف القيان كما أكثروا من وصف الرجال المغنين وبيان أثرهم  
في النفوس ٠٠

ومن ذلك ما كتبه أبو عثمان سميد بن هاشم الخالدي يصف جارية  
سوداء مغنية يقال لها " شفى " فيقول :

إذا تخفنت بعودها شفى  
جاء سرور يفوق كل مثنى

• • •



(١) المصدر السابق ج ٢ ص ١٨٣  
(٢) " " " " " "  
(٣) اليتيمة ج ٢ ص ٣٤٧

أما عِدَانُ الْأَصْبَهَانِيِّ أَحَدُ شُعْرَاءِ فَارِسٍ فَقَدْ ابْتُلِيَ بِسَمَاعِ جَارِيَةِ قَبِيحَةِ  
الْمَنْظَرِ وَالْمَخْبَرِ فَقَالَ يَصِفُهَا يَهْجُوهَا هَجَاءً فَاحْشَا قَبِيحًا :

لَنَا قَيْنَةٌ تُحْيِي مِنَ الشُّرْبِ سُورِنَبَا  
قَدْ أَمِنُوا سُكْرًا وَخَشَوْفَ خَمَارٍ  
تُكْفِّرُ عَنْ أَنْيَابِهَا فِي غَائِبِهَا  
تَخْخِي حِمَارًا شَمَّ بِكُلِّ حِمَارٍ (١)

...

وكما وصف الشعراء القيان وصفوا المننين من الرجال وذكرهم  
في أشعارهم وبينوا تأثيرهم في النفوس والقلوب ومن ذلك قول أبي سميد الرستمي  
يصف مننيا كان مغرورا بجمال منظره وحسن غائته :

وَجْهٌ بِهِ الْجَلَنَارُ مَتَسَّمٌ \* يَفْتَرِ الْأَقْحَوَانُ مَتَسَبِقُ  
شَمْلَةٌ تَارِ مَلَاةٌ وَسَنَبَا \* يَكَادُ مِنْهُ الْجَلِيلُ يَأْتَلِقُ  
غَنَى قَطْبَى الظَّلَامِ غَرَّتَهُ \* عَنَا وَصَّصَتْ بِشَدْوِهِ الْأَفْسِقُ (٢)  
فَوَدَّتِ الْعَيْنُ أَنَّهَا أُنْ \* تَسْمَعُ وَالْأُذُنُ أَنَّهَا حَدَقُ

.....

وكان بالمراق مَنَّانٌ مشهور يقال له ( الْقُرْشِيُّ ) ويروا أنه كان قبيح  
الصوت سبى الفناء فأخذ الشعراء يهجونهم ويسخرون منه ويتندرون به ففى  
أشعارهم ولحهم قال عنه الوزير المهلبى :

(١) نفسه ج ٣ ص ٢٧١ •  
(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٨٢ •

إِذَا غَنَانِي الْقُرَشِي \* دَعَوْتُ اللَّهَ بِالطَّرَشِ  
وَإِنْ أَبْصَرْتُ غُرَّتَكَ \* فَوَا لَهْفِي عَلَى الْمَمَشِ (١)

وقال فيه أيضا :  
إِذَا غَنَى لَنَا أَمَّامًا \* حَفَّوْتُ مَسَامِي صَمًا  
وَإِنْ أَبْصَرْتُ ظَلَمَتَكَ \* كَحَلَّتْ تَوَاطِيرِي بِحَمَى (٢)

وكما سخر منه المهلبى في المراق تهكم به ابن المميد في فارس

قال عنه :  
إِذَا غَنَانِي الْقُرَشِي يَوْمًا \* وَغَنَانِي بِرُؤْيَيْهِ وَضَرَبِهِ  
وَدِدْتُ لَوْ أَنَّ أُنْزِي مِثْلَ عَيْنِي  
هَنَّاكَ وَأَنْ عَيْنِي مِثْلُ قَلْبِهِ (٣)

•••

وهناك لون آخر من الوصف تجلت فيه مظاهر الغناء في الأدب وهو  
وصف آلات الغناء وأدوات الموسيقى التي كانت شائعة في ذلك العصر  
كالعود والطنبور وطبل المزف والهم والزهر والناي وغيرها •

وفضلا عن ذلك كان بعض شعراء اليتيمة يعمدون إلى بعض  
الأدوات الموسيقية يكتبون عليها أفعارا تصفها وتصور آثارها •

ومن ذلك ما كتبه أحد شعراء الرى وهو أبو الفتح الدهاوندى على

عود :

- 
- (١) المصدر السابق ج ٣ ص ١٦١ •  
(٢) المصدر السابق ج ٣ ص ١٦١ •  
(٣) المصدر السابق ج ٣ ص ١٦٠ •

رَأَيْتَ الْمَوَدَّ مُشْتَقًا \* مِنْ الْمَوَدِّ بِاتِّقَانٍ  
(١) فَبِذَا طَيْبُ آتَايَ \* وَهَذَا طَيْبُ آدَانِ

وكتب على طنبور :

وَدَّوْحَتَا نَحْنُ أَصَحَّتْ ثَمَرَاتُهَا  
أَغَارِدَ تَجْدُبُهَا نَدَامَى وَجُلَّاسَ  
تَفَنَّى عَلَيْهَا الطَّيْرُ وَهِيَ رَطِييَّةٌ  
(٢) فَلَمَّا عَسَتْ غَنَى عَلَى عُودِهَا النَّاسَ

وكان ابن حجاج الشاعر المأجّن كثيراً ما يصف أدوات الموسيقى ويكثر  
من ذكرها في أشعاره وخاصة البَمّ والزير والطنبور مثل قوله من قصيدة يهني  
فيها عز الدولة البههي بميد الأضحي :

قَدْ صَخَبَ الْبَمُّ مَعَ الزَّيْرِ \* قَمَّ قَلِيلاً غَيْرَ مَأْمُورِ  
قَمَ هَاتِيهَا أَصْقَى - إِذَا رَفَرَقَتْ  
فِي الْكَأْسِ - مِنْ دَمْعَةٍ مَهْجُورِ  
مِنْ يَدِ عَذْرَاءَ لَهَا وَجَنَّةُ  
تَحَارُ فِيهَا أَعْيُنُ الْحُورِ  
فَأَسْعَدَ بَيَومِ الْمَيْدِ وَاجِلِسَ لَهُ  
فِي خَلْوَةٍ جَلَسَةً مَسْرُورِ  
وَضَحَّ فِيهِ بِالْذَّنَانِ السَّيِّئِ  
تَخَفَّرَ بَيْنَ الْبَمِّ وَالزَّيْرِ  
وَاسْتَحْضَرَ الْمَوَدَّ وَوَجَّهَهُ بِهِ  
حَتَّى نَصَلَ سِيَ الْبَطْنَابِيرِ

(١) تتمة البيتية ج ١ ص ١٢٩ .

(٢) " " " " " " .

الركمة الألى سرجية  
وركمة التسليم ما خورى  
وهى صلاة الميبد لايسة سوى  
تجوزى فيها وقصيرى (١)

وقال فى قصيدة أخرى يهنئ بعض الوزراء بالنجروز ويطلب منه السهر واللهو  
والسكر والسماع ويصف بعض آلات الموسيقى :  
يا من حقوق النجروز تلزمه  
رسمك يوم النجروز مشهور  
فاسكر من الليل واصطح سحرًا  
غدا تراني وأنت محفور  
واستنطق الزهر إننى رجل  
يحببني ما يقوله الزهر (٢)

•••

وهكذا أكثر شعراء اليتيمة من وصف مجالس الطرب والفناء كما أكثروا من  
وصف المهنين والمهنيات • وشاع فى أثمارهم كذلك وصف أدات الموسيقى  
وآلات الطرب وهذا يدل على تأثرهم بموجة الفناء التى كانت طاغية فى  
المجتمعين العراقى والفارسى آنذاك وظهر أثرها واضحا فى أدب اليتيمة •

- 
- (١) اليتيمة ج ٣ ص ٥٩ •  
(٢) اليتيمة ج ٣ ص ٦٠ •

ب - أثر الغناء في شعر اليتيمة

\*\*\*\*\*

لقد كان للغناء في هذا العصر أثر كبير في نمو شعر الغناء وكثرة مقطوعاته في كتاب اليتيمة كما كان له أثر بالغ في موسيقى هذا الشعر الخارجية ، والداخلية على حد سواء .

وقبل أن أتناول هذا الأثر بشئ من التفصيل ينبغي أن أعرض للملازمة التي كانت تربط الشعر بالغناء منذ القدم .

والمتبحر لتاريخ الشعر العربي منذ نعومة أظفاره يجد قد نشأ نشأة غنائية ولا أدل على ذلك من أن بعض شعراء العرب في الجاهلية كانوا يغنون أشعارهم على بعض الآلات الموسيقية كالأغصن الذي كانوا يطلقون عليه صناجة العرب لأنه كان يغنى شعره على توقيع آله موسيقية تسمى الصنج (١) واقترب الشعر بالغناء منذ الجاهلية حتى لقد كان القدماء يطلقون على الشعر كلمة " غناء " وكأنهما اسمان لمسمى واحد .

وفي الأثر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال للناطقة الجمدي اسمعني بعض ما عفا الله لك عنه من غناك (٢) يريد من شعره وفي العصر الأموي نجد الشاعر ذا الرمة يحبر عن الشعر بلفظ الغنى في قوله :

أَحَبُّ الْمَكَانِ الْقَفْرَ مِنْ أَجْلِ أَنْتَنِ  
بِهَ أَتَفَنِّي بِأَسْمِهَا غَيْرَ مُعْجِمٍ (٣)

(١) الاغانى ج ٩ ص ١٠٩ ط دار الكتب .

(٢) المقدم الفريد لابن عبد ربه ج ٤ ص ٩١ .

(٣) الحمده ج ٢ ص ٢٤١ .



وهذا يدل على أن الغناء والشعر كانا مرتبطين عند العرب برساط  
متين منذ القدم .

أما في العصر المماليكي فقد ازدادت هذه العلاقة بين الشعر  
والغناء بسبب أوزان العروض التي أحدثها الخليل بن أحمد المتوفى سنة  
١٢٠ هـ والتي كان لها أثر قوي في موسيقى الشعر حتى أن جماعة  
أخوان الصفا كانوا يقولون : إن قوانين الموسيقى مماثلة لقوانين العروض<sup>(١)</sup> .

يذكر ياقوت : أن للخليل بن أحمد صاحب العروض كتابين في  
الأصوات<sup>(٢)</sup> وهذا يؤكد العلاقة التي تربط الشعر بالغناء والموسيقى ،  
ولولا معرفة الخليل بالانقياد لما استطاع تأليف العروض .

وليس أدل على وجود هذه العلاقة بين الشعر والغناء في العصر  
المماليكي من أن كثيرا من المماليكين والمماليكات في هذا العصر كانوا يجيدون  
الشعر كما كانوا يحسنون الغناء ، ومن هؤلاء إبراهيم بن المهدي  
واسحاق الموصلي وعريب التي وصفها صاحب الأغاني " بأنها مغنية محسنة ،  
وشاعرة صالحة على علم بالنغم والآثار والرواية والشعر<sup>(٣)</sup> .

بلغ من قوة العلاقة بين المماليكين والشعر في ذلك العصر أن بعض  
المماليكين الذين لا يقرضون الشعر كانوا يقطعون المسافات الطويلة والمراحل  
البعيدة طلبا للشعر الذين يكتبون لهم أصواتا تصلح للغناء .

- 
- (١) أخوان الصفا ج ١ ص ١٤٤ .  
(٢) مجمع الأدباء ج ٤ ص ١٨٢ .  
(٣) الأغاني ج ١٩ ص ١٣٤ .

ومن ذلك ما ذكره الثعالبي عن ألْهَنْكَرِيِّ مَفْتًى سَيْف الدولة الذي  
رجل الى الشاعر ابن حجاج في بغداد ليكتب له شعرا يغنى به أمام  
الأمير فوجب به الشاعر وكتب له مقطوعة شمرية رقيقة تصلح للفناء وهي :

أعيرى يا من نَدَى كَفَّه \* يزيد على العَارِضِ الْمَطِيرِ  
أرى يَوْمَنَا يَوْمَ كَأَيْسَ تَدُو \* رُ مِنْ يَدِ ذِي دَعَجٍ أَحْمَرِ  
وَأَبْيَضَ يَحْدُوكَ سَكْرَ الْفَرَامِ \* على رَسَمِ شَارِبِهِ الْأَخْضَرِ  
بَحِيرَةٍ وَجَنَّتِهِ تَسْتَدِلُ \* على أنه من بَنَى الْأَصْفَرِ  
وَأَنَّكَ مِنْ دُونِهِ قَدْ ضَرَبْتَ \* تَ هَامَةً ذِي لَيْدَةٍ قَسِيرِ  
وشمراً ابن حجاج يا سَيِّدِي \* يَغْنَى بِهِ عَيْدُكَ الْهَنْكَرِي  
غَاءً وَشَمْرًا لَنَا يَجْمَعَا \* نَ مَا بَيْنَ زَلْزَلٍ وَالْبَحْثَرِي (١)

...

وهذا يدل على قوة الرابط بين الفناء والشعر من ناحية وبين المخبين  
والشمرا من ناحية أخرى في ذلك المصير .

وما زالت هذه العلاقة قائمة حتى عصرنا الحاضر ، وإلى عهد قريب  
كانت توجد في مصر جماعات " الأدبائية " وهي جماعات تؤلف الشعـر  
وتنشده على بعض الآلات الموسيقية ولا يزال " الشاعر " معروفًا في الريف  
إلى وقتنا هذا وهو يلقى أشعار أبي زيد الهلالي وعنترة وغيرهما مضيغًا الى  
انشاده الضرب على آله الموسيقية المعروفة باسم الربابة .

(١) اليتيمة ج ٣ ص ٤١ .

وليس هذا بدعا في الشعر المربى فقد كانت هذه الظاهرة موجودة قديما عند اليونان حتى إن الشاعر اليونانى الكبير "هوميروس" كان يغنى شعره على أداة موسيقية خاصة ، ونرى ذلك عند الغربيين المحدثين فقد كانت توجد في المصور الوسطى جماعات تولى الشعر وتغنيه وهى المعروفة باسم "تروادور" (١)

وسهما يكن من شئ فقد كانت هناك علاقة وطيدة بين الشعر والفن منذ القدم وظهرت هذه العلاقة بصورة أقوى في العصر العباسى نظرا لوجود القيان المغنيات اللواتى كن يجدن قول الشعر بجوار الفناء ، نظرا لتأثير المروض في موسيقى الشعر في ذلك العصر بصورة واضحة .

وإذا صحت هذه العلاقة ، وهى صحيحة من غير شك - فما الأثر الذى أحدثه الفناء العباسى في شعر اليتيمة ؟

وهل كان ذلك الاثر قاصرا على ألفاظ الشعر ومعانيه ؟ أم تعداهما إلى الموسيقى والأوزان ؟

الحق أن أثر الفناء في شعر اليتيمة كان عظيما ، وهذا الأثر لم يكن قاصرا على ألفاظ الشعر ومعانيه وإنما كان واضحا أيضا في موسيقى الشعر الداخلية والخارجية على حد سواء .

أما فيما يتعلق بالأمر الأول : وهو أثر الفناء في ألفاظ الشعر ومعانيه فقد كان عميقا وواضحا .

---

(١) أنظر الفن ومذاهبه للدكتور شوقي ضيف ص ٤١ .

ولقد كان لوجود القيان في المجتمع الفضل الأكبر في ذلك فقد كثر عددهن في المجتمع كثرة فائقة وتعددت جنسياتهن وقلما كن يشمسون بشيء من المهانة أو يستشمرن شيئاً من وجوب التحفظ والإحتشام بل لقد كن يتفنن في وضع الحيل التي يجذبن بها قلوب الرجال .

وفضلاً عن ذلك اشتهرت بعض القيان بالظرف واللباقة وقوة الشخصية ومعد الحيلة ، وسعة الثقافة ، والجوالة في الحديث ، والقدرة على اكتساب الرجال إلى حد تفوق فيه على الحرائر في هذه الأمور جميعاً . . . .

فلا غرابة أن يجذب قلوب الشمراء ، وسحون عقولهم حتى كثر ترددهن على بيوت النخاسين حيث توجد القيان ، واختلطوا بهن ، وأعجبوا بسحرهن ، وكثر بينهم من وقع في غرام جارية أو قينة فدفعه هذا الغرام إلى نظم الأسمار الغزلية الرقيقة التي تصلح للفناء ، وكانوا يدقمون بهنذ المقطوعات غالباً إلى أولئك القيان لتفنن بهن على مسامح الماشقين منهم ومن سواهم وقل من تغزل في هذا المصير بحرة ، ولعل هذا يفسر لنا كثرة المقطوعات الغزلية الرقيقة التي امتلأت بها اليتيمة والتي تصلح للفناء ، وقد نبه الثمالي القاري عليها ، وكأنى به كان على معرفة بالفناء ، أو لعله كان متأثراً بكتاب الاغانى الذي ألف قبل اليتيمة بقليل .

وسهلاً يكن من أمر فقد كثر هذه المقطوعات الفنائية في اليتيمية للأسباب التي ذكرتها آنفاً ، وهى تتنازع بالركة الفائقة في العبارة ، والجمال المبرط في الالفاظ كما تتنازع بجودة المعنى وبراعته . .

ومن ذلك قول المحسن بن علي القاضى التنوخى فى إحدى هوائيه  
الجوارى :

قُلْ لِلْمَلِيحَةِ فِي الْخُبَارِ الْمَذْهَبُ  
أَسَدَتْ نَمْلُكَ أَخَى التَّقَى الْمَتْرَهَبُ  
نُورُ الْخُبَارِ وَنُورُ وَجْهِكَ تَحْتَهُ  
عَجِبَا لَوَجْهِكَ كَيْفَ لَمْ يَتَلَهَّبْ  
وَجُمِعَتْ بَيْنَ الْمَذْهَبَيْنِ فَلَمْ يَكُنْ  
لِلْحَسَنِ عَنْ ذَهَبَيْهِمَا مِنْ مَذْهَبِ  
فَإِذَا بَدَتْ عَيْنٌ لَتَسْرِقَ نَظْرَةً  
(١) قَالَ الشَّمَاعُ لَهَا أَذْهَبِي لَا تَذْهَبِي

وهى غاية فى رقة الأسلوب وعذوبته وجمال المعنى وجودته .

والطف منها قول أبى عبد الله الحامدى - وهو ما يتخنى به أيضا :

قُلْ لِلْمَلِيحَةِ فِي الْخُبَارِ الْمَشْمُوسِ  
كَمْ ذَا الدَّلَالِ عَدِمَتْ كُلُّ مُحَرَّرِشٍ  
يَا مَنْ غَدَا قَلْبِي كَتَرَجِشِ طَرْفَهَا  
فِي الْحَبِّ لَا صَاحٍ وَلَا هُوَ مُنْتَشِشِ  
هَذَا الرِّبِيعُ بِصَحْنِ خَدِّكَ قَدْ بَدَا  
لِقَبْلِ وَمَقْضِي وَمَخْتِشِ  
ضَتَّى أَبْيَتْ مَعَانِقَا لَهَبَارِ  
(٢) وَلَوْدِهِ الْمُسْتَأْنِسِ الْمُتَوَشِّشِ

(١) اليتيمة ح ٢ ص ٢٢٢ .

(٢) المصدر السابق ح ٢ ص ٣٤٤ .

ثم لنقرأ هذه المقطوعة لأبي الحسن الهديهي - وهي مما يتفنى به  
كذلك - لنرى أثر الغناء في رقة الشعر وعذوبة ألفاظه وحسن معانيه :

دَرِينِي أَوَّاصِلَ لَدَّتِي قَبْلَ قَوَّتِهَا  
وَشَيْكَا لَتَوَكَّدِيْعِ الشَّيَابِ الْمَفَارِقِ  
فَمَا التَّمِيْشُ إِلَّا صَحَابَةٌ وَشَبِيْبَةٌ  
وَكَاثِرٌ وَقَرْبٌ مِنْ حَبِيْبٍ مُوَافِقِ  
وَمَنْ عَرَفَ الْإِيْمَامَ لَمْ يَفْتَرِدْ بَيْتًا  
وَمَا دَرَى بِأَلْدَاثِ قَبْلِ الْمَوَائِقِ (١)

...

وسهما يكن من شيء فقد كان لكثرة الرقيق في المجتمعين المراقبي  
والفارسي أثره المباشر في نمومقطوعات الشعر الغنائي وتعددتها في كتاب  
اليتيمة كما كان له أثره في رقة الألفاظ وسهولة الأسلوب وجمال المعنى .

ومن الشعراء العرب من كان محافظا على الروح العربية الأصيلة  
فترفع عن الغزل في القيان وقصر غزله على الحرائر من الأعرابيات أصحاب  
الخيام وصاغ فيهن مقطوعات غزلية رقيقة تصلح للغناء .

ومن هؤلاء الشريف المرتضى الذي كان يحن للهديات وله فيهن  
شعر رقيق كقوله :

أَلَا يَا نَيْمَ الرِّيحِ مِنْ أَرْضِ بَابِلَ  
تَحْتَلُّ إِلَى أَهْلِ الْخِيَامِ سَلَامِي

وَقُلْ لِحَبِيبِي فِيكَ بِمَضْنٍ نَسِيْبِي  
أَنَا أَنْ أَنْ تَشْطِيعَ رَجْعَ كَلَامِي  
وَإِنِّي لَأَهْوَى أَنْ أَكُونَ بِأَرْضِكُمْ  
عَلَى أَنْتِي مِنْهَا اسْتَقْدْتُ سِقَامِي (١)

وهو كلامٌ يُشِيرُ بِلا شرابٍ ويطرب بالاسماع كما يقول النعماني .

ومثله في عشق الحرائر والتغنى بهن أبو محمد الخازن فقد كان  
يمشق حرة من بنات نجد وكانت نجد منذ القدم تستهوى الشمراء وتغريهم  
بالتغنى بها لما تمتاز به من ارتفاع الهضاب وطيب الهواء وعذوبة الماء  
فأكثر الشمراء من ذكرها والتشبيب بنسائها قال :

حَتَّ الْمِطْنُ فِيهِ نَجْدٌ \* بَلَغَ الْمَدَى وَتَزَايَدَ الْوَجْدُ  
يَا هَذَا نَجْدٌ وَسَاكُنُهَا \* لَوْ كَانَ يَنْفَعُ هَذَا نَجْدُ  
يُمْنَحَى الْوَادِي لَنَا رَشَاءٌ \* قَدْ ضَلَّ حَيْثُ الضَّالُّ وَالرَّسَدُ  
هَذَا تَرَى بِسُيُوفٍ بَقْلَتِيهَا \* مَا لَا تَرَى بِسُيُوفِهَا الْهَيْئَتُكُ (١)

....

ولا شك أن رقة هذه المشاهد وعذوبتها وجمال أسلوبها وروعة معانيها  
أكبر دليل على تأثير الغناء العباسي في ألفاظ الشعر ومعانيه .  
ولم يكن تأثير الغناء في موسيقى الشعر الداخلية والخارجية بأقل  
من تأثيره في ألفاظه ومعانيه . . . .

(١) تنمة اليتيمة ح ١ ص ٥٢ .  
(٢) اليتيمة ح ٣ ص ٢٩٦ .

ولو ألقينا نظرة على الشعر العربي في الجاهلية لوجدناه خافلا  
بالقصائد ذوات البحور الطويلة أو المتعددة التفعيلات مثل الطويل وال الكامل  
والهسيط وغيرها من البحور الطويلة لعلامة هذه البحور لأغراض الشعر  
الجادة التي كانت سائدة في العصر الجاهلي ، وهي أغراض الحماسة  
والفخر ووصف الحروب التي كانت دائمة بين القبائل آنذاك .

وفي العصرين الإسلامي والأيوبي ظلت الأوزان الطويلة سائدة في  
الشعر العربي كما كانت في الجاهلية ولم يطرأ عليها أي تغيير يذكر اللهم  
إلا ما كان من رقي فن الرجز ، وازدهاره .

أما في العصر الممالي فقد خضعت الحياة الأدبية بوجه عام والشعر  
بوجه خاص لمؤثرات عديدة ترجع إلى تغيير طبيعة الحياة الاجتماعية بسبب  
اختلاط العرب بغيرهم من الأمم الأخرى ، ولا سيما الفرس ، وتأثرهم  
بمبادئ تلك الأمم ، وتقاليدها ، وآدابها وفنونها ، وركون الناس إلى  
حياة الدعة والترف ، وانتشار مجالس اللهو والطرب فطلعت أوزان الشعر  
العربي في ذلك العصر تلونا ملحوظا نتيجة للأسباب السابقة ، وكان من  
مظاهر ذلك التلون ميل الشعراء إلى النظم على البحور القصيرة والمجزوءة  
الصالحة للفناء ، ارضاء لأذواق الفنانين والمستمعين على حد سواء .

ذلك أن الفنانين المباسمين كانوا يحررون فن الفناء القديم ويدخلون  
فيه ألحانا فارسية ورومية (١) فاضطر الشعراء بدورهم أن يجددوا مع الفنانين  
في أوزانهم .

(١) الأغاني ج ٥ ص ٢٧٦ ج ١ دار الكتب .



ولعل هذا يفسر لنا ميل الشعراء في ذلك العصر إلى نظم الشعر على البحور القصيرة والمجزوءة التي تصلح للفناء تناسبه ، بل إن بعضهم كان يخرج في مقطعاته الشعرية على قوانين المروض التقليدية التي وضعها الخليل ليرضى أذواق المغنين .

وما هو جدير بالذكر أن هذا التجدد الذي لحق أوزان الشعر المباسى بسبب الفناء لا معنى أبدا لاختلاف الأوزان الطويلة التقليدية وانقراضها لأن أية نظرية تلقينا على دواوين الشعر المباسى تدلنا على وجود تلك الأوزان وتنوعها ، وغاية ما في الأمر أنها تراجعت إلى الوراء لتحل محلها الأوزان القصيرة التي تلائم الفناء ولم تعد تحتل المكانة المرموقة التي تبوأتها في المصور السابقة .

وسبما يكن من شئ قد أكثر الشعراء المباسيون من الوزن على البحور القصيرة أو المجزوءة كالتقارب والرمز والهزج والخفيف فإن ألم أحدهم بالأوزان الطويلة أخذ ينوع فيما يحدثه من مشطوراتها ومجزئاتها أو من اختلاف في ضربها وأعارضها ، وكأني بالخليل بن أحمد قد فتح باب الزحافات في المروض ليمدل الشعراء في إيقاعات الأوزان القديمة ونغماتها وكان هذه الزحافات خروق في الرقعة الموسيقية وضعها الخليل لينفذ منها الشعراء إلى التمديل في الأوزان التي يتطلبها الفناء المباسى (١) .

ومن الأوزان التي لاقت رواجاً في ذلك العصر وزن المجت حيث كثر في مقطعات الشعر الغنائي لقصره وسهولته وسلامته للرقص والفناء ، وكان

(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ٢٤ .

الوليد بن يزيد بن عبد الملك أول من أقترح هذا الوزن كما يقول الدكتور شوقي ضيف (١) . ان غنى فيه :

إِنِّي سَمِعْتُ بَلِيْلَ \* وَرَأَى الْمَلِكِي بَرَزْنَةً  
إِذَا بَنَاتُ هِشَامٍ \* يَنْدُبْنَ وَالِدَهُنَّ  
يَنْدُبْنَ قَرَمًا جَلِيلًا \* قَدْ كَانَ يَعْضُدُهُنَّ (٢)

وفي العصر المباسي الأول شاع هذا الوزن وكثر في أشعار المباسيين وكان مطيع بن إياس الكنانى أول من أخذه عن الوليد بن يزيد ثم تداوله الشعراء في عصره كشار وأبي نواس وأبي المتاهية وأضرابهم .

وفي القرن الرابع الهجري شاع هذا الوزن في الشعر الفنائي وظاهر أثره في المقطوعات الفنائية التي اختارها الثعالبي في اليتيمة كقول أبي الفتح ابن المميد في مقطوعة غائية على هذا الوزن :

يَا مُوَلَّعًا بِعَذَائِي \* أَمَا رَحِمْتَ شَبَابِي  
تَرَكْتُ قَلْبِي قَرِيحًا \* تَهَبِ الْأَسَى وَالتَّصَابِي  
إِنْ كُنْتُ تَتَكَّرُ مَا بِي \* مِنْ ذِلَّتِي وَاكْتِنَابِي (٣)  
فَارْتَعْ قَلِيلًا قَلِيلًا \* عَنِ الظُّلَامِ ثِيَابِي

كما شاع في اليتيمة كذلك مجزؤه الرمل لخفته وسهولته وحسن نغمته وصلاحيته للفنائه كقول القاضى التنوخي :

- 
- (١) المصدر السابق ص ٥٩ .  
(٢) المصدر السابق ص ٥٩ .  
(٣) اليتيمة ح ٣ ص ١٦٤ .

بَاتَ يَمْقِنِي بِمَرْبٍ \* ذَهَبًا لِلَّهِمْ مَذْهَبٌ  
شَادَنْ يَحْمِلُ مَاءً \* فِيهِ نَسَارَتُهُمْ  
وَدَّةٌ ضَاكِكَةٌ عَسَن \* أَقْحَوَانِ حَمِينِ يَقْطُبُ  
لَوْ أَذْرَنَاهَا عَلَى مَيْمَن \* لَكَانَ الْكَيْتُ يَطْرَبُ (١)  
لَيْتَ يَتَمَرَّى أَسْرُورًا \* أَمْ مَدَامَا يَتُ أَشْرَبُ

ويقول أبي بكر الخالدي في مقطوعة أخرى على هذا الوزن :  
بِأَشْبِهِهِ الْبَدْرِ حُسْنًا \* وَضِيَاءًا وَبِشَا لَا  
وَشَبِيهِ الْفَصَنِ لِينًا \* وَقَوَامًا وَاعْتِدَالًا  
أَنْتَ مِثْلُ الْوَدِّ لَوْنًا \* وَنَسِيمًا وَكَلَالًا  
زَارِنًا حَتَّى إِذَا مَا \* تَمَرَّنَا بِالْقَرَبِ زَالَا (٢)

.....

وكثر في البيتية أيضا وزن الرجز لقصره وسرعه وملاءمته للرقص والغناء كقول المصطفى الرضا يصف الروض والخمر والموسيقى وبعض مظاهر الطبيعة كقوس قزح :

إِنْ عَن لَهْوٍ أَوْ سَبْحٍ \* فَاعْدُ إِلَى الرَّاحِ مَرَحٍ  
رَضِيَتْ أَنْ أَحْظِيَ بِمِيزَانِ الْكَاسِ وَالْحِظِّ يَنْبَحُ  
وَصَاحِبُ يَفْقِدُ لَيْسَ \* تَارَ السَّرِيرِ بِالْقَدَحِ  
فِي رَوْضَةٍ قَدْ لَبَسَتْ \* مِنْ لَوْلُؤِ الْبَطْلِ سَبْحُ  
أَوْظَلُّهُ بِالْمَرْوِيِّ أَوْ \* يَوْظَلُّنِي إِذَا صَدَحُ

(١) البيتية ج ٢ ص ٣١١ .  
(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ١٧٤ .

وَالْجَوِّي مَسَّكَ \* طَرَّازُهُ قَمُوسُ قُلُوحٍ (١)

.....

وهما يكن من شئ ، فقد كان تأثير الغناء في موسيقى الشعر عظيما ، وقد تجلّى ذلك بوضوح في ميل شعراء اليتيمة إلى النظم على البحور القصيرة كالمجتث ونحوه من البحور المجزوءة التي تصلح للغناء والعزف عن البحور الطويلة التي تلائم الموضعات الجادة ، وكان هذا كله أثرا من آثار الغناء في موسيقى الشعر وأوزانه .

وليس هذا كل ما صنمه الغناء به شعر اليتيمة فقد أثر فيه من جانب آخر وأعطى به الموسيقى الداخلية ، وإذا كان للشعر العربي موسيقى خارجية ممثلة في الوزن والقافية فإن له موسيقى داخلية تقوم على أساس اختيار الكلمات وتجانسها من جهة ثم المشاكلة بين أصوات الكلمات والمعاني من جهة أخرى .

وإذا كانت معرفة الموسيقى الخارجية وقوام ضبطها تقوم على أساس علم العروض فإن الموسيقى الداخلية للشعر ليست لها ضوابط معينة ولا قواعد معروفة ، وإنما مدار ذلك على الذوق السليم والملكة الناضجة والممارسة الطويلة ، وقد برع شعراء اليتيمة في اختيار الألفاظ وتنقيتها الأساليب ، وتجانسها فجاءت سهلة سلسة ممتعة ، ولنقرأ هذا النص للخياز البلدي لنلمس فيه أثر هذه الموسيقى في الشعر الغنائي حيث يقول :

ورضية بات طَلُّ الْغَيْثِ يَنْسَجِبُهَا  
حتى إذا تَجَتَّ أضحى يَدَبُجُهَا

(١) اليتيمة ج ٢ ص ١٥٢ .

هَكَى عَلَيْهَا بَكَاءَ الصَّبِّ فَارْقِسُ  
إِلَى فُضْحِكِهَا طَوًّا صَحْبِهَا  
إِذَا تَنَفَّسَ فِيهَا رِيحُ تَرْجِسِهَا  
تَأَغَى جَنَى خُرَامَاهَا بَنَفْسِهَا  
أَقُولُ فِيهَا لِسَاتِنَا وَفِي يَمِينِهِ  
كَأَنَّ كَشْمَلَةَ تَسَارٍ إِذْ يَوَجَّهَهَا  
لَا تَمُزَّجُهَا بِنَسِيرِ الرِّيحِ مِنْكَ وَإِنْ  
تَنَحَّلَ بِذَلِكَ قَدَمَيْهِ سَوْفَ يَمُزَّجُهَا  
أَقْلُ مَا بَى مِنْ حَبِيكَ أَنْ يَسْدَى  
إِذَا دَنَتْ مِنْ فَوَادِي كَادَ يَنْفِجُهَا (١)

.....

وقد تنبه نقادنا القدامى إلى وجود هذه الموسيقى في الشعر ونوهوا  
بها وأوصوا الكتاب والشعراء بمراعاتها وإن لم يضعوا لها إسماء يدل عليها .  
ومن هؤلاء الأمدى في الموازنة ، فقد وصف شعر البحترى " بأنه صحيح المبك  
حسن الدنيا لئلا يفسد فيه سفساف ولا ردئ ولا مطروح (٢) " .

ومنهم الجاحظ الذي أوصى الأدباء بتصنيف أساليبهم واختيار ألفاظهم  
وأرشدهم إلى مواقع الكلمات واستعمالها وما يحسن منها وما يستهجن (٣) .

أما عبد القاهر الجرجاني فقد تحدث عنها في أكثر من موضع فسمى  
كتابه " أسرار البلاغة " و " دلائل الإعجاز " وحاول في أسرار البلاغة أن

- (١) البيتية ح ٢ ص ١٩١ .  
(٢) الموازنة بين الطائيين ص ٣ .  
(٣) البيان والتبيين للجاحظ ح ١ ص ٢٠ .

يخضع هذه الموسيقى الداخلية أو قواعد النظم إلى قواعد علم الهلافة وأصولها  
نصر جمال الشمر عنده يرجع إلى استمارة وقعت موقعها أو أصابت  
فرضها أو حسن ترتيب تكامل معه البيان حتى وصل إلى القلب مسج  
وصول اللفظ إلى السمع ، واستقرى الفهم مع وقوع العبارة في الأذن ، وإلى  
سلامة الكلام من الحشو غير المفيد والفصل الذي هو كالزيادة في التحديد .

أما في دلائل الإعجاز فقد أرجعها إلى قواعد علم النحو فجمال  
الشمر مصدره التقديم والتأخير والتعريف والتذكير والحذف والإضمار  
والإعادة والتكرار وتوضي وجها من الوجوه التي يقتضيها علم النحو (١) .

وسواء أكانت هذه الموسيقى الداخلية خاضعة لقواعد النحو أو لعلم  
الهلافة أو كان أساسها الذوق والممارسة فإن شمراء البيتية كانوا يراعونها  
في أشعارهم ففقت ألفاظهم وحسن موقعها في السمع ولصقتها بالفؤاد ،  
وما ذلك إلا أثر من آثار الغناء في الشمر العباسي فأصبح على هذه الصورة  
التي نشاهدها في المقطوعة الآتية للمصري الرفساء والتي قال عنها الثعالبي  
وما أروى أحسن ولا أشرف ولا أعذب ولا ألطف من قول السري :

قسمت قلبي بين الهَمِّ والكَمِّ  
وَقَلَّتْ بَيْنَ قَهْرِ الدَّعِ وَالسَّهْرِ  
ورحت في الحسن أشكالا مَقْسَمَةً  
بين الهَلَالِ وَبَيْنَ الْفَضْلِ وَالْمَقْدِ  
أرهنى مطراً يَنْهَسِلُ سَاكُتُهُ  
من الجُفُونِ هَرَقًا راح من بَرْدِ

(١) أسرار الهلافة ص ٢٢١ .

(٢) انظر دلائل الإعجاز ص ٦٥ وما بعدها .

ووجنتي لا يروى ماؤها ظمسي  
بُخلاً وقد لدعت نيرانها كبدى  
تكيف أبقي على ماء الشؤون وما  
أبقى الفراء على صبرى ولا جلدى (١)

وهما يكن من أمر قد كان لشعر الفناء وانتشاره في المجتمعين  
المعراقى والفرسى أثره الواضح في أدب البيتية وقد تجلّى ذلك الأثر في  
عدة أمور : منها وصف مجالس الطرب والفناء ، ووصف المغنين والمغنيات  
ووصف أدوات الفناء وآلات الموسيقى .

وفضلاً عن ذلك كان للفناء أثر آخر في نموظات الشعر الفنائى  
وكثرتها في البيتية ، كما كان له أثره الواضح في موسيقى الشعر الخارجية ،  
وموسيقاه الداخلية على حد سواء حيث عهد الشعراء إلى النظم على البحور  
القصيرة والمجزوءة والمولدة التي تصلح للفناء كما حرصوا على اختيار ألفاظهم  
وتفقيتها من الشوائب والمحبوب فجاءت ألفاظهم غاية في رقة الأسلوب ،  
وجمال العبارة وجودة المعنى هراغة وكان ذلك كله أثراً من آثار الفناء في  
أدب البيتية .

---

(١) البيتية ج ٢ ص ١٤١ .

(( الفصل الرابع ))

== المجون وأثره في أدب النهضة ==

=====



## :: المجنون وأثره على أدب اليتيمة ::

\*\*\*\*\*

"إذا بحثنا عن المعنى الدقيق للمجون في اللغة استطعنا أن نحدد بالضبط المقصود بشعر المجنون ، والأفراض التي كان يخوض فيها ومن الشعراء الذين يمكن أن نطلق عليهم اسم شعراء المجنون .

وقد جاء في اللغة : مَجَنَّتِ الأرض مجونا إذا صلبت وظلّت ومنه جاء اشتقاق كلمة ماجن لصلابة وجهه ، وقلة استحيائه .

والمجانة أيضا معناها : ألا يبالى الإنسان بما صنع ولا بما يقال له وقد قيل : إن الماجن عند العرب هو الذي يرتكب القابح المزبلة ، والفضائح المخزية ، ولا يمنعه عذل من يعذله ، ولا تقريع من يقرعه .

ومن هنا نعرف المجنون بأنه ارتكاب الأعمال المخلة بالآداب العامة والمرف والتقاليد دون تستر أو استحياء ، وهذا التمرين نجد أن المجنون ظاهرة خطيرة في أي مجتمع إنساني خاصة إذا انمكس في شعر هذا المجتمع (١) .

وقد عرف المجنون عند العرب منذ أواخر الدولة الأموية حيث اشتهر أحد خلفاء هذه الدولة وهو الوليد بن يزيد بشرب الخمر ، وعرف بالخلاعة ، وجهر بالمجون وتغنى بذلك في شعره خارجا عما ألف بنو أمية ، وما ألف

---

(١) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ص ٢٠٤ ط دار المعارف بمصر .

المرب من الجد والوقار وقد أدى الوليد ثمن هذا التحلل وكان دمه هو الثمن (١) .

وعندما اختلط المرب بالفرس بعد قيام الدولة العباسية ولانست الحياة العربية بعد الخشونة بدأ المجون ينشط من عقاله ويستشرى خطره في المجتمع العباسي . . . بيد أن ذلك كان في نطاق ضيق وفي بيئات محدودة . . . حيث كان قاصرا على حفنة من الخلعة والفاسق أمثال :  
بشار وأبى نواس والهاء بن الحباب ومطيع بن إياس والحسين بن الضحاك وأضرابهم .

وكان معظم هؤلاء ينتمون إلى أصل فارسي وكانوا يمارسون المجون في تستر وخفاء حيث كان المجتمع ينهذهم والسلطان يطاردهم ورجال الدين يسمون في هلاكهم ، ولم يكن المجون في ذلك الوقت يمثل ظاهرة اجتماعية عامة .

أما في القرن الرابع الذي نؤرخ له ونرصد ظواهره الاجتماعية والأدبية - بعد أن أصبحت السيادة في يد الفرس من بني بهيم فقد عظم المجون واستفحل أمره ونشطت شياطينه وتعددت رجاله وصار شيئا مألوفاً في المجتمعين المراتقي والفراسي لا ينكره المرف ولا تعارضه السلطة ففكرت مواطنه وتعددت أماكنه وأصبح يمثل ظاهرة اجتماعية عامة .

فد لنا على ذلك ما تحدث به القدسي الرحالة المشهور عن مدينة

---

(١) خصام ونقد ص ١٥٣ د . طه حسين طبع في بيروت .

الموسى إحدى المدن الفارسية إذ قال : ترى دور الزنا عند أبواب الجامع ظاهرة ثم لا ترى لقرائهم ولا لمشايخهم هيبة ، ولا لمذكرهم قيمة ولا حسبة مقطمون أوقاتهم بالرقص (١) .

وفى موضع آخر يتحدث عن أهل شيراز فيقول : عدولهم لوطية وتجارهم فسقة ، وسلاطينهم ظلمة يدخلون الحمامات بلا مأزر ولا تسمى على مجوسى غيارا ولا لصاحب طيلسان مقدارا ولقد رأيت أهمل الطيالمس سكارى ويلبسه المكدون والنصارى فيه دور الزنا ظاهرة ورسوم المجوس مستحيلة وفى المقابر مجتمع الفساق (٢) .

يبدل على ذلك أيضا ما يذكره التوحيدى عن كثرة المغنمين والمغنيات فى بغداد سنة ستين وثلاثمائة إذ قال :

" وقد أحصينا ونحن جماعة بالكرخ أربعمائة وستين جارية فسى الجانبين ومائة وعشرين حرة وخمسة وتسعون من الصبيان البدور يجمعون بين الحذق والحسن والظرف والمشرة هذا سوى من كنا لا نظفر به ولا نصل إليه لمرته وحرسه ورقبائه (٣) .

يبدل على انتشار المجون كذلك ما يحكيه الثعالبى فى يتيمة من " أن القاضى التنوخى كان يشرب الخمر وينادم الوزير المهلبى فى جلسة القضاة الذين كانوا ينادونه مجتمعون عنده فى الأسبوع ليلتين على أطراح

(١) أحسن التقاسيم ص ٤٠٧ .

(٢) نفسه ص ٤٢٩ .

(٣) الامتاع والموائسة ج ٢ ص ١٨٣ .

الحشمة والتهسط في القصف والخلاعة وهم ابن قريعة وابن معروف والقاضي  
التنوخى وغيرهم وما منهم إلا أبيض اللحية طليها وكذلك كان الوزير المهلبى  
فإذا تكامل الأنس ولذ السماع وأخذ الطرب منهم مأخذ ه وهبوا شوب  
الوقار للمقار وتقلبوا في أعطاف الميى بين الخفة والطيش وضح في يد كل  
واحد منهم كأس ذهب من ألف مثقال إلى ما دونها مملوء شرايا قطر بلحا ه  
أو عكبريا فيمنس لحيته فيه بل ينقعها حتى تشرب أكثره ويرش بها ه  
بعضهم على بعض ويرقصون أجمعهم وعليهم المصفحات وخانق البرم وأياهم  
عنى السرى الرقاء بقوله :

مَجَالِسُ تَرْقُصُ الْقَضَاةَ بِهَا  
يَا إِذَا انْتَشَرُوا فِي مَخَانِيقِ الْبُرْمِ

فإذا أصبحوا عادوا لمادتهم من الترمز والتوقر والتحفظ بأبهة القضا ه  
وحشمة المشايخ الكبراء (١) .

وهكذا انصرف أفراد المجتمع عن حياة الجد والوقار التى كان  
يحياها العرب من قبل ه وأقبلوا بشغف على هذه الحياة المايضة الماجنة ه ه  
متأثرين فى ذلك بالروح الفارسية التى تنشد اللذة وتقدم الشراب ه وأخذوا  
يمارسون هذه اللذات علانية دون خوف أو حياء ه ه وكان يحلو لهم أن  
يسموها بأسمائها الصريحة دون كناية أو تمريض لأنهم كانوا يجمعون بين  
لذتين فى وقت واحد لذة السماع ولذة الممارسة ه ه ولعل رائدهم فى ذلك  
أبونواس عندما قال قبلهم :

(١) الليثية ج ٢ ص ٣٠٩ ه

أَلَا فَاسْقِنِي خَيْرًا وَقُلْ لِي هِيَ الْخَيْرُ  
وَلَا تَشْقِنِي سِرًّا إِذَا أَمَكَنَ الْجَهَنُّ (١)  
...

وأقبل الشعراء بدورهم على هذه الحياة الجديدة الناعمة يرتشفون  
من رحيقها وغترفون من بحرها وملنون سخطهم وتبؤهم بالحياة المريرة  
الخشنة .

يقول أبو بكر الخالدي معبرا عن هذا التحول الذي طرأ على  
الحياة المربية في فارس والمراق :

لَا تُطْنِبِينَ فِي بَكَاءِ النَّوَى وَالطَّنِيبِ  
وَلَا تُحَيِّ كَتِيبَ الْحَيِّ مِنْ كَتَبٍ  
وَلَا تَجِدْ بِنَامٍ لِلنَّمَامِ وَلَا « تَسْمَعْ لِرَبِّ الْمَهَا بِالْوَاكِفِ السَّرِّ  
رِيحُ تَمَعَى فَأَعْفَى مِنْ جَوَى وَأَسَى  
قَلْبِي وَكَانَ إِلَى اللَّذَاتِ مُنْقَلَبِي  
سَيَانَ بَانَ خَلِيطُ أَوْ أَقَامَ بِهِ  
فَاتِمَا أَعَابِرُ الْبَيْدَاءِ كَالْخَرِبِ  
أَبْهَى وَأَجَلُّ مِنْ وَصْفِ الْجَمَالِ وَمِنْ  
إِدْمَانِ ذِكْرِ هَوَى يَهْوَى عَلَى قَنْبِ  
مَدِّ الْهِنَانِ إِلَى كَأْسِ عَلَى سَكْرِ  
وَرَفْعِ صَوْتِ بَطْرِيبٍ عَلَى طَرَبِ  
حَمْرَاءُ حِينَ جَلَسَهَا الْكَاسُ نَقَطَهَا  
مَزَاجَهَا بِدَنَانِ سَمِيرٍ مِنَ الْحَبِّ

كانت لها أرجل الأعلاج وإنيرة  
بالدوس فانتصفت من أروم العرب  
يوس إليك بأطراف مطرفية  
بها خضبان للمنايا والمنايا (١)

.....

وإذا كان أبو نواس قد سبقهم إلى هذا الاتجاه حين زهد في  
بكا الأطلال والغزل بالأغرابيات والانصراف عن حياة العرب وطريقتهم في  
بناء القصيدة وأكثر من ذلك في شعره (٧) فإن الدافع إلى ذلك عند أبي نواس  
كان جده مختلف عنه عند هؤلاء القوم من شعراء القرن الرابع ..

كان أبو نواس شمويا يتمصب للفرس ويحتقر العرب فهو حين يزهد  
في بكا الديار لا يفعل ذلك رغبة في التجديد بقدر احتقاره للمعرب  
ولطريقتهم في بناء القصيدة والمحافظة على عمود الشعر ، وهو حين يتصرف إلى  
تقديم الخمر والتسبيح بحمدها لا يفعل ذلك إلا حبا لأجداده من الفرس  
الذين كانوا يقدمون الخمر والشراب ..

ذلك أن عادة الشراب عند الفرس قديمة جدا ترجع إلى طقوسهم  
الدينية الوثنية التي كانت شائعة قبل الإسلام فقد كانوا يتناولون من أجسل  
آلهتهم عصيرا مسكرا يستخرجونه من عشب " الهوما " الذي يكثر على سفوح  
الجبال في بلادهم ... وعلى الرغم من استياء نبيهم ( زرادشت ) من  
هذه الوثنية ظلت عادة تقديم شراب ( الهوما ) المسكر متبعة في الديانة

(١) الهيتية ج ٢ ص ١٧١ .

(٧) انظر ديوان أبي نواس ص ٤٣ ، ١٨٠ ، ١٨١ .

( الزرادشتية ) إذ كان على الكاهن أن يشرب جزءاً معلوماً من هذا المصير المقدس وأن يقسم الباقي على الحاضرين من المؤمنين في أثناء تأديس الطقوس الدينية (١) .

ولعل هذا ما يفسر لنا تقديس أبي نواس للخمر وضعته إياها بالأسما<sup>٢</sup>  
الحسنى . .

أما شعراء القرن الرابع فلم يكن الدافع عندهم احتقار العرب والزهد في طريقهم من قبيل التعصب لبني جنسهم كأبي نواس . . وإنما كان الدافع ميولا حقيقية إلى الميث والمجون والميل إلى الحياة الجديدة الناعمة والهمد عن الحياة العربية الجادة : فانصرفوا عن الجهاد في سبيل الله إلى هذه الحياة المائتة ، وأعلنوا ذلك في أشعارهم كقول ابن حجاج الشاعر الماجن :

الشُّرْبُ لَا الْحَرْبُ عَادَتِي وَمَعِي  
سَنَةُ رَهْطٍ جُنْدٍ صَنَادِي  
الْدَّنُّ وَالرُّطْلُ وَالشَّمَّةُ وَالنَّقْلُ  
وطهّل التَّكْرِيجَ وَالْمَوْدُ (٢)

.....

ومن حق المرء أن يتساءل عن الأسباب الحقيقية التي جعلت المجون في هذا العصر يشكل ظاهرة خطيرة لم يسبق لها مثيل ، وجعلت أفراد المجتمع يتكالبون عليه إلى هذا الحد المزعج . .

(١) الأدب في ظل بني بويه ص ٢٥٨ .

(٢) الهزيمة حد ٣ ص ٥٦ .

والدارس للحياة الاجتماعية في ذلك العصر في إقليم فارس والعراق  
دراسة واعية يجد أن ذلك يعود إلى عدة أسباب مختلفة ومتشابهة :

بعضها سياسى يرجع إلى طبيعة الحكم الفارسى الذى سيطر على  
مقاليد الأمور في فارس والعراق وساعد على إحياء التقاليد الفارسية  
الدارسة . . تلك التقاليد التى تحمل بين طياتها تجارب أمة تختلف  
حياتها تمام الاختلاف عن حياة العرب الجادة القويمة .

بعضها دينى يرجع إلى ظهور مذاهب شاذة هدامة بليلت الأفكار  
في المجتمع الإسلامى وعلى رأسها مذاهب الزنادقة والدهريين كما أن  
وجود أديرة النصارى في بلاد المسلمين كان له أكبر الأثر في رواج المجون  
حيث اشتهرت هذه الديارات بالخمر الممنعة والجوارى الحسان الأسرى  
الذى جعلها موطن جذب لذوى الخلاعة والمجون .

بعضها اجتماعى يعود إلى انتشار دور الرقيق في العراق وفارس  
تلك الدور التى كانت تمتج بالقيان والفلماني وكانت مأوى للمباشين  
والفاسدين من طلاب اللذة وعشاق المجون .

وهناك عامل اقتصادى لا يقل أهمية عما سبقه فقد كان للتفاوت  
الطبقي وسوء توزيع الدخل في المجتمع أثره المباشر في انتشار الأمراض  
الخلقية التى تعمل على تفنخ المجتمع وانحلاله . . . فالغواغ القاتل يحمل  
الأغنياء على العبث وكثرة الأموال في أيديهم تدفعهم إلى الإسراف في  
اللذة والتكالب على الشهوات . . . كما أن الفقر المدقع قد يدفع بعض



الناس إلى التضحية بالكرامة والشرف في سبيل الحصول على القوت .

وهناك سبب نفسي خاص بإقليم العراق . . حيث كان هذا الإقليم إلى وقت قريب أقوى وأغنى أقاليم الدولة الإسلامية الواسعة وكان مركزا لحكومة قوية ذات جيوش ضخمة ومراكب فخمة تجبى إليها الضرائب من شتى بقاع العالم الإسلامي آنذاك فلما انفصلت الولايات الإسلامية عن بغداد في القرن الرابع واستقلت عن الحكومة المركزية في العراق . . . . . قد هذا الإقليم ثراءه المريع وبطاهه الواسع ، وشعر أهله بالمرارة وخيبة الأمل والإحباط ، وتحول الإقليم إلى مسرح للملاهي والآسى ، وأنجب أكبر شاعرين من شعراء المجون في الأدب العربي وهما ابن حجاج وابن سكرة البهاسي . . . . .

وأخيرا هناك سبب شخصي خاص بشعراء المجون في العراق حيث ازدهر هذا الإقليم في ذلك العصر بعدد ضخم من الشعراء العظام أمثال : ابن نهانة والشريف الرضي والسامري والصابي وغيرهم وهذا ما جعل الطريق إلى جوائز المدح حين وعه شائكة .

ذلك لأن المدح الجاد يحتاج إلى كد الذهن وإرهاق النفس وأعداد خاص ، وهذا ما دفع بعض الشعراء في هذا الإقليم أن يتنحوا عن هذا الطريق الجور وأن يحاولوا الوصول إلى قلوب المدحيين بواسطة أخف وأرخص من سابقتها وهي الترفيع عن الأمراء بشىء من الفكاكة والدعاية والمجون . . . . . فما على الشاعر إلا أن يضحك مدحهم ببعض المسخافات

وينال من بعد ذلك ما يشاء - كما يفعل الممثل الهزلى فى المصر الحديث - حيث يضحك الجمهور بهمض التفاهات وشىء من التمرجج للرخيص ويصل من خلال ذلك إلى عالم الغيبة والباطل الحريص .

ولعل ابن لنكك الهصرى لم يتجاوز هذه الحقيقة عندما قال:  
يا طالبها بالملم حَقًّا مسعدا  
فى ذا الزمان رأيت رأى مَعْرِيقِ  
انطأ عليم فى زمان جَهَّالِيَّةٍ  
ترجو ودهر عسى وسُخْفٍ مَطْلَبِ  
كن ساعيا ومُصَافِعا ومُضَارِطًا  
تتل الرغائب فى الزمان وتنفق (١)

...

كل هذه العوامل مجتمعة كانت سببا فى انتشار المجون فى هذا المصر فراجت تجارتها ونفت بضاعه وتمددت مواطنه وكثر أنصاره وأصبح يمثل ظاهرة اجتماعية خطيرة، وشاعت فى المجتمع الفاظ القبح والمقانر وأصبحت مقبولة عند الخاصة والعامة حتى قال قائلهم عن ابن حجاج وابن سكرة وهما من أكبر شعراء المجون فى الأدب المصرى " إن زمانا جاد بابن المحجاج وابن سكرة لسخى جدا " (٢) .

إنها البيئة الاجتماعية شاذة تلك التى نتجت هذا اللون من الأدب الساخن الذى نقرؤه لابن حجاج وابن سكرة وابن لنكك والجوهري وغيرهم ..

---

(١) البيتة ح ٢ ص ٣٢٣ .  
(٢) المصدر السابق ح ٣ ص ٣ .

والأعجب من ذلك أن هذا اللون الخليج من الأدب قد تغفل  
فى الأوساط الاجتماعية وراج رواجاً عظيماً عند الخاصة والعامة حتى أن  
ذوى المناصب العليا فى الدولة لم يكونوا يتخرجون من إظهار الكلام  
القبيح فى المجالس العامة ولم يكونوا يتورعون أن يمبروا عن أقبح المعانى  
فى أحشأ الألفاظ فيما ينظمون أو يكتبون أو ينطقون ••

قد روى عن الوزير حامد بن المباس أنه كان لا يرد لسانه  
عن أحد ألفتة • وكان إذا غضب شتم وكان يقول : نحن فى السواد إذا  
ظلمنا خصومنا قلنا قد نلنا أمهاتهم (١) •

صحكى عن الوزير سليمان بن الحسن فى حوالى سنة ٣١٩ هـ أنه  
أظهر من سخف الكلام وضرب الأمثلة المضحكة وإظهار اللفظ القبيح بين  
يدى الخليفة ما يجل الوزراء عنه (٢) •

وكان صاحب بن عباد على جلالة قدره وعظم منصبه يستعمل نفس  
وصفه وهجائه أحشأ الألفاظ (٣) •

وكان الصابى على وقاره وتحشمه إذا هجا أتى بالفاظ فاحشة  
مقدمة (٤) •

وكان الوزير ابن سعدان الفيلسوف الكبير يطلب من أبى حيان أن  
يجعل إحدى لياليه مجزية • ومعد أن يتمه أبو حيان بالوان من

- 
- (١) نشوار المحاضرة ج ٨ ص ٤٩ •  
(٢) الحضارة الإسلامية امتز ج ٢ ص ١٢٦ •  
(٣) الهتيمية ج ٣ ص ٢٤٣ • ٢٤٤ •  
(٤) نفسه ج ٢ ص ٢٦١ • ٢٦٢ •

المجون الداعر شعرا ونثرا يقول له " قدم هذا الفن على غيره وما ظننت أن هذا يطرد في مجلس واحد (١) .

والأغرب من ذلك أن يصل بهم السخف إلى أن يعقدوا موازنة بين الفيلمان والنساء وأيهما أحظى عند الرجال ؟ . فقد كتب أبو سحر الفرج بن هندو أحد أدباء فارس في ذلك العصر رسالة هزلية طويلة في ذلك بمنزلة " الوساطة بين الزناة واللاطحة " ، وحاول فيها أن يفصل الفيلمان على النساء مستشهدا بأدلة عقلية وعقلية كما كان يفعل أبو نواس من قبل (٢) .

والأشد غرابة من ذلك أن النساء لم يكن بمنزل عن الخوض في المستنقع الآسن فقد روى الثعالبى أنه " كانت بهمذان شاعرة مجيدة تعرف بالحنظلية خطبها أبو علي كاتب ديار بكر فلما ألح عليها وألحف كتب إليه بيتين غاية في الفحش والإفذاء لفظا ومعنى وعلى الرغم مما فيها من خلعة ومجون أعجب بهما صاحب بن عباد أعجابا شديدا وعلق عليهما بقوله " هذه والله في هذين البيتين أشعر من كبشة أم عمرو والخنساء أخت صخر ومن كموب الهندلية " وليلى الأخيلية (٣) .

وهما يكن من شيء فقد شاع هذا اللون من الأدب في المجتمع وتقبله الناس قبولاً حسناً وأقبل الشعراء عليه قصداً للتلمية والمزاح

- 
- (١) الانتاع والموانسة ح ٢ ص ٦٠ .  
(٢) تنمة اليتيمة للثعالبى ح ١ ص ١٤٤ .  
(٣) اليتيمة ح ٣ ص ١٤٤ .

وتنفيها عن القلق والتماسة التي يشمر بها المجتمع المغلوب على أمره ..  
حيث تشمر هذه المجتمعات بحاجتها الملحة إلى التنفيس عن شموهها  
بخصية الأمل خاصة تلك المجتمعات التي وصلت إلى درجة معينة من  
الحضارة كالمجتمع المباسي آنذاك .

" وإذا كان هذا الميل إلى اللهو والفرح قد ترك صداه عند  
الرومان في المصارعة ونحوها من ألوان المبهت ووجد اليه تنفيسا فيها  
شاع بيننا من تشبيل هزلي فإنه أثناء تلك المصير قد وجد في الشعر  
العربي أسير أداة لتحقيق أهدافه " (١) .

قد تلون أدب هذا المصير بلون مآجن خليج لم يشهده من  
قبل ولا من بعد وربما كان كتاب البتيمة لأبي منصور الثعالبي الذي هو  
موضوع بحثنا - خير ما يمثل هذه الظاهرة الاجتماعية الخطيرة قد أكتسب  
الثعالبي في يتيهته من إيراد الشواهد التي تصور هذا الجانب المأبث في  
حياة الناس عموما وحياة الأدباء على وجه الخصوص واستباح لنفسه في هذا  
الصدد أن يورد أمثلة ومختارات غاية في الفحش والإفداع .. فهو حين  
يترجم لشمراء وكتاب هذا المصير يعني كثيرا بأخبار لهوهم وسجونهم ويركز  
كثيرا على الجانب المأبث من أخلاقهم مستشهدا على ذلك من شمرهم  
بالنماذج الصارخة والفاجرة .

ويخيل إلى أن أبا منصور كان يعتمد هذا الأمر اعتمادا إرضاء  
لذوق المصير ، واستجابة لرغبات الجماهير التي كانت تتمطية إلى هذا

---

(١) الشعر العربي بين الجبود والتطور ص ١٢٢ ومحمد عبد المزيئر  
الكفراوي - .

النوع من الأدب الخليع فكانت تفضله على غيره وتوثقه على منواه ..

وليس من حق أحد أن يلوم الثعالبى على ذلك .. أو يعيبه على هذا الاتجاه فقد كان الرجل أديبا في نقل أخبار مصر وتسجيل ظواهره الاجتماعية والأدبية بما فيها من خير وشر \* ذلك أن تاريخ الأدب لا يعنيه في الدرجة الأولى إلا أن يسجل الظواهر الأدبية ويشرحها ثم يربطها بمثلها الاجتماعية والتاريخية والإقليمية ولا يعنيه بعد ذلك أن كانسبت هذه الظواهر خيرا أو شرا ، فهو يقرر ما هو كائن لا ما ينبغي أن يكون<sup>(١)</sup>

ولو أن الثعالبى أغفل هذا الجانب في حياة المجتمع لكان كتابه ناقصا مهتورا لا يمثل عصره أصداق تشيل ..

ومن الإنصاف للثعالبى وتاريخ الأدب العربى أن أقرر أن أدب المجون الذى أتحدث عنه والذى سجله الثعالبى فى يتيقته ينقسم إلى لونين مختلفين وتباينين :

أحدهما : مباح مقبول والآخر فاحش مخيف .

فأما الأول فهو ذلك اللون من المجون الذى لا يؤذى الشاعرا ولا يخذش الحياة وهو معروف فى الأدب العربى من قديم وقد سجل لنا التاريخ أسماء بعض الخلفاء الذين اتخذوا المضحكين من الشعراء لتسليةهم والترفيه عنهم .. وأحاديث أبى دلامة والجسين بن الضحاك وغيرهما مع خلفاء بنى الميما مشهورة فى هذا الباب .. وربما انتهز بعض السادة

(١) الأدب فى ظل بنى بويه للزهيرى ص ٢٧٩ .

من الزرراء وأشياهم إحدى الفوس المواتية ليجعلوا من الشعر مادة  
فكاهية مسلية ، ومن ذلك ما ذكره الثعالبي في اليتيمة عن صاحب بن  
عهاد من أنه أوعز ذات يوم إلى ندمائه المقيمين بحضرته أن يعزوا أبا عيسى  
ابن المنجم حين نفق يردون له كان صاحب قد حملة عليه وقد لى  
هذه الدعوة الكريمة عدد غير قليل من الشعراء وأخذوا يذرقون الدموع  
ويرسلون الزفرات من أجل هذا البرذون الهالك وتغنى كل واحد منهم  
لو استطاع فداءه بالنفس والولد والغالى والنفس من أمواله ويطلبون  
من أبى عيسى التجل بالصبر والتذرع بالتأسى والمزاء (١) .

ولما كان هذا اللون من المجون يدل على الظرف والدعابة كما  
يدل على الترف الفكرى والحسى شاع في أدب الكبراء من الزرراء وأمثالهم  
وكرر في أشعارهم ورسائلهم . . وكان يحلو لهم أن يخلقوه نسي أنشوا ب  
من الكناية والتعريض ليكون ألطف في السمع وأرفع في القلب .

ومن ذلك ما كتبه ابن العميد . . إلى أبى الحسن بن هند و  
صبيحة عرسه على سبيل المراح والمداعبة :

أنعم أبا حسن صباحا \* وأزدد بزوجك أرتياحا  
قد رُضت طرفك خاليا \* فهل استأنت له جهاحا  
وقد حث زندق جاهد ا \* فهل استهننت له أنفداحا  
وطرقت منقلباً فهل \* سن الإله له انفتاحا

(١) اليتيمة ج ٣ من ص ١٩٤ الى ص ٢٠٨ .

قد كنت أرسلت العمير \* ن صباح يومك والرواحا  
ومحنت مصيبة تبييت لديك ترتقب النجاحا  
فقدت على بطلية \* لم تولني إلا اقضاحا  
وشكت إلى خلا خلا \* خرسا وأومحة فصاحا  
منعت وساوسها المسا \* مع أن تحسن ثم صياحا (١)  
.....

قال الثعالبي معقبا على هذه الأبيات " وهذه الأبيات بديعة في  
قضاها ولم أر أبلغ منها في معناها إلا قول العاصم لأبي الملا الاسدي  
في مثل تلك المناسبة :

قلبي على الجيرة يا أبا الملا  
فهل تحت الموضع القفلا  
وهل فككت الختم عن كيمي  
وهل كملت الناظر الأكمل  
إنك إن قلت نعم صادق  
أبعت نثارا يمسلا المنزلا  
وإن تجني من حيايلا  
أبعت إليك القطن والمنزلا (٢)  
....

وأبيات العاصم . . . اقرب من التصريح وأظرف وأبيات ابن العميد  
أجزل وأخفى وأدخل في باب الكناية والتصريح .

(١) البيتة ح ٣ ص ١٥١ .  
(٢) نفسه ح ٣ ص ١٥٧ .



وكما اتخذ الادباء الشعر وسيلة للدعاية والتظرف اتخذوا النشر  
كذلك أداة لتحقيق الغرض نفسه .

فقد كتب الصاحب رسالة نثرية إلى أحد اصدقائه يداعبه صبيحة عرسه  
قال : " خير سيدى عندي . وان كتمه عنى ، واستأثر به دونى ، وقد  
عرفت خبره البارحة فى شربه وأنسه وفناء الضيف الطارق وعرسه . .

وكان ما كان مما لست أذكره  
وجرى ما جرى مما لست أنشره

وأقول :

إن مولاي امتطى الأشهب فكيف وجد ظهره ؟ وركب الطيار فكيف  
شاهد جريه ؟ وهل سلم على حزونة الطريق ؟ وكيف تصرف ؟ أفى سمعة  
أم ضيق ؟ وهل أتود بالحج أم تمتع بالحمة ؟ وقال فى الجملة بالكرة ؟  
ليتمفضل بتمهينى الخبر فما ينفعه الإنكار ، ولا يهينى عنه إلا الإقرار وأرجو  
أن يساعدنا الشيخ أبو مرة كما ساعده مرة ، ففصلى للقبلة التى صلى إليها  
وتتمكن من الدرجة التى خطب عليها ، وله فضل سبق فى ذلك السيدان  
لكثير من الفرسان (١) .

وهكذا خاص الشعراء فى هذا اللون من المجون وأكثروا من المداعبات  
الظرفية والنكات البديعة بقصد الترفيه عن النفس وإشاعة جو من البهجة  
والسرور فى المجتمع . . حتى إن بعض الشعراء كانوا لا يتحرجون أن  
يمزجوا مدائحهم للحكام بهذه المداعبات وكان الحكام بدورهم يتقبلون ذلك

---

(١) البيتية ( ٣ : ٢٢٦ ) .

منهم بهدور رجب ونفس راضية وكافونهم على ذلك ويجزلون لهم المطاء •

ومن ذلك ما كتبه ابن حجاج الشاعر الباجن إلى الأمير عز الدولة  
الجهني يمدحه وصفه بالجمال والحسن والتفوق في الناحية الجنسية قال :  
قَدَيْتُ وَجْهَ الْأَمِيرِ مِنْ قَمَرٍ \* يَجْلُو الْقَدَى نُورُهُ عَنِ الْبَصِيرِ  
قَدَيْتُ مِنْ وَجْهِهِ يَشْكُنِي \* فِي أَنَّهُ مِنْ سُلَالَةِ الْبَشِيرِ  
إِنَّ زُلَيْخًا لَوِ ابْصَرَتْكَ لَمَّا \* مَلَّتْ إِلَى الْحُشْرِ لَذَّةَ النَّظِيرِ  
وَلَمْ تَقْسُ يَوْسُفًا إِلَيْكَ كَمَا \* تَبْجُمُ السَّهَابُ لَا يَقَاسُ بِالْقَمِيرِ  
وَكَانَ يَا سَيِّدِي هُبَاكَ إِذَا \* هَرَبَتْ مِنْهَا يَنْقُدُ مِنْ دُبِيرِ  
هَلْ وَحْيَانِي لَوْ كُنْتُ يَوْسُفَها \* لَمْ تَكُ مِنْ تُهْمَةِ الْمَزِيرِ بِسَرِي  
لَأَكُنِّي هَالِكًا بِأَنْكَ لَوْ \* شَمَنْتَ رَبًّا تَسِيْمُهَا الْمَطِيرُ  
سَبَقْتُهَا وَأَنْزَلْتُ تَتِيْمُها \* مَا بَيْنَ تِلْكَ الْبُيُوتِ وَالْحُجُرِ (١)

•••••

يمضي على هذا النحو في مدح الأمير ويكثر من مداعباته والمزاح معه  
ويتقبل الأمير منه ذلك مسحد به ويرضى عنه ويجزل له المطاء •

ولا شك أن هذا اللون من الأدب مستساغ ومباح لأن فيه ترفيها  
للنفوس وترويحاً للقلوب وقد ورد في الأثر " رَوَّحُوا الْقُلُوبَ سَاعَةً بِمَعْدٍ  
سَاعَةً فَإِنَّ الْقُلُوبَ إِذَا كَلَّتْ عَيْتٌ " •

أما اللون الذي يندى له الجبين ويخدش له الحياء ، وتنفر منه

(١) اليتيمة ج ٣ ص ٤٠ •

الأذواق السليمة ، والطباع المستقيمة ، فهو ذلك المجون الذي يجمع  
السوءات والممورات محور نكاته ، ويتخذ المفاخض والمقادر منبع دعاياته ،  
وهذا اللون من المجون الداعر اشتهر به شاعران من شمراء المراق فسى  
القرن الرابع لم يجارهما فيه أحد من قبل ولا من بعد وهما : أبو عبد الله  
الحسين بن أحمد بن حجاج وأبو الحسن محمد بن سكرة الهاشمي فقد كان  
كلاهما ما جئنا خليعا لا يتورع أن يصوغ أقيع المعاني في أسوأ الألفاظ ..

وكان ابن حجاج من أولاد العمال والكتاب .. وكان أول أمره  
يشتغل بالكتابة فكتب بين يدي أبي إسحاق الصابي في أيام حدثه ثم تأنى  
له من المعيشة بالشعر ما عدل به إليه وعول بعده عليه وكان أكسب له مما  
كان متشاغلا به ثم ضمن قرائض الصدقات بسقى الفرات وأخيرا عين فسى أيام  
عز الدولة البههي محتسبا على مد ينة بغداد (١) .

ولفساد طريقته ، وقبح مذهبه ، وفحش شعره ، وسلطة لسانه قال  
الثعالبي عنه " ولولا أن جد الادب جد وهزله هزل كما قال إبراهيم بن  
المهدي لصت كتابي هذا عن كثير من كلام من يمد يد المجون فيمرك بها  
أذن الحزم ويخج جواب السخف فيصفع بها قفا المقل (٢) .

وعلى الرغم من هذا السخف الذي تحدث عنه الثعالبي والذي نقرره ،  
اليوم فيما نشاهده من نماذج الشعرية كان ابن حجاج مقبولا لدى العامة  
والخاصة .. حتى ان الفضلاء والكبراء والأدباء والمحشمين كانوا يتفكحون

---

(١) الادب في ظل بني بويه ص ٢٧٨ والحضارة الاسلامية لمتز ح ١ ص ٤٨

• واليتيمة ح ٣ ص ٦٠

(٢) اليتيمة ح ٣ ص ٢٥

بشار شعره يستلحون بنات طبعه ، يستخفون أرواح نظمه ويحتلمسون  
فرط رفته وقذعه •

ولقد مدح الملوك والامراء فلم تخل قصيدة فيهم من سفاتج هزلسه  
ونتايج فحشه وهو عندهم بقبول الجملة ظلى مهر الكلام ، موفور الحظ من  
الاکرام والإنعام مجاب إلى مقترحه من الصلات الجسام والأعمال المجديسة  
التي ينقلب منها إلى خير حال ، وكان طول عمره يتحكم فى وزرا الوقت وروما  
المصر تحكم الصبى فى أهله ويمعش فى أكتافهم عيشة راضية (١)

والأغرب من ذلك أن ديوان شعره على الرغم مما فيه من فحش وفجور  
كان أسير فى الآفاق من الأمثال وأسرى من الخيال وأنه كثيرا ما بهج  
بخمسين ديناراً إلى سبعين (٢) •

وما يدل على رواج شعره عند ذوى المكانة فى الدولة أن الشريف  
الرضى نقيب الأشراف العلبيين فى القرن الرابع والمعروف بالحشمة والقار  
كان من أكبر المعجبين به وقد رثاه بقصيدة واختار من شعره السليم أشياء  
كثيرة •• وقد حمل إليه الخليفة الفاطمى صاحب مصر عن مديح مدحه به ألف  
دينار على سبيل الصلة (٣) •

وقد زعم الثعالبى أنه اختار من نماذجه الشعرية الملح الخالية من  
الفحش المفرط ، الحالية بالحسن المنقوطة ، وأخرج كثيرا من نوادره التى  
تسر النفس وتشرح الصدر وتميد الأنس ••

(١) اليتيمة ج ٣ ص ٢٥ •

(٢) نفسه ج ٣ ص ٢٩ •

(٣) الحضارة الاسلامية لمتز ج ١ ص ٤٨٢ •

وهذه الملح التي زعم الثمالبي أنها خالية من الفحش - يعلم الله - أنها فاحشة داعرة ، قبيحة الألفاظ ، منتنة المعاني ولعل هذا ما جعل ابن سكرة يقول : وقد سئل عن قيمة ديوان ابن حجاج " قيمته بربخ " أى لكثرة ما يشتمل عليه مما يقع فيه (١) .

وابن حجاج كان فخوراً بمذهبه في السخف متمسكاً به لا يحاول أن يتبرأ منه أو يعتذر عنه ولكنه كان يدافع عنه ويحاول أن يضفي عليه شيئاً من المنطق مهما كان ذلك المنطق سقيماً فيقول :

وَشِعْرِي سُخْفٌ لَا يَدُّ مِنْهُ \* فَقَدْ طَلَبْنَا وَزَالَ الْإِحْتِقَامُ  
وَهَلْ دَارَتْكَونَ بِلَا كَيْفٍ \* فِيمَكُنْ عَاقِلًا فِيهَا الْقَمَامُ (٢)

.....

وكان لسخفه وقذارة لسانه مخشى الجانب مقضى الحاجة مقبول الشفاعة مسموع الكلمة ، ولم يزل أمره يتزايد حتى حصل الأموال وصار من أهل الجاه ، وجدل على ذلك قوله لبعض الرؤساء حين طالبه بالعدول عن هذا السخف :

سَيِّدِي مُشْكِرَكَ عَيْنِي \* مِثْلُ شُكْرِي لِلَّهِ  
سَيِّدِي سُخْفِي الَّذِي قَدْ \* صَارَ يَأْتِيهِ بِالذَّوَاهِي  
أَنْتَ تَدْرِي أَنَّهُ يَكُنْ \* قَعٌ عَنْ مَالِي وَجَاهِي (٣)

.....

فالسخف في شعره كان ضرورة ملحمة ، وكان يلجأ إليه وقت الحاجة ليدافع به عن ماله وجاهه . .

- 
- (١) البيتية ح ٣ ص ٢٨ .  
(٢) نفسه ح ٣ ص ٢٨ .  
(٣) نفسه ح ٣ ص ٢٧ .

وكان أحيانا يلجأ إلى هذا المنخف تلبية لحاجة الجماهير التي كانت تقبل بشغف على هذا اللون المتعفن من الأدب الماجن . . . شأنه في ذلك شأن الممثل الهزلي الذي فوضت عليه ظروف اجتماعية معينة إجادة الفصول المضحكة واتقان الأدوار المرحية التي تسعد الجماهير وتدخل إلى قلوبهم الفرح والسرور وإلى نفوسهم البهجة والبهجة حتى إذا فرغ من عمله وحاد إلى بيته رجع إلى طبيعته الجادة المتحفظة .

فأين حجاج لا يمدوا أن يكون مثلاً هزلياً بارعاً من هذا النوع يمارس عمله على مسرح الحياة الاجتماعية الهائلة إرضاء لأفراد المجتمع الذين كانوا يقلبون على شعره ويهجمونه على المضي في هذا الطريق وإذا ما رجعنا إلى سيرته الشخصية وما يذكره الرواة عنه من أنه كان وقوراً متزناً أدركنا صدق ما نقول :

فقد روى أبو حيان " أن أبا الفتح بن الحميد سأل عن ابن حجاج وكان متشوقاً إليه لما كان يقرأ من قوافيه فأحب أن يلقاه لأنه ليس بالخبر كالمحامية . . . فلما حضره أبو عبد الله احتبسه ابن الحميد للطعام وسمع كلامه وشاهد سمته ، واستحلى شمائله . ولما خلاه قال له : يا أبا عبد الله : لقد والله تهت عجا منك . . . فأما عجبى بك فقد تقدم . لقد كنت أنظي ديوانك فأتمنى لقاءك وأقول : من صاحب هذا الكلام أطيبي طائفي وأخف خفي ، وأغرم غارم ، وكيف يجلس من يكون في هذا الإلهاب؟ وكيف يقارب من ينسلخ من ملابس الكتاب وأصحاب الآداب ، حتى شاهدته الآن تهاكت على وتارك وسكون أطرافك ، وسكون لفظك وتناسب حركاتك ، وفرد حياتك ، وناضر ما وجهك ، وتعاذل كلك ومعضك وانك

لمن عجائب خلق الله وطرف عباد ، والله ما يصدق واحد أنك صاحب ديوانك . وأن هذا الديوان لك ، مع هذا التنافي الذي بين شعرك وبينك في جدك (١) .

فكلام ابن العميد عن الشاعر يدل على أنه كان وقورا ساكن الأطراف متناسبا الحركات ، عظيم الحياء ، ولم يكن ماجنا بطبعه ولا فاحشا بنفطرته حتى لقد تمجّب ابن العميد بعد لقائه به من هذا التباين الواضح بين شخصية الشاعر ، وما يصدر منه من شعر .

وفي رأي أن هذا التباين الذي لاحظته ابن العميد بين الشاعر وشعره ليس له إلا تحليل واحد وهو أن الشاعر كان متأثرا بأخلاق المجتمع الذي يعيش فيه . وأنه كان يكتب ذلك الشعر السخيف الماجن استجابة لرغبات هذا المجتمع السهالك على اللذة والفساد ولذلك راج شعره لدى الخاصة والعامة لأنه صادف منهم هوى صادقا ، ورغبة أكيدة .

وأنا لا أزم بهذا القول أن ابن حجاج كان من الأتقياء السيرة ولا أحاول أن أقدم له صك البراءة مما قاله في شعره — فقد كان — من غير شك — عنده استعداد شخصي للمجون ولكني أريد أن أقول: إنه بالإضافة إلى نفسه الضعيفة كان خاضعا لتأثير المجتمع الذي كان يشجعه على السير في هذا الطريق الشائك ، فقد اضطرت ظروف مادية قاسية ونفس منحلسة ضعيفة إلى اتخاذ الشعر السخيف حرفة للارتزاق ، ووسيلة سهلة لنيل الخطوة والجاه عند ذوي السلطان .

---

(١) الامتاع والموانسة ج ١ ص ١٣٨ .

ولقد عبر الشاعر عن ذلك في شعره أصدق تعبير عند ما قال :  
لو جَدَّ شِعْرِي رَأَيْتَ فِيهِ \* كَوَاكِبَ اللَّيْلِ كَيْفَ تَمْسُرِي  
وَأَنَا هَزْلُهُ مَجْزُونٌ \* يَمْشِي بِمِ فِي الْمَعَايِنِ أَمْرِي (١)

.....

قد كان الرجل يحرف النماذج الشعرية المأثورة وكان في استطاعته أن يجاريها وينسج على منوالها ، بل ويتفوق على أقرانه فيها ولكنه كان يتجاهلها عن عمد ومعارضها معارضة سخريّة وهزل لانه وجد البضاعة الجيدة لا تروج في هذا الزمان ولذلك آثر السخف عن رضا وارتياح ، وما أصدق قول أبي حيان وقد سئل عنه " اذا جد أقمى ، واذا هزل حكى الأقمى " (٢)

ومنا على هذا التحليل نجد ابن حجاج يلون شعره بالقاندرات  
ومصر في تلك الاصباغ حيناً ومقتصد أحياناً .. ولست أدري كيف كان  
المجتمع يستسيغ هذا الشعر الفاحش ؟ وكيف كان يتقبل هذه النماذج  
القدرة ؟

ومن شعره في هذا السبيل قصيدة ظ حشة تفيض بالقاندرات يمت  
بها الشاعر إلى أحد أصدقائه وهو أبو أحمد بن ثوبة حين تناول دواء  
مسهلاً فقد أخذ يذكر أثر الدواء السيء في بطنه وفراشه وهي قصيدة  
طويلة قدرة الألفاظ ، منتنة المعاني ومظلمها :

---

(١) البيتية ح ٣ ص ٢٢ .

(٢) الامتاع والموانسة ح ١ ص ١٣٨ .



يَا أَبَا أَحَدَ بِنَفْسِي أَقْدِي  
كَ وَأَهْلِي مِنْ سَائِرِ الْأَسْوَاءِ (١)

...

وليس المناسبة وحدها هي التي أوجت إليه بهذا المزاج السخيف  
ولكن الدارس لشعره يجد أنه كان يعمد إلى ذلك في جميع الأوقات وسع  
مختلف المستويات الاجتماعية فقد روى الثعالبى : أنه اتخذ دعوة كبيرة في  
أيام عز الدولة ودعا إليه أقواما شتى من رجال الدولة ثم أنشد قصيدة أسوأ  
من سابقتها يتهدد بها الذين يتخلفون عن دعوته ومطلبها :

قُلْ لِلْأَسِيرِ الْمُرْتَجَى \* مَنْ جَافَى قَدْ نَجَا (٢)

وأسوأ منها بكثير قصيدة طائفة بالقانذورات هجا بها أحد أعدائه ومطلبها :

وَلَقَدْ عَهْدْتُكَ تَشْتَهِي \* قُرْبَى وَتَسْتَدْعِي حُضُورِي (٣)

....

وشيعر مثل هذه القانذورات في قسم كبير من شعره ورواج ذلك الشعر  
في المجتمع أكبر دليل على فساد الذواق وانحطاط الاخلاق في ذلك  
المصر .

ولم تكن القانذورات وحدها هي المحور الذي يدور حوله شعر ابن  
هجاج وإنما كان يلونه بأصباغ أخرى من الشعر الفاحش الذي شاع في جز

- 
- (١) البيتة ح ٣ ص ٢٩ .  
(٢) نفسه ح ٣ ص ٣٦ .  
(٣) نفسه ج ٣ ص ٣٠ .

كبير من نتاجه ومختاراته قد أكثر الشاعر من ذكر المبررات والسوءات بالفاظ صريحة دون كناية أو تورية ، وهذا اللون كان بمرؤفاً في شعر السابقين إلا أنهم لم يسرفوا فيه اسرافه فقد أباح لنفسه في هذا الصدد أن يصوغ أشعاراً في غاية الفحش والمجون واستغله في شعره استغلالاً سيئاً . . .  
فمثلاً : إذا سقطت امرأة من فوق السطح فانت لم يرح اليه شيطانه في تلك المناسبة الحزينة الجادة إلا بأبيات فاحشة زعم فيها أن تلك المرأة التميمية قد رمت بنفسها من شاطئ طمنا في متعة جنسية . . . وأن مؤنسها كان بسبب الطبع الذي يودى بحياة صاحبه وجوده دائماً موارد التهلكة . . . وأن مثلها في ذلك مثل شاة أشعب التي شاهدت قوس قزح فظنته حبل قت فأهوت إليه من عل فاندقت عنقها (١) .

ويبلغ ذروة السخف والخلاعة حينما يعقد موازنة بين العنبر والجنسية مفضلاً بعضها على بعض في قصيدة طهيلة مظلماً :

سَرَى مُتَمَرِّضًا طَيْفَ الْخَيْسَالِ \* قَسَوَى لَا مَحَالَةَ بِالْمُحَسَالِ (٢)

والواقع أن أكثر شعر ابن حجاج مما تعنف عن ذكره الألسنة ولكن على الرغم من ذلك لا سبيل إلى انكار أنه كانت له طريقة خاصة في المجنون اشتهر بها وتميز بها عن سابقه .

ولا سبيل إلى انكار أن ألفاظه — على الرغم من فحشه — كانت تتميز بالسلاسة والمذونة والجمال خاصة في مقطوعاته التي كانت تسير على النمط

(١) التيمية ج ٣ ص ٤١ .

(٢) التيمية ج ٣ ص ٦١ .



وأما ابن سكرة البهاسى فقد كان كما وصفه الثعالبي " شاعرا  
متسعا الباع فى أنواع الإيداع فائقا فى قول الملح والظرف ، أحد الفحول  
الأفراد جازٍ فى ميدان المجون والسخف ما أراد (١) .

وقال : إن ديوان شعره يرمى على خمسين ألف بيت من الشعر  
منها فى قبنة سوداء يقال لها خمرة أكثر من عشرة آلاف بيت وكانت  
عرضة نوادره وطلحه وكان يعشقها فى شبابه ثم حصلت بينهما جفوة  
فقلها وأعرض عنها ، وتحول ما بينهما إلى عداوة شديدة وفى نزوة من  
نزوات غضبه حلف بطلاق امرأته - وكانت ابنة عمه - ألا يخلو ببياض  
يوم من سواد شعر فيها ولما شمعت امرأته بالقصة كانت كل يوم إذا  
انفلتت من صلاة الصبح تجيئه بالدواة والقرطاس وتلزم مصلما<sup>(٢)</sup> لزوم  
الخرم غير الكريم فلا تفارقه ما لم يقرض ولو بيتا فى هجائها "

وقد يحجب الباحث حين يشاهد أحد أهل البيت وقد انغمس فى  
تيار المجون وصار علما من أعلامه ٠٠ ولعل ذلك راجع - فى رأى -  
إلى تدوير مكانة أهل البيت السياسية وشموخهم بالياس وخيبة الأمل بعد  
أن سيطر الموالى من الفرس على السلطة الحقيقية فى فارس والمراق فى  
ذلك العصر كما أن ظروف الشاعر المادية لم تكن طيبة فقد كان - كما  
يبدو - فقيرا بائسا مضيقا عليه فى الرزق ، ويدل على ذلك قوله :  
قل للرئيس الذى أَنَامِلُهُ \* مهسوطا بالنوال منخرقة

(١) البيتة ح ٣ ص ٣ .

(٢) نفسه ٣ : ٣

حَلَّتْ لِي الْمَيْتَةُ الَّتِي حُرِّمَتْ  
فَكَيْفَ تَنْهَوْنِي عَنْ الصَّدَقَةِ (١)

وقوله في موضع آخر :

جَنَى نَسَبِي عَلَى وَصْدِ رِزْقِي  
وَأَكَلْتَنِي مِنَ الدُّنْيَا نَصِيبِي (٢)

...

وكان شرف نسبها كان حائلا بينه وبين التكالب على المدد وحين شأن  
غيره من شعراء المجون وهذا ما سبب له الفقر والحرمان وفضلا عن ذلك  
كان الشاعر — كما يبدو — ضعيف الدين ، مزعزع العقيدة لديه استمداد  
شخصي للمجون ، ويدل على ذلك قوله :

وَلَسْتُ مَضْمِرَ نُسُكِ \* كَلَّا وَلَا يَمْنَعُنِي  
وَلَوْ أَسَامُ بِدِينِي \* لَيْمَتْنَهُ بِرُغْبِي (٣)

...

وسهما يكن من شيء قد انغمس في هذا المستنقع وصار بطلا من  
أبطاله البارزين وله في خمرة وغيرها من القيان والغلمان شعر فاحش يذو  
تمف الأقدام عن كتابته والألسنة عن روايته ، ولا ريب أن من يقرأ هذه  
النماذج الفاضحة وما شاكلها من أدب المجون يجد أنها تدل بوضوح على  
نزعة إباحية قوية كانت قد تملك المجتمع في هذا العصر فاندلج الشعراء  
تحت تأثيرها في هذا الفحش الفاجر ..

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ٢١ .

(٢) نفسه ج ٣ ص ٢٠ .

(٣) نفسه ج ٣ ص ١٩ .

ويؤيد هذه النزعة الإباحية في بلاد فارس ما أثر عن إيران القديمة من نقوش حائطية تحوى كثيرا من مناظر الحب ورسوم الرجال والنساء ففى مواقف قد تصل إلى حد كبير من الإباحية على حيالان القصور وجدران الحمامات (١) .

ولعل هذا ما يؤيد ما ذهبت إليه من أن أدب المجون كان غريبا عن البيئة العربية التى تنفر بطبيعتها من الانحلال وتميل إلى الوقار والمفظة .

وسهما يكن من أمر ابن سكرة وسهما قيل عن فحشه ومجونه فقد كان يختلف عن زميله ابن حجاج فى أمرين هامون :

أولهما : أنه لم يكن يلون شعره بالقاذورات والأوساخ - كما كان يفعل ابن حجاج . . . وإنما اقتصر مجونه على الادب الفاحش المكشوف .

وثانيهما : أنه لم يقف كل نشاطه الأدبى على الشعر الماجن ولم يسرف فيه كابن حجاج . وإنما كانت له أغراض أدبية أخرى غير المجون كالغزل الرقيق الخالى من الفحش وكالزهد والتضرع . .

ويهدوان الشاعر كان يحاكى أبا نواس حينما لجأ إلى الزهد ففى أواخر عمره فقد روى الثمالى له مقطوعة فى الزهد يلوم فيها نفسه على

---

(١) النون الايرانية للدكتور زكى حسن ص ٦٦ .

المجون يطلب منها أن تشوب إلى رشدها وأن ترجع عن غيرها . وإن  
تتذكر الموت والهلى وأن تعد الزاد ليوم الحساب إذ يقول :

محمّد ما أعددت للموت والهلى  
وللملكين الواقفين على القبر  
وانت مصرّ لا تراجعُ توبة  
ولا تترقى عسى يذم من الأمر  
تبيت على خير تماقر ديتها  
وتصبح مخموراً مريضاً من الخمر  
سيأتيك يوم لا تحاول دفعه  
قدّم له زاداً إلى التهلكة والحسر (١)  
...

ولعل ابن سكرة كان مؤمناً صادق الإيمان ولكن الخمر كانت  
تفسد عليه دينه وتضعف إيمانه فكان إذا أفاق حسن إيمانه ورجع إلى ربه وإذا  
سكر عهد وفجر ونسى دينه وربه .

وسهما يكن من شيء قد كان ابن سكرة مثل ابن حجاج - ماجنا  
خليهما . . . وكان شعرهما الماجن يمثل ظاهرة اجتماعية خطيرة . . . وراج  
ذلك الشعر الفاحش في الأوساط الاجتماعية أكبر دليل على فساد  
الأدواق وانحلال المجتمع في ذلك العصر .

(( الفصل الخامس ))

—

:: مظاهر الفقر والجحمان وأثرها على أدب التيمامة ::

\*\*\*\*\*



:: مظاهر الفقر والحرمان وأثرهما في أدب اليتيمة ::

\*\*\*\*\*

كان للثغرات الطبقي في المجتمع ، وسوء الأوضاع الاقتصادية في ذلك العصر أثرهما الواضح في انقسام المجتمعين العراقيين والفرسي إلى طبقتين متباينتين : تنتمي إحداهما بما لذ وطاب من طيبات الحياة وتميش في ترف ورخاء وهي طبقة الحكام من خلفاء وأمرأ ووزراء وقواد وتميش الأخرى في فقر مدقع ، وسوء شديد وهي : طبقة المحكومين الذين قسا عليهم الزمن ، وطحنتهم المصائب وأنهكتهم الضرائب والحروب .

ولقد عبر ابن لنكك البصري عن أحوال هذه الطبقة وتبرمها بالحياة أصدق تعبير عندما قال :

تَحْنُ وَاللَّهِ فِي زَمَانٍ غَشِيمٍ \* لَوْرَائِنَاهُ فِي الْمَنَامِ فَرَعْنَاهُ  
يَصِحُّ النَّاسُ فِيهِ مِنْ سُوءِ حَسَالٍ  
حق مَنْ مَاتَ مِنْهُمْ أَنْ يَهْنَأَ (١)

يمكن أن أذكر أن كثيرا من أفاضل العلماء والأدباء والفلاسفة كانوا لا يجدون ما يحفظ الرقيق ويقيم الأود والجلتهم الحاجة إلى سؤال الناس وإراقة ماء الوجوه من أجل القوت حتى إن أبا حيان التوحيدي الفيلسوف الكبير والأديب الواسع الإطلاع بلغ به السخط والتبرم من الحياة والأحياء أنه أحرق كتبه في نهاية حياته فلما عدل في ذلك قال : إنسى

---

(١) اليتيمة ج ٢ ص ٣٢٢ .

قدت ولدًا نجيبًا ، وصديقًا حبيبًا ، وصاحبًا قريبًا ، وتابعًا أديبًا ،  
ورئيسًا منيبًا فشق على أن أدعها لقوم يتلاعبون بها ويدنسون عرضي  
إذا نظروا فيها .. وكيف أتركها لأناس جاورتهم عشرين سنة فما صح لي  
من أحدهم وداد ، ولا ظهر لي من إنسان منهم حفاظ ، ولقـــد  
اضطرت بينهم بعد الشهرة والمعرفة في أوقات كثيرة إلى أكل الخضر في  
الصحراء وإلى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة وإلى بيع الدين بالمروءة

وإذا كان هذا شأن الفلاسفة والادباء .. فما بالنا بالسوقة ،  
والعامة .. الذين لا شك أن ظروفهم كانت أقسى ، وأحوالهم المادية  
كانت أسوأ .. ولقد كانت الكوارث تمصفيهم والأمراض تقتك بهم  
وتقتضى على معظم الجوع ، وبيع الزمان الهمداني بصر أحوال الرعية ففى  
بعض المدن ضمن رسالة استغاثته وجهها إلى أحد الكبراء فيقول :

فيهم نشت الامراض الحادة ، فخبطت عشواء ، وأفتت رجلا شم  
جد الغلاء ، وقد الطمام ، ووقع الموت العام ، فمن الناس من لم يطعم  
أسبوعا حتى هلك جوعا ، ومنهم من تبلغ بالميتة إلى يومنا هذا ، وهو  
ينتظر نحوه ليلحق صحبه ، ومنهم من لا يجد القوت والدرهم على كفه  
حتى يموت ، والباقيون أحياء كأنهم أموات ، ترعد فرائضهم من هذه  
البوائق وابن هول السلطان أعظم وأطم ، وأمر المطالبات أكبر وأهم (١) .

ولا شك أن هذه الصورة الكريهة التي رسمها بديع الزمان لهذه

(١) الحضارة والاسلام لمتز ج ١ ص ٤٤٨ .

(٢) رسائل الهمداني ص ١٢٧ .

المدينة الهائسة تدل بوضوح على الحالة الاجتماعية التمهة التى وصل  
إليها معظم الحكوميين آنذاك ..

ولقد كان لهذه الظاهرة الاجتماعية الخطيرة .. ظاهرة القفر  
والحرمان - - صدى عميق فى أدب اليتيمة تجلى بصورة واضحة فى أدب  
الكديّة والاستجداء أو الأدب الساسانى كما كانوا يطلقون عليه كما تجلّى  
كذلك فى أدب الشكوى والحرمان وهو ذلك اللون الذى أكثر فيه أصحابه  
من شكوى الزمن ودم الدهر ووصف مظاهر القفر والموز والثروة والسخط  
والتهرم من الأوضاع القائمة والحديث عن الغفل والإخفاق ، والشموخ  
باليأس والإحباط وما تحدثه هذه الأمور فى نفس صاحبها من جزع ونقمة  
ومرارة .

أما الادب الساسانى فهو ذلك النوع من الأدب الذى يصور التثبث  
بأسباب الحياة والتحايل على كسب القوت بكل وسيلة ممكنة .

إنه ذلك اللون الذى يصور حياة طائفة من المجتمع قسا عليهم  
الزمن وتكررت لها المنون ففشلت فى الحصول على القوت بالوسائل المشروعة  
من تجارة وصناعة وزراعة وغيرها من وسائل الرزق المباح فاتخذت من  
الكديّة والتسول طريقة لكسب المال والحصول على القوت ، وفى سبيل  
الغنى السريع والشراء الفاحش الرخيص ، لجأوا إلى شتى الطرق وشقنوا فى  
الحيل ونصب الشباك للحصول على المال ، وأمعنوا فى ذلك حتى قدوا  
الكثير من الصفات الإنسانية الكريمة ..

ولا أزم أن حرفة التسول كانت وليدة القرن الرابع الهجرى وإنما هى قديمة عند العرب وغيرهم . . قدم الفقر والغنى فقد روى أنه قيل للحطيئة : أوصى للمساكين بشئ قال : أوصيهم بالمسألة ما عاشوا فإنها تجارة لن تبور (١) .

ولقد كان الجاحظ أول كاتب عاى تحدث عن موضوع الكدية إذ كتب عن أصناف المكدين وما يمتازون به ويحتالون وقدس علينا كثيرا من أخبارهم ونواديرهم (٢) .

وفى أوائل القرن الرابع تحدث عنهم البيهقى حديثا طويلا وتوسع فى الكلام عن أصنافهم وطبقاتهم وأعمالهم وحيلهم ونواديرهم (٣) .

ولكن الجديد فى القرن الرابع هو شيوخ هذه الحرفة وانتشارها وتمدد أصحابها وكثرتهم . وتنوع أصنافهم فكان منهم الشعراء والكتاب والخطباء والأشراف وغيرهم وكانوا يجهون البلاد ويظفون بالأقاليم ويتفننون فى اختراع الحيل للحصول على المال وقد أطلق عليهم لفظ الماسانيين " أو " بنى ساسان " نسبة إلى رجل يقال له : ساسان ، وقد اختلفت الآراء وتضاربت الأقوال فى أصل هذا الرجل الذى تنسب إليه هذه الطائفة .

فمن قائل : إنه ساسان بن أسغديار الذى كان من جدش

- 
- (١) المحاسن والمساوى للبيهقى ص ٢٩٣ .  
(٢) البخل ص ٤٧ وما بعدها .  
(٣) المحاسن والمساوى للبيهقى ص ٦٢٢

انه لما حضرت أباء الوفاة فوض أمر الحكم لابنته ، فأنف ساسان من ذلك واشترى غنما وجعل يربعاها فَعَمَّرَ بِأَنَّهُ رَاعَى الْغَنَمَ قَبِيلَ سَاسَانَ الرَّاعِيَّ وساسان الكردي ونسب إليه كل من نكَّه ي .

وقيل كان ساسان ملكا من ملوك المعجم حاربه دَارًا ملكُ الْفُرسِ ونهب كل ما كان له واستولى على ملكه فصار رجلا فقيرا يتردد في الأحياء صست مطى فضرب به المثل . وقيل : إنه كان رجلا فقيرا بصيرا في استعطاء الناس والاحتياال فمسيبوا إليه (١) .

وكل هذه الأقوال إفتراضات قد تكون صحيحة ولكني أميل إلى رأى الإمام محمد عده في هذا الأمر حيث يرى في رحمه الله - أن الساسانيين أو بنى ساسان وما شاكل ذلك من الألفاظ المشيرة بالتحقير لساسان إنما جاءت بعد زوال الدولة الساسانية التي أسسها أردشير بن بابك ، فلما محققها الإسلام وقع من أطرافها أفراد سقطوا من حساب قيان المسلمين الأولين فكانوا يخلد ونهم من مكان إلى مكان هميرونهم بمنوان آبائهم فبعد أن كانت نسبتهم إلى ساسان نسبة مجد وحسب صارت نسبة قذ ف وسب .

وكان في اشهار هذا الاسم بالتحقير غاية سياسية فضلا عما تطمح إليه نفس الثالب من إندلال المطلوب وهي ألا يقع لدولة الساسانيين ذكر في لسان ولا أثر في جنان يني عن سلطانها أو رفعة شأنها ، وإذا خطر أمرها بالبال فلا يخطر إلا مع لازمه الجديد وهو السفالة والدناءة . .

---

(١) ظهر الاسلام ج ١ ص ١٤٢ .

ثم نسي ذلك بمرور الأيام ، وفقى اللفظ مستعملا في الشكاكين وهم أدنى طبقة من الناس <sup>(١)</sup> .

وقد ورد ذكر الماسانيين في شعر الأحنف المكبرى وأبى دلف الخزرجي . وهما من شعراء البيتية كما ورد ذكرهم في مقامات بديع الزمان الهمذاني .

وللحيرى مقامة سماها " المقامة الماسانية " نسبة إلى هذه الطائفة وقد أوضح فيها كثيرا من البواعث الدافعة إلى التسول قال :  
" سمعت أن المعاش إماره وتجارة وزراعة وصناعة فمارست هذه الأربع لأنظر أيها أوفق وأنفع فما أجدت فيها معيشة ، ولا استعجمت عيشة .

أما فرص الولايات وخلص الإمارات فلخصات الأحلام .  
وأما بضائع التجارات ، فعرضة للمخاطرات ، وما أشبهها بالطيور الطائرات .

وأما اتخاذ الضياع والتصدى للإزدراع فنهكة للأغراض وقبيح عاقبة عن الإرتكاض وقلم خلايسها من إندلال أورزق روح بال . وأما حرف أولى الصناعات فغير فاضلة عن الأقوات ، ولا نافعة في جميع الأوقات ولم أر ما هو بارد المضمخ لذيد المطعم وأنى المكسب صافى المشرب إلا

---

(١) شرح مقامات الهمذاني ص ٩٧ .

الحرقة التي وضع ساسان أساسها وأضر في الخاقين ناراها ، وأوضح  
لبنى غيرها نيرانها إذا كانت المنجر الذي لا يجر والمنهل الذي لا يجر  
وكان أهلها أعز قبيل وأسعد جيل لا يرهقهم من حيف ولا يقلقهم من  
سيف ، ولا يرهبون من برق ورعد ولا يحفظون بمن قام وقعد ، أينما  
سقطوا لقطوا وحينما انخرطوا خرطوا لا يتخذون أوطانا ولا يتقون سلطانا " (١)

ولقد كان لظاهرة التسول في المجتمع وانتشارها على هذا النحو  
اثرها المباشر في ظهور لون من الأدب جديد ليس له نظير في غير  
بيئة العراق وفارس وهو الأدب الساساني . . . كما هيأت الفرصة لظهور  
شاعرين كبيرين من شعراء اليتيمة صورا في شعرهما آلام هذه الطائفة من  
بنى ساسان وأساليب معيشتها وفنون حيلتها وعاداتها وتقاليدها  
والفاظها الخاصة بها .

وهذان الشاعران هما : الأحنف المكبرى وأبو دلسف  
الخرجسي .

والأحنف المكبرى هو : أبو الحسن عقيل بن محمد المكبرى وصفه  
الشمالي بأنه " شاعر المكدين وظهر فيهم وبلغ الجلة والتفصيل منهم " (٢)  
وكان صاحب بن عباد ممجبا به وشمره فقال عنه " هو فرد ساسان اليوم  
بمدينة السلام ، وحسن الطريقة في الشعر " (٣) .

- 
- (١) ظهر الاسلام ج ١ ص ١٤٣ .
  - (٢) اليتيمة ج ٢ ص ١٠٤ .
  - (٣) نفسه ج ٣ ص ١٠٤ .

وقد أكثر المكبري من وصفه وصوره وتصوير آلامه في مقطوعات  
شعرية مؤثرة كقوله :

عُشْتُ فِي ذِلَّةٍ وَقَلَّةٍ مَسَالٍ \* وَاغْتَرَابٍ فِي مَعْمَرٍ أَنْتَدَالٍ  
بِالْأَمَانِي أَقُولُ لَا بِالْمَنَانِي \* فَفَدَائِي حَلَاوَةُ الْأَمَالِ  
لِي رِزْقُ يَقُولُ بِالْوَقْفِ فِي الرَّأ \* يَ رِزْقِي تَقُولُ يَا لِإِعْشِيرَتِي (١)  
.....

بلغ به اليأس والتماسة أنه كان يرى " أن الحشرات الحفيرة  
كالمنكبوت والخنفساء أسعد منه حظا ، وأحسن حالا ، حيث إنها تتمتع  
ببيت تسكن فيه ، وأليف تطمئن إليه ، أما هو فلم يكن له مثلها ، الف ولا سكن  
فيقول :

الْمَنْكَبُوتُ بَنَتْ بَيْتًا عَلَى وَهْنٍ  
تَأْوِي إِلَيْهِ وَالِي مِثْلُهُ وَطْنٍ  
وَالْخَنْفَسَاءُ لَهَا مَنْ جُفِئَ سَكْنُ  
وَلَيْسَ لِي مِثْلُهَا إِلَّا الْفُ وَلَا سَكْنُ (٢)

وتحدث في مقطوعة ثالثة عن طريقته في كسب الرزق ووسيلته في جلب المال  
وحيلته التي يستدري بها عطف الناس فيقول :

قَدْ قَسَمَ اللَّهُ رِزْقِي فِي الْمَبَايِدِ فَهَـ  
يَكَادُ يُدْرِكُ إِلَّا بِالتَّغَارِيـــقِ

(١) القيمة ح ٣ ص ١٠٥ .

(٢) نفسه ح ٣ ص ١٠٥ .



وَلَسْتُ مُكْتَسِبًا رِزْقًا يَنْتَسِفُ  
ولا يَحْمِلُ وَلَكِنْ بِالْمَخَارِيقِ  
وَالنَّاسِ قَدْ عَلِمُوا أَنَّي أَخُو حَيْلٍ  
ظَنَنْتُ أَنْفَقَ إِلَّا فِي الرِّسَالَتَيْنِ (١)  
...

وعلى الرغم من هذه الحياة التمسدة التي صورها المكبري في مقطوعاته  
الشعرية الباكية ، كان مخترا بحرفه فخورا بنفسه متمسكا بصناعته وكان  
يرى أن بني ساسان أهل جد وجد وسلطان فيقول :

عَلَى أَنَّي يَحْمَدُ اللَّهَ فِي بَيْتٍ مِنَ الْمَجْدِ  
بِأَخَوَانِي بَنِي سَاسَا \* نَ أَهْلِ الْجَدِّ وَالْحَسَدِ  
لَهُمْ أَرْضُ خُرَاسَا \* نَ قَائِمَانِ إِلَى الْهِنْدِ  
إِلَى الرُّومِ إِلَى الزَّنْجِ \* إِلَى الْهَلْهَلِ وَالْمَنْدِ  
إِذَا مَا أَغْوَزَ الطَّرْقُ \* عَلَى الطَّرَاقِ وَالْجَنْدِ  
حَذَارًا مِنْ أَعَادِيهِمْ \* مِنَ الْأَعْرَابِ وَالْكُفْرِ  
قَطْمَنَا ذَلِكَ التَّهَشُّجُ \* بِلَا سَيْفٍ وَلَا غَمْدِ  
وَمِنْ خَافِ أَعَادِيهِ \* بَنَا فِي الرُّوْعِ يَسْتَعْدِي (٢)  
.....

ومن يقرأ هذه الأبيات للشاعر يقع في دهشة وحيرة إذ كيف  
يتخبر الشاعر بحرقه وقومه من بني ساسان وزعم أنه من بيت ماجد عظيم  
الثراء عريض الجاه واسع النفوذ والسلطان .. مع أنه منذ قليل كان

(١) البيتية ح ٣ ص ١٠٥ .  
(٢) نفسه ح ٣ ص ١٠٤ .

يرثى نفسه ويندب حظه ويصير يؤسه وتماسه .

فهل كان الشاعر حقا جادا في هذا الفخر ببني ساسان ؟ وهل  
كان سحيذا بانتسابه إلى هذه الطائفة ؟ أم أنه كان هازلا عابثا  
لا يعنى ما يقول ؟ .

يزعم بعض الباحثين (١) أن المكبرى كان هازلا ساخرا وأنه ليس  
من السذاجة بحيث يرى في حرفة التسول مجدا عريضا يستحق أن يفخر به  
إنسان خاصة : أنه كثيرا ما تحدث عن يؤسه وشقاقه وتماسه . .

أما أنا فأخالفه في ذلك وأرى أن الشاعر لم يكن عابثا ولا ساخرا  
وانما كان جادا في فخره ببني ساسان وفي انتسابه إليهم . . للأسباب  
الآتية :

أولا : أن بني ساسان قد كثروا في هذا المصر كثرة هائلة وتمددت  
أصنافهم فكان منهم الشعراء والكتاب والخطباء والأشراف حتى  
إن أباء دلف الخزرجي قد جعل الخليفة المهاسي المطيع  
لله واحدا منهم فلا غرابة أن ينتسب الشاعر إليهم ولا غرابة  
أن يفخر بهم ومحرفهم ينير غضاة ولا حرج .

ثانيا : إن أفراد هذه الطائفة كانوا يعيشون في حرية وانطلاق  
ومتقلون من مكان إلى آخر بلا عوائق أو قيود . . وكانوا

---

(١) محمود غناوى الزهيرى في كتابه الأدب في ظل بني بهيه ص ٢١٦ .

يرون أنفسهم فوق القانون فلا يتمرضون للمصادرة أو المرقعة ولا تفرض عليهم ضرائب ولا تجبى منهم زكاة حتى إن الأضياء كانوا يحتمون بهم في وقت الخطر فينتحلون شخصياتهم إذا ما تمرضوا لكلمات اللصوص وقطاع الطرق وهذا ما عناه الأحنف في قوله :

من خاف أعاديـــــــــــــــــه \* بنا في السرور يستمدى  
وإذا كان هذا شأنهم فلا مانع أن يختر الشاعر بهم •

ثالثا : أن هذه الطائفة كانت قد قدت الكثير من آدميتها وكرامتها واستترأت الميئس السهل في ظل الكدية واستكانوا للمذلة والهوان وكانوا ينظرون إلى غيرهم من أصحاب الحرف الأخرى الشريفة نظرة عطف وإشفاق لأنهم كانوا يرون أنفسهم أسمد حالا منهم وكانوا ينظرون إلى حرفهم على أنها المتجر الذي لا يهر والمنهل الذي لا يغير وكان أهلها أعز قبيل وأسمد جيل • كما يقول الحريري في مقامته السابقة ••

من أجل ذلك لم يجد الشاعر غضاظة في أن يختر بهم محرفهم وإلى عهد قريب كانت جماعات الفجر " والأديانية " يحترفون الكدية وكانوا يجهون مدن مصر وقراها يحتالون على الناس صمخرون لهم ••  
شأنهم في ذلك شأن بني ساسان القدامى •

وما أشك في أنهم من بقايا تلك الطائفة ولقد شاهدتهم يتباهون

بحرفتهم يحترزون بها ولا يرضون بها بديلا ينظرون إلى غيرهم من  
الفلاحين والصناع والتجار نظرة عطف ورثاء ..

فلا عجب أن يفخر بهم الأحنف وغيره من شعراء الكندية ولا غرابة  
أن يصادقهم الحكام في ذلك المصر كالمصاحب بن عباد الذي كان يصادقهم  
ينادهم ، ودينهم من مجلسه ، ويعرف لغتهم السرية ، ويحفظها حفظا  
عجيبا ، حتى إن الأحنف المكبرى ، وأبا دلف الخزرجي كانا من ندمائيه  
المقربين ..

أما أبو دلف الخزرجي فقد كان من أعظم الرحالة الجغرافيين  
المسلمين على امتداد التاريخ خاصة في القرن الرابع ، كما أنه كان عالما  
وطيبيا ، وكيميائيا ، و " جيولوجيا " من الطراز الأول ، كذلك كان مناديا  
في الذروة وسجالا للملوك ينادهم وينال عندهم الخطوة والمكانة الرفيعة .

وهذا إلى أنه شاعر رفيع المنزلة بين الشعراء في عصره ، وعلم من أعلام  
الشعر الساساني الذي كان له طرافته وروحه في أيامه ونموذج في رفيع  
للساسانية التي تتميز بالظرف ، وعلو الذوق ، وجمال الفكاكة وسرعة النكتة  
ما حبه إلى الملوك وقربه إلى الوزراء (١) .

" واسم أبي دلف مَسْعَر بن مَهْلَهْل ونسبته إلى الخزرج إحدَى  
القبيلتين الكبيرتين في المدينة ، وللخزرج في الإسلام والإسلام تاريخ  
كبير خالد .. أما الينبعسى فهو نسبة إلى مدينة "ينبع" المشهورة فسى

---

(١) الآداب العربية في العصر الميماي الثاني و ص ١٠٢ .

الحجاز يوصف أبودلف أيضا بالينبغى وهو من الجزيرة العربية • عاش  
القرن الرابع كله أو جلّه يجوب البلاد يمدح الملوك وينادى الأمراء والوزراء  
مطوقا في كل مكان من بخارى إلى الصين والهند • • ومن فارس إلى أرمينية  
وأذربيجان وطبرستان وبلاد الأكراد يصف كل ما يشاهده • ويدون كل  
ما يلاحظه في دقة تامة وعناية بالتفاصيل كاملة مما أذهل المستشرقين  
فكتبوا عنه أنه كان جغرافيا من الطراز الأول ومن أشهر الرحالة في القرون  
الرابع (١) •

أما المصدر الذي ترجم لأبى دلف ترجمة أدبية فهو كتاب اليتيمة  
الذي أرخ لأدباء هذا العصر فقال عنه الثعالبي : " شاعر كثير الملح  
والظرف • مشحون المدينة في الكدية خنق التسعين في الاطراب والافتراء  
وركوب الأسفار الصماب • ضرب صفحة المحراب بالجواب في خدمة العلوم  
والآداب وفي تدقيقه البلاد وكان ينتاب حضرة المصاحب ويكثر المقام عنده  
ويكثر سواد غاشيته ويرفق بخدمته ويرتقى في جلته ويتزود من كتبه فسى  
أسفاره تجرى مجرى السفّاتج في قضاء أو طاره (٢) •

وفي شعر أبى دلف ما يدل على كثرة أسفاره وتجاربه وتطوافه في  
البلاد من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب كقوله :

أَلَا إِنِّي جَلَيْتُ الدَّهْمَ \* بَرَّ مِنْ شَطْرِ إِلَى شَطْرِ  
وَجَبَّتِ الْأَرْضُ حَتَّى صِيرَ \* تَ فِي التَّطَوَّاي كَالْخَضِرِ  
وَالْمُغْبَرَةِ فِي سِي الْحَرِّ \* فَعَالُ النَّارِ فِي التَّشْرِ

(١) المصدر السابق ص ١٠٤

(٢) اليتيمة ج ٣ ص ٣٢١ •

فَمَعْصُومٌ مِّنْهُ لِلْخَيْرِ \* وَمَعْصُومٌ مِّنْهُ لِلْفَقَرِ (١)

.....

وترجع شهرة أبي دلف الأدبية إلى تلك القصيدة الرائعة الشهيرة  
التي عارض فيها دالية الأحنف المكيّري والتي تُعرف باسم القصيدة  
الساسانية \* .

وقد رواها الثعالبى فى البيتية وهى طويلة جدا فاختار الثعالبى  
منها ما يقرب من مائتى بيت ، بدأها الشاعر بأبيات رقيقة شرح فيها  
آلامه وآلام اخوانه من بنى ساسان وما يلقونه من جهد وشقة ففى  
أسفارهم واعترايبهم ثم عقب على ذلك بأبيات فى الفخر على طريقة الأحنف  
فى الدالية ثم أسهب بعد ذلك فى بيان أنواع المكدين وقصص حيلهم  
وأساليبهم فى سبيل الحصول على المال وكيفية ابتزازهم من الناس .

وقد كان هؤلاء الشحاذون يطوفون فى الآفاق ، ويجولون فى  
البلدان ينتقلون فى القرى والأرياف يستجدون ويختالون على الناس  
يملكون منهم الأموال ..

وقد كشف أبو دلف فى هذه القصيدة عن الكثير من أساليبهم وحيلهم  
ووسائلهم فى سلب المال ، كما ذكر الكثير من مصطلحاتهم الخاصة التى  
لا يفتن إليها سواهم .. وقد قام الثعالبى بشرحها شرحا وافيا شافيا  
وكشف الحجاب عن مغاليقها وأسرارها ولولا ذلك لما فهمنا عنها شيئا .

---

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ٣٤٢ .

وهذه القصيدة تجمع ما تفرق من اصطلاحات الساسانيين ولا يقرنها  
في هذا السبيل أثر أدبي آخر إلا مقامات البديع وقد أعلن أبودلف  
في هذه القصيدة أنه شخصا من زمرة الساسانيين كما حشر معه كثيرا من  
الغمراء والأشراف والنج في ذلك حتى جعل الخليقة الساسية المطيح  
لله من جللتهم ....

يقول أبودلف في مقدمة هذه القصيدة :

جُفُونٌ دَمَعَهَا يَجْجِرُ \* لِطُولِ الصَّدِّ وَالْهَجْرِ  
وَقَلْبٌ تَرَكَ الْوَجْدَ \* بِهِ جَمْرًا عَلَى جَمْرِ  
لَقَدْ دَفَعْتُ الْهَيْوَى طَمَعِي \* مِنْ حُلُوٍّ وَمِنْ مُرٍّ  
وَمِنْ كَانَ مِنَ الْأَحْثَرَا \* رَيَّحُوا مَكَلَّةَ الْحَرِّ  
وَلَا سِيمَا فِي الْغُرْبَى \* نِيَّةً أَوْ دِيَّ الْكُفْرِ الْمَرِّ  
تَمَرَّتْ كَفْصُنَ الْهَبَا \* نِ بَيْنَ الرُّقَى وَالْخَضْرِ  
وَشَاهَدْتُ أَعَاجِيْبَهَا \* وَالْوَانَسَا مِنَ الدَّهْرِ  
فَطَابَتْ بِالنَّوَى نَفْسِي \* عَلَى الْإِمْسَاكِ وَالْفَطْرِ (١)

.....

ومعد هذه المقدمة الرقيقة يورد موضع اختياره كما فعل الأحنف  
المكبري في الدالية فيقول :

عَلَى أَنْقَى مِنَ الْقَوْمِ الْبَا \* سَبْهَا لَيْلٍ بَيْنِي الْغَمْرِ  
بَنَى سَاسَانَ وَالْحَاطِيَّ الدَّ \* حَمَى فِي سَالِفِ الْقَمْرِ

(١) البيتية ح ٣ ص ١٢٣ .

تَقَرَّ بِنَا إِلَى أَنَا \* تَنَامُنَا إِلَى شَهْرٍ  
 فَظَلَّ الْبَيْنُ يَرْمِينَا \* تَوَى بِطَنًا إِلَى ظَهْرِ  
 كَمَا قَدْ تَفَعَّلَ الرَّيْحُ \* يَكْتُبُ الرَّمْلُ فِي الْبَرِّ  
 فَحَنُّ النَّاسِ كُلِّ النَّاسِ \* فِي الْبَرِّ وَفِي الْبَحْرِ  
 أَخَذْنَا جَزِيَةَ الْخَلْقِ \* مِنَ الْمَنِّ إِلَى مَصْرِ  
 إِلَى طَنْجَةِ بِلِّ فِي كَلِّ أَرْضٍ خَلْنَا تَسْرِي  
 إِذَا ضَاقَ بِنَا قُطْرُ \* نَزَلَ عَنْهُ إِلَى قُطْرِ  
 لَنَا الدُّنْيَا بِمَا فِيهَا \* مِنَ الْإِسْلَامِ وَالْكَفْرِ  
 فَصَطَّافُ عَلَى النَّاسِجِ \* وَنَشْتُو بَلَدَ التَّمْرِ (١)

.....

ثم يأخذ بعد ذلك في سرد أصناف المكدين وبيان حيلهم  
 وكايدهم وطريقة ابتزازهم للمال ، ويكشف الكثير من أسرار صناعاتهم ويذكر  
 كثيرا من مصطلحاتهم السرية الخاصة التي لا يظن إليها أحد سواهم .

وقد قام الثعالبي بشرح هذه المصطلحات وأوضح الكثير من  
 مغالقتها والغازها ولولا ذلك لما عرفنا عنها شيئا .

يقول أبو دلف مينا أصناف المكدين وطريقة احتيالهم :  
 وَمِنَا الْكَاغُ وَالْكَاغَةُ \* نُهُ وَالْقَيْشَقُ فِي النَّحْرِ (٢)

(١) البيتية ح ٣ ص ٣٢٤ .

(٢) الكاغ والكاغة : المتجائن والمتجننة .

القيشق : الحدايد والتماخذ التي يعلقونها على أنفسهم .



- (١) مَن دَرُوزَ أَوْ حَرَزَ \* تَرَّ أَوْ كَرَزَ يَالْقَصْرَ  
 (٢) مَن دَرَعَ أَوْ قَمَعَ \* أَوْ دَمَعَ فِي الْقَصْرِ  
 (٣) مَن رَمَعَ أَوْ كَبَسَ أَوْ عَلَسَ فِي الْقَصْرِ  
 (٤) مَن كَبَلَ قَنَسًا \* عَلَى الْإِنْجِيلِ وَالذِّكْرِ  
 (٥) مَن أَكَلَ مَسْتَمَشِي \* مِنَ التَّمَارَةِ الْكُذْرِ  
 (٦) مَن شَدَدَ فِي الْقَوْلِ \* مَن رَمَدَ فِي الْقَصْرِ

- (١) كَرَزَ : إذا دار على السكك والدروب وسخر بالنساء .  
 حَرَزَ : إذا كتب التماثيل والأحراز .  
 كَرَزَ : إذا أقام في المجلس والكوز : هو الذي يقوم في مجلس  
 القصص فيأمر القاص أصحابه بأعطائه ثم إذا تفرقوا تقاسموا .  
 (٢) دَرَعَ : إذا جاء الهراس وطلب قصصة من الهريسة فإذا أعطاه أياها  
 لحسها .  
 قَمَعَ : إذا مشى وعينيه إلى الأرض لطلب القطع .  
 دَمَعَ : إذا بكى في الأسواق عند البرد حتى يعطى .  
 (٣) رَمَعَ : إذا طأى على حوائط الباعة فأخذ من هنا جوزة ومن هنا  
 تمره .  
 كَبَسَ : إذا دار فان رأى رجلاً حل سفجته كبسه وأخذ منه قطعة .  
 عَلَسَ : إذا خرج إلى الكدية بفلس .  
 (٤) الْقَنَسَ : الذي يقرأ التوراة والإنجيل يوهم أنه كان يهودياً أو نصرانياً  
 فأسلم .  
 (٥) مَسْتَمَشِي : قوم يدورون على أبواب الدور فيما بين المشائين ،  
 ويقولون — رحم الله — من شرب الشريب ومنعمون بذلك حتى  
 يأخذوا من كل دار كسرة ويرجموا بها .  
 (٦) مَن شَدَدَ : قوم يكون معهم دفاتر حديث يرونها ويشددون على  
 الناس في اللواط وشرب الخمر .  
 الْقَصْرَ : هو الأتون يدخله الواحد من القوم فيطرح نفسه في الرماد .  
 يوهم أنه آوى إليه من شدة البرد وعدم الملابس .

- (١) مَن قَتَلَ آوَيْتُونَ آوَيْتُونَ آوَيْتُونَ يَالْمُحْسِرِ  
(٢) مَن مَنَعَكَ الطَّيْنَ \* وَأَصْحَابُ اللَّحَى الْحُسْرِ  
(٣) مَن شَقَفَ يَالْمَاءَ \* وَمَن شَقَفَ بِالْجَنْرِ  
(٤) مَن النَّائِجُ الْمُهَكِّي \* وَمَن النَّائِجُ الْمُهَكِّي  
(٥) مَن صَرَبَ فِي حُتَب \* عَلَيَّ وَأَبْيَسَ بَكْرِ

- (١) قَتُونَ : المقتول : هو الذي يقول : كان أبي نصرانيا . وأبسى  
يهودية وأن النبي صلى الله عليه وسلم جاءني في النوم  
وقال : لا تغتر بدين أبيك وأنت ملى فأسلمت .  
بنون : إذا انتسب إلى الهانوانية وهم النصارى وقال : كنت محموسا  
فاحتلت بكذا حتى خرجت .  
طين : إذا طين وجهه وساعديه بطين الحبرة وروى الأشعار على  
روؤوس الأشهاد في الأسواق .  
(٢) مَنَعَكَ الطَّيْنَ : قوم يخضعون لحاكم بالحنا ويدعون أنهم شيمسة  
يحملون السبع والألواح من الطين ويؤمنون أنها من قبر  
الحسين بن علي رضي الله عنهما فيتحننون بها الشيعة .  
(٣) الشَّقَفُ : هو الذي يأخذ ماء النواذر فيكتب بها الرقاق ويتركها بين  
يديه فإذا مر به الأبله قال له : جوب بختك وخذ رقعة من  
هذه ثم يعطيه إياها فيقذفها في النار فيظهر المكتوب أسود  
وقد يعمل هذا الجضم ماء العذص فإذا غس في ماء الزاج  
خرج أسود ويقال للرقعة الشقيقة .  
(٤) النَّائِجُ الْمُهَكِّي : قوم ينوحون على الحسين بن علي يروون الأشعار في  
فضائله ومراثيه رضي الله عنه .  
(٥) مَن صَرَبَ فِي حُب الْخ : قوم يحضرون الأسواق فيقف واحد بجانب يروى  
فضائل أبي بكر رضي الله عنه ويقف الآخر بجانب يروى فضائل  
علي رضي الله عنه فالتفتهم ما درهم الناصبي والشيعة ثم  
يتقاسمان الدراهم .

هَنْ يَرَوِي الْأَسَانِيدَ \* وَحَقَّ وَكُلَّ قَمَطَرٍ (١)  
وَمَنْ يَكْخُلُ مِنْ مَمْتَعَةٍ \* حُرِّى بِمَعْتَمُتِهِ تَجَرَّى (٢)  
وَفِي النَّقِيبِ مَنَّاكُ كُلِّ جَبَّارٍ أَخِي الْخَصِيرِ (٣)

\* \* \*

وعلى هذا النحو يسهب أبو دلف في سرد أصناف المكدين ويمسح  
في تعداد حرفهم ويبان حيلهم وأصاليهم في جمع المال وإبتزازه .

وكان في كل ذلك يستخدم لغة خاصة لا يفهمها إلا الصماليك من  
بنى ساسان . وهذه اللغة السرية كانت تعرف " بمناكاة بنى ساسان " .  
وقد روى الثمالي " أن صاحب ابن عماد كان يحفظ هذه اللغة حفظا  
عجيبا ومجبه من أبي دلف وفور حفظه منها وكانا يتجاذبان أهدابها  
مجرمان فيما لا يفتن له حاضرهما ولما أتت أبو دلف بهذه القصيدة ،  
" إهتر ونشط لها وأجزل صلتها عليها (٤) "

- 
- (١) ومن يروى الأسانيد الخ : قوم يروون الأحاديث على قوارع الطريق .  
(٢) ومن يكحل الخ : هو الذي همه قطنة مغموسة في الزيت يمرها على  
عمنيه لتدفع بهاخذ في شكاية حاله واستمراض الناس في مسأله .  
وذكر قصته وأنه قطع عليه الطريق أو غصب ماله .  
(٣) كل جبار : هو الذي يقف في المقام قائما أو قاعدا ولا يبرحه حتى  
يأخذ ما يريد . . .  
(٤) البهجة ح ٣ ص ٣٢٢ .

قد توسع أبو دلف في مفهوم الكدية والمكدين في هذه القصيدة بحيث جعل منهم الشعراء والأشرار والخلطاء قال :

وَمِنَّا شُعْرَاءُ الْأَرْدِ \* فِي أَهْلِ الْبَيْتِ وَالْحَضَرِ  
وَمِنَّا سَيَّائِرُ الْأَنْصَارِ \* وَالْأَشْرَارِ مِمَّنْ فِيهِمْ  
وَمِنَّا قَتَلُ الدِّينِ الْوَلَدِ \* مُطِيعُ الشَّائِعِ الذَّكْرِ  
يُكَدِّى مِنْ مُعْتَرِ الدَّوْ \* لَيْلَةَ الْخُبَيْرِ عَلَى قَدَرِ (١)

.....

يبدو أن أبا دلف كان جدًّا في حشر الخليقة المباسي المطيع لله من جملة الساسانيين لا ساخرًا ولا متندرا كما يقول الثعالبي : فالقصر والحرمان وسوا الأضلاع الاقتصادية قد دفعت كثيرا من الأشرار والشعراء والكتاب وحتى بعض الخلطاء إلى الاستجداء وطلب المطاء ..

فهذا الخليقة القاهر شوهد بعد أن خُلِعَ وَسِيلَ وهو واقف بجامع المنصور يطلب الصدقة من الناس لولا أن رأى بعض الهاشميين فمنعه من ذلك وأعطاه خمسمائة درهم (٢) .

وهذا ابن حطيج الشاعر الماجن الذي كان محتسبا على مدينته بغداد في القرن الرابع يملأ شعره بالفاظ المكدين ومجانهم كقوله :

يَا سَادَتِي قَوْلُ مَيْتٍ \* فِي مِثْلِ صُورَةِ حَيٍّ  
لَمْ يَبْقَ فِي الْخُرْجِ شَيْءٌ \* أَتَأَذَنْتُونِ بِشَيْءٍ (٣)

(١) البيهقي ج ٣ ص ٢٣٦ .

(٢) الفخرى في الآداب السلطانية ص ٢٤٩ .

(٣) البيهقي ج ٣ ص ٤٩ .

وهذا ابن سكرة الهاشمي لم يمنعه شرف أصله وكرم نسبه من  
أن يقول :

قُلْ لِلرَّئِيسِ الَّذِي أَنَا إِلَيْهِ  
مُسَوِّطٌ بِالنِّسَابِ مُخْرِقَةٌ  
حَلَّتْ لِي الْيَمِينُ الَّتِي حُرِّمَتْ  
فَكَفَى تَنْهَبُوا نَفْسِي عَنِ الصَّدَقَةِ (١)

...

وهما يكن من أمر فان هذه النماذج المتعددة من الأدب الساساني  
تُعدُّ صورة صادقة للحياة الاجتماعية والاقتصادية القاسية التي كانت طائفة  
هضمة من طوائف المجتمع تحياها نتيجة للظلم الاجتماعي والتفاوت الطبقي  
وإن القصيدة الساسانية تُتَمَدُّ بحق وثيقة تاريخية واجتماعية على  
درجة كبيرة من الأهمية لدراسة حياة الشحاذين والمتسولين ومعرفة حيلهم  
وقاليدهم بصورة خاصة كما أنها تُتَمَدُّ من أفضل المصادر التي تلقى الأضواء على  
أحوال العصر الاجتماعية ولا يعادلها في هذا الشأن أثر أدبي آخر .

\* \* \*

---

(١) البيتية ح ٣ ص ٢١ .

وقبل أن أفرض من دراسة الأدب الساساني الذي رواه الثعالبي  
وخرج لأدبائه وسجل نماذج في اليتيمة ينبغي أن أجهز إلى الصلة  
القائمة بين هذا الأدب وبين مقامات البديع .

ولا أريد هنا أن أتمرض لدراسة المقامات دراسة تاريخية اجتماعية  
أدبية شاملة فذلك أمر خارج عن نطاق البحث لمبنيين :  
الأول : أن يدين الزمان ألف معظم مقاماته بنيسابور في خراسان .  
وخراسان ليست داخلية في نطاق البحث .

وثانيا : لأن مصدر البحث هو كتاب "اليتيمة" والثعالبي في اليتيمة  
لم يتكلم عن المقامات وإنما أشار إليها إشارة عابرة أثناء ترجمته  
للبيديع عندما قال : وأملى - البديع - أربعمائة مقامة فسي  
الكدية وغيرها (١) .

ومن هنا كانت الصلة بين اللذين : فالشعر الساساني قائم على  
الكُدَيَّة والمقامات معظمها يقوم على الكدية كذلك وما أشك في أن البديع  
قد تأثر بشخصية أبي دلف الخزرجي وقصيدته الساسانية الطويلة فسي  
الكدية .

والدارس لشخصية أبي دلف الخزرجي كما صورها الثعالبي في اليتيمة  
وشخصية أبي الفتح الاسكندري كما صورها البديع في المقامات يلاحظ أن

---

(١) اليتيمة ح ٤ ص ٢٤١ .

الشخصيتين كانتا متطابقتين تمام التطابق ، فكلاهما كان شاعرا عالما  
قهيها ذا عقل راجح وبيان خلاب ، وكلاهما كان جوالا طافا بالبلاد  
من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب وكلاهما كان ذا حيلة ودهساة  
عظيم . . .

ولا أتجاوز الصواب إذا جزمتم - كما جزم بعض الاساتذة - بأن  
أبا الفتح الإسكندري بطل المقامات هو نفسه أبو دلف الخزرجي صاحب  
القصيدة الساسانية السابقة ، وليس بهميد أن يكون الهمداني قد جعل  
من شخصية أبي دلف الخزرجي - وهو من أهل عصره وأستاذه - بطلا  
لمقاماته وكفى عنه بأبي الفتح من باب التعميه والتحمية وقد كشف الثعالبي  
- نفسه - عن هذه الحقيقة من غير قصد عندما قال أننا ترجمته لأبي  
دلف \* وأنشدني بديع الزمان لأبي دلف ونسبه في بعض المقامات إلى  
أبي الفتح الإسكندري :

هَجَّكَ هَذَا الزَّمَانُ زُورُ  
فَلَا يَفْرَنْتُكَ النَّسْرُورُ  
زَوْقِي وَمَخْرُوقِي وَكُلُّ وَأَطْبَقِي  
وَأَسْرَقِي وَطَلَبِي لِمَنْ يَزُورُ  
لَا تَلْتَزِمِ حَالَةَ وَلَكِنْ  
دُرِّ يَالْيَالِي كَمَا تَدُورُ (١)

...

(١) البيتة ح ٣ ص ٣٢٣ \*

فهذا النص يدل على أن الهذاني كان راعية لشعر أبي دُلَـف  
ينشده في المحافل والمقتديات هرويه للمؤلفين والأدباء . . . وورد  
هذا الشعر نفسه في بعض المقامات على لسان أبي الفتح الإسكندري  
يدل على أن شخصية أبي دلف الخزرجي وشخصية أبي الفتح الاسكندري  
يظل المقامات كانتا مترابطتين في ذهن الـهـديـع ترابطاً عجيباً، والسـدي  
جزء بذلك من قبلى هو الدكتور محمد عبد المنعم خنـجـاـجـى عندما قال (١) :  
" رأى الذى أذهب إليه اليوم هو أن أبا الفتح إنما هو شخصية تاريخية  
معروفة وهى أبو دلف الخزرجى وحده " .

وليس هذا كل ما لاحظته من صلة أو تأثير بين الأدب الساساني  
ومـن مقامات الـهـديـع فإن من يقرأ المقامة الرصاصية للـهـديـع يشعر أنه نشـر  
فيها قصيدة أبي دلف الساسانية . .

وفضلاً عن ذلك فقد سـمى الـهـديـع إحدى مقاماته باسم المقامة  
الساسانية نسبة إلى هذه الطائفة التى تحدث عنها أبو دلف في قصيدته  
ما يدعم الصلة القائمة بين المملين .

وهذا مما يؤكد القول بأن شخصية أبي دلف وما جاء في قصيدته  
الساسانية عن أصناف المكيدين وبيان حيلهم ووسائلهم ومصطلحاتهم كانت  
من الموامل المباشرة التى ألهمت الـهـديـع فن المقامات .

ومعد أن فرغت من دراسة الأدب الساساني : وهو الشق

---

(١) الآداب العربية في العصر العباسي الثاني ص ١٠٠ للدكتور  
خنـجـاـجـى .



الأول من أدب الفقر والحرمان سأحدث عن الشق الثاني من هــذا  
الأدب وهو : أدب الشكوى من الزمن والثورة على الأوضاع وتصـرر  
المصائب والنكبات ووصف مظاهر الفقر والفاقة ، وقد كثرت نماذج هذا  
اللون من الأدب فى اليتيمة نتيجة لما أصاب الناس فى هذا العصر من  
ضروب المحن والنكبات فطبعتم حياتهم بظايع الحزن والكآبة وتولد فى  
نفوسهم الحقد والمرارة •

ويكفى أن استشهد بنص واحد لأبى حيان التوحيدى شـيخ  
الفلاسفة فى هذا العصر لتعرف إلى أى حد وصلت حالة معظم الرعية فى  
هذا الزمان •

يقول أبو حيان فى رسالة وجهها إلى أبى الوفاء المهندس بهــم  
فيها بؤسه وفاقتة ويطلب فيها معونته :

• خلصنى أيها الرجل من التكفف أنقذنى من لبس القراطلقنى  
من قيد الضر ، اشترنى بالاحسان ، اكفنى مشونة الغداء والعشاء ••  
إلى متى الكسيرة اليابسة ، والبقيلة الذائبة ، والقميص المورق ؟ •

إلى متى التأدم بالخبز والزيتون ؟ قد والله يح الخلق ، ويخـير  
الخلق ، الله الله فى أمرى ، أجبرنى فأننى مكسور ، اسقنى فأننى صد  
أغنى فأننى ملهوف (١) •

هذه الحياة الكثيفة التى سيطرت على الناس فى هذه الحقبة قسـد

---

(١) الإمتاع والمؤانسة ج ٣ ص ٢٢٦ •

تجنت شمرا غائيا حزينا لعله أروع ما قيل من الشعر في هذا العصر  
لأنه يمتاز بالصدق والأصالة والتعبير عما يختلج في النفس من مرارة وسا  
يضطرب في القلب من حزن وكآبة ..

إنه شعر إنساني عالمي خالد طالما بقى على وجه الأرض ظلم  
واستغلال و فقر وحرمان .

ذلك لأن المعاني التي تناولها هذا الشعر معان مشتركة في كل  
زمان ومكان ، لأنها تعبر عن مشاعر الطبقة المغلوبة أصدق تعبير ..

لقد أكثر شعراء هذه الحقبة من وصف البؤس والحرمان وتصوير  
مظاهر الفقر والفاقة ، وعبروا عن آلامهم وأحزانهم في صدق وإخلاص ..

ولكنهم في ثورتهم ونقمتهم وسخطهم تجاهلوا السبب المباشر في  
تماسكهم وهو ظلم الحكام .. الذين استأثروا ببطشيات الدنيا دونهم ،  
وتركوهم فريسة سهلة للفقر والجبل والمرض ، فصبوا جام غضبهم على  
الزمن والدهر والدنيا وحركة الكواكب والأفلاك لأنهم كانوا أعجز من أن  
يواجهوا الحكام بحقيقة آلامهم وبرؤسهم .

ولعل الشاعر محمد بن محمد المعروف بابن لنكك البصري كان  
من أكثر شعراء البيتية نقمة على الزمن وسخطا على الدهر لاغداقه على  
الحق والجبال وتحامله على أمثاله من العقلاء العلماء الأفاضل .. وقد  
قال عنه الثعالبي :-

" كانت حرفة الأدب تسمه وتجشمه وحنة الفضل تدركه فتخدشه  
ونفسه ترفعه ودهره يضمه (١) .

وقد روى له شعرا كثيرا يفهى حزنا وحرارة ، ومقطر لوعة وأسى . .  
ومن ذلك قوله يندب حظه ويَحْتَلُّ الدهر مسئولية تماسه :

إِنْ أَصَحَّتْ حِمَمِي فِي الْأُفُقِ عَالِيَةٍ  
فَإِنْ حَقَّقَتْنِي بِيْطْنِ الْأَرْضِ مُلْتَصِقُ  
كم يفعل الدهر بي مالا أَسْرِبُهُ  
وكم يُسَيِّئُ زِمَانُ جَائِرٍ حَنِقُ  
كم نفخة لى على الأيام من فَجَرٍ  
تَكَادُ مِنْ حَرِّهَا الْأَيَّامُ تَحْتَرِقُ (٢)

وقوله في موضع آخر :  
جَارَ الزَّمَانُ عَلَيْنَا فِي تَصَرُّفِهِ  
وَأَيُّ دَهْرٍ عَلَى الْأَحْرَارِ لَمْ يَجْرِ  
عِنْدِي مِنَ الدَّهْرِ مَا لَوْ أَنَّ أَيْتَرَهُ  
يُلْقِي عَلَى الْفَلَكَ الدَّوَارِ لَمْ يَدْرِ (٣)  
.....

ولقد كان ابن لنكك يرى عن قصد أو عن جهل أن الزمن هو السبب  
الباشر في تماسه ونحسه نصيب عليه جام غضبه وسلخه عليه سهام حقدته  
وهجاء هجاء مرا كقوله :

- 
- (١) الهتمة ح ٢ ص ٣٢٠ .  
(٢) نفسه ح ٢ ص ٣٢٣ .  
(٣) نفسه ح ٢ ص ٣٢٢ .

تَحْنُ وَاللَّهِ فِي زَمَانٍ غُثِّمِ  
لو رأينا في المنام فَرَعَنَا  
يُصَيِّحُ النَّاسُ فِيهِ مِنْ سُوءِ حَالٍ  
حق من مات منهم أَنْ يَهْنَأَ (١)  
...

وفى مقطوعة أخرى يسخر من الزمن يتهمة بالجنون وصفه  
بالجهل والطيش والمبث فيقول :

هَذَا زَمَانًا أَلَيْسَ الْأَحَدُ \* تَرَارَ ذَلَالًا وَمَهَانَةً  
لَسْتُ عِنْدِي بِزَمَانٍ \* إِنَّمَا أَنْتَ زَمَانٌ  
كَيْفَ تَرْجُو مِنْكَ خَيْرًا \* وَالْعُلَا فِيكَ مَهَانَةٌ  
أَجُونُ مَا تَكْرَهُ \* مِنْكَ يَهْدُو أَمَّ مَجَانَةٍ (٢)  
.....

وكما حظ زمانه ، وحنق عليه ، صبلعنته على الناس جميعا ولم  
يسلم من لسانه الوجها ، والشعرا ، والعمامة لأنهم مسئولون جميعا عن بؤسه  
وحماسته وعدم احترامه وتقدير غيره عليه .

ومن ذلك قوله يهجو وجوه بلدته وروساها وصفهم بالجهل  
والحنق وصفهم باللؤم والضعف ..

لِمَنْتُمْ جَمِيعًا مِنْ وَجُوهِ لَهْلَسَةٍ  
تَكْفِكُمْ جَهْلٌ وَلَوْمْ فَاقْرَطَا

(١) البيتة حد ٢ ص ٣٢٢ .  
(٢) نفسه حد ٢ ص ٣٢١ .

أَرَأَيْتُمْ تَعْبُدُونَ اللَّاتَ وَإِلَهَ بْنِي  
أَرَأَيْتُمْ يَطْرُقَ اللَّحْمَ أَهْدَى مِنَ الْقَطَا (١)

ثم يشنع عليهم ويرمىهم بأقبح الصفات في قوله :

مَنْ الْأَخْرَارُ وَأَنْفُوسُهُمْ مَسَاكِينُ  
وَتَخَلَّفَنِي الزَّمَانُ عَلَى عُجُوجٍ  
وَقَالُوا قَدْ كَلِمَتِ الْبَيْتِ جِدًّا  
قُلْتُ لِقَدِّ قَائِدَةِ الْخُرُوجِ  
لَمَنِ الْغَى إِذَا أَبْصَرْتُ فِيهِمْ  
فُرُودًا رَاكِبِينَ عَلَى السُّرُوجِ  
نَهَانُ عَزَّ فِيهِ الْجُودُ حَتَّى  
تَعَالَى الْجُودُ فِي أَعْلَى السُّرُوجِ (٢)

....

أما الشعراء فقد كان يرى نفسه أفضل منهم وأحق منهم بالرزق الوافر  
والحياة الكريمة .. فثار عليهم وهجاهم هجاءً مرّاً خاصة أولئك الذين  
أوتوا حظاً من الغنى والنعم وحصد الصيت كالمقنبي وأبو رياش وأبو  
الليثاء وغيرهم .

وقد روى له الثعالبى شعراً كثيراً في هجاء هؤلاء وغيرهم من

شعراء عصره ..

كقوله عن المقنبي :

(١) البيتة ح ١ ص ٣٢٤ .

(٢) نفسه ح ٢ ص ٣٢٣ .

قَوْلًا لِأَهْلِ زَمَانٍ لَا خَلْقَ لَهُمْ  
 صَلُّوا عَنِ الرَّشِيدِ مِنْ جَهْلِ يَوْمٍ وَمَوَا  
 أَعْطَيْتُمُ الْمُتَنَبِّئِينَ قُوَى مُنْتَبِهَةٍ  
 فَزَوْجُوهُ يَوْمَئِذٍ أُمَّهَاتُكُمْ  
 لَكِنَّ بَغْدَادَ جَدَّةَ الْفَيْتِ سَاكِنَهَا  
 يَمَالُهُمْ فِي قَفَا السَّقَاءِ تَزْدَحِيمُ (١)

...

أما هجاءه لأبي رياش وأبي اللهدام والرملي وغيرهم فهو هجاء  
 فاحش قبيح يصف القلم عن كتابته واللسان عن روايته ..

ولم يسلّم من لسانه أحد حتى المائة والسوة فقال فيهم :  
 لَا تَخْذَعُكَ اللَّحْسَى وَلَا الصُّوَرُ  
 تَشْمَعُ أَعْيَارَ مَنْ تَرَى بِقَسْرِ  
 تَرَاهُمْ كَالسَّحَابِ مُتَشَفِّرًا  
 وَلَيْسَ فِيهِمْ لِبَالِيسٍ مَطَرُ  
 فَسَى شَجَرِ السَّرْوِ مِنْهُمْ مَثَلُ  
 لَهُ رَوَاهُ مَا لَمْ يَكُنْ مُرَرُّ (٢)

...

ولا شك أن شعور ابن لنكك بالظلم وإحساسه بالمرارة وسوء  
 الحظ الذي لازمه .. مع وفور عقله وسعة علمه كانت السبب المباشر في  
 نفقته وشورته على الزمان وشيخه بأهله فصب جام حقد عليهم جميعا .

(١) نفسه ج ١ ص ١٠٠  
 (٢) نفسه ج ٢ ص ٣٢٣

أما ابنه إبراهيم - وكان شاعرا مثله - فقد ورت عنه الغسل والإخفاق والتماسة والشمر بالحد والمرارة .. نصب نقيته على أهل عصره كأييه ..

وإذا كان ابن لنكك قد زعم أن تسعة أعشار الناس بقر .. فإن ابنه إبراهيم قد وصل بتلك النسبة إلى نتيجتها الطبيعية وهي درجة الكمال فزعم أنهم جميعا بقر .. ودعا إلى الانتفاع بهم في حرث الأرض واستخراج ما في بطونها من كوز مدفونة قال :

لَا تَصْلُحُ الْأَرْضُ وَلَا تَسْتَوِي \* إِلَّا بِكُمْ يَا بَقَرِ الثَّمَالِيْمِ  
مَنْ قَالَ لِلْحَرْثِ خُلِقْتُمْ فَلَسْتُمْ \* يَكْذِبٌ عَلَيْكُمْ . لَا - وَلَمْ يَأْتِ  
مَا أَنْتُمْ عَارٌّ عَلَى آدَمَ \* لِأَنْكُمْ غَيْرُ بَنِي آدَمَ (١)

\* \* \*

وإذا كان ابن لنكك وابنه قد سقطا على الأوضاع الفاسدة فسي إقلمهم المراق فان لهما نظيرين آخرين في إقليم فارس فهناك في أقصى الشرق من بلاد فارس عرف محمد بن عبد الميز الطوسي بالبوس والتماسة والشمر بالظلم والحرمان والاحساس بالغسل والمرارة .

وقد روى الثعالبى له قصيدة طويلة تروى على أربعمائة بيت فسي وصف حاله وعدم استقراره وشورته على الأوضاع وتنقله فسي الأدب والن و المذاهب والصناعات يقول في مطلعها :

(١) البيهقي ح ٢ ص ٣٢٣ .

الْحَمْدُ لِلَّهِ لَيْسَ لِي بِهَيْئَةٍ \* وَلَا ثِيَابٌ يَضُمُّهَا تَحْتُ  
 سَيَّانٍ يَبْتَغِي لِنَفْسِهِ تَأْمَلُهُ \* وَالْمَهْمَةُ الصَّخَّانُ وَالْمَرْ  
 أَيْتُ فِي بَيْتِي اللَّصُوصُ فَمَا \* لِلَّهِ فِيهِ فَنُوقُ وَلَا تَحْتُ  
 فَنَزَلِي مُطْلِقٌ بِلا حَسَرَةٍ \* صَفَرٌ مِنَ الصَّفَرِ حَيْثَا دُرُ  
 إِبْرِيْقِي الْكُوزُ إِنْ غَسَلْتُ يَدَيَّ \* وَالطَّيْنُ سُمْدِي وَدَارِي الطَّسْتُ  
 . . . . .

بعد أن صرَّح بوجهه في هذه المقدمة أخذ يتحدث عن سوء طالع  
 هذا ذكر تنقله في المذاهب والحرف والبلدان دون جدوى فيقول :

سَلَكْتُ فِي مَذْهَبِ التَّصَوُّفِ تَتِمُّ  
 مَا قَمْتُ لِلذَّهَبِ قَصِيرُ  
 سَوَّيْتُ سَجْدَةَ يَوْمٍ وَاحِدٍ  
 سَكْتُ سَبَّاحًا قَدْ كُنْتُ طَوَلْتُ  
 وَفِي مَقَامِ الْخَلِيلِ قُمْتُ كَمَا  
 قَامَ لِأَنْتَى بِهِ كَبَّرْتُ  
 وَقُلْتُ إِنِّي أَحْرَمْتُ مِنْ بَلَدِي  
 وَفِي حَرَامِي إِنْ كُنْتُ أَحْرَمْتُ  
 ثُمَّ كَبَّيْتُ الْمُطَوِّفَ حَتَّى يَتَذَيَّبَ  
 رَى بَيْنَ الرُّومِ الْقَسْتُ  
 حَتَّى إِذَا رَمَيْتُ عَرَسِي عَلَى  
 يَهْلِكُ عَكْتُ النُّنَى وَطَلَقْتُ



وفي منق من التراب تم  
 دَرَيْتَهُ مَسْرَةً وَفَرَّ بِهَلْكَتُ  
 يا ليت شِعْرِي لَمَّا بَدَأَ يُقَسِّمُ الْأَرْضَ  
 زَاقِي فِي آيٍ مَطْبُوعِي كُنْتُ  
 وَالْحَدُّ لِلَّهِ قَاسِمُ الرِّزْقِ فِي الْخَلْقِ  
 فِي كَمَا اخْتَارَ لَا كَمَا اخْتَرْتُ (١)  
 ...

ولا شك أن هذه القصيدة كانت تحفة أدبية قيمة ووثيقة اجتماعية  
 طريفة والأبيات التي رواها الثعالبي منها تؤكد ذلك فلا عجب أن يقول  
 عن صاحبها إنه كان أحد شياطين الإنس ..

وإذا كان هذا الشاعر قد حمد الله مقسم الأرزاق على الرغم من  
 بؤسه وحماسه وسوء حظّه فإن لدته أبا الحسن محمدا الأنباري -  
 المقيم بأقليم فارس أيضا - قد سخط على الأوضاع وتبرم بالخلع  
 والخالق والعيان بالله تعالى وقال قصيدة طويلة تدل على ضعف  
 إيمانه ورقة دينه ، وتكشف عن وساوسه وشكوكه .

وهو يعلن فيها أنه سوف لا يصلح لله أبدا ما دام فقيرا لا يملك  
 فترا من الأرض .. فإن وسع الله عليه في الرزق وأصبح غنيا فلا بأس  
 أن يصلح ويتوب وكأن الفقر وسوء الحال كانا سببا في فساد عقيدته

(١) البيتية ح ٣ ص ٣٦٠ .

وسوء أدبه وهي قصيدة كلها ثورة وتبريد ، ولولا ... دلالتها  
الاجتماعية لما ذكرتها في هذا المقام ..

يقول فيها - وأستغفر الله من كتابتها :

تَلَوْتُ عَلَى تَرْكِ الصَّلَاةِ حَلِيلَتِي  
قُلْتُ أَغْنِي عَنِّي نَظْرِي أَنْتِ طَالِي  
فَوَاللَّهِ لَا صَلَّيْتُ لِلَّهِ مُطْلَسًا  
يَصِلُ لِسُوءِ الشَّيْخِ الْجَبِيلِ وَفَائِي  
نَاشُ وَكَشَا وَكَشَا بِمَعْدِهِ  
وَنَصْرُ بْنُ مَلِكٍ وَالْمَيْمُونُ الْبَطَارِقُ  
وَصَاحِبُ جَيْشِ الْمَشْرِقِينَ الَّذِي لَهُ  
سَرَادِيبُ مَالٍ حَشْوُهَا مَضَامِيقُ  
وَلَا عَجَبَ إِنْ كَانَ نَحْنُ مُصَلَّيَا  
لَأَنَّ لَهُ قَسْرًا تَدِينُ الْمَقَارِقُ  
لِمَاذَا أَصَلَّى ؟ أَتَيْنَ بَابِي وَمَنْزِلِي  
وَأَيْنَ خِيُولِي وَالْحُلَى وَالْمَنَاطِقُ  
وَأَيْنَ عَيْدِي كَالْبَدْرِ وَجُوهُهُمْ  
وَأَيْنَ جَوَارِي الْحِصَانِ الْمُوَاتِقُ  
أَصَلَّى وَلَا فَتْرَ مِنَ الْأَرْضِ يَحْبِي  
عَلَيْهِ يَحِينِي إِنِّي لَمُنَافِقُ  
تَرَكْتُ صَلَاتِي لِلَّذِينَ ذَكَرْتَهُمْ  
فَمَنْ كَابَ فَعَلَى فَهَوَ أَخَقُّ مَا نَقُ

يَمْكُنْ إِنَّ عِلْمَ اللَّهِ وَسِعَ لَمْ أَرَلْ  
أَصْلَتْ لَهَ مَا لَاحَ فِي الْجَوِّ بَارِقُ  
فَإِنَّ صَلَاةَ الْمَيِّتِ الْخَالِ كُلِّهَا  
مَخَارِقُ لَيْسَتْ تَحْتَهُنَّ حَفَائِقُ (١)  
....

وسبما يكن من أمر قد كان للظلم الاجتماعي والتفاوت الطبقي •  
وقد ان المدالة الاجتماعية وسوء توزيع الدخل أثرها المباشر في ظهور  
أدب الحرمان الذي يصور جانبها هاما من جوانب الحياة الاجتماعية نسي  
أقليس فارس والمراق في هذا العصر ••  
(تم بحمد الله )

\*\*\*

---

(١) اليتيمة ح ٤ ص ١٤٦ •

### :: الخاتمة ::

\*\*\*

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، أحده - تعالى - على ما أولانى من جليل الآله ، وأشكره على ما واثقنى من جليل نعمائه ، وأصلى وأسلم على أكرم خلقه ، وخاتم رسله ، وأمينه على وحيه ، وعلى آله وصحبه ، ومن سار على دربهم ، إلى يوم الدين " محمد .

فهذه دراسة للحالة الاجتماعية في العراق وفارس في القسرون الرابع الهجرى وأثرها في أدب النتيجة للشمالي " أتقدم بها إلى كريمة اللغة العربية المريقة ، سائلا المولى - جل وعلا - أن تحظى بالقبول لدى أعضاء اللجنة الموقرة .

ولقد كان من أسباب اختيارى لهذا الموضوع ، أن دراسة الحالة الاجتماعية لأية بيئة أو مجتمع تدرك بصورة واضحة مدى نهضة هذه البيئة أو ذلك المجتمع . ولهذا عمدت إلى دراسة الحالة الاجتماعية في القرن الرابع لأن هذه الحقبة من أزهى عصور الدولة العباسية ، وأكثرها حضارة غير أنني اقتصر على إقليمى العراق وفارس لأنهما كانا يمثلان قلب الدولة العباسية في ذلك العصر .

ولقد قمت من خلال تلك الدراسة بتسجيل الوقائع ، والظواهر الاجتماعية تسجيلاً شاملاً . . حتى أتمكن من إعطاء صورة واضحة عن طبيعة هذين الإقليمين في القرن الرابع . .

ولما كان الأدب في جلته <sup>٢</sup>متمحوراً ظلاً لأحوال المجتمع في أية  
بيئة أو عصر تعرفت إلى أثر الحياة الاجتماعية في هذين الإقليمين على أدب  
" البيتية " لأنها تمثل أدب القرن الرابع الهجري كما أثبت ذلك في دراستي  
لها . .

ولقد سرت في تلك الدراسة على خطة منهجية واضحة حيث قسمت  
الموضوع إلى أربعة أبواب رئيسية ، يشتمل كل باب منها على خمسة فصول  
فتمت فصول هذا البحث عشرين فصلاً . .

وقد تحدثت في الباب الأول عن " المجمعين المراقى والفارسي  
في القرن الرابع " وقسمت حديثي فيه إلى خمسة فصول . \*

الفصل الأول : أفردته للمناصر البشرية التي يتألف منها المجتمع  
المراقى الفارسي - آنذاك - تلك العناصر التي تكونت من استزاج  
المرب والفرس والترك والرقيق ، تحدثت عن الصراع بين هذه العناصر  
من أجل النفوذ والسلطة والسيطرة على الخلفاء ، وذكرت جانباً من  
الحروب والصراعات التي قامت بينها ، والتي كانت سبباً مباشراً في  
إرهاق الدولة ، واستنزاف مواردها الاقتصادية ، ثم بينت أثر هذه  
العناصر في الحياة الاجتماعية وتوصلت من وراء ذلك إلى نتيجة هامة :  
هي " أن المرب كانوا مغلوبين على أمرهم في هذه البلاد ، ولكنهم  
على الرغم من ذلك ظلوا محافظين على عاداتهم وتقاليدهم ، ووقفوا  
موقفاً محادياً للفساد ، والزندقة ، والإلحاد ، والشمعية التي كانت  
تشكل خطراً كبيراً على العرب والمسلمين .

أما الفرس فقد كان لهم تأثير فعال في الحياة الاجتماعية تجلى في بناء القصر ، والمساجد وزخرفتها بفاخر الأثاث والرياش ، كما تجلى في إحياء مجالس الطرب والغناء ، وفي تنوع أدوات الطعام والشراب وفي تلحين ملابس الرجال والنساء وفي إحياء بعض العادات الفارسية الدارسة ، وكان للترك تأثير سيء في الحياة الاجتماعية حيث كثرت في عهدهم الفوضى ، والاضطرابات ، ومصادرة الأموال ، والمهت بمصالح الرعيمة ..

أما الرقيق فكان أثره لا يقل سوءاً عن أثر الترك ، فقد أدى التوسع في اقتناء الجوارى إلى انتشار الفساد في المجتمع ، وضمف الثقة بين الأزواج ، حيث عرفت بعض الجوارى بالخلاعة والمجون ، والانحراف عن تعاليم الإسلام ، وبإدخاله القيمة ..

وسبب اقتناء الفلماني ، وانتشارهم ظهر لون جديد في الأدب العربي لم يكن معروف من قبل وهو الغزل بالمذكر

\* \* \*

وأفردت الفصل الثاني للحديث عن " الطبقات الاجتماعية " وذكرت أن المجتمع في ذلك الحين كان ينقسم إلى طبقتين جد متباينتين : إحداهما تحيا في ترف ومذخ ، ولهو ولعب ، وهي طبقة الحكام من خلفاء ، وأمراء ، ووزراء ..

على حين تميز الأخرى في فقر مدقع ، وبؤس شديد ، وهى  
طبقة المحكومين من تجار ، وصناع ، وزراع ، وبعض العلماء والأدباء  
ولقد كان لهذا التفاوت الطبقي أسوأ الأثر في الحياة الاجتماعية  
فقد عمّ الجهل والمرض ، وانتشر الفقر والبؤس ، وشاعت الفوضى والفساد  
وراج السحر والدجل والسموعة بين أفراد الطبقات الدنيا في المجتمع  
أما الأغنياء فقد شاع بينهم الانحلال والفساد ، وكثر الفسق والمجون  
بسبب الترف المفرط والفراغ القاتل ، والقلق الميت ..

وبالإضافة الى هذه الآثار الاجتماعية الضارة كان لترف الحكام  
بعض الآثار الحضارية النافعة مثل : الاكتار من بناء المساجد والقصور ،  
والتمتع في صناعة الخز ، والديباج ، والبراعة في عمل الخزاي والسجاد ،  
والنقش على الذهب والفضة وذلك كله يمتدّ مظهرها من مظاهر التقدم والرقي  
في ذلك العصر .

\* \* \*

وفي الفصل الثالث تحدثت عن الطوائف الدينية في فارس والمصر  
وهي : الشيعة ، وأهل السنة ، وأهل الذمة ، والصائبة .

فكلمت بالتفصيل عن الشيعة ، وأهل السنة وصورت جانباً من  
الصراع المذهبي بينهما في القرن الرابع هـ حيث أثره في الحياتين الاجتماعية  
والاقتصادية .

ثم تحدثت عن أهل الذمة من اليهود والنصارى ، وذكرت أنهم كانوا يتمتعون بكثير من ضروب التسامح الدينى فى ظل الإسلام ، كما كانت تربطهم بالمسلمين أوثق الروابط الاجتماعية فى القرن الرابع .

وكان لديارات النصارى المنتشرة فى فارس والعراق أسوأ الأثر فى حياة المجتمع حيث كانت مقصدا لأهل البطالة ، وموطنا لذوى الخلاعة ، وبأوى لأرباب الفسق والمجون بما كان يوجد فيها من خمر معتقة وجوار حسان ، وظلمان مخفئين . .

أما الصابئة فقد عاملهم المسلمون كأهل الذمة ، وأعطوهم الأمان كأهل الكتاب ، ولم يكن لهم نشاط ملحوظ كاليهود والنصارى ، وذلك راجع إلى قلة عددهم من ناحية ، وإلى سريه تعاملهم من ناحية أخرى . .

\*\*\*

وفى الفصل الرابع تحدثت عن " الأعياد والمواسم والمواكب " فتكلمت بإسهاب عن أعياد المسلمين ومواكبهم ، وأعياد الفرس ومواسمهم وأعياد أهل الذمة ودياراتهم ، وبينت أثر ذلك كله فى الحياة الاجتماعية وانتهيت إلى نتائج هامة أجعلها فيما يلى :

أولا : كان لهذه الاحتفالات المتجددة على مدار السنة آثار اقتصادية ضارة حيث كانت تنفق فيها أموال طائلة يتحمل عبئها الطبقات الكادحة مما أدى إلى انتشار البؤس والتخلف فى المجتمع . .



ثانيا : وإلى جانب ذلك كان لهذه الاعياد والمواسم بعض الآثار الحضارية النافمة .

ذلك أن التقاء المسلمين في شتى المناسبات كان له أثر واضح في تعارفهم واتحادهم ، كما كان للصدقات - التي كان الاغنياء ينفقونها على فقراء المسلمين - طوال شهر رمضان المبارك وكثرة لحوم الأضاحي التي كانوا يوزعونها على المساكين في عيد الأضحي - أكبر الأثر في إسماء هذه الطبقات الكادحة وتخفيف حدة الفقر لديهم فضلا عن ذلك كان لإشراى الحكومة المركزية في بغداد على موكب الحاج أثره في تعظيم حرمة الله ، وإحلال الأمن في ربوع البلاد والمحافظة على هيبة المسلمين ورفع شأنهم بين الأمم .

\* \* \*

وأما الفصل الخامس فقد تحدثت فيه عن الفناء والموسيقى ، وذكرت أطوارهما التاريخية عند العرب منذ الجاهلية وحتى العصر العباسي ثم تحدثت عن الفناء في العصر العباسي وشرحت أسباب رقيه وازدهاره وبينت أثر ذلك في الحياة الاجتماعية ، وتوصلت من وراء ذلك إلى أن انتشار الفناء بين المجتمع العباسي كان له أسوأ الأثر على الاخلاق العامة حيث كانت الجوارى المفضيات يظهرن أمام الرجال ، وصغنين غالبا يشمر ماجن خليج مما أشاع الفسوق والانحلال في المجتمع كما كان لهذه الموجة

من الفناء آثار سبقة على الخلفاء أنسهم حيث كانوا ينصرفون إلى عالم  
اللهو والطرب ، يتركون أمور الرعية لشيوخهم فضاقت مكانتهم وتضعف  
نفوذهم وخضعوا لسيطرة الموالى من الترك والفرس ..

وإلى جانب ذلك كان للفناء والموسيقى أثر لا ينكر في ألقاظ الشعر  
ومعانيه ، وأوزانه وموسيقاه ..

\* \* \*

أما الباب الثانى فقد خصصته للحديث عن " أبى منصور  
الشمالى وكتابه اليتيمة " وقسمته إلى خمسة فصول على نحو ما فعلت فى  
الباب الأول ..

وقد تحدثت فى الفصل الأول منه عن " نشأة الشمالى وأخلاقه  
ومكانته بين أدباء عصره " وذكرت أنه ولد فى مدينة نيسابور سنة خمس مائة  
وثلاثمائة بعد الهجرة باتفاق المؤرخين .. وتكلمت عن أسرته ، وصانعها  
ومكانتها الاجتماعية ، ورجعت بالأدلة أنها كانت أسرة فارسية معربة ،  
ثم تحدثت عن حياة الشمالى الأولى وتنقله فى الحرف والأعمال ، وأقباله  
على طلب العلم والدراسة كما تحدثت عن صفاته وأخلاقه ، وأمانته العلمية  
ومكانته الأدبية ثم سردت آراء المؤرخين فى تاريخ وفاته ورجحت أنها  
كانت سنة تسع وعشرين وأربعمائة بعد الهجرة وذلك عكس ما ذهب إليه  
كثير من المؤرخين من أن وفاته كانت سنة ثلاثين وأربعمائة هجرية .

\* \* \*

وفي الفصل الثاني تحدثت عن "ثقافته ومولفاته" فتكلمت عن مصادر إلهامه ، وأساتذته ، وبينت أثر ذلك في تكوينه العلمي ، وتنوع ثقافته .

ثم تعرضت لأثاره ومولفاته ، واستطعت أن أجمع أسماها من بطون الكتب ، وأمهات المراجع ، وهي كثيرة ومتنوعة تربو على المائة وقد أشرت إلى أن معظم هذه النقائص قد ضاع مع الزمن وأصبح أثرا بعد عين والذي سلم منها يشهد للرجل بالتفوق ، والنهوض وقد بينت أن بعض كتبه التي نضرت مستقلة ، هي في حقيقة الأمر أجزاء من كتبه الكبيرة ، كما ذكرت أن بعض كتبه قد ذكرت مكررة بأسما مختلفة لمسمى واحد ، وأوضح أن بعض المؤرخين قد نسبوا لأبي منصور كتبا ليست له ، ومضهم قد نسب بعض كتبه إلى غيره ، وقد بينت ذلك كله بالتفصيل والدراسة المدعومة بالبراهين .

\* \* \*

أما الفصل الثالث فقد تحدثت فيه عن "اليتيمة" وذكرت السبب في هذه التسمية ، ورجحت أن يكون الشعالي قصد من وراء ذلك إلى أن كتابه كالدرة اليتيمة التي تميزت بكثير من الخصائص والصفات فهو فريد في بابه لا نظير له في كتب الأدب والتراجم .

وقمت بعد ذلك بالتمريف بها ، وبيان نوعها ، وأثبت بالأدلة أنها كتاب : أدب ، ونقد ، وتراجم ، وتاريخ ، وحضارة . وبينت

الغرض من تأليفها وهو : حرص الثعالبي على تدوين محاسن أهل عصره  
في ديوان يخلد آثارهم ويحفظها من الضياع . .

ثم تكلمت عن منهجه فيها ، وخصائصه ، وبينت أنه منهج مستقيم  
في جملته حيث قسم الشعراء على أساس الأقاليم بل على أساس المدن  
إيماناً منه بأثر البيئة في النتاج الأدبي ، وذلك كان أول من طبق  
نظرية الإقليمية في الأدب تطبيقاً عملياً ، وإن كان الصواب قد جانبه ففى  
بعض الأحيان حينما وضع شعراء الشام ومصر ، والمغرب ، والاندلس ففى  
باب واحد مع اختلاف البيئات ، وتباعد الأقاليم .

\* \* \*

وقد تحدثت في الفصل الرابع عن أمرين يتعلقان \* بالهتيمية \* :

- أحدهما : مدى تمثيل الهتيمية لأدب القرن الرابع الهجرى .
- وثانيهما : تأثيرها بالمؤلفات السابقة ، وأثرها فى اللاحقة .

وذكرت فيها يتعلق بالامر الأول أن أبنا منصور استطاع أن يترجم فى  
هتيمته لخمسة وثلاثين وأربعمئة شاعر وكاتب من أنحاء العالم الإسلامى .  
- آنذاك - وأن يخلد تاريخهم ، ويحفظ آثارهم من الضياع كما أشرفت  
إلى أن دواوين الشعراء التى وصلت إلينا من ذلك العصر محدودة جداً  
ومعظم الشعراء الذين خلدهم الثعالبي فى هتيمته لم تصلنا دواوينهم  
ولولا الهتيمية لما عرفنا شيئاً عنهم ، ولما سمعنا حتى عن أسماءهم ، ومنسأ  
على ذلك خرجت بنتهجة اطمان إليها قلبى واستراح لها فؤادى وهى :

أن اليتيمة تمثل أدب القرن الرابع الهجرى وأنها تمتد صورة صادقة  
للحياة الأدبية والاجتماعية فى ذلك العصر .

\* \* \*

أما فيما يتعلق بالأمر الثانى من هذا الفصل فقد ذكرت أن  
الشمالى ليس مبتكرا لهذه الطريقة فى التأليف . وهى التى تمنى بأديب  
عصر من العصور ، وتدوين آثارهم ، فقد سبقه إلى ذلك بعض المؤلفين  
فى هذا الفن أمثال : محمد بن سلام الجحى فى كتابه " طبقات  
الشمراء " وابن قتيبة فى كتابه " الشعر والشمراء " وهارون بن على  
النجم فى كتابه " البارح فى أخبار الشمراء " ، وعبد الله بن المعتز فى  
كتاب " طبقات الشمراء المحدثين " .

أما الكتب التى ألفت بعد اليتيمة وتأثرت بها وحذت حذوها  
فأهمها ما يلى :

- ١ - دمية القصر ، وعصرة أهل المصر " لأبى الحسن الباهرزى المتوفى  
سنة ٤٦٧ هـ .
- ٢ - وشاح الدمية " لأبى الحسن على بن زيد البيهقى المتوفى سنة  
٥٦٨ هـ .
- ٣ - زينة الدهر ، فى لطائف شمراء المصر " لأبى المعالى سمد  
ابن على الخطيرى المتوفى سنة ٥٦٨ هـ .

٤ - " خريدة القصر ، وجريدة أهل المصر " للممد الكاتب الاصفهاني  
المتوفى سنة ٥٩٧ .

وما زالت هذه السلسلة تتوالى على مر العصور ، وتماقب المنين  
حتى نهاية القرن الثالث عشر للهجرة . . أما القرن الرابع عشر الذي فيه  
فلم يولد فيه كتاب على غرار السلسلة السابقة وظاية ما ألف فيه : مجاميع  
اقتصرت على شعراء قطر واحد قلما تتعداه إلى قطر سواه .

\* \* \*

وأما الفصل الخامس قد خصصته ، لآراء النقاد في اليتيمة ،  
وذكرت أن النقاد القدامى منذ عصر الثعالب وحتى مطلع القرن الرابع عشر  
بعد الهجرة - الذي نحن فيه - قد أجمعوا على أن كتاب اليتيمة  
أكبر كتب الثعالب حجما ، وأجلها قدرا ، وأعظمها نفعا وأشادوا بها  
إشادة بالغة فهي التي أتاحت لصاحبها هذه الشهرة الواسعة ، وجعلت  
حديثه سمر الأدباء على مر العصور .

أما نقادنا المحدثون الذين تعرضوا لكتاب اليتيمة بالدراسة  
والتحليل فقد كانوا أكثر موضوعية من السابقين . فأظهروا آراءهم فيها  
بكل وضوح . . وسأعرض هنا لسرد آرائهم بإيجاز ثم أتوم بمناقشتها  
والرد عليها :

ومن أشهرهم الدكتور : زكي مبارك في كتابه " النشر الفني في  
القرن الرابع الهجري . . . " قد أثنى على الثعالب في اليتيمة ثناء عظما . .

ولكنه أخذ عليه فيها : الإسراى فى إطرأ من يتحدث عنهم —  
الشعراء والكتاب ، وأغفاله لتواريخ الوفیات ..

وقد قمت بمناقشة هذا الرأى والرء عليه فذكرت أن سبب اطرائه  
للأدباء يرجع إلى شخصية الثمالى وطبيعة تكوينه فقد كان الرجل شديد  
التواضع ، عظيم الحياء . كثير المجاملة وعلى الرغم من ذلك كان حريصا  
على إيضاح خصائص من يترجم لهم من الأدباء — مع اطرائه لهم —  
وأما اغفاله للوفیات أحيانا — فقد كان الرجل يركز على المختصارات  
الأدبية الجيدة قبل أن يركز على تفاصيل حياة المترجم لهم وكان ينظر إلى  
الهيئة على أنها كتاب أدب لا كتاب تاريخ ..

أما الدكتور : طه حسين فى تقديمه لكتاب " الذخيرة " لابن  
بسام فقد عقد موازنة بين ابن بسام والتمالى .. واعتزى بفضل الثمالى  
على ابن بسام فى المنهج والطريقة والأسلوب .. ولكنه بعد ذلك  
تحامل على الثمالى وفصل عليه ابن بسام لانه — أى ابن بسام — كان  
أفقه من الثمالى بالحياة الأدبية فى إقليم من الأقاليم وما ينتج فيه من  
أدب فهو قد لاحظ مجاورة المسلمين فى الأندلس لأعدائهم من الفرنجة  
وتأثير هذا الجوار فيما كان للمسلمين من شعر ونثر .

ونسى الدكتور طه : أن الثمالى كان أسبق من ابن بسام فى  
هذا الأمر .. والدليل على ذلك تفضيله لشعراء الشام على شعراء  
العراق لقرب أهل الشام من خطط العرب وسلامة ألسنتهم من الفساد  
المارض لألسنة أهل العراق لمجاورة الفرس والنبط .. فهو قد فطن إلى

ما كان من اختلاط أهل المراق بالمجم وأثر ذلك في نتائجهم الأدبية  
وما كان ابن يسام إلا مقلدا له في تلك الناحية ..

ومعيب الأستاذ : أحمد أمين على الثعالبي " في ظهري الإسلام " .  
احتفاله بالهديج اللفظي أكثر من عنايته بالتحليل النفسي .

وليت شمرى كيف يطالب الأستاذ أحمد أمين الثعالبي في القرن  
الرابع الهجري أن يتبع منهج التحليل النفسي في دراسته للشخصيات  
الأدبية مع أن هذا المنهج الفلسفي لم يعرف إلا في العصر الحديث .

ويرى الأستاذ : الصاوي في تقديمه للتيمة أن الثعالبي في  
مختاراته الشعرية قد أغرط كثيرا في الفحش والمجون .

وأنا وإن كنت أعتقد أن الثعالبي قد أغرط حقيقة في هذا الأمر  
كما يقول الأستاذ : الصاوي أرى أنه كان ناقلا أميناً لتراث عصره ،  
ومسجلا صادقا لظواهره الاجتماعية ولو أنه أغفل المجون كما فعل غيره من  
كتاب عصره لكان كتابه ناقصا مهتورا لا يمثل عصره أصدق تمثيل ..

أما شيخنا المرحوم الشيخ محي الدين عبد الحميد في تقديمه  
للتيمة أيضا فمعيب على الثعالبي : المصيبة لشعراء الشام وتفضيلهم على  
سائر شعراء الأقاليم ، والمصيبة للشعراء من الملوك والحكام ، والتشاعر  
عليهم أوفر الثناء ..



وأنا • أعتقد أن الشمالي كان محققا في تفضيله شعراء الشام  
على غيرهم لأنهم حافظوا على طريقة العرب القدامى في فرض الشعر من  
الجزالة في الأسلوب والفخامة في التركيب والبعد عن الفحش والمجون  
والإشادة بالبطولة في الحروب والمحافظة على الوزن والقافية ••

وأما عصيته للشعراء من الحكام فأننا مع أستاذنا الشيخ محي الدين  
في أن هذا عيب كبير لأن الشمالي قد أفرط في مجاملتهم ومنحهم  
والثناء عليهم أوفر الثناء •

والكتاب بعد ذلك كله يعد أفضل مصدر لدراسة الحالة الاجتماعية  
والأدبية في القرن الرابع الهجري ، ولا يقاربه في هذه الناحية أثر أدبي  
آخر ••

\*\*\*

وفي الباب الثالث تحدثت عن " آثار الاجناس البشرية ، والطوائف  
الدينية في أدب اليتيمة •• وقسمته إلى خمسة فصول على غرار ما فعلت في  
الهابين الأول والثاني ••

وقد أفردت الفصل الأول منه للحديث عن " الروح الفارسية وأثرها  
في أدب اليتيمة •• فتكلمت عن الفرس من بني بويه ، واستيلائهم على فارس  
والمراق في القرن الرابع ، وصورت جانبها من استبدادهم وطفقائهم ،  
وسيطرتهم على الخلافة ، وتطاولهم على العرب ههنا عاداتهم وتقاليدهم

ونشرهم الطقوس الفارسية الدارسة ، وصيغهم المجتمع بصيغة فارسية خالصة . .

ثم بينت أثر ذلك كله في أدب تلك الحقبة وتوصلت إلى أن الدارس لكتاب " اليتيمة " الذي ألف في ذلك العصر يلمس فيه أثر الروح الفارسية بكل الضوح .

يلمسه في هذا الملق المبالغ فيه في شعر المديح والثناء ويجده في هذا الغلو الفاحش في تمجيد الملوك وتقديس الحكام وفي الاكثار من شعر التهاني بالأعياد الفارسية كالنوروز والمهرجانات ويحس به في هذه الكثرة الهائلة من الألفاظ الفارسية التي انتشرت في شعر اليتيمة .

وشعر به أخيراً في هذه الأمثال الفارسية المعربة التي تعبر عن أفكار الفرس ، وتصور نفسياتهم وأخلاقهم أصدق تصوير .

\* \* \*

وتحدثت في الفصل الثاني عن " أثر الحياة العربية في أدب اليتيمة " وذكرت أن بعض العرب الذين عاشوا في العراق وفارس—آنذاك—قد تمردوا على الفرس ، وتبرموا بماداتهم ، وثقاليدهم ، وتمسكوا بمروءتهم وخصبوا لبنى جنسهم ، ورفضوا في اصرار هذه الحياة الناعمة المأجنة في ظل السيطرة الفارسية . .

ومن هؤلاء الثائرين شاعر عربي فيوم هو أبو الحسن محمد بن الحسين الميسري الملقب بالشريف الرضي الذي عاش في بغداد في القرن

الرياح الهجرى وآلمه ما صار اليه أمر العرب فى تلك البلاد على أيدي  
الفرس ، فراح يعتز يمرسته ، ويتغنى بمآثر آبائه وأجداده ، ويشهد  
بما كان لهم من عزة ومجادة ..

وقد تجلت الروح العربية عند الشريف فى ضيقه بالحياة البغدادية  
وتجربه بالسيطرة الفارسية ، وارتسمت على سفح شعره فى التهنئة لوالده  
بالاعياد الإسلامية ، وفى شكوى الدهر ، والتمرد على الأوضاع القائمة ..

وكان شعره فى أكثر أغراضه يعبر عما يجيش فى صدر العرب من  
آلام وأحزان ، وما يختلج فى نفوسهم من آمال وأحلام ..

ولم يكن الشريف الرضى - وحده - هو الشاعر الذى يمبرع عن  
الروح العربية فى هذه البلاد .. وإنما كان مثله فى ذلك أخوه أبو  
القاسم على بن الحسين الملقب بالشريف المرتضى الذى كان كأخيه الرضى  
يشعر بالغيرة فى المجتمع المراقى ، ويحن دائما إلى منبت الآباء  
والأجداد فى الجزيرة ، ويتحرق شوقا إلى مواطنهم الغالية وكان كأخيه  
الرضى يمشق الهدايا ويشيب بهن فى شعره ، ويغزلهن على المراقيات  
والفارسيات اللاتي أضدنهن الحضارة وسيطرت عليهن الروح الفارسية ..  
وعبر عن ذلك كله فى شعره أصدق تعبير ..

وإذا ما تركنا إقليم المراق وذهبنا إلى فارس وجدنا هناك فى  
أقصى الشرق .. أديبا عربيا مسلما تصدى بقلمه للدفاع عن المروية  
والسخرية من عادات الفرس وتقاليدهم ذلكم الأديب هو بديع الزمان

الهمداني . . الذي كتب رسالة طويلة في معنى " السدق " نقلها  
الشمالين في البيتية وقد جاء فيها :

" إن عبد الجود لمجد إلك ، وإن شعار النار لشمار شرك ،  
وما أنزل الله " بالسدق " سلطانا ، ولا شرف كيروزاً ولا ميهرجاناتاً وإزما  
صب الله سيوف الحرب على رؤوس المعجم لما كره من أديانها ، وسخط  
من نيرانها ، وأمرتكم أرضهم وديارهم وأموالهم حين مقت أفعالهم (١) "

ومهما يكن من شيء فقد كانت هذه الأصوات الحرة النائرة .  
صدي للثورة العربية المضادة للروح الفارسية التي سيطرت على  
المجتمعين العراقي والفارسي آنذاك وكادت تصبغه بصبغة فارسية  
خالصة . .

\* \* \*

أما الفصل الثالث فقد تحدثت فيه عن " الرقيق وآثاره في أدب  
البيتية " فتكلمت بالتفصيل عن الرقيق وتجارته وأنواعه ، وأعماله ، وشهائته  
الناس على شرائه ، وأثره في الحياة الاجتماعية والسياسية .

ثم بينت أثره في أدب البيتية ، وذكرت أن ذلك الأثر قد تجلى في  
كثرة المقطوعات الشعرية التي قيلت في وصف الجوارى ، والتفنن بجمالهن  
والتفنن فيهن غزلاً عفيفاً وغير عفيف . .

---

(١) البيتية ( ٢٤ ، ٢٥ )

ثم تعرضت لظاهرة الغزل بالمذكر . فحدثت عن أصل هذا الداء ،  
وهيئت أسيابه . . . ووقف الشعراء منه منذ عصر أبي نواس ، وحتى القرن  
الرابع وتوصلت إلى أمر هام وهو أن الغزل بالمذكر يبدو كثيرا في البيتمة  
مع أن معظم المقطوعات الشعرية التي تحمل سمات الغزل بالمذكر من  
حيث الشكل هي في حقيقة الأمر ليست منه ، ذلك أن ضمائر المذكر  
أيسر وأخف من ضمائر المؤنث ، وليس بهميد أن يكون هو "لا" الشعراء  
قد استخدموا ضمائر المذكر مع أنهم في الواقع كانوا يوجهون شعرهم إلى  
ممشوقات لا إلى ممشوقين ، وتلك عادة قديمة في الشعر العربي فقد كان  
الشعراء قديما يذكرون ليلي وطلحى وسعدى وزينب وغيرهن من الأساء  
الطبعة في موازين الشعر العربي ، وإن كانوا يقصدون أشخاصا غيرهن .

وقديما قال البحتري :  
وَسَمِيَتْهَا مِنْ خَشْيَةِ النَّاسِ زَيْنَبًا  
وَكَمْ سَتَرَتْ حَيًّا عَنِ النَّاسِ زَيْنَبَ

ثم قمت بتقسيم الشعراء في ذلك العصر إلى صنفين : صنف كان  
ماجنا خليعا ، وهو "لا" كانوا يتفضلون بالمذكر غزلا حقيقيا مقصودا  
مصدره الحب ودافعه الانحلال والشذوذ ، ومن هو "لا" الواساني ،  
وإين لنكك وإين حطج ، وإين سكرة ، وغيرهم من ذوي السيرة المخفة . .

وصنف آخر كان يطرق هذا الباب من قبيل التقليد والمحاكاة  
ويتخذ منه وسيلة للتصرف في فنون القول وترويض الذهن على الإجازة ،  
وكان شعرهم في هذا الباب ضربا من الدعابة والتلمية ، ولونا من ألوان

الترف الفكرى والعقلى .. أكثر منه مغامرات حقيقية مصدرها العيسيت  
والمجون وهو لا كانوا كثيرين وكان معظمهم من الحكام والحلما والقضاء  
وضربت الأمثلة على ذلك كله من أدب " البيتية " شعرا ونثرا ..

\* \* \*

وأغردت الفصل الرابع للحديث عن " أثر التشيع فى أدب البيتية " فحدثت عن جماعة الشيعة فى ذلك العصر \* وعلاقتهم بالحكام من بنى بويه وصورت جانبها من الصراع المذهبى بينهم وبين أهل السنة ثم تكلمت بالتفصيل عن أدبائهم فى فارس والمراق أمثال : صاحب والخوارزمى وأبى بكر الخالدى \* والخزاز الهلدى وغيرهم وضربت الأمثلة على تشييعهم من أدب البيتية \* وانتهيت من تلك الدراسة إلى النتائج الآتية :

أولا : أن الشمالي قد تجاهل كثيرا من الأدب الشيعى فى عصره ولم يسجله فى يتييمته حتى ينأى بنفسه عن الصراع المذهبى الذى اشتد أواره فى ذلك العصر بين الشيعة وأهل السنة \* خاصة أنه قضى شطرا من حياته فى ظلال الدولة السامانية وهى سنية \* وشطرا آخر فى ظلال الدولة الغزنوية وهى سنية كذلك / فكان طبعيا أن يتجنب التورط فى مثل هذه المسائل حتى لا يقع تحت طائلة المقاب من حكامه السنيين \*

ثانيا : كان البكاء والتحسر على ما أصاب أهل البيت من محن ومصائب على يد بنى أمية وبنى العباس سمة بارزة من سمات الأدب الشيعى من الناحية الموضوعية \*

ثالثا : امتاز الأدب الشيعى بسهولة الألفاظ ، ووضوح العبارات  
وسلامة الحجج ، والبعد عن التكلف والغموض ، كما خلا  
— أو كاد — من المحسنات البديعية ، والصور البيانية ، والخيال  
المجنع .

وذلك راجع إلى صدق الشعور ، وحرارة الملاحظة ، والدفاع عن  
الحق بالأدلة والبراهين المنطقية .

\* \* \*

وأما الفصل الخامس فقد تحدثت فيه عن " أهل الذمة وأثرهم  
في أدب " اليتيمة " فكلمت عن اليهود والنصارى في فارس والعراق ،  
وكانتهم الاجتماعية وعلاقتهم بالمسلمين ، وبيان أثرهم في أدب اليتيمة ،  
وانتهيت إلى النتيجة الآتية :

لقد كان لاختلاط النصارى بالمسلمين في ذلك العصر أثر واضح  
في أدب اليتيمة فكثر فيها المقطوعات الشعرية ، التي تصور عاداتهم  
وتقاليدهم ، أو تصف دياراتهم ومعاييدهم ، أو تعكس العلاقات الاجتماعية  
بينهم وبين المسلمين ، ولقد ضربت الأمثلة على ذلك من أدب اليتيمة .

أما أثر اليهود في الحياة الاجتماعية والأدبية فقد كان محدودا  
إذا قيس بأثر النصارى ، وسندران نجد شاعرا عربيا وصف بهمهم  
ومعاييدهم أو صور عاداتهم وتقاليدهم ، وأغلب الظن أن ذلك راجع

إلى عزلة اليهود وأنطوائهم ، وسرية تعاملهم ، وخوفهم من الناس  
والتماعى عليهم ، وذلك عكس ما كان عليه النصارى ..

\* \* \*

أما الباب الرابع والآخر فقد تحدث فيه عن " التفاوت الطبقي  
فى المجتمع وأثره فى أدب اليتيمة ..

وقمت بتقسيمه إلى خمسة فصول على غرار ما فعلت فى الأبواب  
الثلاثة السابقة ..

وقد أفردت الفصل الأول منه " لطبقة الحكام وأثرها فى الأدب "   
تكلت بأسهاب عن مراكز الأدب فى فارس والمراق — آنذاك — وجهود  
الحكام فى خدمة الأدب ، وتشجيع الأدباء ، وتوصلت من وراء ذلك إلى  
النتائج الآتية :

أولا : لم تعد بغداد فى ذلك العصر هى العاصمة الوحيدة التى  
تهبوا إليها قلوب الأدباء كما كانت عليه طوآل القرنين الثانى  
والثالث بعد الهجرة ، بل راحتها وطفت عليها عواصم أخرى  
كالرى ، وشيراز ، ونيسابور .

ثانيا : لقد تناقص الحكام فى هذه الحواضر تناقصا عجيبا فى تشجيع  
الأدباء والحدب عليهم ، ولم يكن مرجع ذلك فى رأيى



هو حب العلم للعلم ، أو اكرام الادباء للادب ذاته ، وإنما كان مرجعه - بالإضافة إلى ذلك - هو : حاجة هؤلاء الحكام إلى الأدباء في السلم والحرب وطبعتهم في القضاة الشارعات التي تعلو قدرهم ، وترفع شأنهم ، وإلى الرسائل البليغة التي تنوب عن الكاتب في عرك أديب المعاصي واستصلاح أمره وهذا هو السر في اسناد المناصب الإدارية الكبرى في فارس والمراق إلى كبار الكتاب ، وحول الشعراء ، أمثال : ابن السعيد والمصاحب والمهلبى ، والصابى ، وعبد العزيز بن يوسف وغيرهم .

ثالثا : لقد فتح أمراء بني بويه ووزراؤهم في فارس والمراق قصورهم للأدباء ، وحولوها إلى مراكز للثقافة والمعرفة فأقبل الأدباء عليهم من كل صوب ، وأخذوا يتنافسون في الإجابة والابتداع ، فازدهرت الحركة الأدبية من أجل ذلك ازدهارا لم تعرفه هذه البلاد من قبل ولا من بعد ، وكثر عدد الشعراء والكتاب كثرة بالغة ، يشهد بذلك كتاب " اليتيمة " الذي ألف في ذلك العصر والذي أرخ لمعظم أدباء تلك الحقبة .

\*\*\*

وأفردت الفصل الثانى للحديث عن " ترف الحكام وأثره في أدب اليتيمة " تحدثت بإسهاب عن هذا الترف ، وبينت صوره ومظاهره ، وشرحت أسبابه ونتائجه ، واستشهدت على ذلك بأشلة تاريخية وأدبية ثم تكلمت عن أثر الترف في أدب اليتيمة من حيث الشكل والمضمون ودعت ذلك بنصوص شعرية ونثرية لأدباء اليتيمة المترفين . . وتوصلت من وراء ذلك إلى نتيجة هامة وهى :

أن ترف الحكام في فارس والعراق ، وأنفهم في طعامهم وشرابهم  
وسائر أمورهم . قد انعكس أثره في آدابهم ، وظهر بصورة واضحة في  
وصف ما يقدم إليهم من ألوان الطعام والشراب ، وأنواع الفاكهة والحلوى  
وما تقع عليه أعينهم من مظاهر الحضارة . . . كما كان لذلك الترف في  
المعيشة أثره الواضح في التألق في الأسلوب والزخرفة اللفظية ،  
والإكثار من الصور البيانية ، والجنوح إلى المبالغة .

وأخيرا كان للتكلف في أساليب المعيشة بين الطبقة المترفة أثره  
الواضح في رواج أدب الأخريات ، والجري وراء المظاهر الكاذبة خاضعون  
في ذلك لظروف حياتهم الاجتماعية ، ومستجيبين لمؤثراتها ودواعيها

\*\*\*

وفي الفصل الثالث تحدثت عن الفناء وأثره في أدب اليتيمة .  
فشرحت أسباب رقيه ، وعوامل ازدهاره في فارس ، والعراق وبينت بإسهاب  
آثاره في أدب اليتيمة . واستشهدت على ذلك بكثير من الأمثلة الشعرية  
والنثرية ، وتوصلت من وراء تلك الدراسة إلى نتيجة هامة . وهي : أن  
انتشار الفناء وازدهاره في ذلك العصر كان له أثر واضح في أدب اليتيمة  
تجلى في وصف مجالي الفناء والطرب وتصوير أدوات الموسيقى وآلاتها ،  
والحديث عن الممنين والممنيات ، كما تجلى في نمو مقطوعات الشعر  
النثائي ، وتعددتها في اليتيمة فضلا عن ذلك كان له أثره الواضح في  
ألفاظ الشعر ومعانيه وموسيقاه الداخلية والخارجية ، حيث حرص الشعراء

على اختيار ألفاظهم وتنقيتها من الشوائب ، نجاة غاية في رقة  
الأسلوب ، وجمال العبارة وجودة المعنى ، وحن الجرس ، وروعة  
النظم . .

كما عزفوا عن البحور الطويلة التي تصلح للموضوعات الجادة ،  
وهذا إلى النظم على البحور القصيرة والمجزوءة والمولدة التي تصلح  
للغناء ، إرضاء لآذواق المغنين والمستمعين على حد سواء .

\* \* \*

وأفردت الفصل الرابع للحديث عن " المجون وأثره في أدب اليتيمة " .  
تكلمت عن ظاهرة المجون ، وذكرت أطوارها في المجتمع العربي وبينت  
أسبابها ودوافعها ، وعوامل انتشارها في القرن الرابع ، وأوضحت آثارها  
الاجتماعية والخلقية .

ثم تحدثت عن أثر المجون في أدب اليتيمة ، واستشهدت على ذلك  
بالمديد من الأمثلة الشعرية والنثرية . . . . . وقمت بتقسيم المجون إلى  
نوعين :

أحدهما : مباح لا يؤذى المشاعر ، ولا يخدش الحياء ، وهو كثير في  
أدب المترفين من الأدباء كابن العميد ، والصاحب ،  
والمهلب . . . وهو لا كانوا لا يقصدون من وراءه إلا  
الدعابة والتسلية ، وتزجية وقت الفراغ .

وأما الآخر : فهو فاحش بذى يندى له الجبين ، وتشعر منه  
الآبدان وهو ذلك الذي يقوم على وصف العورات والسوءات

والمفاحش والمفاندر .. وهذا اللون من المجون اشتهر به شاعران من شعراء المواق في القرن الرابع لم يدانها فيه أحد من قبل ولا من بعد وهما : أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن حجاج ، وأبو الحسن محمد بن سكرة الهاشمي وقد خرجت من تلك الدراسة بالنتائج الآتية :

أولا : أن التفاوت الطبقي في المجتمع وسوء توزيع الدخل بين الطبقات كان من أهم العوامل التي أدت إلى انتشار المجون واستفحال أمره في المجتمع لان الفراغ القاتل يدفع الأغنياء إلى الميث وكثرة الأموال في أيديهم تجرهم نحو الفساد ، كما أن الفقر المدقع قد ينزل بأصحابه إلى درجة التضحية بالكرامة في سبيل القوت .

ثانيا : لا ينبغي أن نعيب الثعالب على تسجيل تلك النماذج الفاحشة من الشعر والنثر في كتابه لأنه كان ناقلًا أمينًا لأحداث عصره ومسجلًا صادقًا لظواهره الاجتماعية .. فهو يقرر ما هو كائن لا ما ينبغي أن يكون ..

ثالثا : أن ابن حجاج وابن سكرة حينما جوفهما تيار المجون إنما كانا خاضعين لظروف خارجية ، وعوامل اجتماعية واقتصادية بالإضافة إلى استمداهما الشخص للخوض في ذلك المستنقع الآسن .. بدليل انتشار شعرهما لدى الخاصة والعامة . وراج ذلك الشعر الداعر في الأوساط الاجتماعية المختلفة أكبر دليل على فساد الأذواق وانحطاط الأخلاق وانحلال المجتمع في ذلك العصر .

وأما الفصل الخامس والأخير فقد تحدثت فيه عن مظاهر القسـ  
والحرمان وأثرهما في أدب اليتيمة " فتكلمت عن ظاهرة الفقر في المجتمع  
وبيئة أساليبها ودوافعها وتحدثت عن مظاهرها وانتشارها ، واستشهدت  
على ذلك بنصوص تاريخية وأدبية وذكرت أن هذه الظاهرة كان لها  
صدى في أدب اليتيمة تجلى في ظهور لوتين من الأدب يمثلانها أصدق  
تمثيل :

- أحدهما : أدب الكدية والاستجداء أو " الأدب الساساني " .
- والثاني : أدب البؤس والحرمان والثورة على الأوضاع القائمة .

وسلطت الضوء على هذين اللوتين وضربت عليها العديد من الأمثلة  
الشعرية والنثرية . وتوصلت من وراء ذلك إلى النتائج الآتية :

أولا : أن ظهور هذين اللوتين من الأدب في فارس والمراق كان  
صدى مباشرا للتفاوت الطبقي ، والظلم الاجتماعي ، وسوء  
توزيع الدخل وقندان العدالة الاجتماعية بين أفراد  
المجتمع .

ثانيا : ان الأدب الساساني الذي ورد ذكره في اليتيمة في الأندلس  
المكبرى ، وأبي دلف الخزرجي وابن حنبل ، وابن سكرة  
كان ملهما للبديع في عمل مقاماته الشهيرة .

ثالثا : ان قصيدة أبي دلف الخزرجي الرائية المعروفة بالقصيدة  
الساسانية تعد وثيقة تاريخية ، واجتماعية على درجة كبرى من

الأهمية ، لدراسة حياة الشطاذين ، والمتسولين ، ومعرفته  
حيلهم ، وأساليبهم وبيان طرائقهم ، ووسائلهم ، فسى  
كسب الرزق ، كما أنها تُعَدُّ من أفضل المصادر التى كانت  
تلقى الضوء على أحوال العصر الاجتماعية ، ولا يقارن بها فسى  
هذا الشأن أثر أدبى آخر ..

رابعاً : بعد أن درست شخصية أبى دلف الخزرجى كما صورها  
الشمالى فى يتيته ، وشخصية أبى الفتح الإسكندرى كما  
رسمها الهذائى فى مقاماته ، وجدت أن الشخصيتين  
متطابقتين تطابقاً تاماً ، وتوصلت إلى أن شخصية أبى الفتح  
الإسكندرى بطل مقامات البديع ليست شخصية خيالية كما قرر  
ذلك معظم الباحثين ، وإنما هى شخصية حقيقية ، كان لها  
دور بارز فى الحياة الاجتماعية والأدبية فى القرن الرابع ،  
وهى شخصية أبى دلف الخزرجى صديق الهذائى  
وأستاذه ، واستشهدت على ذلك بالشواهد التى تؤكـد  
هذا الرأى وتدعمه ..

وقد وجدت بعد هذا الكشف أن الاستاذ الدكتور محمد عبد المنعم  
خفاجى قد وصل إلى هذه الحقيقة .. لكننى لم أطلع على ما كتب الا بعد  
ما رأيت .

"بعد " فلقد كان للجهد الجبار الذى بذله فضيلة الاستاذ  
الدكتور : عبد السلام سرحان المشرف على هذه الرسالة ، أكبر الأثر فسى  
إخراجها على هذه الصورة ..

فلقد عكف فضيلته على مراجعتها مثنى وثلاث ورباع .. وما زال  
يخلصها من الميوب ، وينقيها من الشوائب ، ويقومها من الهنات حتى  
غدت للمعين قرة ، وللنفس مسرة ، فجزاء الله عنى وعن طلابه خبير  
الجزء ..

ولا يفوتنى كذلك فى هذا المقام أن أتقدم بحظيم شكرى وامتنانى  
للاستاذين الفاضلين أعضاء اللجنة الموقرة :

١ - الأستاذ الدكتور :

٢ - والأستاذ الدكتور :

على قبولهما الاشتراك فى مناقشة هذه الرسالة ، وعلى ما انتقا من  
جهد فى قراعتها ، والحكم عليها ..

أسأل الله تعالى أن ينفعنى بأفكارهما السليمة ، وآرائيهما  
السديدة وتوجيهاتهما الصائبة ..

وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب \*

الباحث

رمضان سنة ١٣٩٦هـ - أغسطس سنة ١٩٧٩م

" المصادر والمراجع "

أولا : المراجع العربية القديمة :

- ١ - ابن الأثير : أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد الشيباني الملقب  
بـ "مزمز الدين" المتوفى سنة ٦٣٠ هـ .  
"الكامل في التاريخ" عشرة أجزاء (١٣٤٨هـ) .
- ٢ - ابن الأثير : ضياء الدين أبو الفتح نصر الله محمد بن محمد الشيباني  
"المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر" ط : النهضة  
بالقاهرة - مصر سنة ١٩٥٧ .
- ٣ - ابن الأنباري : أبو البركات عبد الرحمن بن محمد الأنباري المتوفى  
سنة ٥٧٧ هـ .  
"نزهة الألباء في طبقات الأدباء" ط دار المعارف بمصر .
- ٤ - ابن بسام : أبو الحسن علي بن بسام المتوفى سنة ٥٤٢ هـ  
(الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة) ط لجنة التأليف  
والترجمة والنشر .
- ٥ - ابن بطلان : أبو الحسن المختار بن الحسن بن عهدون بن سعدون  
ابن الطبيب البغدادي المتوفى سنة ٤٥٥ هـ  
"شرى الرقيق ، وتقليب العبيد" رسالة حققها عبد السلام  
هارون ونشرها ضمن مجموعة رسائل باسم " نوادر المخطوطات  
ط : لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - ١٣٧٣ هـ  
١٩٥٤ م .



- ٦ - ابن تغرى بردى : أبو المحاسن جمال الدين بن تغرى بردى  
المتوفى سنة ٨٧٤ هـ  
\* النجوم الزاهرة فى تاريخ مصر والقاهرة " ط : دار  
الكتب المصرية - القاهرة - ١٣٤٨ هـ - ١٩٢٩ م .
- ٧ - ابن الجراح : محمد بن داود بن الجراح المتوفى سنة ٢٩٦ هـ  
" الورقة فى أخبار الشعراء " ط : دار المعارف بمصر  
تحقيق : عبد الوهاب عزام .
- ٨ - ابن الجوزى : أبو الفرج عبد الرحمن بن على المتوفى سنة ٥٩٧ هـ  
أ - " تليغىر ابليس " أو " قه العلم والعلماء " إدارة  
الطباعة المنيرية - القاهرة .  
ب - " ندم الهوى " تحقيق مصطفى عبد الواحد ط :  
السعادة بمصر سنة ١٣٨١ هـ - ١٩٦٣ م .  
ج - " المنتظم فى تاريخ الملوك والامم " ط : دار  
المعارف العثمانية .
- ٩ - ابن حوقل : أبو القاسم محمد بن على بن حوقل النصيبى المتوفى  
سنة ٣٦٧ هـ .  
\* صورة الأرض " ط بيروت .
- ١٠ - ابن خرداذبة : أبى القاسم عبد الله بن عبد الله المتوفى سنة ٣٠٥ هـ  
" المسالك والممالك " ط ليدن سنة ١٣٠٩ هـ .

- ١١- ابن خلكان : أبو المياف شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر  
المتوفى سنة ٦٨١ هـ .  
"وفايات الاعيان وأنباء أبناء الزمان" ط السعادة بمصر  
سنة ١٩٤١ تحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد .
- ١٢- ابن الطقطقى : محمد بن على بن طباطبا المتوفى سنة ٧٠٩ هـ  
"الفخرى فى الآداب السلطانية والدولة الاسلامية"  
ط : المعارف بمصر سنة ١٩٢٣ م وط : الموسوعات بهساب  
الشعرية بمصر سنة ١٣٠٧ هـ .
- ١٣- ابن عبد ربه : أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الاندلسى المتوفى  
سنة ٣٢٧ هـ .  
"المقد الفريد" ط : القاهرة سنة ١٩٤٠ م .
- ١٤- ابن الجهرى : غريغوريوس المالى المتوفى سنة ٦٨٥ هـ  
"تاريخ مختصر الدول" ط بيروت ١٩٥٨ م
- ١٥- ابن العماد : أبو الفلاح عبد الحى بن العماد الحنبلى المتوفى سنة  
١٠٨٩ هـ .  
"شذرات الذهب" فى أخبار من ذهب .
- ١٦- ابن قتيبة : أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ  
"الشعر والشعراء" ط ليدن سنة ١٩٠٢ م
- ١٧- ابن كثير : عماد الدين أبو الفدا اسماعيل بن عمر القرشى الدمشقى  
المتوفى سنة ٧٧٤ هـ .  
"الهداية والنهاية فى التاريخ" مطبعة كردستان مصر .

- ١٨ - ابن المحتر : عبد الله بن المتوكل بن المعتصم بن هارون الرشيد  
المتوفى سنة ٢٩٦ هـ .  
"طبقات الشعراء" ط دار المعارف بمصر تحقيق : عبد  
الستار أحمد فراج .
- ١٩ - ابن النديم : محمد بن اسحاق  
"الفهرست" ط الاستقامة بمصر .
- ٢٠ - ابن البهارية : نظام الدين أبو يعلى محمد بن أحمد المباسمى  
الهاشمى المتوفى سنة ٥٠٤ هـ .  
"الصادح والهاشم" تحقيق : عزت المطار - القاهرة  
سنة ١٩٣٦ م .
- ٢١ - أبو الفدا : اسماعيل بن على بن محمد المتوفى سنة ٧٣٦ هـ  
"المختصر فى أخبار البشر" ط بيروت .
- ٢٢ - أبو نواس : الحسن بن هانى بن عبد الاول بن الصباح الحكمسى  
المتوفى سنة ١٩٨ هـ .  
"ديوان أبى نواس"
- ٢٣ - أبو يوسف : القاضى أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم صاحب أبى حنيفة  
"الخراج" ط بولاق بمصر سنة ١٣٠٢
- ٢٤ - الهاخرزى : أبو الحسن على بن الحسن الهاخرزى المتوفى سنة ٤٦٧ هـ  
"دسية القصر وعصرة أهل العصر" تحقيق سامى مكى  
المائى .

- ٢٥ - المحترى : الوليد بن عبادة الطائي المتوفى سنة ٢٤٨ هـ  
" ديوان المحترى " ط بيروت سنة ١٩٦٦ م .
- ٢٦ - الهندادى : عبد القادر بن عمر الهندادى المتوفى سنة ١٠٩٣ هـ  
" خزانة الأدب ، ولب لباب العرب " ط . بولاق .
- ٢٧ - الهلندى : أبو المباس أحمد بن يحيى بن جابر المتوفى سنة ٢٧٩ هـ  
" فتح البلدان " نشره رضوان محمد رضوان " ط المطبعة  
المصرية بالازهر بمصر سنة ١٣٥٠ .
- ٢٨ - البهرونى : أبو الريحان محمد بن أحمد المتوفى سنة ٤٤٠ هـ  
" الآثار الباقية عن القرون الخالية " تحقيق ادوارد سخرية  
سنة ١٩٢٣ م .
- ٢٩ - البهيقى : ابراهيم بن محمد المتوفى سنة ٣٢٠ هـ .  
" المحاسن والمساوى " ط بيروت سنة ١٣٨٠ هـ
- ٣٠ - التنوخى : أبو على المحسن بن على القاضى التنوخى المتوفى سنة ٣٨٤ هـ  
أ - " الفرج بعد الشدة " ط دار الطباعة المحمدية ،  
القاهرة سنة ١٣٧٥ هـ .  
ب - " مشوار المحاضرة ، وأخبار المذاكرة " ط المهند  
بدمشق .
- ٣١ - التوحيدى : أبو حيان على بن محمد بن المباس التوحيدى المتوفى  
سنة ٤٠٠ هـ .  
" الابتاع والموانسة " تحقيق : أحمد أمين ، وأحمد الزين  
ط : دار مكتبة الحياة ، بيروت .

٣٢ - الثعالبي : أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل الثعالبي

المتوفى سنة ٤٢٩ هـ .

أ - " التمثيل والحاضرة " تحقيق عبد الفتاح الحلوط .

طه الحلبي بمصر ١٣٨١ هـ - ١٩٦١ م .

ب - " ثمار القلوب في الضاف والمنسوب " تحقيق محمد

أبو الفضل إبراهيم طه دار نهضة مصر ١٣٨٤ هـ -

١٩٦٥ م .

ج - " لغة اللغة وسر العربية " ط الحلبي بمصر ١٣٧٥ هـ

١٩٣٨ م .

د - " لاقتباس " ط بغداد .

هـ - لطائف المعارف " تحقيق إبراهيم الأبياري ، وحسن

كامل الصيرفي طه دار احياء الكتاب العربي -

القاهرة .

و - " من غاب عنه المطرب " ط بيروت ١٣٠٩ هـ

ز - " نثر النظم وحل العقد " المطبعة الادبية بمصر

سنة ١٣١٧ هـ

ح - " يتيمة الدهر في محاسن أهل مصر " مطبعة الصاوي

بمصر ١٣٥٢ هـ - ١٩٣٤ م .

ط - " يتيمة اليتيمة " أو " تتمة اليتيمة " ط طهران سنة

١٣٥٣ هـ نشر عباس اقبال .

٣٣ - الجاحظ : عمرو بن بحر بن محبوب المتوفى سنة ٢٥٥ هـ

أ - " البخلاء " تحقيق طه الحاجري ط دار المعارف .

القاهرة - ١٩٦٣ م .

- ب- " البيان والتبيين " تحقيق عبد السلام هارون  
ط : لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٦٠م
- ج- " ثلاث رسائل للجاحظ " نشر يوشع فكل -  
المطبعة السلفية بمصر سنة ١٣٨٢ هـ
- د - " الحيوان " تحقيق عبد السلام هارون ط لجنة  
التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٥٠م .
- هـ - " رسائل الجاحظ " ط . التقدم - القاهرة سنة  
١٢٣٤ هـ .
- و - " التاج في أخلاق الملوك " تحقيق أحمد زكي  
باشا . المطبعة الاميرية القاهرة سنة ١٣٢٢ هـ
- ٣٤ - الجرجاني : أبوبكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني  
المتوفى سنة ٤٧١ هـ .  
أ - " أسرار الهلافة " الطبعة الثالثة .  
ب - " دلائل الإعجاز " مطبعة المنار سنة ١٣٣١ هـ
- ٣٥ - الجرجاني : علي بن عبد المزيز القاضي الجرجاني المتوفى سنة  
٣٦٦ هـ .  
" الوساطة بين المتنبي وخصومه " ط الحلبي بمصر -  
الطبعة الثانية سنة ١٩٥١م
- ٣٦ - الجصّي : أبو عبد الله محمد بن سلام الجصّي المتوفى سنة ٢٣٢ هـ  
" طبقات الشعراء " ط ليدن سنة ١٩١٢م .
- ٣٧ - حاجي خليفة ( كاتب جلبي )  
" كداف الظنون عن أسامي الكتب والفنون " ط السعادة بمصر

- ٣٨ - الحصري : أبو اسحاق ابراهيم بن علي بن تميم الحصري المتوفى سنة ٤٥٣ هـ .  
( زهر الآداب ، وثمر الآليات ) تحقيق علي محمد البخاري  
ط الحلبي بمصر سنة ١٩٥٣ م .
- ٣٩ - الخطيب البغدادي : أبو بكر أحمد بن علي المتوفى سنة ٤٦٣ هـ  
" تاريخ بغداد " ط . السعادة بمصر .
- ٤٥ - الذهبي : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد المتوفى سنة ٧٤٨ هـ  
" المبر في خبر من غير " ط الكويت ١٩٦٠ م .
- ٤١ - النزواني : أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن الحسين النزواني .  
" شرح المعلقات السبع " مطبعة صبيح بمصر سنة ١٩٦٠ م
- ٤٢ - السبكي : تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي  
" طبقات الشافعية الكبرى " ط الحسينية بمصر .
- ٤٣ - السمعاني : أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي المتوفى  
سنة ٥٦٢ هـ " كتاب الانساب " ط ليدن ١٩١٢ م .
- ٤٤ - السيوطي : جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن ابن أبي بكر المتوفى  
سنة ٩١١ هـ .  
" تاريخ الخلفاء " تحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد  
ط السعادة بمصر .
- ٤٥ - الشافعي : أبو الحسن علي بن محمد المعروف بالشافعي المتوفى  
سنة ٣٨٨ هـ

"كتاب الديارات" تحقيق كوركيس عواد ط بغداد  
سنة ١٩٦٦ م .

٤٦ - الصابي : أبو الحسن الهلال بن المحسن بن ابراهيم الصابي

المتوفى سنة ٤٤٨ هـ .

أ - "تحفة الامراء في تاريخ الوزراء" جمعة ميخائيل

عواد ط بغداد سنة ٣٦٧ هـ .

ب - "رسوم دار الخلافة" تحقيق ميخائيل عواد ط

بغداد سنة ١٣٦٧ هـ .

ج - "الوزراء" تحقيق عبد الستار أحمد فراج ط .

احياء الكتب العربية سنة ١٩٥٨ م .

٤٧ - الاصبهاني : عماد الدين محمد بن الكاتب الاصبهاني المتوفى سنة

٥٩٧ هـ .

"خريدة القصر ، وجريدة المصر" تحقيق عمر الدسوقي

٤٨ - الاصفهاني : أبو الفرج علي بن الحسين الاموي المتوفى سنة ٣٥٦ هـ

"الآغانى" ط : دار الكتب وط . الساسى بمصر .

٤٩ - الصولى : أبو بكر محمد بن يحيى المتوفى سنة ٣٣٥ هـ .

"الأوراق" ط . الحلبي سنة ١٩٥٨ م

٥٠ - الطبرى : أبو جعفر محمد بن جرير المتوفى سنة ٣١٠ هـ

"تاريخ الامم والملوك" ط الاستقامة بمصر .

٥١ - المباسى : عبد الرحيم بن أحمد المباسى المتوفى سنة ٩٦٣ هـ

"معاهد التنصيص على شواهد التلخيص" ط السعادة بمصر



- ٥٢ - الفزالي : أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الفزالي المتوفى سنة ٥٠٥ هـ .  
" احيا علوم الدين " ط الحلبي بمصر .
- ٥٣ - القلقشندي : أبو المباس أحمد القلقشندي .  
" صبح الاعشى في صناعة الانشا ، ط السعادة بمصر  
سنة ١٣٤٦ هـ - ١٩٢٨ م .
- ٥٤ - الكازروني : ظهر الدين أبو الحسن علي بن محمد المتوفى سنة ٦٩٧ هـ  
" مقامة في قواعد بغداد في الدولة المباسية "  
تحقيق : كوركيس عواد ، وميخائيل عواد ط الارشاد . بغداد  
سنة ١٩٦٢ م .
- ٥٥ - الكتبي : محمد بن شاكربن أحمد المتوفى سنة ٧٦٤ هـ .  
" فوات الوفيات " تحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد  
ط . السعادة بمصر سنة ١٩٥١ م .
- ٥٦ - كشاجم : أبو القح محمود بن الحسين بن السدي بن شاهر المتوفى  
سنة ٣٦٠ هـ .  
" أدب النديم " ط بولاق بمصر .
- ٥٧ - المسعودي : أبو الحسن علي بن أبي الحسن بن علي المتوفى سنة ٣٤٦ هـ  
" مروج الذهب ، ومعادن الجوهر في التاريخ " المطبعة  
البيهيّة - القاهرة سنة ١٩٣٨ م .
- ٥٨ - مسكويه : أبو علي أحمد بن محمد المتوفى سنة ٤٥١ هـ .  
" تجارب الامم " ط ليدن سنة ١٨٧٤ م .

- ٥٩ - المقدسى : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسى البشارى  
المتوفى سنة ٣٧٥ هـ .  
" أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم " ط ليدن سنة ١٩٠٦ م
- ٦٠ - النويرى : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب المتوفى سنة ٧٣٢ هـ  
" نهاية الارب فى فنون الأدب " ط دار الكتب المصرية  
القاهرة سنة ١٩٤٩ .
- ٦١ - الهمذانى : أبو الفضل أحمد بن الحسين بديع الزمان الهمذانى  
المتوفى سنة ٣٩٨ هـ .  
" مقابلات الهمذانى " تحقيق محمد محى الدين عبد الحيد  
ط المعاهد ببصر سنة ١٩٢٣ م .
- ٦٢ - الشاء : أبو الطيب محمد بن اسحاق بن يحيى المتوفى سنة ٣٢٥ هـ  
" الموشى " ١٩٦٥ م .
- ٦٣ - الهافى : أبو عبد الله بن أسعد بن على بن سليمان الهافى  
المتوفى سنة ٧٦٨ هـ .  
" مرآة الجنان ، وعبرة اليقظان فى معرفة ما يمتبر من  
حوادث الزمان " ط بيروت - الطبعة الأولى .
- ٦٤ - ياقوت : شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى  
الرومى المتوفى سنة ٦٢٦ هـ .  
" معجم البلدان " ط السعادة بمصر .

ثانيا : المراجع العربية الحديثة :

- ١ - ابراهيم أبو الخشب (دكتور) .  
" تاريخ الادب العربي في العصر العباسي الثاني - ط  
دار الفكر العربي بمصر .
- ٢ - أحمد أحمد بدوي (دكتور)  
أ - " القاضي الجرجاني " نوايخ الفكر العربي . ط دار  
المعارف بمصر .  
ب - " عهد القاهر الجرجاني " - أعلام العرب - ط .  
المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر .
- ٣ - أحمد الاسكندري ومصطفى عثمانى " الوسيط في الأدب العربي  
وتاريخه ط دار المعارف بمصر .
- ٤ - أحمد أمين (دكتور)  
أ - " فجر الاسلام " ط بيروت سنة ١٩٦٩م  
ب - " ضحى الاسلام ط - مكتبة النهضة بمصر .  
ج - " ظهر الاسلام - ط بيروت .
- ٥ - أحمد الشعراوي " الادب العربي في ظلال القويبات " ط - الازهر  
سنة ١٩٥٣م .
- ٦ - أحمد شلبي (دكتور)  
" كينشكيب بحثا أو رسالة " ط النهضة بمصر سنة ١٩٧٦
- ٧ - الهارودي : محمود سامي الهارودي .  
" ديوان الهارودي " مطبعة الجريدة بمصر .

- ٨ - بدوى طبانة (دكتور)  
"الصاحب بن عباد الوزير العالم" (أعلام العرب)  
•
- ٩ - جورجى زيدان  
أ - تاريخ آداب اللغة العربية " ط - الهلال بمصر  
سنة ١٩١٢م  
ب - " تاريخ التمدن الاسلامى " الهلال بمصر سنة  
١٩٣١م •
- ١٥ - حسن ابراهيم حسن (دكتور)  
" تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى  
١١ - الراقى : مصطفى صادق الرافعى •  
أ - " تاريخ آداب العرب " ط - الاستقامة - القاهرة  
ب - حضارة العرب فى المصور الاسلامية الزاهرة ط - لبنان  
١٢ - زكى مبارك " دكتور"  
أ - النشر الفنى فى القرن الرابع الهجرى " ط دار الكتب  
المصرية •  
ب - " جناية أحمد أمين على الادب العربى " ط - بيروت  
١٣ - سيد قطب  
" النقد الادبى أصوله ومناهجه ط الثانية سنة ١٩٥٤م  
١٤ - سيد نوفل (دكتور)  
" شعر الطبيعة فى الادب العربى " ط مصر سنة ١٩٤٥م

- ١٥ - شوقي ضيف (دكتور)  
أ - "تاريخ الادب العربي - العصر المباسي الثاني"  
ط دار المعارف بمصر .  
ب - "الفن ومذاهبه في الشعر العربي" ط - دار  
المعارف بمصر .  
ج - "الفن ومذاهبه في النثر العربي" ط - دار  
المعارف بمصر .  
د - "المقامة" ط دار المعارف بمصر الطبعة الثانية
- ١٦ - شفيق جبري  
"أبو الفرج الاصبهاني" نوايغ الفكر العربي ط - دار  
المعارف بمصر .
- ١٧ - طه حسين (دكتور)  
أ - "حديث الاربعاء" ط - دار المعارف بمصر .  
ب - "خصام ونقد" ط - بيروت .
- ١٨ - عبد السلام أبو النجا سرحان (دكتور)  
"رشفات من رحيق الادب" الطبعة الثانية سنة ١٩٦٥ م
- ١٩ - عبد الفتاح محمد الحلو  
"أبو منصور الثعالبي وأثره الادبية" (رسالة ماجستير)
- ٢٠ - علي محمد موسى  
"ثقافة الثعالبي وأثرها في نقده للمتنبي" (رسالة  
ماجستير) .

- ٢١ - محمد جمال سرور  
" تاريخ المغامرة الاسلامية في الشرق "
- ٢٢ - محمد زغلول سلام (دكتور)  
١ - " ابن قتيبة " - نوايغ الفكر العربي ط ٠ دار  
المعارف بمصر .  
ب - " تاريخ النقد العربي " ط دار المعارف بمصر .
- ٢٣ - محمد سرحان " دكتور "  
" نسمات من عير الادب " ط ٠ دار الطباعة المحمدية  
بالازهر بالقاهرة ط الثانية .
- ٢٤ - محمد عبد الجواد الاصمى .  
" ابو الفرج الاصبهاني وكتابه الاغانى ط - دار المعارف  
بمصر .
- ٢٥ - محمد عبد الحزيب الكفراوى (دكتور)  
١ - " تاريخ الشعر العربي ج ٢ ٣٠ " مطبعة النهضة  
بمصر .  
ب - " الشعر العربي بين الجود والتطور " مطبعة  
النهضة بمصر .
- ٢٦ - محمد عبد المنعم خفاجه (دكتور)  
١ - الآداب العربية في العصر العباسى الثانى ط -  
الازهر بمصر .  
ب - " دراسات في تاريخ الادب العربي " بالاشتراك مع  
الدكتور عبد الرحمن عثمان .

- ٢٧ - محمد كامل حسن (دكتور)  
" في أدب مصر الفاطمية " طدار الفكر العربي بمصر
- ٢٨ - محمد مصطفى هداره (دكتور)  
٣ اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري \*  
ط - دار المعارف بمصر الطبعة الثانية .
- ٢٩ - محمود غاوى الزهيرى  
" الأدب في ظل بني بويه " ط الامانة بمصر .
- ٣٠ - مصطفى محمد الشكمة (دكتور)  
١ - " فنون الشعر في مجمع الحمدايين " ط - مكتبة  
الانجلو بمصر .  
ب - " بديع الزمان الهمداني " ط - مصر .

.....

ثالثاً : المراجع الأجنبية المترجمة :

- ١ - آدم متز " الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجرى "  
ترجمة محمد عبد الهادى أبوريد ، ط - لجنه  
التأليف والترجمة والنشر القاهرة سنة ١٩٥٧ .
- ٢ - براون : ادوارد جوانفيل براون  
" تاريخ الادب في ايران من الفردوسى الى السمدى "  
ترجمة الدكتور ابراهيم الشواربى ط - السمادة بمصر سنة  
١٩٥٤ .
- ٣ - بنيامين : بنيامين بن بونه التطيلي الاندلسى المتوفى سنة ٥٦٩ هـ  
" رحلة بنيامين " ترجمها عن الاصل المعبرى وعلق حواشيها  
وكتب ملحقاتها عزرا جدار - الطبعة الشرقية ببغداد  
سنة ١٣٦٤ هجرى .
- ٤ - زهيريد هوتكه : " شمس المرب تسطح على الغرب " ط بيروت ،  
ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي .



المقدمة : ..... ١

### الباب الأول

" المجتمعان العراقي والفارسي في القرن الرابع الهجري "

#### الفصل الأول :

- ٢ " سكان فارس والعراق " .....
- ٣ أ - المنصر العربي .....
- ٨ ب - المنصر الفارسي .....
- ١٢ ج - المنصر التركي .....
- ١٧ د - عنصر الرقيق .....

#### الفصل الثاني :

- ٢٢ " طبقات المجتمع " .....

#### الفصل الثالث :

- ٣٧ " الطوائف الدينية " .....
- ٣٨ أ - الشيعة وأهل السنة .....
- ٤٢ ب - أهل النعمة .....
- ٤٨ ج - الصابئة .....

#### الفصل الرابع :

- ٥٢ " الاعياد والمواسم والمواكب " .....

#### الفصل الخامس :

- ٦٥ " الفناء والموسيقى " .....
- ٦٦ أ - الفناء في العصر الجاهلي .....
- ٦٨ ب - الفناء في العصر الأموي .....

| الصفحة                             | الموضوع                                     |
|------------------------------------|---------------------------------------------|
| ٧٠                                 | ج - التنا في العصر المباسي .....            |
| ٧٣                                 | د - مجالس الطرب والتنا .....                |
| <u>الباب الثاني</u>                |                                             |
| " أبونصور الثمالي وكتابه اليتيمة " |                                             |
| <u>الفصل الأول :</u>               |                                             |
| ٧٨                                 | " حياة الثمالي " .....                      |
| ٧٩                                 | أ - مولده ونشأته .....                      |
| ٨٥                                 | ب - أخلاقه .....                            |
| ٨٨                                 | ج - منزلته بين الأدباء .....                |
| <u>الفصل الثاني :</u>              |                                             |
| " ثقافته ومؤلفاته "                |                                             |
| ٩٣                                 | أ - مصادر الهامه وثقافته .....              |
| ٩٩                                 | ب - آثاره ومؤلفاته .....                    |
| <u>الفصل الثالث :</u>              |                                             |
| " اليتيمة "                        |                                             |
| ١١٣                                | أ - التمرير بها .....                       |
| ١١٥                                | ب - الدافع الى تأليفها .....                |
| ١١٩                                | ج - منهج الثمالي وخصائصه فيها .....         |
| <u>الفصل الرابع :</u>              |                                             |
| " اليتيمة "                        |                                             |
| ١٢٨                                | أ - مدى تمثيلها لأدب القرن الرابع الهجري .. |
| ١٣٣                                | ب - تأثيرها بالمؤلفات السابقة .....         |
| ١٣٧                                | ج - أثرها في الكتب اللاحقه .....            |

الفصل الخامس:

\* اليتيمة في ميزان النقد \*

- ١٤٤ ١ - آراء النقاد القدامى في اليتيمة .....  
٢ - آراء النقاد المحدثين في اليتيمة .....  
١٤٥ أ - رأى الدكتور زكى مبارك ومناقشته .....  
١٤٨ ب - رأى الدكتور محمد مندور ومناقشته والرد عليه .....  
١٥٤ ج - رأى الدكتور طه حسين ومناقشته والرد عليه .....  
١٥٧ د - رأى الاستاذ أحمد أمين ومناقشته .....  
١٥٧ هـ - رأى الاستاذ محمد اسماعيل الصاوى .....  
و - رأى الاستاذ محمد محى الدين عبدالحميد .....  
١٥٨ ومناقشته .....

الباب الثالث

\* آثار الاجناس البشرية والطوائف الدينية فى

إدب اليتيمة

الفصل الأول :

- ١٦٣ ..... الروح الفارسية فى أدب اليتيمة

الفصل الثانى :

- ١٨٩ ..... أثر الحياة المربية فى أدب اليتيمة

الفصل الثالث :

- ٢١١ ..... الرقيق وآثاره فى أدب اليتيمة

الفصل الرابع :

- ٢٣٥ ..... مدى التشجيع فى اليتيمة

الفصل الخامس:

- ٢٥٨ ..... آثار أهل الذمه فى اليتيمة

الباب الرابع

\* التفاوت الطبقي في المجتمع وأثره في اليتيمة \*

الفصل الأول :

موقف الحكم من الأدب ..... ٢٧٣

الفصل الثاني :

تurf الحكم وأثره في أدب اليتيمة ..... ٢٩١

الفصل الثالث :

أثر الغناء والطرب في أدب اليتيمة ..... ٣٢٥

الفصل الرابع :

المجون وأثره في اليتيمة ..... ٣٥٦

الفصل الخامس :

مظاهر الفقر والحرمان في أدب اليتيمة ..... ٣٨٨

الختاتة ..... ٤٢٤

المصادر والمراجع ..... ٤٥٢

